



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه  
صباح  
الرمضان

www.ghaemiyeh.com  
www.ghaemiyeh.org  
www.ghaemiyeh.net  
www.ghaemiyeh.ir

مختصر في تفسير القرآن  
التفسير الميسر

# مُرْهُ عَلَى الْقُرْآنِ

الجزء الثالث عشر

سورة التلاحة - سورة البقرة - سورة الكهف

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
١٣	من هدى القرآن المجلد ١٣
١٣	اشاره
١٤	اشاره
١٧	سوره الدخان
١٧	اشاره
١٨	فضل السوره
٢٠	الإطار العام
٢٠	ما هي العلاقه بين هذه الموضوعات؟
٢٤	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ١٢]
٢٤	اشاره
٢٤	اللغه
٢٤	يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ
٢٤	هدى من الآيات:
٢٨	بينات من الآيات:
٣٥	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ١٣ الى ٢٩]
٣٥	اشاره
٣٥	اللغه
٣٧	وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ
٣٧	هدى من الآيات:
٤١	بينات من الآيات:
٥٠	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٠ الى ٥٩]
٥٠	اشاره
٥٠	اللغه

٥٣ ..... فَأَيُّهَا يَسْرِنَاهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

٥٣ ..... هدى من الآيات:

٥٥ ..... بينات من الآيات:

٧٢ ..... سورة الجاثية

٧٢ ..... اشاره

٧٤ ..... فضل السورة

٧٦ ..... الإطار العام

٨٠ ..... [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١ الى ١٥]

٨٠ ..... اشاره

٨٠ ..... اللغة

٨٢ ..... وَيُلِّ لِكُلِّ أَفَاكٍ أَثِيمٍ

٨٢ ..... هدى من الآيات

٨٣ ..... بينات من الآيات:

٩٤ ..... [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١٦ الى ٢٢]

٩٤ ..... اشاره

٩٤ ..... اللغة

٩٦ ..... ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَيَّ شَرِيحَةً مِنَ الْأُمْرِ

٩٦ ..... هدى من الآيات:

٩٧ ..... و نستوحى من هذه الآيات بصيرتين:

٩٨ ..... بينات من الآيات:

١٠٦ ..... [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٣ الى ٢٩]

١٠٦ ..... اشاره

١٠٦ ..... اللغة

١٠٨ ..... أ رأيت من اتخذ إلهه هواه

١٠٨ ..... هدى من الآيات:

١٠٨ ..... بينات من الآيات:

١١٨ ..... [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٣٠ الى ٣٧]

١١٨ ..... اشاره

١١٩ ..... فَلَلهُ الحَمدُ و له الكبرياء

١١٩ ..... هدى من الآيات:

١٢٠ ..... بينات من الآيات:

١٢٤ ..... سوره الأحقاف

١٢٤ ..... اشاره

١٢٨ ..... فضل السوره

١٣٠ ..... الإطار العام

١٣٤ ..... [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ٨]

١٣٤ ..... اشاره

١٣٤ ..... اللغه

١٣٤ ..... وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُتُوا مُعْرِضُونَ

١٣٤ ..... بينات من الآيات:

١٤٨ ..... [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٩ الى ١٤]

١٤٨ ..... اشاره

١٤٨ ..... اللغه

١٤٩ ..... قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ

١٤٩ ..... هدى من الآيات:

١٥٠ ..... بينات من الآيات:

١٥٩ ..... [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٥]

١٥٩ ..... اشاره

١٦٠ ..... اللغه

١٦١ ..... و وصينا الإنسان بوالديه إحسانا

١٦١ ..... هدى من الآيات:

١٦٢ ..... بينات من الآيات:

١٦٥ ..... و أصلح لي في ذريتي

١٦٥ ..... إني تبت إليك

١٧٤ ..... الحياه بين الحكمه و المتعه:

١٨٢ ..... [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٦ الى ٣٥]

١٨٢ ..... اشاره

١٨٣ ..... اللغه

١٨٤ ..... فاصبر كما صبر أولو العزم

١٨٤ ..... هدى من الآيات:

١٨٥ ..... بينات من الآيات:

٢٠٤ ..... سوره محمد

٢٠٤ ..... اشاره

٢٠٦ ..... فضل السوره

٢٠٨ ..... الإطار العام

٢١٤ ..... [سوره محمد (٤٧): الآيات ١ الى ١١]

٢١٤ ..... اشاره

٢١٤ ..... اللغه

٢١٦ ..... إن تنصروا الله ينصركم

٢١٦ ..... هدى من الآيات:

٢١٧ ..... بينات من الآيات:

٢٣٥ ..... [سوره محمد (٤٧): الآيات ١٢ الى ١٩]

٢٣٥ ..... اشاره

٢٣٥ ..... اللغه

٢٣٧ ..... مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ

٢٣٧ ..... هدى من الآيات:

٢٣٨ ..... بينات من الآيات:

٢٤٢ ..... [سوره محمد (٤٧): الآيات ٢٠ الى ٣١]



٢٦٢ ..... اشاره

٢٦٢ ..... اللغة

٢٦٤ ..... أَ فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ

٢٦٤ ..... اشاره

٢٦٤ ..... هدى من الآيات:

٢٦٥ ..... بينات من الآيات:

٢٧٩ ..... [سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٢ الى ٣٨]

٢٧٩ ..... اشاره

٢٧٩ ..... اللغة

٢٨١ ..... فَلَا تَهْتُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ

٢٨١ ..... اشاره

٢٨١ ..... هدى من الآيات:

٢٨٢ ..... بينات من الآيات:

٢٩٢ ..... سوره الفتح

٢٩٢ ..... اشاره

٢٩٤ ..... فضل السوره

٢٩٤ ..... الإطار العام

٣٠٠ ..... [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]

٣٠٠ ..... اشاره

٣٠٠ ..... اللغة

٣٠٢ ..... إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

٣٠٢ ..... هدى من الآيات:

٣٠٣ ..... بينات من الآيات:

٣١١ ..... صلح الحديبيه:

٣٢٠ ..... [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٤]

٣٢٠ ..... اشاره

اللغه - ٣٢٠

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ٣٢٢

هدى من الآيات: ٣٢٢

بينات من الآيات: ٣٢٣

[سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٥ الى ٢١] ٣٣١

اشاره ٣٣١

اللغه - ٣٣١

وَأَتَاهُمُ فَتْحًا قَرِيبًا ٣٣٣

هدى من الآيات: ٣٣٣

بينات من الآيات: ٣٣٤

[سوره الفتح (٤٨): الآيات ٢٢ الى ٢٩] ٣٤٤

اشاره ٣٤٤

اللغه - ٣٤٤

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا ٣٤٧

هدى من الآيات: ٣٤٧

بينات من الآيات: ٣٤٩

سوره الحجرات ٣٤٤

اشاره ٣٤٤

فضل السوره: ٣٤٨

الإطار العام ٣٧٠

[سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٥] ٣٧٤

اشاره ٣٧٤

اللغه - ٣٧٤

لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ٣٧٥

بينات من الآيات: ٣٧٥

[سوره الحجرات (٤٩): الآيات ٦ الى ٨] ٣٨٤

٣٨٦ ..... اشارة

٣٨٦ ..... اللغة

٣٨٧ ..... إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا

٣٨٧ ..... هدى من الآيات:

٣٨٨ ..... بينات من الآيات:

٣٩٧ ..... [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ٩ الى ١٠]

٣٩٧ ..... اشارة

٣٩٨ ..... فَأَضْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ

٣٩٨ ..... هدى من الآيات:

٣٩٩ ..... بينات من الآيات:

٤٠٨ ..... أحكام الباغين

٤١٨ ..... فضيله الإصلاح بين الناس:

٤٢٠ ..... [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٢]

٤٢٠ ..... اشارة

٤٢٠ ..... اللغة

٤٢١ ..... وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا

٤٢١ ..... هدى من الآيات:

٤٢٢ ..... بينات من الآيات:

٤٣٦ ..... المغتاب في ولايه الشيطان

٤٣٩ ..... الغيبه: إشاعه الفاحشه

٤٤٠ ..... هؤلاء لا حرمه لهم

٤٤١ ..... كلمه جامعه في الغيبه

٤٤٣ ..... [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١٣ الى ١٨]

٤٤٣ ..... اشارة

٤٤٤ ..... بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

٤٤٤ ..... هدى من الآيات:

٤٤٥ ..... بينات من الآيات:

٤٥٨ ..... سورة ق

٤٥٨ ..... اشاره

٤٦٠ ..... فضل السوره:

٤٦٢ ..... الإطار العام

٤٦٦ ..... [سوره ق (٥٠): الآيات ١ الى ٣٠]

٤٦٦ ..... اشاره

٤٦٦ ..... اللغه

٤٧٠ ..... ﴿وَلَمَّا أَنَا بِظُلَامٍ لِّلْغَيْبِ﴾

٤٧٠ ..... هدى من الآيات:

٤٧٠ ..... بينات من الآيات:

٤٨٧ ..... إسرافيل:

٤٩٨ ..... [سوره ق (٥٠): الآيات ٣١ الى ٤٥]

٤٩٨ ..... اشاره

٤٩٨ ..... اللغه

٥٠٠ ..... ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَيَعِيدُ﴾

٥٠٠ ..... هدى من الآيات:

٥٠١ ..... بينات من الآيات:

٥١٨ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره







سوره الدّخان

اشاره

ص: ۴

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## فضل السوره

قال الامام أبو جعفر الباقر عليه السلام : «من أدمن قراءه سورہ الدخان في فرائضه و نوافله بعثه الله عز و جل من الآمنين يوم القيامة، و ظلله تحت عرشه، و حاسبه حسابا يسيرا، و أعطاه كتابه بيمينه».

تفسير نور الثقلين / ج / ٤ ص ٦١٩

ص: ٥



عبر (٥٩) آيه قصيره نسيبا تطالعنا سوره الدخان الكريمه بثلاث موضوعات أساسيه: ليله القدر، و الفتن الكبرى، و صور عن الجزاء الأوفى فى الآخره.

### ما هى العلاقة بين هذه الموضوعات؟

كل شىء فى الخليقه مقدر سلفا، و لكل جزئيه منها غايه محدده سلفا، أو يمكن لهذا الإنسان الأكمل خلقا بينها أن يترك سدى.. كلا.. الذره المتناهيه فى الصغر -حسب علمنا- مخلوق مقدر بعلم، و مسير لهدف، و كذلك المجره المتناهيه فى السعه -حسب علمنا- مخلوق مقدر بعلم، و مسير لهدف.. أ فلا- يكون لهذا الإنسان تقدير و هدف؟ لعل عقلانيه الخليقه هى محور السوره. تعالوا إذا نوصل فروع بصائر السوره بهذا المحور.

أولاً: القرآن أنزل في ليله القدر-المباركة-لأنه ينذر باسم مقدر هذا الخلق، و ألا يزيغوا عن ذلك التقدير الحكيم الذي قضى في ليله القدر، حيث يفرق فيها كل أمر حكيم. امرا من عند الله،الذي أرسل الأنبياء ينذروا الناس به.

و كانت تلك رحمه من الله ان ينذر الناس ألا يتجاوزا تلك السنن و الأقدار، فيتعرضوا للخطر.

و بعد أن يذكرنا بعظمه الخالق يقول: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (و هو سبب كفرهم بهذه الرساله و سيبقى ضلالهم حتى يأتيهم العذاب) فَارْتَقِبْ (يوم العذاب) يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ \* يَعْشَى النَّاسَ (حيث يتساءلون ما هذا) هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (فينادون) رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (و هيهات) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ (بعد أن انذرهم بما فيه الكافيه) وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (و يأتيهم الخطاب) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (و لعل هذا العذاب هو العذاب الأدنى،الذي يأخذهم ليكون نذيرا للعذاب الأكبر، و هذا بدوره من شواهد القيامة) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (فيومئذ لا ينفع الاستغفار) إِنَّا مُنْتَقِمُونَ».

و يسوق القرآن قصه فرعون لتكون شاهده على مجمل هذه البصائر التي سبقت.

تقدير الله الحكيم-إنذار الرسل،نزول العذاب،و الجزاء الحسن الذي أتاحه بنى إسرائيل-.

و تلك هي فتنه كبرى تعرّض لها قوم فرعون فلم يفلحوا حيث جاءهم موسى بالبلاغ المبين،فلما رجموه بالتهمة دعا عليهم فجاءه النصر،حيث أغرق الله فرعون و قومه ليرتكوا وراءهم ثرواتهم دون أن تذرف السماء عليهم دمه.أو ليسوا كانوا خاطئين،حيث زاغوا عن القدر الحكيم،و الصراط المستقيم.تلك هي سنه الجزاء،

و دليل على ان الله خلق كل شىء بالحق؟! و كذلك فقد نَجَّى الله بنى إسرائيل من العذاب المهين، و اختارهم على علم (و استحقاق لديهم) على العالمين.

كيف يترك الإنسان سدى، و بلا- محاسبه، و كيف تكون حياته الدنيا خاتمه المطاف، و لقد أهلك الله قوم تبع، حيث كانوا مجرمين- و فى هذا دليل على حكمه الله العادل على مجريات التاريخ- كما انه يكشف عن جانب من عقلانيه الخليفه، و أن الله لم يخلق السماوات و الأرض و ما بينهما إلا بالحق، و لكنَّ أكثر الناس لا يعلمون، و عدم علمهم دليل جهلهم لا عدم صحه هذه الحقيقه.

و يفصل الذكر الحكيم جانباً من جزاء الله فى يوم القيامة، و يقول: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضَيْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» فى ذلك اليوم لا- ينفع الأنداد الذين يشركون بهم «يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً» و حتى لو انهم نصرورهم فإنهم لا ينصرون.

و بعد بيان طعام شجره الزقوم، و كيف يقيد المجرم إلى عذاب النار، يعرض الرب لنا جانباً من نعيم الله للمتقين، و يختم القرآن السوره بأن تيسير الكتاب كان بهدف تذكيرهم فمنهم من يتذكر وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ فارتقب انهم مرتقبون.

و هكذا ينذر القرآن عباده بالجزاء الأوفى الذى هو رمز حقانيه الخليفه، و عداله الله و تقديره الحكيم.



## [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۱ الى ۱۲]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (۱) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (۳) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۴) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (۸) يَلْهُمَّ فِي شَكَ يَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (۱۰) يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۱) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲)

## اللغه

(۴) يُفْرَقُ: يبين و يميز و يفصل.

(۱۰) فَارْتَقِبْ: انتظر.

ص: ۱۱





هدى من الآيات:

إنَّ الصيغه التي ورد فيها الحديث عن ليله القدر لا يختص بها وحدها، وإنما ينصرف إلى حقيقه هامه أيضا، و هي أنَّ الإنسان محاط بتدبير الله قضاء و قدرا، و هاتان الكلمتان تردان في كثير من النصوص الشرعيه كتابا و سنه و على ألسن المؤمنين، فما ذا تعنيان؟ القدر هو السنن الإلهيه التي تحكم الكون، فالنار تحرق، و الماء يطفئ النار، و..و..و أمَّا القضاء فهو الحكم الإلهي القاطع بإجراء هذه السنن أو تعطيلها، ففي هذه السنن يظل فراغ لا- قانون فيه، و هو ما نسميه اليوم بالصدفه، ذلك ان اراده الله فوق القانون، و قد أثبت العلم بعد التجارب المتكرره على مختلف القوانين هذه الحقيقه.

فمن واقع الإنسان اكتشف العلماء دواء لعلاج فيروس الانفلونزه، و اعتقدوا

أنهم بواسطته يستطيعون السيطرة عليه سيطره تامه، و لكنهم وجدوا أن عشرات الألوف من الشعب الأمريكي يموتون بسببه بالرغم من تعاطيهم ذلك الدواء، و السبب أن أجسامهم لا تستجيب لمفعوله..فالدواء إذن ينفع و لكن ليس إلى الأبد إنما في حدود معيّنه.

و مثل آخر من واقع الطبيعه أن الخبراء بعد التفكير و التجريب و التخطيط أطلقوا (أبولو ١٣) إلى الفضاء، و بعد أن وصل إلى المكان المعين تعطل عن العمل، و عسكريًا حاولوا غزو إيران، مع الأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات و الاستعداد لمواجهتها، و لكنهم عند التنفيذ فشلوا، و تهاوت طائراتهم كأوراق الخريف في صحراء طبس...مما يدل على وجود هامش لا قدره للإنسان في السيطرة عليه، بل قد يبدأ الهامش من الإنسان نفسه فإذا به يفقد السيطرة على ذاته فضلًا عن عمله، فربما يختل توازنه الذهني، و ربما يتعطل شيء في جسده.

و من المعاشات اليوميه قد يدفع الإنسان صدقه أو يعمل خيرا في أول يومه، فيعرض له حادث مميت ينجو منه، بينما يموت في يوم آخر بسبب تافه. أليس كذلك؟ إذن فهناك قوه غيبية تدبر شؤوننا، و لا يوجد شيء في الحياه يسمّى بالصدفه، إنما هي تدابير إلهيه فوق الإرادات و السنن.

و

روى أن أمير المؤمنين عليه السلام عدل من حائط مائل إلى مكان آخر، فقيل له:

يا أمير المؤمنين تفرّ من قضاء الله؟ فقال عليه السلام: «أفرّ من قضاء الله إلى قدره» (١)، فقدر الله أنه الجدار المائل يسقط، و الذي يجلس عنده يتضرر، و قد وهب الله للإنسان العقل الذي يتعرّف به على هذه الحقيقه، أمّا قضاؤه فإنه تعالى يبعث في

ص: ١٤

١-١) بح/ج (٥) ص (٩٧).

عقل الإنسان كشهبه الهزّه الكهربائيه تثيره و تذكره، و ابتعاد الإمام عليه السلام عن الجدار كان بقضاء الله عزّ و جلّ.

و نقل لى أحد الأشخاص قائلاً: كنت واقفاً فى الشارع أبحث عن سياره توصلنى إلى نقطه معينه فى إحدى العواصم، و فى الأثناء توقفت إلى جانبى سياره أجره، و لكنّ السائق رفض جلوسى فى المقعد الأمامى إلى جانبه، الأمر الذى منعنى عن الركوب فى هذه السياره، فاستقلّيت سياره أخرى، و بينما كُنّا نسير رأينا جمعا من الناس و كأنّ حادثا ما وقع فى الشارع، و حيث نزلت لمعرفة الخبر و جدتها سياره الأجره التى رفض صاحبها ركوبى فى المقعد الأمامى، و قد تحطّمت و مات السائق و الراكب الذى الى جانبه.. فالقدر الطبيعى لهذا الشخص أنّه يموت، و لكنّ القضاء يتدخّل ليبدّل الأمر، و ينقذ هذا الإنسان.

و أمثال هذه القصص و الحوادث تتكرّر بكثره فى حياتنا اليوميّه، و نحن نعيشها أو نسمع عنها، و لكنّنا لا نبصر و لا نعتبر. و فى هذه السوره تركيز على هذا الوعى (أنّ فى الكون يدا غيبية تدبّر شؤونه)، و ذلك لا يعنى أنّها وحدها تفعل كل شىء مباشره، و أنّه لا نظام فى الحياه، كلاً.. إنّما النظام موجود، و لكن هناك أيضاً من يجريه و يهيمن عليه فيجريه أو يعطله متى شاء، و هو الله عزّ و جلّ، فإذا بالنار التى تحرق يتعطل قانونها فى قصه إبراهيم عليه السلام، و إذا بالعصا تصير حيه كأنّها جان، و هكذا الكثير من الشواهد الأخرى.

### بينات من الآيات:

[١] [حم] بالإضافة إلى كون الكلمات المقطعه رموزاً و إشارات تهدينا إلى القرآن ذاته، أو أنّها رموز بين الله و أوليائه (و هو أفضل ما قيل فيها)، فإنّها تنسجم بتناغمها

و أجراسها اللفظية مع طبيعه السوره ذاتها نفسيًا و أدبيًا.

[٢-٣] و في هذه السوره يقسم ربنا بعد تلك الحروف بالقرآن نفسه، و الذي يتألف منها و من أشباهها، للدلاله على مدى عظمته و جلاله قدره.

وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، التي عدلت بخيرها و بركتها ألفا من الشهور..

و إنما أنزل الله الكتاب لهدايه الناس إلى الحق بترغيبهم فيه و تحذيرهم من عواقب الضلال و الباطل.

و قد تساءل المفسرون: كيف نزل القرآن في ليله القدر و قد تنزلت آياته على امتداد ثلاث و عشرين عاما، و قد بين ربنا حكمه تنجيم القرآن بقوله: «وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا». (١)

قالوا-حسب النصوص-: إنه أنزل جملة واحده إلى مقام سام في السماء الرابعه جعله الله مسجدا لملائكته حيث يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا، يسمّى بالبيت المعمور، و قد جعل الله الكعبه بإزائه. (٢)

و قالوا: إن الرسول كان على علم بما في الملائه الأعلى، و لذلك أمره الله بالأل يعجل في بيان القرآن: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ». (٣)

إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ

ص: ١٤

١- ١) الإسراء (٣٢).

٢- ٢) راجع موسوعه بحار الأنوار/ج (٩) ص (١٦٣) و ما بعد.

٣- ٣) القيامة (١٦).

و الإنذار هو هدف القرآن و سائر الرسالات الإلهيه، ذلك أنّ الأمم تبدأ بالانحراف عن هدى الله حتى تقف على شفا حفرة من النار و العذاب، فيبعث الله لها بمنذر و كتاب لإنقاذها.

[٥-٤] و قد شرف الله ليله القدر بأمرين:

أولاً: حيث أنزل فيها كتابه الكريم الذى بعث به الإنسانيه مقاما محمودا أهلهم به لجناته و رضوانه و الزلفى من مقامه الأعلى.

و إنّما شرف الزمان بما يقع فيه من حوادث عظيمه، و هل هنالك حادثه أعظم من وحي ربّ العزّه؟! أو سمعت كيف كادت السموات يتفطرن من فوقهن لَمّا مرّ بهن وحي الله العظيم؟! أو ما قرأت أنّ القرآن لو انزل على الجبال لتصدّعت؟! حقاً إنّها ليله مباركه عظمت و شرفت فى السموات و الأرض، و يحق لنا أن نكرمها بالعباده.

ثانياً: لقد جعل الله ليله القدر ليله الوحي فى كلّ عام حيث ينزل فيها ملائكته كل عام و الروح من كل أمر، و حيث يستقبل الأنبياء و من بعدهم الأوصياء وصيّاً بعد وصى رسل الله الذين يفصلون لهم ما قدره الله لعباده جميعاً.

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ شُؤْنِ الْعِبَادِ لَيْسَتْ تَمَامًا بِأَيْدِيهِمْ، بَلْ لَعَلَّ أَغْلِبَهَا بِيَدِ الْقَدْرِ.. و التفریق -حسبما قال البعض- هو تفصيل ما أجمله الله فى غيب علمه من حكم الخلق و أهدافه.

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ

فالأمر إذن يرسل من عند الله كما القرآن، أى أنّ القرآن منهاج عملنا فى عالم التشريع، بينما قدر الله و قضاؤه يرسمان خريطه حياتنا فى عالم التكوين، فكما يقدر الله فى ليله القدر ما يتصل بحياتنا جزء جزء كذلك يرسل الأنبياء ليفصلوا منهاج حياتنا كلمه كلمه.

[٦] وهذا التدبير الإلهى رحمه بالغه.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ الْيَدِ الْإِلَهِيَةَ الَّتِي تَسِيرُ شُؤُونَ الْكُونَ يَدِ رَحِيمِهِ وَ كَرِيمِهِ، وَ مِنْ هُنَا كَانَتْ الْبَصِيرَةُ الْقُرْآنِيَّةُ إِلَى الْحَيَاةِ تَوْحَى بِالْأَطْمَئِنَانِ وَ الثَّقَةِ، فَالْمُسْلِمُ الصَّادِقُ يَسْلَمُ لِلَّهِ، وَ تَطْمَئِنُ نَفْسُهُ لِقُدْرِهِ وَ قَضَائِهِ «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فَهُوَ لَا يَخْشَى مِنَ الطَّبِيعَةِ وَ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ وَ لَا مِنَ الْمَشَاكِلِ، لِذَلِكَ فَهُوَ يَنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَاعَ دُونَ الْخَوْفِ مِنَ الْفَقْرِ، وَ يَرْجُو مِنَ الْإِنْفَاقِ زِيَادَةَ الرِّزْقِ، وَ يَقْدَمُ عَلَى الْأُمُورِ، وَ لَا يَخْشَى الْعُقُوبَاتِ وَ الْمَشَاكِلِ، بَلْ وَ يَرْجُو مِنْ ذَلِكَ تَسْخِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي صَالِحِهِ، وَ لِذَلِكَ فَهُوَ قَلِيلُ الْفِشْلِ، لِأَنَّ الْفِشْلَ أَكْثَرَ مَا يَأْتِي مِنَ خَشْيَتِهِ.

ثم إنّ رحمه الله لا تنتهى عند حدّ معين، إنّما تتسع أيضا لحاجات الإنسان المتجدّده التى تعكسها دعواته.

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الَّذِي يَسْمَعُ دَعَاءَ عِبَادِهِ.

الْعَلِيمُ بِنُوْءِ إِيَاهُمْ، ثُمَّ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، أَوْ لَا يَسْتَجِيبُ لِحُكْمِهِ يَعْلَمُهَا.

[٧-٨] و ربنا هو رب الكون بأسره، و لكنَّ بعض الناس يشرك به، و يقسم الخليقه على آلهه شتى، و هذه النظرة الضاله للحياه ليس سببها عدم ظهور آيات الربوبيه فى الكون من حولهم، و إنما لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى المعرفه العميقه و اليقين.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ بلى. إِنَّ الموقنين هم الذين ينظرون للحياه نظره توحيديه خالصه من الشرك، فلا يؤمنون بآله إلا الله عزَّ و جل.

لا إله إلا هو يُحْيِي وَ يُمِيتُ فهو المتصرّف فى مصائر الخلق، و من هذه صفته هو الإله، و الأولى بالعباده من كلِّ أحد سواه، و ما دام ربنا هو الذى يملك الموت و الحياه فلما ذا نخشى غيره و نخضع له؟! لما ذا نتبع الطاغوت؟! و لماذا نقلد آباءنا؟! إنهم ليسوا بآلهه حتى نعبدهم، إنما هم عباد مثلنا خلقهم الله.

رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ سواء عبده الآباء أم أشركوا به، و نحن يجب أن نتخذ هذه الحقيقه مقياسا لتقييم الأجيال و ليس العكس، و ذلك لكى لا يؤثّر علينا انحراف الآخريين تأثيرا سلبيا.

[٩] و السؤال الذى يطرح نفسه هنا: لماذا يضلّ البشر عن هذه الحقائق، و يشركون بالله؟ و الإجاباه: لأنهم يظنون أنّ الحياه الدنيا هى نهايه المطاف، فهى الهدف فى



اعتقادهم، وهذا يقودهم إلى الشك في المستقبل حيث الدار الآخرة، و من فرغ حياته من الآخرة فقد أفقدها، هدفها، وجعلها مجرد لعب.

بَيْلٌ هُمْ فِي شَكِّكَ يَلْعَبُونَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَّخِذُونَ الدُّنْيَا دَارَ لَعِبٍ وَ لَهْوٍ، لِأَنَّهُ يُعْتَقَدُ بِالمَسْئُولِيَّةِ وَ الحِسَابِ عَنِ كُلِّ قَوْلٍ وَ فِعْلٍ يَصْدُرُ مِنْهُ، بَلْ عَنِ كُلِّ حَدِيثٍ لَهُ مَعَ نَفْسِهِ، بَيْنَمَا الَّذِينَ يَشْكُونَ فِي الآخِرَةِ يَقُودُهُمْ شَكُّهُمْ إِلَى النِّظَرِ السَّادِجِ وَ الهَازِلِ إِلَى الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[١٠] و القرآن يحذّر هؤلاء من العاقبة التي سوف يلاقونها نتيجة هذه النظرة للحياة، فالشك في الآخرة لن يلغى المسؤولة فيها.

فَمَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ فَكَأَنَّهُا تُشْتَعَلُ نَارًا وَ لَكِن مِّن دُونِ ضِيَاءٍ، وَ ذَلِكَ أَنَّ النَّارَ فِي يَوْمِ القِيَامَةِ لَا نُورَ فِيهَا وَ بِالذَّاتِ فِي جَهَنَّمَ، إِنَّمَا هِيَ ظِلْمَاتٌ فَوْقَ ظِلْمَاتٍ، وَ

في المجمع: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَنِينَا كَسَنِي يَوْسُفَ، فَأَجْذَبْتَ الأَرْضَ، فَأَصَابَتْ قَرِيْشًا المَجَاعَةَ، وَ كَأَنَّ الرَّجُلَ لَمَّا بِهِ مِنَ الجُوعِ يَرَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ السَّمَاءِ كَالدُّخَانِ، وَ أَكَلُوا المَيْتَةَ وَ العِظَامَ (١). وَ قَدْ وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِانزَالِ العَذَابِ عَلَى المَرْتَابِيْنَ وَ المُشَكِّكِيْنَ فِي الجَزَاءِ.

[١١] وَ حِينَ يَنْزِلُ هَذَا العَذَابُ فَإِنَّهُ يَغْمُرُ النَّاسَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

يَعْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ جَزَاءَ لِمَا قَدَّمْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الأَعْمَالِ وَ الإِعْتِقَادَاتِ المُنْحَرِفَةِ، فَإِذَا بِهِمْ

ص: ٢٠

يستغيثون الله و يتضرعون إليه طمعا في النجاه، و لكن دون جدوى.

[١٢] رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ و هذه من طبيعه البشر. إنه لا يتبته حتى يرى العذاب مباشرة، بينما زود بالعقل الاستشفاف المستقبل، و تجبب الخطر قبل فوات الأوان.

و سواء أريد بهذه الكلمه المنذره العذاب الذى يغشى المجرمين فى الدنيا أو عذاب الآخره فإنّ موقف الشاك فى الآخره منها واحد، إذ أنه لا يتذكر إلاّ و العذاب يغشاه فلا تنفعه الذكرى، على أنّ عذاب الدنيا لحظه بل لسعه بل ظلال من عذاب الله فى الآخره، نعوذ بالله منهما.

و فى بعض التفاسير: إنّ الدخان هذا من أشرط الساعه، حيث

ذكر فى الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«عشر قبل الساعه لا بدّ منها: السفينى، و الدجال، و الدخان، و الدابّه، و خروج القائم، و طلوع الشمس من مغربها، و نزول عيسى، و خسف بالمشرق، و خسف بجزيره العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر» (١)

ص: ٢١

(١- ١) عن بحار الأنوار/ج(٥٢)ص(٢٠٩).

إشارة

أَنِّي لَهُمُ الذُّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِلَهِ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عِذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَآ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَاسِيرٍ بَعِيدٍ لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَأُتْرِكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَفُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)

اللغة

(١٦) الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى: الأخذ الشديد في يوم القيامة.

(١٨) [أذوا]: أي أعطوا من الأداء كما يقال «أذ الأمانة».

(٢٤) [رهوا]: أى ساكنا على حاله بعد ان خرجتم منه، بان يبقى على حاله ذى طرق و سبل حتى يطمح فرعون فى عبوره فيغرق، و ذلك لأنّ ضربه بالعصى بقصد ارجاعه إلى ما كان، كان بيد موسى.

ص: ٢٣

## هدى من الآيات:

يتعرّض البشر إلى نوعين من الفتن في حياته:

الأول: الفتن اليومية، وهي تشبه سائر متغيرات حياة الفرد التي تتكرّر عليه، فهو كما يجوع فيشبع، و يظمأ فيرتوى، و يضحى فيسكن إلى مأوى، فإنّه يصطدم بهذا النوع من الفتن، و من طبيعه الحياه أنّها تحد من جانب و استجابته للتحدي من جانب آخر، و هنا يكمن الابتلاء، و إنّما يكتسب الإنسان خبره و الإراده و القوه، كما ينمو و تنمو معه المواهب من خلال تحدي المشاكل و العقبات.

الثاني: الفتن الكبرى التي يتعرّض لها الفرد أو المجتمع، و هي تتجدّد في كلّ عصر، بيد أنّ قرار الإنسان فيها يكون مصيرياً، فالفرد الذي ينتمى إلى حركة إصلاحية، و يتدرّج في مراحل التوعيه و التنظيم و العمل، حتى يبلغ مكانا حسّاسا فيها. إنّ كل لحظه تمر عليه من عمره الحر كي تعتبر لحظه خطيره تحمل الفتنه

و الابتلاء، و لكنّه لا- يتعرّض للفتنه الكبرى إلّا- حينما يقع في قبضه السلطات الإرهابيه، فيتعرّض لألوان التعذيب الوحشى أو الانحراف الخادع، فإن صمد و لم يكشف لهم عن أسراره كتب خلوده و مجده بألمه، و ربما بدمه.

و صور اجتماعيه لهذا النوع من الفتن نجدها في حياه الأمم، و لكن ليس عند الفتن التى نسمّيها بالتحديات و التحديات المضاده التى تتعرّض لها فى اقتصادها و فى سياستها و تركيبتها، و إنّما عند المواجهه الحاسمه، حين تقف هذه الأمه أمام عدوّ أقوى منها سلاحا، و أرقى تقدّما، و أكثر عددا، فإن صمدت فإنّها تكتب مجدها، و إن انهزمت فإنّها تقرّر مصيرها.

و كشاهد على هذا اللون من الفتن فى التاريخ الفتنه التى تعرّض لها موسى و قومه من جهه و فرعون و ملأه و جنده من جهه أخرى، و التى انتهت بفشل هؤلاء الذين لم يرتفعوا الى مستوى تحدى الكبرياء الكاذبه فى أنفسهم، فانحرفوا و انتهت حضارتهم للأبد.

إذن فالفتن الكبرى مصيريه و حاسمه، و السؤال هنا : كيف يصمد الإنسان أو المجتمع أمامها؟ إنّهُ يحتاج إلى إرادته قويه، و هى لا توجد عند الإنسان فى لحظه واحده، و إنّما بالتدريج و التربيه، فكما أنّ البحر الطمطم الذى يمتد طولا- و عرضا يتكون من القطرات الصغيره، و هكذا الصحراء المتراميه الأطراف تتكون من ذرّات الرمل، فكذلك إرادته الإنسان تصنع من مجموع إرادات صغيره، هو يتمكّن من اتخاذ الموقف الصعب إذا مارس المواقف الأقل منه فى الحياه.

و كمثال على موقف الإنسان من الفتنه الكبرى و اتصال ذلك بمواقفه السابقه دعنا نستعرض قصه رجلين: أحدهما سقط فى الفتنه، بينما انتصر الثانى، فهذا هو عمرو بن العاص حسبما يقول عنه ابن قتيبه الدينورى فى كتابه الإمامه و السياسه:

لما انتهى اليه كتاب معاويه و هو بفلسطين، استشار ابنه عبد الله و محمدا، و قال:

يا ابني، إنه قد كان منى فى أمر عثمان فلتات لم استقبلها بعد، و قد كان من هروبي بنفسى حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاويه عنى، و قد قدم على معاويه جرير بيعه على، و قد كتب إلى معاويه بالقدوم عليه، فما تريان؟ فقال عبد الله و هو الأكبر: أرى و الله أن نبى الله قبض و هو عنك راض، و الخليفتان من بعده كذلك، و قتل عثمان و أنت غائب، فأقم فى منزلك، فلست مجعولا خليفه، و لا تزيد على أن تكون حاشيه لمعاويه على دنيا قليله، أو شكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعا، و قال محمد: أرى أنك شيخ قريش، و صاحب أمرها، فإن ينصرم هذا الأمر و أنت فيه غافل، يصغر أمرك فالحق بجماعه أهل الشام، و اطلب بدم عثمان، فإنك به تستميل الى بنى أميه، فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى، و أما أنت يا محمد فقد أمرتنى بما هو خير لى فى دنياى، ثم دعا غلاما له يقال له وردان، و كان داهيا، فقال له عمرو: يا وردان احطط، يا وردان ارحل، يا وردان احطط، يا وردان ارحل، فقال وردان: أما إنك إن شئت نبأتك بما فى نفسك، فقال عمرو: هات يا وردان، فقال: اعتركت الدنيا و الآخره على قلبك، فقلت مع على الآخره بلا- دنيا، و مع معاويه الدنيا بغير آخره، فأنت واقف بينهما، فقال عمرو: ما أخطأت ما فى نفسى، فما ترى يا وردان؟ فقال: أرى أن تقيم فى منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم، و إن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك، فقال عمرو: الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاويه؟! (١) و ذهب عمرو إلى معسكر معاويه تاركا آخريته لدنياه، ثم لمّا دنت منه الوفاه و كان فى فلسطين قال لمن حوله: احملوا جسدى إلى صحن الدار، فلما حمل و طرح على الأرض نظر إلى السماء فقال: لست بذى عذر فاعتذر، و لا بذى قوه فانتصر،

ص: ٢٦

فأفعل بي ما تشاء، و مات.

و نجد في مقابل هذه الهزيمة صورته للصمود أمام فتنة الحياة، عند عمّار بن ياسر (رضى الله عنه) الذي وقف مع الحق في حرب صفيين و هو يناهز التسعين من العمر، و لمّا رأى الإمام على عليه السلام شيخوخته أمره أن يشدّ ظهره، و حوَّاجب عينيه حتى لا يبدو للناس ضعيفا، فبرز (رضى الله عنه) للقتال، و قال مخاطبا عمرو بن العاص:

يا عمرو بعث دينك بمصر فتبا لك، فطال ما بغيت الإسلام عوجا، ثم قال: اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف بنفسى هذا البحر لفعلت، اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أنّ رضاك في أن أضع ظبّه سيفى فى بطنى ثم انحنى عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت، اللهم إننى أعلم ممّا علّمتنى أنّى لا أعلم عملا هذا اليوم هو أَرْضى لك من جهاد هؤلاء القاسطين، و لو أعلم اليوم عملا- هو أَرْضى لك منه لفعلته. و حارب حتى استشهد مع الحق. و لكن لما ذا اختار عمّار (رضى الله عنه) هذا الموقف، بينما اختار ابن العاص الهزيمة أمام الفتنة و الجواب: لأنّ عمّار كان دائما مع الحق، و حتى فى دقائق حياته، و منذ إيمانه بالرسول صلى الله عليه و آله، حتى

قال فيه الإمام الصادق عليه السلام: «ما خيّر عمّار بين أمرين (كلاهما فى الله) إلاّ اختار أشدهما.» و ربما

عناه الإمام على عليه السلام بقوله: «كان لى فيما مضى أخ فى الله، و كان يعظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه... و كان إذا بدهه أمران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه» (1) فلا عجب إذن أن تنتهى حياه هذا العظيم بالشهادة، بينما يموت ابن العاص على فراش الذنب و الرذيله، لأنّ ابن العاص كان يخشى من شهره العرب- حسب قول ابن قتيبه- أكثر من خوفه من الله، و كان يبحث عن الرئاسة قبل سعيه لرضا ربّه، إنّ تلك الصفات الرذيله التى تكرّست فى نفسه عبر عشرات

ص: ٢٧



من المواقف الانهزاميه أمام ضغوط الدنيا و إغراءاتها كوّنت أرضيه هزيمته المصيريه باختيار الدنيا على الدّين.

و من هنا نعى أهميه المواقف اليوميه و مدى تأثيرها على مستقبل الإنسان، فلا ريب أنّ الاختيارات اليوميه للأصعب فى الله،هى التى صنعت إرادته عمّار حيث التزم بالخيار الصعب فى نهايه الخط،بينما صنعت الإختيارات البسيطه للخطأ الهزيمه الحاسمه أمام الفتنه الكبرى فى حياه الآخر.

و فرعون مع ملئه و جنده-الذين تحدّث عنهم آيات هذا الدرس-إنّما فشلوا فى الفتنه الكبرى لأنّهم كانوا ينهزمون أمام الفتن الصغيره،و هذه من أهمّ العبر التى نستفيدها من سوره الدخان.

### بينات من الآيات:

[١٤-١٣] اختتم الدرس السابق بتصوير الكافرين يدعون ربّهم لكشف العذاب عنهم زاعمين أنّهم مؤمنون،و هنا يؤكد ربّنا انهم كاذبون،أ و لم يكفروا بالندير؟بلى.إنّهم يعيشون للحظه،فاذا رأوا العذاب جأروا إلى ربّهم،و إذا استجاب لهم تراهم ينكثون.إنّهم أبناء الظرف الحاضر،و ليسوا ممّن يملك بصيره المستقبل أو تجربه الماضى.

□  
أنّى لهم الذّكرى □ أى بعدت و استحالت بالنسبه لهم،لأنّهم حين رفضوا الايمان قبل العذاب لم يكن رفضهم منطقيًا إذ لم يقصّر الرسول فى بيان الحق و الدعوه إلى الله،حتى عذرهم بأنّ الأمر كان غامضًا.

وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ

و لكنهم عصوه.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ إِذْ صَارُوا يَخْتَارُونَ مَا تُوْحَىٰ بِهِ شَهَوَاتِهِمْ وَ مَصَالِحِهِمْ وَ قِيَادَتِهِمُ الْبَاطِلَةَ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ اتِّهَمُوهُ.

وَ قَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ فَهُوَ يَنْتَمِي إِلَى الْآخِرِينَ فِي نَظَرِهِمْ، وَ هَذِهِ تَهْمُهُ يُوْجِّههَا الطَّغَاةُ إِلَى كُلِّ نَاطِقٍ وَ مُجَاهِدٍ، حَيْثُ يَسْمُوْنَهُ عَمِيلاً، وَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ الْارْتِبَاطَ بِجِهَاتٍ خَارِجِيَّةٍ، وَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى اتِّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ لَمَّا يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ جَرِيئَةٍ. حَقًّا إِنَّهُمْ اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُ عَالِمٌ وَ شَجَاعٌ، وَ لَكِنْ مَنَعَهُمْ غُرُورُهُمْ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِعَظَمَتِهِ فَفَسَدُوا حِكْمَتَهُ بِالْتَعَلُّمِ، وَ بِطَوْلَاتِهِ بِالْجُنُونِ، وَ إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ رِسَالَتَهُ لَمْ تَكُنْ نَاشِئَةً مِنَ الثَّقَافَةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي مَجْتَمَعِهِ فَإِنَّ اعْتِرَافَهُمْ مَاضٍ فِي أَنَّهُ رَسُولٌ، وَ حِينَ عَرَفْنَا أَنَّ شَجَاعَتَهُ كَانَتْ مَحْسُوبَةً فَإِنَّ كَلَامَهُمْ اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَاتَّيَدَهُ رَبِّهِ.

[١٥] و لكن مع ذلك قد يرفع الله العذاب عن عباده رحمه بهم، ذلك أن من أهداف إنزاله على الناس إعادتهم للحق، و تصحيح مسيرتهم الخاطئة، عبر بعثهم نحو نقد الذات، كما يقول تعالى: فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبِئْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (١) فإذا ما تضرعوا رفعه الله عنهم لاقامه الحجة التامة عليهم، و بيان زيف ادعائهم بأنهم تائبون حقًا.

إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ

ص: ٢٩

(١ - ١) الأنعام ١٤٢

و ربّنا يعلم بحقيقتهم و لكنّه يرفعه عنهم بلطفه، فاذا بهم يعودون لما نهوا عنه، ممّا يجعلهم يستحقون أشدّ العذاب.

[١٦] و ربّنا يؤكد بأنّ العوده إلى المعصيه و الانحراف تستلزم إرجاع العذاب و لكن بصورة أشدّ و أقسى، و ليس بهدف هدايتهم، بل انتقاما منهم هذه المره.

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ۗ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۗ إِنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يَرَاهُ الظّلمه فى الدنيا ليس سوى نفيه من العذاب الذى ينتظرهم بعد الموت.

[١٧] و وقوع هؤلاء طعمه للبطشه الكبرى نتيجة طبيعیه لفشلهم أمام أعظم فتنه يتعرّض لها البشر، و هى فتنه التسليم للقياده، حيث تولّوا عن الرسول و خالفوا أمره، فلن يكون مصيرهم و لا مصير أمثالهم بأفضل من أسلافهم الذين تحدّوا قياده الرسل.

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ وَ انبعث القياده الرساليه المتمثله آنذاك فى موسى عليه السلام وضع المجتمع كله أمام فتنه كبرى، فهو إمّا يختار الانحطاط و الدمار باتباع الباطل بقيمه و رموزه، و إمّا يتبع الحق برسالته و قياداته.

[١٨] و قد بين موسى عليه السلام الهدف الأوّل من رسالته و هو تحرير الإنسان من العبوديه للطاغوت، و قد أشارت آيات عديده إلى أنّ صبغه رساله الله إلى موسى كانت تحرير بنى إسرائيل من طغيان آل فرعون، إذ كانت هذه أعقد مشكله حضاريه فى ذلك العصر، و قد تحدّث رسالات الله جميعا بؤر الانحراف و عقد المشاكل، فاذا كانت عقده الحضاره العلو فى الأرض، كما نجده فى مجتمع عاد، فإنّ أخاهم هودا نهاهم عن أن يبغوا الفساد فى الأرض، و أن يبطشوا ببطش

الجبارين، أما إذا كانت العقده الفساد الخلقى كما عند قوم لوط نهاهم رسولهم من ذلك، وقال: «أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»، وهكذا.

وهكذا جاء موسى محرراً لبنى إسرائيل من طغيان فرعون، وقال: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (١) وقال: «إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» (٢).

وهنا يقول ربنا:

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ يَعْنِي الْمُسْتَضْعِفِينَ الَّذِينَ اسْتَعْبَدْتَهُمُ الْفِرَاعِنَهُ.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَلَسْتُ أُرِيدُ مِنْ تَحْرِيرِ الْمُسْتَضْعِفِينَ شَيْئاً لِنَفْسِي، وَإِنَّمَا أَنَا أُوْدِي أَمَانَةَ الرِّسَالَةِ، وَاتَّزَمْتُ بِهَا كَمَا يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[١٩] أما الهدف الآخر لموسى عليه السلام فهو القضاء على الاستكبار بكل أبعاده وصوره، وإعاده الإنسان إلى واقعه الحقيقي، وهو واقع العبودية لربه تعالى، وتكبير فرعون وقومه على موسى لم يكن تكبرا عليه وحسب، وإنما كان تكبرا على القيم الحقّة، وبالتالي طلبا للتعالى حتى على الله، وموسى عليه السلام أكد على هذه الفكرة في دعوته لهم.

ص: ٣١

١-١) الأعراف ١٠٥/

٢-٢) الشعراء ١٧/

وَ أَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ و إذا كان فرعون قد نصب نفسه إليها أعلى للناس «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» (١)،فإن دعواه هذه باطله يدحضها موسى بالحجج و البراهين الواضحه.

[٢٠]و حيث يتوقع موسى عليه السلام موقف الرفض و الظلم ضد الدعوه الصادقه من قبل فرعون و قومه أكد بأنه لن يخشى أحدا،لأنه يستعيز بالله منهم.

وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ و تكشف هذه الآيه الكريمة عن سياسه الطغاه فى مواجهه الرساله،و عموم الأفكار المخالفه لهم،و هى سياسه القمع،ذلك لأنهم لا يملكون قوه المنطق حتى يواجهونها،فيواجهونها بمنطق القوه.

و لعل فى الآيه تحذير مبطن من قبل موسى،حيث أنذرهم بأنه سوف يستعين بالله فى مواجهتهم،و هل تصل أيديهم له لو نصره الله؟بالطبع كلا..

و الرجم حسبما يظهر لى يستبطن معنى اغتيال شخصيه الرسول بالاشاعات الباطله،ثم اغتيال شخصه بطريقه يساهم كل الناس فى قتله فيضيع دمه بينهم حتى لا يترك مجالا لوليه بالتأثر.

و هكذا تجمع بين معنيين أشار إليهما المفسرون لكلمه الرجم:الرجم بالحجاره، و الرجم بالشتم،و الواقع أن الرجم الأول هو نتيجة الرجم الثانى.

[٢١]ثم إنه عليه السلام بين لهم خطأ منطق القوه فى مواجهه المنطق الحق، و أن المنطق الموضوعى هو قبول الرساله و الايمان بها،أو اعتزال صاحبها و تركه

ص:٣٢

و الناس حتى يحكم الزمن بصدقه أو كذبه.

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاَعْتَرِلُونِ [٢٢] ولكنهم رفضوا إلا منطق الجريمة.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَأَيُّ قَوْمٍ مُجْرِمُونَ فالذنب بالنسبة إليهم ليس عرضا يقعون فيه بسبب الغفلة أو النسيان، وإنما هو أساس تقوم عليه حياتهم، فهم مرتكبون في الجريمة.

و هذه الآيات و كثير من الآيات القرآنية التي تحدّثنا عن معاناه الأنبياء مع أقوامهم، تؤكد ثلاث مراحل تمرّ كلّ رساله بها، المرحلة الأولى هي بعث النبي و اختلاطه بالناس و سعيه لهدايتهم، و المرحلة الثانية هي تكذيبهم له و اعتزاله عنهم، أما المرحلة الثالثة فهي حلول العذاب عليهم من قبل الله مباشرة، أو على أيدي المؤمنين بقيادة الرسول أو من يمثله في المجتمع، و إنّما ينبغي اعتزال المجتمع الكافر لكي لا يشمل العذاب المؤمنين، أو للاعداد للصراع ضد الكافرين.

[٢٣] و قد أمر ربنا موسى عليه السلام و الذين آمنوا معه بالانفصال عن فرعون و قومه تمهيدا لحلول العذاب عليهم، و أكد ربنا على أن يكون الاعتزال في ظروف سريه حتى تتم العمليه بنجاح، فكان الليل أكثر مناسبة للحركه.

فَأَسْرِبْ بِلَيْلٍ لِيَأْخُذَ بِأَنْفُسِكُمْ مُتَّبِعُونَ من قبل فرعون و جنده، ذلك أنّهم يرفضون أي حركه تحريره في المجتمع.

و لعل الحكمه من إضافه كلمه «ليلا» لجملة «أسر» التي هي تكفي دلالة على الحركه بالليل، لتوضيح أنّ كلّ السفر ينبغي أن يكون بالليل.

[٢٤] وحيث انفلق البحر لموسى و بنى إسرائيل، و عبروا من خلاله للطرف الآخر من اليابسه، أمره اللّٰه أن يتركه على حاله منشطرا، لكي يتبعهم الظلمه من خلاله فاذا توسّطوا البحر جميعهم أغرقهم.

وَ اَتْرُكِ الْبَحْرَ رَهِيْوًا اِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُوْنَ و قد ذكروا لكلمه الرهو معنيين: الواسع و الساكن (الخافض و الوادع) و معنى ذلك أن يترك الطريق كما هو واسع و ادعا ليغرى فرعون بالسير فيه تمهيدا لهلاكه و قومه.

[٢٧-٢٥] و استجاب موسى لأمر اللّٰه فجمع بنى إسرائيل و أخبرهم بالأمر، فتحزّكوا ليلا، و عند ما و صلوا الماء ضربه موسى عليه السلام بعصاه «فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» و سار بنوا إسرائيل بأسباطهم الاثنى عشر على الفروق، و قد تبعهم فرعون و جنده، فلمّا توسّطوا البحر التقى الماء بأمر اللّٰه فأغرقوا بأجمعهم، و خلفوا وراءهم كلّ ما جمعه من حطام الدنيا الزائله، فخرسوا بفشلهم أمام الفتنة الكبرى نعيم الدارين و هكذا ذهب آل فرعون و خلفوا وراءهم حضارتهم الماديه التى أطغتهم عن القيم الالهيه. لقد اجتهدوا لاستصلاح الأراضى و إنشاء بساتين على جانبى النيل، تجرى فيها عيون الماء (من قنوات متصله بالنيل) و وراء جنات الأشجار كانت الأراضى الخصبه التى تزرع فيها أنواع الحبوب، و قد أعطتهم هذه الثروه الزراعيه أموالا طائله بنوا بها بيوتهم المرفهه المأثته بكل وسائل الراحة فى ذلك اليوم، و قد طار صيتهم فى الآفاق، و نالوا مقاما كريما.

و قد بلغت حضارتهم مستوى تجاوزت مرحله الصعوبات، و بلغت مرحله التفكّك و التلذذ فنقلوا جميعا إلى النيل كعبه آمالهم، و معبد غرورهم و كبريائهم، و أهلكوا ثمه دون أن يمّس حضارتهم سوء.

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا لَّا يُكْفَرُونَ فَأَصْبَحُوا عِبَرَةً لِّغَيْرِهِمْ عِبْرَ الْأَجْيَالِ، بَيْنَمَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِغَيْرِهِ لَأَنْ يَكُونَ نَفْسَهُ عِبْرَةً لِلآخِرِينَ.

[٢٨-٢٩] ثم يقول ربنا:

كَذَلِكَ أَى أَنَّ هَذِهِ سَنَهُ تَجْرَى فِى الْحَيَاةِ عَلَى كُلِّ مَنْ يَتْرَكَ الْقِيَمَ، وَ يَرْفُضُ هَدَى اللَّهِ، وَ مَا هَذِهِ النَّهَايَةُ الْمُرِيعَةُ الَّتِي صَارَ إِلَيْهَا فِرْعَوْنُ وَ جُنْدُهُ وَ مَلْؤُهُ إِلَّا صُورُهُ لِعَاقِبِهِ كُلِّ أُمَّةٍ تَرْفُضُ قِيَادَةَ الْحَقِّ، وَ تَسْلَمُ زَمَامَهَا لِقِيَادَةِ الطَّغَاةِ.

وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ وَ هَؤُلَاءِ بِدَوْرِهِمْ مَمْتَحِنُونَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَلَا بَدَّ أَنْ يَتَجَاوَزُوا الْفِتْنَةَ بِنَجَاحٍ، وَ إِلَّا فَلَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُمْ أَحْسَنَ مِنْ سَابِقِيهِمْ، الَّذِينَ دَمَّرَهُمُ اللَّهُ. وَ لَعَلَّ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى وَرَاثَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَرْضِ مِصْرَ بَعْدَ هَلَاكِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٍ أُخْرَى.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ قَدْ يَصِلُ الْأَمْرُ بِالإِنْسَانِ - وَ بِالذَّاتِ الْحَاكِمِ - أَنْ يَعْتَقِدَ بِأَنَّ الْحَيَاةَ مَتَوَقَّفَةً عَلَيْهِ، وَ أَنَّهُ مَرَكُزُ الْكُونِ، وَ لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَهُوَ لَوْ تَغَيَّرَ مِنْ مَوْقِعِهِ أَوْ انْتَهَى أَجَلُهُ لَا يَطْرَأُ أَى تَغْيِيرٌ عَلَى الطَّبِيعَةِ سِوَى ذَهَابِهِ، الَّذِي لَا يَغْيِرُ شَيْئًا مِنْ سَنَنِهَا أَوْ وَاقِعِهَا.

إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ يَرِيدُونَ الطَّبِيعَةَ بِقَوَانِينِهَا وَ سَنَنِهَا تَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ، وَ تَتَّكِيْفُ



مع مصالحتهم و طريقه تفكيرهم، بينما العكس هو الصحيح، لأنها تتحرّك باتجاه الحق.

بلى. إنّ الحياه قد تتأثر لموت المؤمن الوليّ لله، كما بكت على يحيى بن زكريا و الحسين بن على (عليهما السلام)،

عن الامام الصادق عليه السلام قال: «بكت السماء على يحيى بن زكريا و على الحسين بن على عليهما السلام أربعين صباحا، قلت: فما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء» (١). و قال عليه السلام: «بكت السماء على الحسين عليه السلام أربعين يوما دما» ٢.

أما الطغاه فإنهم لا- يتأثر المجتمع بذهابهم حزنا و لا بكاء، بل بالعكس يفرح الناس بموتهم لأنهم مصدر بليتهم و تخلفهم، كما تبتهج الطبيعه، لأنها لا تنسجم مع من يخالف الحق.. ثم إنّهم عند ما يحلّ بهم العذاب لا يعطون فرصه أخرى أبدا.

وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ .

ص: ٣٦

وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلِيًّا عَلِمَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَيَّاتِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ مُبِينٌ (٣٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَ مَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَآتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَتْهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنْ يَوْمَ الْفَضِيلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنْ شَجَرَةَ الزَّقُومِ (٤٣) طَعَامٌ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنْ هَذَا إِلَّا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ اسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَ وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

(٣٥) بِمُنشَرِينَ: بمبعوثين.

(٣٧) قَوْمٌ تُبَّعٍ: كان تبع ملكا مؤمنا و قومه كافرين، و كانوا كثيرى الأموال و القوى.

(٤٣) شَجَرَةُ الرَّقُومِ: هى شجره تعطى ثمارا بشعه مره.

(٤٥) كَالْمُهَلِّ: النحاس المذاب أو ما أشبهه.

(٤٧) فَاعْتَلُوهُ: عتله إذا دفعه بشده و عنف، أى فادفعوه من أطراف النار.

(٥٣) سُنْدُسٍ: هو الحرير الرقيق.

إِسْتَبْرَقٍ: هو الحرير الخشن، و لكل فضل، فالأول ألين مساو الثانى أكثر جمالا فى العين.

ص: ٣٨



## هدى من الآيات:

ينظر المؤمن إلى الحياه نظره عقلانيه تنعكس على سلوكه الشخصى الاجتماعى و على تعامله مع الطبيعه،فهو يؤمن بالعداله الالهيه التى تحكم الخلق جميعا،و يرى أنّ لكلّ شىء هدفا خلق من أجله،فللسماء هدف،و للأرض هدف،و لكلّ مخلوق هدف.

و أنّ سنه الجزاء التى تتجلى فى جميع أبعاد حياه البشر مظهر لتلك الهدفيه،التي يشير إليها ربنا الكريم،و لكن فى الجانب الاجتماعى منه،مما يثير السؤال:لما ذا لا يتركز الحديث عن الفرد؟و الجواب:لأنّ تفاعل الأفراد مع بعضهم،و بالتالى انصهارهم فى بوتقه المجتمع،لا- يدع المفسّر أو الموجه يتحرّك عن الفرد الواحد،فى تحليله أو توجيهاته،فالمجرم لا- يكون وحده مجرما،إنّما يمارس الجريمة ضمن مجموع متجانس و بنيه اجتماعيه معينه،و لو حدث أن اقترف الجرم شخص واحد فإنك تجد آثار المساهمه الاجتماعيه واضحه فيه، بالسكوت و التشجيع تاره،و بالتعاون تاره

أخرى، و لذلك فإنّ الذي يتحمّل الجزاء ليس الفرد في غالب الأحيان و إنّما المجتمع بأكمله.

و عند ما يبيّن القرآن حكمه الجزاء يضرب لنا مثلا- من واقع المجتمعات الغابره التي جزيت بأفعالها على الرغم من قوتها و كيدها، و هذا الجانب من التاريخ البشرى يعكس هدفه الحياه و عقلانيته.

إنّ الذي يعمل شيئا لا- يستطيع الهروب من الجزاء، فهو إن لم يلحقه عاجلا فسوف يلقاه آجلا، و في دعاء كميل نقرأ تعبيرا عن هذه الحقيقه عند

قول الامام على عليه السلام : «و لا يمكن الفرار من حكومتك» (١).

و من فكره الجزاء نهتدى إلى أنّ الدنيا دار ابتلاء، و أنّه لا بد من دار أخرى للجزاء، ذلك أنّنا نجد البعض يموتون دون أن يلقوا جزاءهم في هذه الحياه، أو يلقونه بأقلّ ممّا يستحقّون.. فهل كان جزاء هتلر الذي جرّ العالم إلى الحرب التي أدّت إلى مقتل أكثر من (٦٠) مليون إنسان أن يموت انتحارا؟ و هل جزاء شمر الذي أدخل الحزن على قلوب الملايين عبر التاريخ بقتل سيّد شباب أهل الجنه أن يقتل قصاصا و حسب؟! كلا.. إنّ لهم جزاء أكبر من ذلك في دار أخرى يلقى فيها الجميع جزاءهم الواقعي.

إنّ منهج طرح القرآن للموضوعات المختلفه منهج حكيم للغاية، فهو من جهه يحدّثنا عن جزاء المجتمعات السابقه، و من جهه يحدّثنا عن هدفه الخلق، ثم يذكّرنا بيوم القيامه، و هذه الموضوعات الثلاثه حينما تتفاعل عبر النظره الواحده للحياه تنسجم مع بعضها، و تصير صورته واحد متكامله، فربّنا عاقب الأمم الغابره ممّا يهدينا إلى أنّه خلق الخلق لغايه لو زاغوا عنها عوقبوا بشدّه، و يهدينا بالتالى إلى

ص: ٤١

أنه سوف يجازى الأفراد فى الآخرة الجزاء الأوفى.

و لكن لماذا لا- يضرب لنا القرآن أمثالا- من حياه الأفراد، كفرعون الذى أغرق فى النهر، أو قارون الذى خسف به و بداره الأرض، أو إذا تكلم عنهم بمفردهم كان الحديث إشاره و حسب؟ و الجواب: إنَّ النظر إلى جزاء أمه سيكون أجدى من النظر إلى جزاء فرد واحد، لأن جزاء الأفراد قد يفسر بالصدفه، و لكن جزاء الأمم و بتلك الصور المتميزه دليل على حكمه البارى، و أنه المدبّر للخليقه.

### بينات من الآيات:

[٣٠-٣١] بنو إسرائيل مثل حى لجزاء الأمم على أفعالهم خيرا أو شرا، و القرآن ذكر هذا المثل لأن حياه بنى إسرائيل تشبه إلى حد بعيد مسيره الأمه الاسلاميه من حيث أنهم كانوا أمه مؤمنه بنو حضاره رساليه ثم انحرفوا كما هو حال المسلمين، و إذا فضلهم الله على علم على العالمين فإن هذه النعمه ليست من قبيل الرزق الذى يهبه الله بلا سعى، و إنما هى من قبيل الكسب، و بنو إسرائيل بلغوا هذه الدرجه الساميه بعملهم لا بعنصرهم، و هذا بدوره يؤكد عقلانيه العالم، و الحكمه الالهيه التى يقوم عليها، و بالتالى يؤكد وجود الجزاء فى الآخرة.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ \* مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ و أى اهانه أعظم من أن يسلب الإنسان حريره، و يصير عبدا للطغاه، يسحقونه لتعلو مكانتهم، و يسلبونه لكى يبذروا و يسرفوا؟! إنَّ فرعون هو الآخر لقى جزاءه العادل فى الدنيا لضلاله و انحرافه، فهو من جهه

كانت علاقته مع الناس العلوّ والاستكبار، وكانت علاقته مع طبيعته علاقته التبذير والإسراف.

و كلمه «عاليا» لا- تدل هنا على العلو في الإسراف، وإّما العلو على الناس، و ربّنا عزّ و جلّ يبيّن ذلك في آيه أخرى حين يقول: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا» (١).

أى الذين لا تكون علاقتهم مع الآخرين الاستكبار و التعالى، و لا مع طبيعته الفساد، و هكذا يفسّر القرآن بعضه بعضا.

[٣٢] أمّا النعم الالهيه الأخرى على بنى إسرائيل بعد النجاه من حكم الطاغوت، فهى تفضيلهم على سائر الأمم، و اختيار الله لهم حملة لرسالته، لا لشيء فيهم سوى أنّهم تجاوزوا الفتنة الكبرى فى الحياه، و أثبتوا جدارتهم -بالسعى- لهذه المنزله.

وَ لَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلِيًّا عَلِيمًا بِجِدَارَتِهِمْ، وَ تَمَيِّزُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ وَ صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ.

عَلَى الْعَالَمِينَ إِذْ نُوْقِنَاهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَ تَمَيُّزَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ وَ صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ. فلكى نحقق هذه الغايه علينا أن نوْفّر عوامل الحضاره فى أنفسنا، كالتركيه، و التعاون، و التعوّد على الخشونه، و المشابهه فى العمل، و الصبر، و الاستقامه على الحق، و عندها سوف يوقّنا الله، و يفضّلنا على غيرنا، و سنتقدم، و معنى العالمين

ص: ٤٣



-حسب المفسرين-الناس المعاصرين لهم، إذ أن الله فضل المسلمين على غيرهم حين امتثلوا أحكام الله فقال: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (١)[٣٣] أو تفضيل الله لأمة من الناس على غيرهم لا يعنى أنهم يبقون الأفضل للأبد، أو أنهم يبعدون عن دائره الامتحان و الابتلاء، كلاً.. فرَبَّنَا أعطى بنى إسرائيل آيات القدره و العلم و الفضيله، و رزقهم النصر على عدوهم، و واطر عليهم أنبياءه و رسله، و لكن هذه النعمه كانت تحمل فى طياتها ألوانا من الامتحان.

وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ الْإِبْتِلَاءُ سَنَّهُ ثَابِتَهُ فِي الْحَيَاةِ لَا يَغْيِرُهَا شَيْءٌ، بلى. قد ينتقل الإنسان الفرد أو المجتمع من حال العسر إلى حال اليسر، و لكنّه يبقى معرّضاً للامتحان فى الحالين سواء، فاذا كان القهر و العذاب الذى حلّ ببنى إسرائيل بلاءً بالسيئه، فإنّ الاغراءات التى تنطوى عليها سائر النعم التى أعطيت لهم بعد النصر كانت بلاءً بالحسنه، و قد قال ربنا سبحانه: «وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (٢).

و هذا النوع من الابتلاء قد يكون أعظم خطوره على الإنسان من الأوّل، و قد رأينا فى تاريخ البشرىه كيف أنّ الكثير من الناس يصمدون أمام الإرهاب و التعذيب، و يتحدّون الطاغوت بصلابه و استقامه، و لكنهم ينهارون أمام الإغراء، و لذلك يجب على الإنسان أن يحذر النعم كحذر النعم و أشدّ من ذلك، و لن يفلح فى حياته إلّا إذا جعل حقيقه البلاء أمامه فى كلّ حال، و

قد قال أمير المؤمنين

ص: ٤٤

١-١ (١) آل عمران ١١٠/

٢-٢ (٢) الأعراف ١٦٨/

عليه السلام: «اتقوا سكرات النعمه، واحذروا بوائق النقمه» (١)، وقال: «أيها الناس ليركم الله من النعمه و جلين، كما يراكم من النقمه فرقين» (٢).

[٣٤-٣٥] و بعد هذه الأفكار التمهيديه ينتهى السياق إلى البصيره الأم فى الدرس ليؤكد العداله و الجزاء، و يستنكر مزاعم لكفار و المشركين بأن الدنيا هى آخر المطاف.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ\* إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ لَأَنَّهُمْ لَا يَدْرُسُونَ التَّارِيخَ، وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَيَاةِ نَظْرَهُ مَوْضُوعِيهِ، وَإِلَّا لَاهْتَدَوْا إِلَى حِكْمَتِهَا، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَىٰ أَسَاسِ الْعَدْلِ، مِمَّا يُؤَكِّدُ وَجُودَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ هِيَ الْوَفَاةُ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا النَّهَايَةُ فَلَا نَشَأُ بَعْدَهَا وَلَا حَيَاةَ، كَمَا قَالُوا: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» (٣).

[٣٦] و إذ أنكروا البعث و النشور حاولوا تبرير هذا الاعتقاد بطلب، قالوا:

فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ و لو أن الله يحيى آباءهم ما كان ذلك يجعلهم يؤمنون، لأنهم يتشبثون بهذه الفكرة تبريرا لكفرهم، و لو بطلت نظريا أو عمليا لبحثوا لهم عن تبرير آخر للإصرار على الضلاله.

[٣٧] لذلك فإن القرآن لا يجازيهم، و هل يغير ربنا سنته فى الكون للاجابه على

ص: ٤٥

١-١) نهج البلاغه/خطبه ١٥١

٢-٢) نهج البلاغه/حكمه ٣٥٨

٣-٣) الأنعام ٢٩/

تساؤل تافه للمشركين؟ كلاً..و إنّما يوجّه أنظارهم إلى الآيات الكفيله بهدايه من يريد إلى الايمان بالبعث،و ذلك باثارتهم نحو التفكير فى سنّه الجزاء الحاكمه فى الكون من خلال دراسه شواهدها فى التاريخ،فهؤلاء قوم تبع و من يسبقهم من الأقسام لقوا جزاءهم حينما اختاروا سبيل الضلال و الجريمه.

أَهُيمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَ الَّذِينَ مَن قَبْلِهِمْ أَهْلَكَدَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ وَ تَبِعَ أَحَدَ مَلُوكِ الْيَمَنِ الصَّالِحِينَ،اقتفى آثار أحد الأولياء،و تبعه فى مسيرته، و فى الأخبار نهى عن لعنه،

فعن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا تسبوا تبعاً فأنه كان قد أسلم» (١)و إنّما الذين أجرموا قومه فأخذهم الله بالعذاب،و حيث يندرج هذا الجزاء فى سنّه الهيه كونه فانّ العذاب قد ينال كلّ بشر إذا انتحل الاجرام.

[٣٨-٣٩]و سنّه الجزاء ليست أمراً شاذّاً عن طبيعه الحياه،إنّما هى نابعه من صميم الخلق،ذلك أنّ الله خلق السموات و الأرض لغايه ساميه،الأمر الذى يقتضى الجزاء و يحتمه.

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعِينٍ إِنَّمَا خَلَقَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ لِّهَدَفٍ مُّحَدَّدٍ،مهما كان ذلك الشىء صغيراً و تافهاً فى نظر الإنسان،و قد تقرّر فى علم الفسيولوجيا(وظائف الأعضاء)أنّ كلّ شىء فى الإنسان يؤدّى دوراً معيّنًا،و لا يكون الإنسان كاملاً إلّا-به،حتى الشعره الواحده،بل حتى جزء الخليه المتناهيه فى الصغر،فهل يعقل إذن أن يكون ربّنا قد خلق الإنسان بأكمله عبثاً؟! كلاً..إنّ له هدفاً فى الحياه،و هو مسئول عن كلّ شىء

ص: ٤٦

أمام ربّه، و لكن هذه الحقيقه الواضحه تبقى غامضه لدى الجاهلين و الضالين.

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَسِيلَهُ وَ غَايَهُ.

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ و عدم علمهم ليس لأنهم لا يرون الآيات الهاديه إلى هذه الحقيقه، و إنما لأنّ هذه الآيات لا تتحول في ضمائرهم و أذهانهم إلى بصيره، ذلك أنّ نظرتهم إلى الحياه نظره قشريه مجرّده، و إنّما الذين ينظرون إليها ببصيره الايمان يهتدون إلى لبابها الحق.

[٤٢-٤٠] و حيث ميّز الله الإنسان عن سائر خلقه بالعقل، و كرمه بالحريه، فهو مسئول أمامه عن العمل وفق الغايه التي خلق من أجلها، فان تحمّل مسؤوليته نعمه في الجنه، و إن نكص عنها عذّبه في النار.

و مع أنّه تعالى جعل سنّه الجزاء جاريه في الحياه الدنيا، إلاّ أنّها أكثر تجلياً في الآخره، حيث تنصب الموازين، و يفصل بين الصالحين و الأشرار.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ و هذا اليوم ضروره حتميه تقتضيها عداله الله، و إذ يسميه ربنا «يوم الفصل» فلاّنه اليوم الذي يحكم فيه الحق بعيدا عن التبريرات أو التأجيل، فهو يوم حاسم في حياه كلّ إنسان، و يعتبر فيصلاً يتقرّر فيه مصيره الأبدى.

و إذا أعطى ربنا الحريه الكامله للإنسان في اختيار الحق دون أن تستطيع أيّه

قدره سواء تعالى إكراهه باتجاه معاكس لما يريد، كان من أبرز معاني الفصل أن يتحمل المسؤوليه شخصيا حتى يكون يومئذ مفصولا عن سائر الناس.

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ بلى. قد يضغط من حول الإنسان عليه باتجاه معين، ولكن الموقف الحاسم يبقى رهن إرادته وحده، ولكي يتجنب التأثر بالضغوط السلبيه صوب الباطل يجب عليه أن يلقي نظره إلى الآخرة، حيث يخلده الجميع و ينفصلون عن نصرته، بل لا يجدون الى ذلك سبيلا، و يقف هو وحده بعمله.

ثم إن السياق القرآني يعطف بعد هذا التخويف ليشير فينا الأمل و الرجاء، حينما يذكرنا برحمه الله إلى جانب عزته، فبعزته جعل سنه الجزاء، و برحمته جعل الشفاعة و المغفره لهذا الإنسان الضعيف، فقد استثنى من بين سائر الناس الذين تتقطع بهم الوشائج، و يرتهنون بأعمالهم السيئه، و أولئك الذين تشملهم رحمته عز و جل فقال:

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ فهداه إلى الايمان، و فقه للعمل الصالح في الدنيا، و غفر له ذنوبه، و شفّع فيه أولياءه في الآخرة، فإنه تغنى عنه شفاعه الصالحين، و ينصره الله على العقبات.

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

قال الشحام قال لى أبو عبد الله عليه السلام و نحن فى الطريق فى ليله الجمعة: اقرأ فانها ليله الجمعة قرآنا، فقرأت: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ (الى قوله) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» فقال أبو عبد الله عليه السلام: «نحن و الله الذين استثنى الله فكنا نغنى عنهم» (1).

ص: ٤٨

[٤٦-٤٣] و كنتيجة لحكم الله في يوم الفصل يحدّثنا القرآن عن صورتين متناقضتين، و هما صورته أصحاب النار الذين يعانون ألوان العذاب، و صورته أهل الجنة الذين يتقلّبون في نعيمها.

أمّا عن النار فإنّ من أشدّ أنواع العذاب فيها شجره تنبت في أصلها، و يمتدّ منها غصن لكلّ شخص فيها، اسمها الزقوم، و هي تجسيد لذنوب أهلها و آثامهم. (١)

إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ \* طَعَامُ الْأَثِيمِ و حيث يشعر أهل الجحيم بشده الجوع يبحثون عن الأكل، فيجدونه في هذه الشجرة، و لا يجدون بدّا من التقامه، و بمجرد أن يصل إلى جوفهم يصير كالرصاص و الصفر المذاب تنشوى منه وجوههم حتى تسقط أشفار عيونهم، و تتقطع منه مصرانهم حتى يتقيحون دما، و ربّنا يشبّه لنا الزقوم بالمهل لتقريب المعنى إلى أذهاننا المحدوده، و إلّا فهي أشدّ و أعظم من ذلك.

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ \* كَغَلِي الْحَمِيمِ و الحميم هو الماء الحار جدّا، و حيث يصل المعدن كالرصاص أو النحاس إلى حد من الغليان يصير فيه كالماء فإنّ حرارته لا تطاق.

[٤٧] و لون آخر من العذاب يتجرّعه المجرمون حينما يأمر الله زبانيه النار بسحبهم إلى وسطها و إهانتهم.

خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ و الاعتال هو السحب بغلظه و إيذاء، و إن كان المعنى من ظاهر الآيه أبو جهل إذ

ص: ٤٩

(١-١) راجع تفسيرنا للآيه (٦٥) الصافات

جاءت الصيغه بالمفرد، إلا أنها تشمل كل مجرم، و صيغه المفرد بيان للخذلان الذى يلقاه أهل النار من أقرانهم و سادتهم فى الدنيا حيث لا ناصر و لا معين لهم فيها.

[٤٨-٤٩] و بعد سحب كل واحد منهم إلى سواء الجحيم، يأمر الله ملائكة العذاب باهانتة مادياً، بصبّ العذاب على رأسه، و هو أكرم موضع لدى الإنسان، و معنوياً بالكلمات الجارحه، و هذا جزاء الاستكبار فى الدنيا على الحقّ و المؤمنين.

ثُمَّ صُيِّبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ و حيث الدلاله فى «من» تنصرف للتبعيض، تدلّ الآيه على أنّ العذاب لا يصبّ مره واحده، و إنّما مرات و مرات بلا انقطاع، مبالغه فى الإيذاء، و هل ينتهى الأمر إلى هذا الحد و حسب؟ كلاً.. إنّما يهان بالكلام أيضا فيقال له:

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ و روى فى جوامع الجامع أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه و آله: ما بين جبليها أعزّ و لا أكرم منى. (١)

و فى تفسير على بن إبراهيم قال: أنّ ذلك ردّ على أبى جهل، و ذلك أنّ أبا جهل كان يقول: أنا العزيز الكريم و فيعير بذلك فى النار. ٢.

و قال بعض المفسرين: إنّ ذلك إهانته و استهزاء إلى جانب العذاب المادى، و هو نظير لآكرام الله المؤمنين فى الجنه بالسلام عليهم إضافه لتعظيمها، و استدلوا على ذلك بقوله تعالى: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (٢)، و هذا تفسير صائب، و لكن يبدو لى تفسير آخر للآيه و هو أن الله لم يخلق الإنسان ليلاقى

ص: ٥٠

١- ٢، ١) نور الثقلين/ ج ٤ ص ٦٣٠

٢- ٣) الزمر ٧٣

هذا المصير السيء، وإنما خلقه ليرحمه فيعيش كريما معززا، ولكنه اختار هذا المصير، و اشتراه بعمله السيء، إذ لم يستطع الاستقامة على الفطره و الصبر على الحق، والآيه جاءت تذكيرا لهذه الحقيقه.

[٥٠] أما عن السبب الذى يوصل الإنسان إلى الذلّ بعد العزه، و إلى الهوان بعد الكرامه، فهو شكّه فى الجزاء، لأنّ الشك فيه يجعله يعيش بعيدا عن المسؤوليه و الرقابه تجاه سلوكه و أعماله.

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أى تشكون و الشك أعدى أعداء الايمان، لأنه ينتهى إلى الكفر و الجحود، و يعطلّ طاقات الإنسان و قدراته أن يوجّها فى صناعه المستقبل الأبدى، فهو إنّما يلتزم بالحق، و يضخّى من أجله بكلّ شىء، عند إيمانه بأنّ هذه التضحيات سوف ترد عليه فى الآخره فى صوره الثواب، فكيف يضخّى إذا شك فى الجزاء؟ و

قد حذّر الامام على عليه السلام من خطر الشك فقال: «لا تجعلوا علمكم جهلا، و يقينكم شكّا، إذا علمتم فاعملوا، و إذا أيقنتم فأقدموا» (١)، و مشكله أكثر الناس أنّهم يعلمون الحق و يؤمنون به، و لكنّه لا يتحوّل فى حياتهم إلى منهاج عمل، لجنبهم و فرارهم من تحمّل المسؤوليه، فاذا بهم يشكّون أنفسهم.

إنّ على الإنسان أن لا يشك بأنّ هواجس الشيطان تحيط به من كلّ جانب، بل و يستعد لمواجهتها، بخوف العاقبه السوء، و عزيمه الايمان.

[٥٣-٥١] و فى مقابل هذه الصوره يبيّن لنا القرآن الحكيم نعيم المتقين و كرامتهم عند الله، و تختلف نعم الآخره عن الأخرى الدنيويه. إنّها خاصه بالمتقين، و هم

ص: ٥١



الذين يحفظون أنفسهم عن المحرّمات، و يؤلمون أنفسهم بترك الهوى، و بالصبر على المصائب و ألوان الأذى فى الله، و أخيرا بالاستقامه على الحق حتى الموت، ذلك أنّ طريق الجنه محفوف بالصعاب و المكاره،

يقول الامام على عليه السلام و هو يوبّخ الذين يريدون الجنه بلا ثمن: «أ فبهذا تريدون أن تجاوروا الله فى دار قدمه، و تكونوا أعزّ أوليائه عنده؟ هيهات! لا يخذع الله عن جنته، و لا تنال مرضاته إلا بطاعته» (١).

نعم. إنّ الإنسان لا- يستطيع بلوغ طموحاته اليوميه، بالتمنيات و الأحلام، فكيف يبلغ بها الجنه و هى اسمى الطموحات، و أعلى الأهداف؟! ثم إنّ الإنسان يحقّق طموحاته فى الدنيا بالسعى، بينما لا يكفى السعى وحده لدخول الجنه، إنّما لا بد من العمل الصالح الذى يخلص صاحبه فيه نيته، إذ لا يتقبّل الله إلاّ من المتقين، و الكثير من الناس يصلّون و يصومون و يحجّون و ينفقون و لكن عبثا، و لا يبلغون بذلك جنات الخلد، لأنّها ليست خالصه لله، و كيف ترفع الصلاه المحاطه بالشرك و السهو؟! و كيف يتقبّل الصيام رياء و سمعه؟! و كيف يكون سعى الحاج مشكورا و حجّه مبرورا و هو يخضع للطاغوت؟! «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» (٢) و فى الأخبار أنّ العباده أو الشعيره التى يمارسها صاحبها لغير وجه الله تصير يوم القيامة حجرا تصكك بها جبهته.

و نتساءل: من هو المتقى إذن؟ إنّ المتقى هو الذى يتحوّل فعل الخير فى حياته إلى سلوك مستمر، أمّا الذى يفعل الخير إذا حقّق مصالحه و أهواءه، و أمّا إذا محّص بالبلاء تركه، فإنّه ليس بمتقى..

و ربّنا وعد المتقين و حدهم بالمقام الأمين عند ما قال:

ص: ٥٢

١- (١) المصدر/خطبه ١٢٩

٢- (٢) المائدة ٢٧/

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ مِنْ أَهَمِّ الْحَاجَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِلبَشَرِ، وَلاَ يَبْلُغُ غَايَةَ الْإِطْمِئْنَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِاتِّبَاعِ مَنْهَاجِهِ فِي الْحَيَاةِ، فَقَدْ أَسَّسَ اللَّهُ الْكُونَ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدَالَةِ، وَمِنْ يَتَّبِعِ الْمَنْهَجَ الرَّبَّانِيَّ وَحَدَهُ يَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ مَطْمَئِنًا وَفِي مَقَامٍ أَمِينٍ مِنَ الْمَكَارِهِ.

فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ \* يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ تِلْكَ الْأَجْسَامُ النَّضْرَةُ النَّاعِمَةُ تَمِيسُ فِي الْجَنَانِ الْخَضْرَاءِ بَيْنَ الْعَيْونِ الرَّقَاقَةِ، وَعَلَيْهَا ثِيَابُ الزَّيْنَةِ مِنْ سُنْدُسٍ (حَرِيرٍ نَاعِمٍ لَطِيفٍ) وَمِنْ إِسْتَبْرَقٍ (حَرِيرٍ ضَخْمٍ يَتَلَأَلُ) وَتَرَاهُمْ يَتَقَابِلُونَ فِي مَجَالِسِ الْأَنْسِ لَا يَشُوبُ صَفَاءَ قُلُوبِهِمْ حَقْدٌ أَوْ حَسَدٌ أَوْ غِلٌّ أَوْ كِبَرٌ، فَهَمَّ إِخْوَانٌ مُتَحَابِّونَ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا تَرْفَرُفٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ رَحِمَاتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

[٥٤] وَيَسْتَمِرُّ الْقُرْآنُ فِي بَيَانِ جَزَاءِ الْمُتَّقِينَ فَيَقُولُ:

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ وَكَذَلِكَ تَكْتَمِلُ نَعْمَةُ الْجَنَّةِ بِالزَّوْجِ مِنْ نِسَاءٍ جَمِيلَاتٍ يَتَجَلَّى جَمَالُهُنَّ فِي الْعَيْونِ الْوَاسِعَةِ الْحُورَاءِ، وَلَعَلَّ صَيِّغَةَ الْمَاضِي فِي الزَّوْجِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ زَوَّجَ الْحُورَ الْعَيْنِ لِأَوْلِيَائِهِ بِعِلْمِهِ فِي الدُّنْيَا، بِمَا قَامُوا بِهِ مِنْ عَمَلٍ، بَلَى. لِكُلِّ زَوْجٍ مَهْرٌ، وَمَهْرُ زِيَّاتِ الْجَنَّةِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[٥٥] وَمِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ أَنْ يَجِدَ أَهْلُهَا مَا يَطْلُبُونَ دُونَ أَدْنَى تَعَبٍ.

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ

بعكس الدنيا تماما حيث لا بد للإنسان فيها من السعى لكي يصل إلى رغباته، و التنازل عن شيء للظفر بشيء آخر، و

صدق أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «أيها الناس! إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا، مع كل جرعه شرق، و في كل أكلة غصص! لا تنالوا منها نعمه إلا بفراق أخرى، و لا يعمر معمر منكم يوما إلا بهدم آخر من أجله، و لا تجدد له زياده في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه، و لا يحيا له أثر إلا مات له أثر، و لا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد، و لا تقوم له نابتة إلا و تسقط منه محصوده» (١). أمّا في الجنة فالمتقون آمنون من كل هذه العيوب و النواقص.

[٥٦] لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، و هذه الآية اشاره لنعمه الخلود، و هي من أعظم النعم و الغايات التي يتمناها البشر.

و إلى جانب هذه المنه يذكّرنا ربنا بنعمه عظيمه أخرى، و هي الوقايه من النار، و التي يعدّها القرآن في موضع آخر فوزا عظيما، حيث يقول عزّ و جل: «فَمَنْ زُخِرَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» (٢).

وَ وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ تلتقى كلمه «المتقين» مع تعبير «وقاهم» في نقطه هامه، و هي أنّ التقوى التي كانت تحجز هؤلاء عن ارتكاب المعصيه في الحياه الدنيا، هي التي تكون واقيه لهم من العذاب في الآخرة.

ص: ٥٤

١-١) نهج البلاغه/خ ١٤٥

٢-٢) آل عمران ١٨٥/

[٥٧] ومع ذلك يؤكد ربنا بأن هذا الجزاء ليس نتيجة التزام الإنسان برسالة الله و تعاليمه، لأن ذلك واجب طبيعي عليه فطره و عقلا، فهو خالقه و رازقه و مالكه الذى يهب له الحياه لحظه بلحظه، و يأتي هذا التأكيد و التذكير ليعين المتقين على مواجهه الغرور و العجب.

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و بدون هذا الفضل الإلهي لا يفوز بشر أبدا، و لا ينجو من العذاب، و

فى الحديث القدسى قال عزّ من قائل: «فلا يتكل العاملون على أعمالهم التى يعملونها، فإنهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم و أعمارهم فى عبادتى كانوا مقصّرين غير بالغين ما يطلبون من كرامتى، و النعيم فى جناتى، و رفيع درجاتى فى جوارى، و لكن رحمتى فليبغوا، و الفضل منى فليرجوا، و إلى حسن الظنّ بى فليطمئنوا، فإنّ رحمتى عند ذلك تدركهم، و هى تبلّغهم رضوانى و مغفرتى، و ألبسهم عفوى ما زكى منكم من أحد أبدا و لكن الله يزكى من يشاء و الله سميع عليم» (١)، و حتى الأنبياء و الأولياء إنّما يدخلون الجنة بفضل الله، و حتّى أعمالهم الصالحه، إنّما هى فضل من الله عليهم. أو لم يقل ربنا مخاطبا سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله :

«إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا» (٢).

[٥٨] و قبل أن يختم ربنا سوره الدخان يصف كتابه الكريم، و هو المنهاج الذى يبلغ بالإنسان درجه التقوى ثم الجنة، و بالتالى هو فضل الله الذى ينجى به من النار إذا ما استذكر به و اتبع آياته الميسره.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

ص: ٥٥

هكذا يلخص ربنا هدف كتابه في التذكرة، لأنه بما فيه من مواعظ و معارف إنما جاء ليذكّر الإنسان بعهدته مع ربه. أ و ليس أعدى أعداء البشر في الحياه الغفله؟ بلى. و ما وظيفه الأنبياء و الرسل -عليهم السلام- سوى تبليغ هذه التذكرة و بيانها للناس.. و لو لا أنّ الله سبحانه قد يسّر القرآن لم يكن البشر يعقلون حرفاً منه، كيف و هو يذكّرنا بالغيب المحجوب علمه عنّا، بتلك السنن الثابته لحقائق الخلق، بصفات الرب، بأشراط الساعه، بما في الحياه الآخره التي قد تبعد عنّا ملايين السنين، و

في الحديث المأثور عن الامام الصادق (عليه السلام): «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، و أتى لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال» (١).

و قد نستوحى من هذه الآيه بصيرتين:

١- إنّ الله جعل القرآن عربياً بلغه الرسول و قومه تيسيراً لفهمه، و بالتالى التذكّر به. أو رأيت لو كان القرآن بلغه أخرى هل كان يفهمه العرب بيسر و سهوله؟ ثم هل كانوا يتعظون به؟ كلاً.. و من هنا فإنّ المنهاج الأفضل لتيسير فهم القرآن للمسلمين غير العرب ليس ترجمته، و إنّما تعليمهم لغه القرآن نفسه.

٢- إنّ للرسول دوراً هاماً في بيان القرآن، و تقريب الأذهان الى معانيه التي لا تيسّر إلاّ بكلامه صلى الله عليه و آله، و من هنا فإنّ أى منهج يبتعد عن السنه (أحاديث الرسول و أئمه الهدى) في فهمه و تدبّره لمعاني الوحي سوف ينتهى الى تفسيرات و تأويلات خاطئه أو قاصره. أو لم يضلّ الكثير ممّن حاولوا فهم القرآن من خلال الفلسفات البشريه في متاهات خطيره.

[٥٩] و كالكثير من السور يختمم البارى عزّ و جل هذه السوره، بإنذار مبطن

ص: ٥٦

---

١- (١) تفسير نمونه/ج ٢١ ص ٢١٩ نقلاً عن تفسير روح البيان/ج ٨ ص ٤٣٣

لأولئك الذين لا يستجيبون لدعوته، ولا يتذكرون بآياته، بأن تأخير الجزاء ينسجم و طبيعه الحياه الدنيا حيث إنها دار امتحان و بلاء، فهو لا يعنى بأن الله يهملهم، بل العذاب آت و لا بدّ من ارتقابه.

فَازْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ارتقب نصر الله، و ليرتقبوا خذلانه، ارتقب بعملك الصالح جزاء الله الحسن، و ليرتقبوا بسيئاتهم الانتقام، بلى. إن الزمن فى مصلحه الحق و أهله، و لا يمرّ روح منه إلا و يقرب أهل الباطل من العذاب.

ص: ٥٧



سوره الجاثيه

اشاره

ص: ۵۹





## فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبدا، ولا يسمع زفير جهنم ولا شهيقها، وهو مع محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-» موسوعه بحار الأنوار/ج ٩٢/ص ٣٠١



طف بفكر ك آفاق السماوات، و أقطار الأرض. ماذا ترى؟ ألا- ترى آيات الله تتجلى فى كل شىء؟ إذا لماذا يكفر هؤلاء- الناس؟! تجيب سورة الجاثية التى نستلهم من إطارها أنها تعالج حاله الإفك عند البشر- تجيب عن ذلك ببساطه:-

إن الآيات ليست لكلّ الناس، انما هى للمؤمنين، و لقوم يوقنون، و لقوم يعقلون (٥).

و إذا كفروا بهذه الآيات فبماذا عساهم يؤمنون؟! انهم لا يؤمنون بشىء فويل لهم، و لكل أفاك أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصرّ مستكبراً (٨).

و قد تنفذ آيه فى أفئدتهم و لكنهم لا يسعهم الاستكبار دونها، هناك يتخذونها هزواً إيغالا فى الجحود.

كيف نعالج هؤلاء؟ لا بشىء يمكن شفاؤهم، بل بشرهم بعذاب أليم و مهين (٩) فى جهنم التى تأتتهم من ورائهم، فلا يستطيعون لها رداً (١٠).

ثم يذكرنا السياق بتلك الآيات التي تهمنا مباشرة: فهذا البحر كيف سخره الله مطيه للسفن، و مخزنا للطعام و الزينه، و آيه تبعث نحو شكره.. كما سخر لنا ما فى السماوات و الأرض، كل ذلك نعمه و فضل منه علينا، لعلنا نبلغ هدفا ساميا هو التفكير.

و لكن كيف نفكر تفكيرا سليما؟ الجواب: لا- بد أن نتجنب التأثير بالبيئه الضاله، و لا نأبه بهؤلاء الذين يكفرون، لأنهم لا يرجون أيام الله، فلهم أعمالهم التى سيجزون بها، و لن تصلكم سيئاتهم، كما لن تصلهم صالحاتكم.

و البعض ينتظر شيئا مجهولا حتى يهتدى و لكن عبثا. إذا لم تكن أنت الذى تبتغى الهدى فلن تنتفع بكل وسائل الهدايه. و إليك مثلا- من بنى إسرائيل: لقد أتى ربنا بنى إسرائيل الكتاب، و الحكم، و النبوه- من وسائل الهدايه- و رزقهم من الطيبات- من النعم الماديه- و فضلهم على العالمين، و لكنهم- إذ اتبعوا شهواتهم- غرقوا فى الخلافات، و ضلوا عن الطريق بغيا بينهم.

و هذا الكتاب الكريم من عند الله، الذى انزل ذلك الكتاب، فلا فرق بينهما، و الذى لا يؤمن بعد نزول هذا الكتاب، و ينتظر مثل التوراه لن يبلغ الفلاح أبدا.

و فى هذا الكتاب بصائر و هدى و رحمه، و لكن هل ينتفع به كل الناس؟! لا بل الذين يريدون ذلك. (أى لقوم يوقنون).

و من التمنيات الباطله: الوهم الذى يعيشه الكثير من الناس، حيث يزعمون أنهم و المؤمنون سواء. كلا.. ليس الذين اجترحوا السيئات، و الذين آمنوا و عملوا

الصالحات سواء. لا- في الدنيا و لا- في الآخرة، أو لا تعلمون ان الله خلق السماوات و الأرض بالحق، فكيف يجعلهما سواء. أليس ذلك باطلا؟!! انه يجزى كل نفس بما كسبت و هم لا يظلمون.

و يبقى سؤال: لماذا ينتهى البعض إلى هذا المصير الأ-سوأ؟ لأنهم يتخذون آلهتهم أهواءهم، فتراهم لا- يتبعون الهوى فقط بل و يطيعونها إلى حد التقديس.

و حين يضل الله الذين يؤلهون أهواءهم يسلبهم مصادر العلم من العقل و الاحاسيس، و آتئذ لا أحد قادر على هدايتهم.

و يتخبطون فى ظنونهم خبط عشواء، فاذا بهم يقولون: «مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» و يتحدثون النذر إذا قالوا لهم: احذروا الآخرة، و يحتجون- إذا تليت عليهم آيات الله- «فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» و هكذا يحجون أنفسهم عن الحقيقه ببعض الشروط التعجيزيه، و سواء آمنوا أم لم يؤمنوا فان الجزاء واقع. الله يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه.

و هل يضرون ربهم لو كفروا و لله ملك السماوات و الأرض، و المبطلون يخسرون يوم تقوم الساعة.

هنالك يتزيل الكفار عن المؤمنين، بل يتميز الكفار فيما بينهم- كما المؤمنون-، إذ «تَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

هنالك يتجلى الفرق بين الناس حسب أعمالهم: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، بينما يحاكم الكفار، و يسألون: لما ذا استكبرتم عن

التسليم لآيات الله، وكنتم قوما مجرمين، و زعمتم انكم لستم على يقين من الساعه -بينما الساعه لا تحتمل الريب انها حق-؟فى ذلك اليوم تبدو سيئات أعمالهم، كما ان الحقائق التى استهزءوا بها تحيق بهم، اما نسيانهم للحقائق- و هو واحد من الأفعال القليله-فانه يقابل بنسيان مثله، و يقال لهم: «الْيَوْمَ نُنَسِّأُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا».

و فى خاتمه السوره يعود السياق و يبين: ان جزاء اتخاذ آيات الله هزوا النار، و سببه الاغترار بالحياه الدنيا، و لله الحمد(أولا و أخيرا على رحمته و عدله) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

## [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١ الى ١٥]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثِ بَعْدِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بَعْدَ الْإِيمِ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

## اللغه

(٤) يَبُثُّ: ينشر.

(٥) تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ: صرفها هنا و هناك، شمالا و جنوبا، شرقا و غربا.

(٧) أَفَّاكٍ: صيغه مبالغه بمعنى كثير الإفك، أى الكذب.



(١١) رَجَزٍ: الرجز هو أشدّ العذاب.

ص: ٦٨

## هدى من الآيات

نقرأ فى بدايه سوره الجاثيه أنّ هناك آيات فى الكون لقوم يؤمنون، و من ثمّ يوقنون بها، و أخيرا بها يعقلون، و هذا التدرّج فى هذه الآيات يزيدنا معرفه بمنهج التكامل، ففى البدايه يجب أن يؤمن الإنسان بالآيات و يسلمّ لها، و من ثمّ يتحوّل إلى حاله اليقين بعد أن يرى آياته سبحانه فى الكون، و يرى الانسجام التام بين رساله الله فى الأرض و آياته فى السماء و الأرض، و من بعد اليقين يتحوّل إلى مرحله العقل.

و من معاجز القرآن الكريم تشابه الآيات، و هذا يعنى أنّ كلّ الآيات تسير فى خطوط متقاربه، تنتهى بالتالى إلى هدف واحد، فالتالى لآى الذكر الحكيم يتراءى له أنّ كلّ الآيات ذات بعد واحد، إذ أنّ الكلمات هى الكلمات، و الأهداف هى ذاتها الاهداف، و حتى تركيب الكلمات و الموضوعات العامه التى توحى إليها العبارات و تشير إليها واحده، و لكن عند التدبّر العميق يتبين لنا أنّ وراء هذه

الوحده و هذا التشابه حقائق متنوعه، و ليس معنى ذلك تناقضها، أو أنها ليست من سنن الله التي تنبع من قاعده واحده و تنتهى إلى هدف هو التوحيد.

و سميت هذه السوره بهذا الاسم لايه فيها تصوّر لنا منظر الأمم فى يوم القيامة و هم يجثون على ركبهم خشعا خضعا لله، كلّ أمّه تدعى إلى كتابها، و آيات هذا الدرس و ما بعدها تعمق فينا الايمان بالله سبحانه و تعالى و الايمان بالبعث، و بالرغم من أنّ هذه الحقيقه واحده فى مختلف السور إلا- أنّ كلّ آيه من آيات القرآن الكريم فى هذا الموضوع تثير فى البشر إحساسا خاصا، و تضرب على أوتار معينه فى قلبه، و بالتالى تعالج أمراضا محدده، و لذا يجب قراءه القرآن كلّّه، و بالرغم من أنّ قراءه سوره واحده أو مجموعه آيات تفيد الإنسان و تنفعه إلا أنّ قراءه كلّ القرآن ضرورى، لأنّ نواقص البشر كثيره و متنوعه و لا علاج لها إلا فى القرآن.

### بينات من الآيات:

[١] حم سبق و أن قلنا أنّ الحروف المقطّعه ربما تكون إشاره للقرآن ذاته أو أسرارا بين الله و أحبائه، و قال البعض: إنّ «حم» اسم للسوره، و إشاره إليها.

[٢] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَغَالِبُ وَلَا يَقْهَرُ، وَالْحَكِيمِ الَّذِي لَا يَخْطَأُ.

و بما أنّ الكتاب تنزيل من الله فلتخشع له الأفئده، و لتطأطأ أمامه الأفكار.

أو ليس ربنا عزيزا فكتابه تجلّ لتلك العزه؟ و هل ينبغى للعاقل أن يغالب كتاب ربّه، و لا يخشى غضبته التي لا تحتملها السماوات و الأرض؟!

و ربنا حكيم، و كتابه آيه حكمته، أ فلا ينبغي أن نستوحى الحكمه منه؟ [٣] إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةَ الْمَبْثُوثَةَ فِي الْكُونِ تَجْعَلُ الْإِيمَانَ عَمِيقًا فِي نَفْسِ الْبَشَرِ، وَ الْمَهْمُ أَنْ تَزِيدَنَا الْآيَاتِ إِيْمَانًا بِهِ سُبْحَانَهُ، إِذْ أَنَّ اللَّهَ ضَمَّنَ كُلَّ شَيْءٍ حَقِيقَةَ الْعِبَادِيَّةِ، فَإِذَا مَا نَظَرْنَا فِيهِ وَصَلْنَا إِلَى تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، فَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَ تَخْشَعُ لَهُ قُلُوبُنَا.

و لكن يختص بمعرفه هذه الحقيقه المؤمنون الذين لا- تمنع حجب الكبر و العناد قلوبهم عن معرفه ما تهدي إليه الكائنات من حقائق.

[٤] وَ فِي خَلْقِكُمْ أَلَا- ترى كيف يذرا الله الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، و كيف يطوره خلقا من بعد خلق، نطفه فعلقه ثم مضغه ثم عظاما فكسى العظام لحما ثم أنشأ خلقا آخر؟ ألا ترى كيف يخلقنا العليم القدير في بطون أمهاتنا خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، و أجرى علينا الغذاء، و بعد أن ولدنا حنن علينا قلوب الآباء و الأمهات؟ ألا ترى كيف خلقنا تامين الخلقه، في أحسن تقويم؟ و ليس خلقنا كذلك بل كل الأحياء، إذ أن الله كما البشر خلقهم عبر الانسلال كذلك الشجر، فالبذره تنبت الشجره، و هذه الشجره تحمل بذرا، لو زرعت هذه البذره لأنبتت شجرا.. و هكذا.

و حين خلق الله الإنسان زوده بمختلف الحاجات، و أودعه العقل ليسخر به الحياه، و يتغلب على بعض قوانينها.

وَ مَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

فتجد في الأرض أحياء حسب طبيعه الأرض و حاجات تكامل الأحياء فيها.

إنَّ طريقه بثَّ الله للدواب و انتشارها و تكاثرها، كلَّ ذلك آيات لقوم يوقنون، و اليقين درجه أعلى من الايمان، و يبدو من الآيه السابقه أنَّها تدعو إلى النظر في عموم الآيات و ذلك يؤدّي إلى الإيـمان، بينما الآيه هذه التي تدعو إلى اليقين تثير فينا التطلّع إلى تفصيلات الحياه.

[٥] وَ اِخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ كَذَلِكَ فِي اِخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ آيات لِمَن يَتَّبِعِ عِبْرَ الْأَحْداثِ وَ الظواهر، و يعقل ما وراء هذا التدبير الحكيم لتتابع الليل و النهار، و كيف سَخَّرَ اللهُ الشمس و أقمارها لتخدم حياه البشر فوق هذا الكوكب، دون أن يستطيع أى واحد منها تغيير مساره قدر بوصه أو يتقدم ساعه عن مواعيته أو يتأخّر ساعه.

وَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا تَفِيضَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ بِمَا تَحْمِلُ مِنْ بَوَاعِثِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ الْهَامِدِ، و ينهمر الغيث حاملا مواد أساسيه من الفضاء المحيط، و يرسل الربّ الرياح لواقح، فيرزق عباده بكلّ ذلك بقدر ما يشاء.

وَ تَصْفِيرِ الرِّيحِ إِنْ اللهُ يَصْرِفُ الرِّيحَ حَيْثُما يَريدُ، بَعْضُها مَبْشَراتُ بِالرَّحْمَةِ، وَ بَعْضُها بِالْعَذابِ، وَ يَنْشُرُ اللِّقَاحَ أَوْ يَسْقِطُ الوَرَقَ، أَوْ يَحْمِلُ الغَيْثَ أَوْ البَرْدَ... وَ هَكَذا الرِّيحُ كَما الغَيْثُ مَسْخَراتُ بِإِذْنِ اللهِ، تَجْرى بِأَمْرِهِ حَيْثُ أَصابَ، كَلِّ ذَلِكَ:

آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

فالذين يستوعبون دروس الخليقه، و يحفظون المعلومات ليضيفوها إلى بعضها، و يتفكرون فيها جميعا ليعرفوا السنن التي تجريها و الأنظمه التي تسيّرهما، هم أولئك الذين يصلون عبر الآيات الالهيه إلى الحقائق الكبرى.

و لعلّ هذا التدرّج من الايمان إلى اليقين إلى العقل يوحى بأنّ الايمان هو تسليم النفس البشريه للحق، و اليقين درء للشكوك و الظنون، و ترسيخ للسكينه فى النفس، أمّا العقل فهو لوعى تفاصيل الحقيقه للمحافظه على اليقين و الزيادة فيه.

و بتعبير آخر: يكون الإنسان ضالاً، فإذا أطاع القلب الشيطان يصبح كافراً، و إذا خرج الملك حتى أتمّ الشيطان هيمنته على القلب فقد أمسى صاحبه جاحدا مطبوعا على قلبه بالكفر، أمّا إذا هزم القلب شيطانه، و أسلم لربّه، فقد آمن، و إذا ازدادت هيمنه الملك على القلب حتى ثبته الله على الايمان، و ألزمه كلمه التقوى، و طرد الشيطان بما له من وساوس و شكوك، فقد أصبح موقنا، و اليقين درجات فكلّمّا ازداد المؤمن عقلا عن ربّه و علما بآياته سبحانه يزداد يقينا.

[٦] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ الْكُونَ يَدُورُ كُلُّهُ حَوْلَ الْحَقِّ، وَ الْقُرْآنُ يُؤَكِّدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَكُلَّ آيَاتِ اللَّهِ فِي الطَّبِيعَةِ تَقُودُنَا إِلَيْهِ وَ لَكِنْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنِ النَّاسُ بِالْحَقِّ..

فَبِأَيِّ حَيْدِثٍ بَعِيدٍ اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ إنكار الله بعد عرض هذه الآيات ليس إنكاراً لله فقط، بل هو أيضا إنكار للآيات نفسها، و هل فى الكائنات شىء أشدّ ظهوراً من تلك الحقيقه التي تشترك فى الشهاده عليها و الدلاله إليها كلّ الكائنات؟! و إذا أنكرناها فقد أنكرنا كلّ شىء.

أو ليس فى كلّ شىء آيه لله؟

فى دعاء الامام الحسين عليه السلام: «عميت عين لا تراك عليها رقيباً» (١) [٧] وفى الآيه التالىه ينذر الله من لا يتبع هداه بالويل:

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ <sup>□</sup> و يطرح السؤال التالى: ما هى علاقته هذه الآيه بما تليها؟ يبدو أنّ هنالك علاقته واقعيه و نفسيه:

ألف: فالعلاقه الواقعيه أنّ الذين لا يؤمنون بالله و لا يغمرو قلوبهم نور المعرفه الالهيه سيأفكون عن الحق، و يقولون الكذب، بل إنّ كلّ عمل يعملونه و كلّ خطوه يخطونها و كل هاجس من هواجسهم يحملهم إلى الافك و الإثم، و مثلهم مثل الآله الحاسبه التى تركب على أساس خاطئ فإنّ كلّ عمليّاتها خطأ، و كذا الآله الطابعه التى تركب الحروف فيها على أساس خاطئ فكلّ كلمه تكتبها تخرج خاطئه، ذلك أنّ الايمان بالله لا غيره هو الذى يحلّ طلاسّم الحياه و أسرارها، كيف وجد هذا الكون الهائل، و إلى أين يصل، و إلى أين ينتهى، و ما حكمه خلقه، و ما هى غايه وجودنا فيه؟ بلى. إنّ الإنسان الذى يسلب منه الايمان لا يستطيع أن يعرف طبيعه الحياه، و لا يصمد أمام مشاكلها، و يمضى حياته فى الكدح العابث.

باء: العلاقه النفسيه فهى أنّ قلب الإنسان و عقله و فطرته قد خلق كلّ ذلك على أساس معرفه الله فطرت الله التى فطر الناس عليها <sup>□</sup> <sup>□</sup> <sup>□</sup> (٢)، و لكن بسبب العمل

الفاسد الذى يرين على القلب ينتكس الإنسان، و تراكم عليه حجب الضلاله و العصبيات و العقد فلا يرى الحقائق.

و لذلك

جاء فى الدعاء المأثور عن أمير المؤمنين -عليه السلام-:

[إلهى قلبى محجوب، و نفسى معيوب، و عقلى مغلوب، و هوائى غالب، و طاعتى قليل، و معصيتى كثير، و لسانى مقرّ بالذنوب، فكيف حيلتى يا علام الغيوب، و يا ستار العيوب، و يا كاشف الكروب، اغفر ذنوبى كلها بحرمة محمّد و آل محمّد، يا غفّار يا غفّار (1) فقلب الإنسان يحجب بالغفله، و سبب كلّ ذلك تراكم الذنوب، لهذا يجأر المؤمن منها، و يدعو الله بغفران ذنوبه، متوسّلاً بحرمة محمّد و آله، حتى يعود القلب إلى فطرته النقيّة. و يزيل الله سبحانه الحجب عن القلب بطرق شتى، منها إثارة حبّ الذات عبر التخويف و الترهيب، و بيان أنّ الابتعاد عن الحق لا ينفع الإنسان شيئاً، بل هو الويل و عذاب الخزى لكلّ أفّاك أثيم، و الويل هو الهلاك، و هو واد فى جهنّم، ممتلئ قيحا، و الويل فى الآخرة تجسيد للويل فى الدنيا، و قد أعدّه الله المنتقم الجبار لكلّ أولئك الذين يأفكون الكذب باستمرار على الله عزّ و جل، و يجترحون السيئات.

[٨] يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصَبِّرُ مُسْتَكْبِرًا يَصْرُ عَلَىٰ كُفْرِهِ اسْتِكْبَارًا عَلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي يَسْمَعُهُ. إِنَّهُ يَسْمَعُ آيَاتِ الْحَقِّ وَلَكِنَّهُ يَمُرُّ..

كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا

ص: ٧٥

(١ - ١) دعاء الصباح/مفاتيح الجنان



و نستلهم من قوله سبحانه: «ثُمَّ يُصِرُّ» أنّ شدة وضوح آيات الله هي إلى درجة تكاد تكره الإنسان على الإيمان، ولكنّ المستكبر الذى عقد عزمات قلبه على الافك العقيدى و الإثم العملى يستعمل شتى السبل ليستكبر على الحق، و ليقاوم آثار الهدايه، كالذى يحجب عن نفسه عقب الأزهار فى فصل الربيع، أو أشعه الشمس فى ظهيره يوم قائض إنه بحاجه الى مزيد من الجهد حتى يمكنه البقاء بعيدا عن تأثير أشعه الهدى فى قلبه.

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَتَنَسَّبُ وَ الْإِصْرَارُ عَلَى الْكُفْرِ وَ اجْتِرَاحِ الْإِثْمِ.

[٩] و بالرغم من أنّ الكافر يحجب نفسه عن آثار الهدى تدخل حريم قلبه، الذى يغلفه بسور من استكباره و إفكه و إثمه، فإنّ موجات من الهدى تخترق الحجب، و تستقرّ فى فؤاده، و لكنّه سرعان ما يتخذ منها موقف الاستهزاء و السخرية النابعه من احتقار الحقّ و أهله.. هنالك تتمّ حجه الله عليه إذ أنّه استصغر الحق بعد علمه به.

وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَ هَذَا الْجَزَاءُ يَنْسَجِمُ وَ الْاسْتِكْبَارُ أَوْ الْاسْتِهْزَاءُ.

[١٠] مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ أَى أَنَّ جَهَنَّمَ تَنْتَظِرُهُمْ، وَ إِذَا زَعَمُوا أَنَّ بِمَقْدُورِهِمُ النِّجَاحَ مِنْ جَهَنَّمَ بِأَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ فَقَدْ زَعَمُوا بِاطْلَاقِ.

وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا

و لن تغنى عنهم آلهتهم شيئاً.

و لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْبِيَاءَ فَلَيْسَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَهُذِهِ الْأَصْنَامُ الْحَجَرِيَّةُ أَوْ الْبَشَرِيَّةُ قِيمَةٌ حَتَّى يَنْقُذُونَكَ مِنَ النَّارِ.

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَالْعَذَابُ الْعَظِيمُ يَنْتَاسِبُ وَمَا عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِذْ أَنْتُمْ اقْتَرَفُوا جَرِيمَةً عَظِيمَةً بِالشِّرْكَ فَعَاقِبَهُمْ رَبُّهُمْ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ.

[١١] هذا هُدىً الهدى هو الطريق المستقيم الذى ينجيك من عذاب جهنم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ لِمَاذَا يَكْزُرُ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ مَوْضِعَ الْعَذَابِ خَمْسَ مَرَّاتٍ: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ»، «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»، «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ... وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، «لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ»؟! لعلَّ السبب هو تراكم العقد النفسية على القلب، التى يعتبر كل واحد منها حجاباً سميكا دون نفاذ نور الهدى، و لا بد من خرقها جميعاً بالإنذار الشديد بألوان العذاب و مراحلها.

[١٢] و بعد أن يمطر الله الذين يكذبون بآياته بالإنذار تلو الإنذار، لعلَّ قلوبهم تخشع للحق، يذكرهم بآياته فى الآفاق، و بنعمه التى أسبغها عليهم، و انَّ التفكير فى ذلك يهدينا إلى حسن التدبير، و بديع الصنع، و بالتالى: إلى أن خالق هذا الخلق و منظم أمره عليم حكيم، و أنه لم يبدأه عبثاً، و لا يتركه سدى، و هنالك نبلغ

حقيقه الجزاء التي تحاول النفس البشريه الهرب منها خشيه منها، و إشفاقا من ثقلها.

و هكذا ينتقل المؤمنون من التفكر في خلق الله إلى خشيه عقابه، كما قال ربنا سبحانه و تعالى في سوره آل عمران:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وَ قُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ \* رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَ ۞ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۞ (١) هكذا نرى كيف أن التفكر في الخلق أوصلهم إلى خشيه النار، و هنا بعد أن ينذر الله الكفار المستكبرين بالنار يعرج بنا إلى آياته فيقول:

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ الْبَحْرَ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ مَسْخَرًا لِلإِنسَانِ، أَفَلَا يَدُلُّنَا عَلَى النَّظْمِ وَ التَّدْبِيرِ؟ وَ لَقَدْ ذَكَرْنَا السِّيَاقَ بِفَوَائِدِ ثَلَاثَ لَتَسْخِيرِ الْبَحْرِ:

أولاً: الملاحه التي تنقل الناس و البضائع إلى الآفاق.

لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ثانيا: صيد الأسماك و استخراج الثروات الأخرى.

وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

ص: ٧٨

ثالثاً: الاهتداء من واقع تسخير البحر إلى رحمه الله بالإنسان و كرامته له فينبعث لربّه شكراً و خضوعاً.

وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ فَالهدف من النعم تكامل روح الإنسان، و تسامى نفسه.

[١٣] ثم انظر إلى ما في السموات من آيات القدره، و معالم الحكمه، و كيف أنّ قانون الجاذبيه و نظام الأفلاك و مجارى الشمس و أقمارها و النجوم و ما حولنا يخدم حياه الإنسان فوق الأرض. أ فلا يهدينا ذلك إلى أنّ لوجود البشر هدفاً لا بد أن نتعرّف عليه ثم نسعى لتحقيقه؟ وَ سَيَخْرُ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ وَ كَذَلِكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَوْ كَسَجِينَ الْهَوَاءِ، إلى أملاح الأرض، ذلك ما فيها من معادن مختلفه تنفع الناس، و إلى ما فيها من أحياء، كلّها تخدم حياه الإنسان و سعاده. من الذى سخر كلّ ذلك للبشر، أو ليس الله؟ أ فلا- نعبده؟! إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و التفكير هو إثارة العقل، لكى يربط المعلومات ببعضها، و يرتقى من خلالها إلى الحقائق الكبرى، و بالرغم من أنّ ما فى الحياه كلّها آيات تشير إلى تلك الحقائق إلاّ أنّ من لا يستثير عقله لا يستفيد منها شيئاً.

[١٤] قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

على المؤمن أن يعتبر نفسه أعلى من الذين لا- يؤمنون، لأنهم كالأعمى و الأعمى، فإذا قاموا بعمل سيء فعليه أن يغفر لهم، و من المعلوم أن ذلك لا يعنى ترك المسئوليه تجاههم، بل ينبغى ألا يسارعوا فى محاربتهم، بل يدعوا ذلك الامام لكى يرى الظرف المناسب للمواجهه، و يومئذ يجزى الله الذين كفروا بما كانوا يكسبون، و ما دام المجرم لا يفوت ربه فلما ذا البدار إلى أخذه، إذ قد تكون المبادره سببا لفشل خطط كثيره.

و هذا التفسير يتناسب و ما ذكره المفسرون من سبب نزول الآيه، من محاوله البعض من أصحاب الرسول أخذ المخالفين بالشده، مما كان يسبب حرجا للرسول، و على ذلك يمكن تفسير قوله سبحانه «أَيَّامَ اللَّهِ» بأنها أيام نصره للمؤمنين، حسبما احتمله البعض.

[١٥] مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَجِدُهُ فِي الْجَنَّةِ.

وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا مَغْرَمًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ففريق فى الجنه، و فريق فى السعير.

و هذه الآيه تبين لنا أهميه المسئوليه، و أن كلاً مسئول عن عمله، فلا ينبغى البدار إلى العقاب، و لا انتظار الثواب العاجل، بل لا بد أن يتمتع المؤمن برؤيه مستقبله تضى عليه الطمأنينه و السكينه و الحكمه فى التحرك.

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيحِهِ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)

اللغة

(٢١) اجْتَرَحُوا: أى اقترفوا و ارتكبوا، و الاجتراح:

الاكتساب.

ص: ٨١



## هدى من الآيات:

تتشارك الأمة الاسلاميه و بنوا إسرائيل فى عهدهم الرسالى فى القضايا الجوهرية، بالرغم من بعض الفوارق، فلقد فضّل الله الأمة الاسلاميه على سائر الأمم بالرساله الخاتمه، كما فضّل الله بنى إسرائيل على من عاصرهم برسالته التى أنزلها على موسى بن عمران (عليه السلام)، كما فضّلها على الناس بينات من الأمر، تبصّرهم سبيلهم المستقيم، و توفّر لهم فرصه الوحده، و لكن لم تكن الرساله لتعصم الناس عن أن يختلفوا لو لم يرد الناس أنفسهم ذلك، و من هنا فقد اختلف الناس من بعد موسى كما اختلفوا بعد نبينا محمّد (صلّى الله عليه و آله) بغيا بينهم، و ليس لنقص فى عوامل الوحده المتوافره لديهم من عند الله سبحانه.

و لعلّ سبب المقارنه بين بنى إسرائيل و الأمة الاسلاميه يوجز فى أمرين:

الأول: ما سبق من حديث الرسول الدال على أنّ الأمة الاسلاميه ستحدو حدو



بنى إسرائيل حذو القذّه بالقذّه، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه.

الثانى: للدلاله على أنّ ما جرى عند بنى إسرائيل يشبه القانون الاجتماعى أو السنّه الحياتيه التى تتكرّر عادة بين الأمم إلا من عصم الله.

### و نستوحى من هذه الآيات بصيرتين:

الأولى: لقد وفرّ الله لبنى إسرائيل كلّ أسباب السعاده، فأعطاهم الكتاب والحكم والنبوه، وفضّلهم على العالمين، وآتاهم بينات من الأمر، وأعطاهم العلم والوعى، ولكنهم اختلفوا من بعد ذلك بغيا، وجرّوا على أنفسهم الويلات، ممّا يدلّ على أنّ البغى ليس ذا طابع فردى، لأنّ من يظلم يشجّع الآخرين على الظلم، و تنتشر عادة البغى حتى يظنّ كلّ واحد أنّ من (لا- يظلم الناس يظلم) أو (إذا لم تكن ذئبا أكلتكَ الذئاب).

ثم إنّ الظالم لا- يلبث أن يبحث عن فلسفه لظلمه، و محور يجتمع الظالمون حوله، و ينظّمون و يستّون شرائع له، و ينصبون له أعلاما يدعون الناس إلى الرضوخ له، و هكذا بيدو الظلم عملا- فردّيّا يرعاه الحرص و التعالى، و سرعان ما يتحول إلى تيار اجتماعى منظم، له مؤسساته و قوانينه و دعائمه و قياداته و..و..، حتى يصبح الناس فريقين: طبقه ظالمه مستكبره متسلطه، و طبقه مظلومه مستضعفه مقهوره، و تلك طبقه قد تختلف صورها، و لكنّ جوهرها واحد، كأن تتسمّى باللّوبى، أو الاقطاعيين، أو اتحاد الشركات، أو الحكومه، أو..أو..

الثانيه: و حينما ينحرف الناس، و تتسلط عليهم طبقه مستكبره مستضعفه، تظالم الناس بسحابه سوداء من الإرهاب و الاعلام المضلل، لا- بد أن يقف الصالحون (أنبياء كانوا أم تابعين لهم) متسلحين بالشجاعه و الاستقامه، و يرفعوا أصابعهم إلى السماء مشيرين إلى الله الواحد الأحد، فإذا رأى الله منهم الصبر على

البلاء نصرهم بعزته.

### بينات من الآيات:

[١٦] وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أُولًا:

الكتاب التوراه، والإنجيل، والزبور، التي أثارت عقولهم، و برمجت حياتهم.

ثانيا:

وَ الْحُكْمَ فَلَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَلُوكًا حَاكِمِينَ وَ لَقَدْ فَسَّرْنَا ذَلِكَ فِي آيَةِ (٩٨) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

ثالثا:

وَ الشُّبُهَةَ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْبِيَاءَ كَثِيرًا مِنْذَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَ هَذَا الْعَدَدُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نِعْمَةً كَبِيرَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَ فَخْرٌ عَظِيمٌ، لِأَنَّ عَظَمَةَ الْأُمَّةِ تَقَاسُ بِعَدَدِ وَ نَوْعِ النُّخْبَةِ الطَّيِّبَةِ فِيهَا، وَ عَالَمُنَا الْيَوْمَ يَقِيسُ تَقَدُّمَ الْأُمَّةِ بِنَسْبَةِ الْكِفَاءَاتِ فِيهَا، وَ هَكَذَا أَضْحَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أُمَّةً مُتَقَدِّمَةً بِالنَّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْأُمَّةِ فِي عَصْرِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ النَّاسَ وَ يَمْنَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَ صَالِحِيهِمْ، قَالَ تَعَالَى: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ». (١)

ص: ٨٥

و بالنسبه لنا كمؤمنين يجب أن نعرف أنه كلما كثر فينا الصالحون و العلماء الربانيون و الرساليون المخلصون كلما أمسينا أقرب إلى الانتصار بإذن الله.

رابعاً:

وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِزْقًا حَسَنًا بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِدُخُولِ بَابِ حِطَّةٍ إِلَى الْقَرْيَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بَارَكْ فِيهَا.

خامساً:

وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي الْحَضَارَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مِنْ كَانُوا فِي زَمَانِهِمْ، وَ لَعَلَّ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّفْضِيلَ كَانَ بِسَبَبِ تِلْكَ النِّعْمَةِ الْآتِيَةِ، فَلَمَّا زَالَتْ زَالَ فَضْلُهُمْ.

سادساً:

[١٧] وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ إِنَّ الْأَمْرَ يَبْدُو أَنَّ الْأَمْرَ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ يَعْنِي الْمَسْأَلَةَ الْعَامَّةَ، قَالَ تَعَالَى: «وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ» (١) فَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَصِيرَةَ الْأَمْرِ وَ بَيِّنَاتِهِ (أَي تَفْصِيلَاتِهِ) فَعَرَفَهُمْ كَيْفَ يَصْرَفُونَ حَيَاتِهِمْ، وَ كَيْفَ يَتَعَامَلُونَ مَعَ غَيْرِهِمْ، وَ كَيْفَ يَرْتَبُونَ اجْتِمَاعَهُمْ.

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ

ص: ٨٤

اختلفوا و لم يكن اختلافهم لنقص فى رسالتهم أو شحّ طعامهم، إنّما كان بغيهم بالرغم من وجود العلم الذى كان جديرا بفضّ خلافاتهم لو تجنّبوا البغى، و لقد كان العلم عند وصى موسى يوشع بن نون، و كان الناس يعلمون ذلك، إلا أن حبّ الرئاسة و هوى السلطه لعب دورا خبيثا فى إزاله الحقّ عن مرساه، و الولايه عن مستقرّها، فاختلّفوا أشدّ اختلاف.

و يضرب القرآن صفحا عن ذكر ويلات الاختلاف، من حروب داخلية تؤدّى الى زعزعه أساس المدينيه، و غلبه الأعداء الخارجيين.

و لا-ريب أن العلم هنا هو علم الدّين الذى يقضى على الاختلاف بين أصحاب الرساله، و لا-يعنى أىّ معلومات كانت، لأنّ سلاطين الجور يحاولون أبدا الاستغناء عن علماء الدّين بمن يسمّى عالما من أصحابهم، و يغرونهم ليصنعوا لهم فلسفه و مذهبا.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ سَيَقْضِي بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، و لا تعجل عليهم، و اطمأن إلى أن الحق باق برغم التشويش عليه.

[١٨] ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ الشَّرِيعَةِ: الطريقه الواضحه، فقد جعل الله الرسول صلى الله عليه و آله على الطريق الحق، و الدين الواضح.

فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ و من لا يتبع شريعه الله فإنه يتبع «أهواء» قوم لا يؤمنون بالله، و هذه مشكله

العلماء الذين باعوا دينهم (شريعته الله) بالدنيا فاتبعوا أهواء الطغاه، و من هنا فإنّ مسؤوليه العلماء الاستقامه على هدى الله، بالرغم من كلّ الضغوط التي يمارسها أصحاب القوه و الثروه.

و إذا بقى العلماء صامدين أمام أهواء الجاهلين فإنّهم يكونون مقياسا للحق، و محورا لأهله، و قياده موثوقه للتأثرين من أجله.

أمّا إذا اتبعوا أهواء أولى القوه و المال فسوف يضيع الحق، و يختلف الناس من بعد ما جاءتهم شريعته الله بغيا بينهم، كما فعلت بنوا إسرائيل من بعد نبيّهم، و دالت دولتهم، و زالت الفضائل التي فضّلهم الله بها.

و نستفيد من الآيه أنّ أهمّ بنود الشريعة هي التي تمنع الاختلاف، و تحقّق العدالة، و تقاوم البغي، و لا ريب أنّ كلّ ذلك موجود في نظام الحكم عند الدين.

[١٩] ثم يهدّد ربّنا هؤلاء العلماء الغاوين الذين يتبعون أهواء الظالمين:

□  
إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَـ يَدْفَعُونَ عَنْكَ الْعَذَابَ، إِذَا أَطَعْتَهُمْ وَ صَارُوا يَسْتَغْلُونَكَ مِنْ أَجْلِ تَضْلِيلِ النَّاسِ، بَلْ دَخَلَهُمُ النَّارَ.

□  
وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فَالْأَفْحَشُ ظَلَمًا يَتَوَلَّى جَمْعَهُمْ، وَ يَذِيقُهُمْ مِنْ وَيَلَاتِ ظَلَمَهُ مَا يَشَاءُ، ثُمَّ يَتَسَلَّلُ الظُّلْمُ نَازِلًا حَتَّى يَصْبِحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ظَالِمًا لِمَنْ دُونِهِ، وَ مَظْلُومًا مِمَّنْ فَوْقَهُ، لَا يَذُوقُونَ بَرْدَ الْعَدَالَةِ وَ الْأَمْنِ أَبَدًا.

و من أيدهم دخل في حزبهم، و احتمال وزر أعمالهم الذي يتجسد في الآخرة عذابا شديدا، أما في الدنيا فيشمله ظلمهم الناشئ في مجتمعهم.

و قد دلت آية كريمه على أنّ الله يولّي الظالمين بعضهم (قد يكون أشدّهم ظلما)، حيث يقول ربّنا: « وَ كَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا » (١)،

و في الحديث المعروف: « كما تكونون يولّي عليكم ».

أما العلماء الذين يواجهون الظلم فإنهم ينجون من آثاره في الدنيا و في الآخرة.

وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ فهو سبحانه يؤيد المتقين بنصره في مقاومه الطغاه.

[٢٠] هذا بصائر للناس واضحة تهدي القلوب و العقول، و طريقه للرؤيه الصائبه، و منهج للتفكير السليم.

وَ هُدًى فَاَلْقُرْآنَ لَا يَكْتَفِي بِيَانِ الْبَصَائِرِ، بل و يقربنا حتى نلامسها، و نتفاعل معها، و نشهدا عن كتب، و هذا هو الهدى.

وَ رَحْمَهُ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إذ أنقذهم من الغوايه و الاختلاف، و هداهم إلى شريعته الواضحه السمحاء.

أما الذين لا يوقنون، و بالتالى لا ينفذون أوامره في الأوقات الحرجه، و بالذات عند اختلافهم، فإنّ القرآن لا يغنى عنهم شيئا، و لعلّ الآيه هذه تشير إلى ما تدلّ

ص: ٨٩

عليه الآيه الكريمة: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (١).

[٢١] لان الدنيا دار ابتلاء فهي دار غرور يخيل للإنسان ان المجرم و المحسن فيها سواء، و ما هي إلا فتنه قصيره الأمد، و بعده يتميز المحسن بالثواب، و المجرم بعقاب شديد.

و يوغل البعض في التمني و الغرور حين يزعم أن الآخره كما لبعض الحالات في الدنيا يتساوى بها المحسن و المسيء، و هكذا تسؤل له نفسه الاسترسال في السيئات دون رادع، كلا. إن ذلك حكم جائر بعيد عن سنن الله في الخليقه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ وَ الاجتراح: الاكتساب، و نستوحى من الايه ان اجتراحهم للسيئات هو الذي جعلهم يظنون هذا الظن السيء، ذلك لأن الشيطان يزین للإنسان عمله.

أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَعْيَاهُمْ وَ مِمَّا تُوهُمْ كَلَّا فحياه المؤمن زاخره بالاطمئنان، و الفلاح، و الأمل، بينما يجعل الله صدر الكافر حرجا ضيقا، و يمنع عنه الالتذاذ الكافي بنعيم الدنيا، و يجعله يأكل كما تأكل الانعام، و يجعله عرضه للعذاب.

أما بعد الموت فان الملائكه يستقبلون المؤمنين بالترحاب، بينما يغلظون على المجرمين، ثم يتميزون الى الأبد عن بعضهم، فهؤلاء في الجنة منعمون، و أولئك في العذاب الأليم.

ص: ٩٠

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ و عند هذه الآيه تتلاشى الامانى التى يعيشها بعض المسلمين، و يبررون بها اجتراحهم للسيئات، فبعض يقول: سيغفر لنا، و بعض يزعم انه يتوب قبيل وفاته، و بعض يتشبث ببعض الطقوس و يزعم انها تغنيه عن الالتزام بالواجبات.

كلا.. ان ربنا عدل لا يجوز، و لا يمكن أن يتساوى عنده المحسن و المسىء.

[٢٢] حين نتفكر فى خلق الله فى السماء التى تظلنا، فى الأرض التى تقلنا، فى الظواهر الطبيعىه، فى الدورات النباتيه، فى التفاعلات الحياتيه، فى كل شىء، فان حقيقه واحده تتجلى بوضوح و هى: أن كل شىء حق، و يدبر بحق. رأيت الذى يزرع الشعير هل يحصد حنطه. كلا.. و لما ذا لا تمنى للخامل ان يحصل على علم وافر، و ثروه طائله؟ و كيف لا يحلم أحد ان تلد البقره حصانا، أو ان يطير الفيل فى الجو كالغراب؟ لماذا العلم يتوغل فى عمق الأشياء لمعرفة الأسباب و النتائج، أو خصائص المعادن و النبات، أو ليس لأن كل شىء خلق بحق، و يجرى ضمن سنه عادله؟! فكيف نتمنى إذا ان نجترح السيئات و يكدح ذلك المؤمن فى إقامه الصلاه، و إيتاء الزكاه، و الجهاد، ثم نجنى نحن و هو ثمرات متشابهه. هل رأيت مثالا واحدا فى عالم الخليقه حتى تقيس نفسك به مثالا؟ وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَتَجَلَّى هَذَا الْحَقُّ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ عِبْرَ سَنَةِ الْجَزَاءِ.

وَ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ



بلى. قد يتأخر الجزاء أو تخفى علاقته بالعمل، قد يشرب المرء ماء ملوثا ثم يصاب بمرض خطير بعد مده، ولا يصدق أن شربه ذلك الماء كان سبب إصابته بالمرض. قد يعيش مجتمع التخلف ولا يعترف أن خموله، وتمزقه، وجهله سبب ويلاته، ولكن سنه الجزاء جاريه. علمنا بها أم لا، وصدقنا بها أم لا.

اشاره

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (۲۳) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (۲۴) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مِمَّا كَانُوا يَحْجُبُونَ إِلَّا لَأَنْ قَالُوا إِنَّا اتَّيْنَا بِالْبَيِّنَاتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۵) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۶) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ بِحَسْرِ الْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُعْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹)

اللغه

(۲۳) غِشَاوَةٌ: غطاء.

(٢٨) جَائِيَهُ: الجثو هو التهيؤ للقيام، و ذلك لأنّ الإنسان الخائف لا- يجلس جلسه الاطمئنان بل يرفع أليه من الأرض حتى إذا نودى أو جاء الفرع قام فوراً بلا استبطاء، و الجثو يكون على الركب.

(٢٩) نَسْتَسِخُ: أى نأمر الكتبه بنسخ أعمالكم، و الاستنساخ هو الأمر بالنسخ.

هدى من الآيات:

يستعرض السياق في هذا الدرس و بعده صفات الكفّار، كيف أنّهم اتخذوا أهواءهم آلهة عبدوها من دون الله لَمَّا أطاعوها، و كيف ختم الله على سمعهم و قلوبهم، و جعل على أبصارهم غشاوة، فمن يهديهم من دون الله؟! و أنّهم كفروا بما وراء الحياه حتى يحيى الله أمواتهم فيرونهم عيانا، و لكن إذا قامت القيامة و جثوا على ركبهم ذلا و خشوعا فهل من محيص؟!

بينات من الآيات:

[٢٣] هناك علاقته وثيقه بين العقل و الايمان، فالعقل ينبعث من ذات المشكاه التي ينبعث منها الايمان، فمن اتبع عقله هدى إلى الايمان، و من آمن أنقذ عقله، أمّا من اتبع هواه فقد عطّل عقله، و لن يهتدى إلى الايمان، و يكون كمن أوصد منافذ قلبه حتى لا يصل إلى الحقيقه، و لن يصل إليها، و حين يتبع الإنسان هواه تكثر

أنانيته و شهواته، حتى لا يرى إلا نفسه و ما يخدمها مباشرة، و يبلغ به حبّ الذات حدّ العبادة، إذ يجعل ما تشتهيئه نفسه شرعا يلتزم به، و حينئذ يسجن في زنانه نفسه، و لا يؤمن بغيرها، و لا يقدر أن يسمو بها إلى حالة الايمان برّب العالمين.

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ □□ لماذا يقول ربّنا: «أَفَرَأَيْتَ» و لا يخاطب من اتبع هواه مباشرة؟ و الجواب:

أوّلاً: لأنّ مثل هذا الإنسان ليس من السهولة أن يميّز خطأه، بل هو كالميت لا يستحقّ خطاباً.

ثانياً: لكي يتخذ المخاطب حذره، فلا يقع فيما وقع فيه عابد هواه، و يتعلّم عبادة ربّه من عابد هواه، كما قيل لذلك الحكيم: من أين تعلّمت الأدب؟ قال:

ممنّ لا- أدب له، عمل ما ساءنى فلم أعمل مثله؟ كذلك يكفيننا عبره النظر إلى عاقبه من يعبد هواه، فلا ندع شهواتنا الطاغية تستدرجنا إلى هذا المصير، بل نعتبر الهوى أشدّ أعدائنا، و نعتبر الوقوف أمامه شجاعه بالغه.. على أنّ أكثر الناس يطيعون أهواءهم بقدر معين، إلا أنّ من يتخذ هواه إلهه عبره لهم، ليعرفوا عاقبه الاسترسال مع الهوى.

□□ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ إِنَّهُ مَا أَضَلَّهُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ أَعْطَاهُم الْعِلْمَ، فَاخْتَلَفُوا بَغْيًا بَيْنَهُمْ، وَقِيلَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ بِسَبَبِ جُحُودِهِ بَعْدَ الْيَقِينِ، وَ كَفْرَانِهِ بِنِعْمَةِ الْهُدَى، وَ يَكُونُ كَلَا التَّفْسِيرِ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ.

وَ خَتَمَ عَلَيَّ سَمْعِي وَ قَلْبِي فَلَا يَسْمَعُونَ وَ لَا يَعُونَ الْحَقَائِقَ، لِأَنَّ اللَّهَ أَبْعَدَهَا عَنْهُمْ، وَ هَلْ يُعْطَى رَبُّنَا دِينَهُ مِنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ يَكْفُرُ بِهِ سَلْفًا؟! وَ جَعَلَ عَلَيَّ بِصِيرِهِ غِشًّا أَوْهَةً فَعِنْدَ مَا يَبْصُرُ الْآيَاتِ لَا يَرَى مَا وَرَاءَهَا مِنَ الْعَبْرِ، وَ مَا قِيمَةَ ظَوَاهِرِ الْآيَاتِ إِذَا لَمْ يَهْتَدِ الْإِنْسَانُ إِلَى مَعَانِيهَا، أَوْ تَنْتَفِعَ مِنْ سَمَاعِ لُغَةِ لَا تَعْرِفُهَا، أَوْ يَنْتَفِعَ الْأُمِّيُّ إِذَا نَظَرَ فِي كِتَابٍ، وَ هَلْ يَهْتَدِي غَيْرَ الطَّيِّبِ إِلَى حَقِيقَةِ الْمَرَضِ مِنْ رُؤْيِهِ أَعْرَاضِهِ؟ كَذَلِكَ نَظَرَاتِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ تَذْهَبُ عَيْنًا، لِأَنَّ تَرْكِيزَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، وَ لَا يَرِيدُونَ بَلُوغَ الْحَقَائِقِ فَهَمَّ مَحْجُوبُونَ عَنْهَا.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين -عليه السلام- في صفة هؤلاء:

«أقبلوا على جيفه (الدنيا) قد افتضحوا بأكلها، و اصطلحوا على حبها، و من عشق شيئاً أعشى بصره، و أمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، و يسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، و أماتت الدنيا قلبه، و ولهت عليها نفسه، فهو عبد لها و لمن في يديه شيء منها، حيثما زالت زال إليها، و حيثما أقبلت أقبل إليها» (١) فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْعَقْلِ، وَ آتَاهُ الْبَيِّنَاتِ، فَإِنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَ إِنْ أَسَاءَ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَ انْحَرَفَ عَنِ هُدَى عَقْلِهِ، وَ كَذَّبَ بِالْبَيِّنَاتِ، سَوْفَ يَضِلَّهُ اللَّهُ.

ص: ٩٧

أرأيت من يعطيه العقل من بعد الله، و من يَمَنّ عليه بهدى البيّنات؟ و الآيه تحدّرتنا من مغبّه الاسترسال مع الذنوب إلى أن تسدّ علينا منافذ الهدى كلياً فلا- مناص من النار، و قد قال ربّنا: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ» (١).

و

جاء فى الحديث عن الامام الباقر- عليه السّلام-: «ما من شىء أفسد للقلب من الخطيئه! إنّ القلب ليوافق الخطيئه فما تزال به حتى تغلب عليه، فيصير أسفله أعلاه، و أعلاه أسفله» (٢).

قال رسول الله-صلى الله عليه و آله و سلّم-: إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء فى قلبه، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه، و إن زاد زادت، فذلك الرين الذى ذكره الله تعالى فى كتابه: «كَأَلَّا بَلٌّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٣).

و

جاء فى روايه أخرى عن الامام الصادق- عليه السّلام-: «إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً نكت فى قلبه نكته بيضاء، و فتح مسامع قلبه، و وكل به ملكاً يسدّده، و إذا أراد بعبد سوءاً نكت فى قلبه نكته سوداء، و شدّ عليه مسامع قلبه، و وكل به شيطاناً يضلّه» (٤).

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ بهؤلاء و تعتبرون بهم.

ص: ٩٨

١- (١) الروم/ (١٠).

٢- (٢) روضه الواعظين/ ص (٤١٤).

٣- (٣) المصدر.

٤- (٤) بحار الأنوار/ ج (٧٠) ص (٥٧).

[٢٤] و يبرر هؤلاء عبادتهم لأهوائهم بقولهم:

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ لَا شَيْءَ وراءَ ظاهره الحياه و الموت، و لا حتى الله الذى قدّر هما، و ما الدهر سوى الطبيعه، و هل للطبيعه إرادته و حكمه؟! أ فلا ينظرون إلى السموات و الأرض و ما فيهما من عظمه التدبير و دقه التقدير؟! أ فلا يهديهم العقل إلى أنّ لكلّ تدبير مدبر، و لكلّ تقدير مقدر؟! و يبدو أنّ مرادهم من الموت فناء جيل، و الحياه نشأه جيل من بعدهم، فالزمان فى زعمهم يميت الأولين، و يحيى من بعدهم الآخرين، و هكذا فى دوره متتابعه لا يعرف مبتدأها و لا منتهاها، و تبقى الأسئلة حائره: من أين جئت، إلى أين أسير؟ و ينادى ليس ادرى! و يبدو أنّ هذه النظرية يفرزها القلب المختوم عليه بسبب عباده الهوى، و هى تحلل الإنسان من كلّ قيد، و تطلق عنانه فى اتباع الشهوات حتى النفس الأخير، و هى نظريه قائمه على أساس الفراغ العقيدى.

وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ أَي يتخيلون أن لا بعث و لا حساب، أ فينبغى أن نرسى بنيان أفكارنا و أساس مجمل ثقافتنا على قاعده الظن بعيدا عن العلم؟! او لكن ماذا يملك من عبد هواه، و أضله الله، سوى الظنون؟! إن العلم أعظم نعمه، و هو من عند الله، فلو سلبه من أحد، أ ترى يعرف شيئا؟ هل يقدر الحائط-مثلا- أن يعى ما فى الحقل، أم المكيال ما فى البيدر؟! او لماذا؟ مستحيل أن يعرف. أو ليس لأنّ الله لم يرزقهما العلم؟ كذلك محال أن يعرف من عبد هواه بدايه الخلق و نهايته، لأنّه قد سلب منه



هذا العلم، وقد تمّ إضلاله على علم.

الذى يرى الرياض الجميله تتوق نفسه إليها، ولكن الأعمى يظل يتخيل، و يقول ليس ثمّ شيء أبدا.دعه فى ضلاله أبدا.

[٢٥] وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ حَتَّىٰ تَكَادُ تَلْزَمُهُم بِالْحَقِيقَةِ تَهَرَّبُوا مِنْهَا دُونَ أَنْ يَمْلِكُوا حُجَّةً، بَل:

مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَ هَلْ إِذَا أَحْيَاهُمْ يُؤْمِنُونَ؟ كَلَّا. إِنَّهُمْ يَبْرَرُونَ بِذَلِكَ تَهَرَّبَ بِهِمْ مِنْ مَسْئُولِيَاتِهِمْ.

[٢٦] قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ مِنْ بَعْدِ الْعَدَمِ، بِالْقَدْرَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْعَدَمِ.

ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ وَ لَيْسَ الدَّهْرُ كَمَا زَعَمُوا أَنَّهُ يَهْلِكُهُمْ.

و يبدو أنّ هناك فرقا بين الموت و الهلاك: فالموت هو انفصال الروح عن الجسد، أمّا الهلاك فهو اندثار الشيء، و هو يتناسب مع الزوال بعذاب و مع الظروف التى تمحى آثار الميّت و كأنّه قد تلاشى، كما استخدم الهلاك فى قوله سبحانه: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ

ص: ١٠٠

قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿١﴾، وقوله تعالى: «يَسْئَلُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرُهُ هَلَكٌ» ﴿٢﴾، وقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» ﴿٣﴾، فهلاك يوسف اندثار رسالته، وعدم التقيّد بها، وهلاك المرء انتهاء دوره حتى أن الكلاله يتفاسمون إرثه، وكذا في الآية الثالثة حيث يتمّ تلاشي كلّ شيء إلا وجه الله، كما قال ربنا سبحانه: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ».

والله القادر على الأحياء والاماته هو القادر على البعث والنشور.

ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ إذا كان يوم القيامة لا- ريب فيه، فلما ذا نرى أكثرهم لا يعلمون بها؟ بلى. يوم القيامة لا- ريب فيه واقعا، أى لا- محاله واقع، وليس فى ذلك تردّد، و لكنّ أكثر الناس لا- يعلمون بهذا الواقع، ولا يغيّر جهل البشر من الواقع شيئا، فنحن نجهل-مثلا-وجود منظومه شمسيه فى آخر آماذ هذا الفضاء، فهل يجعل جهلنا بها وجودنا عدما؟ كلا.. ولعلّ هذه الآيات فى القرآن تعالج حاله نفسيه عند البشر أنّه يزعم أنّ مجرد شكّه فى شيء يجعله فى حلّ من الالتزامات المرتبه على وجوده، وبالتالى يتجاهل أشياء واضحه بزعم أنّه يدرأ عن نفسه أخطارها، كالنعامه التى تخفى رأسها زاعمه أنّها إذا لم تر الصياد فإنّه لا- يراها! كلا.. الواقع واقع، سواء آمنت به أو لم تؤمن، فإذا كان ذلك الواقع كيوم القيامة الرهيب فإنّ تجاهله مأساه حقيقه للإنسان.

[٢٧] وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ

ص: ١٠١

١-١ (١) غافر (المؤمن)/ (٣٤).

٢-٢ (٢) النساء/ (١٧٤).

٣-٣ (٣) القصص/ (٨٨).

أولئك الجاهلون يزعمون أنّ تكذيبهم بالساعة و استهزاءهم بها يكفيهم، كلاً..

يقول ربّنا: إنّ ملك السموات و الأرض لله، و الله لا يعطى شيئاً منها لأحد باطلاً، و إنّما رزقهم منها ما يمتحنهم به، فإذا عملوا باطلاً فإنّهم يخسرون يوم القيامة. أو ليست الدنيا مزرعه الآخرة؟ أو ليس ما بأيدينا من قوه و مال و بنين هو رأسمالتنا الوحيد، فإذا لم نصلح أمره بل جعلناه فى يد اللهو و الباطل فإنّ ذلك الخسران؟ [٢٨] و يقصّ علينا حاله الأمم التى قالت و عملت باطلاً فى ذلك اليوم الرهيب، و يقول:

وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً الْجَثْوُ: هو الجلوس على الركب بخشوع و ذل.

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا إِنَّ الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ أَعْمَالِ الْأُمَّةِ.

و هناك سؤال: لماذا يقول ربّنا: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا»، و لم يقل:

(كلّ فرد يدعى..)؟ و لعلّ الجواب أنّ القرآن الحكيم يشير إلى حسّ التوافق مع المجتمع فى الإنسان، التى تجعل المجموع مسؤولاً عن كلّ فرد، كما أنّ الفرد له مسؤوليه تجاه المجموع، ذلك لأنّ كثيراً من أعمال الفرد و عاداته إنّما المسؤول عنها المجموع، و نستطيع أن نشبه التجمّع بقافله ركّاب، فلو سقطت فى الوادى لهلك أهلها جميعاً.

و القرآن يسفّه حاله الانسياق وراء المجتمع، قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «لا يكن

أحدكم إمعنه، يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن ووطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم».

و نستفيد من الحديث أنه لا- يوجد في الإسلام حتميات اجتماعية، و من الممكن تغيير الثوابت و الحتميات الاجتماعيه بإصرار أبناء المجتمع، و لكن من عادة الناس اتباع الحاله الاجتماعيه، إلا من عصمه الله، و لذلك فهم مشتركون في الجزاء.

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لو قال ربنا: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لاحتمل أن يكون الجزاء من غير جنس العمل، و لكن حذف الباء يؤكد أن الجزاء هو ذات العمل الذي اجترحه الإنسان.

[٢٩] هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق نطق الكتب قد يكون بسبب وضوح الأعمال، و قد يكون النطق بالمعنى الظاهر للكلمه، أى أن الكتاب يفرز الصوت، و قد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى فى قوله: «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ\* وَقَالُوا لَوْلَا دُعِينَا لَهُم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...» (١) ففى يوم القيامة تجسيد حى لعمل الإنسان، فربما عرض عليه الصوت و الصورة لعمله، و الفرق بين كتابه العمل فى الدنيا عنه فى الآخرة أنه فى الدنيا تكتب ظاهر الأعمال، بينما فى الآخرة تثبت بخلفياتها، و بكل مقاديرها و نسبها، إذ تكتب صلاه الاثنين، و لكن لكل صلاه خصوصياتها، فصلاه هذا أكثر إخلاصا و خشوعا و تأنن من الآخر، و كذا فى سائر الأعمال.

ص: ١٠٣

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ وَالْأَسْتَنْسَاخُ هُوَ إِعَادَةُ كِتَابِهِ الْأَصْلِ، فَالْأَصْلُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، وَالْكَتَبَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَكْتُبُونَ مَا يَعْمَلُونَ، وَ  
يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (١).

و هذا يقودنا إلى أنّ الأعمال تنعكس على ظاهر الإنسان في القيامة، فقد جاء في القرآن عند بيان حالة المنافقين: «وَلَوْ نَشَاءُ  
لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» (٢) و يحفظ الله الأعمال أيضا على قلب الإنسان على شكل نكت سود  
لا- نراها، و لكنّ الله يعلمها، و قد ينطقها يوم القيامة، كما ينطق الله أعضاء الإنسان، و لعلّ هذا أحد مصاديق الاستنساخ، و العلم  
الحديث بدأ بمعرفة الحقائق عبر أعضاء الإنسان، عبر بصماته، و عبر ضغط الدم في جهاز كشف الكذب، و عبر تقاسيم الوجه، و  
متى ما علم الإنسان أنّ أعماله تصوّر له في الآخرة و تجسّد فإنّه قد يثوب إلى الله إذا كان غافلا، لأنّ الكثير إنّما يعملون السيئات  
و هم في غفلة عن الآخرة.

ص: ١٠٤

---

١- ١) الإسراء/ (١٤).

٢- ٢) محمد/ (٣٠).

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۳۰) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (۳۱) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ (۳۲) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (۳۳) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ (۳۴) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۳۶) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳۷)

هدى من الآيات:

كان الحديث فى الدرس السابق عن جنو الأمم خضوعا و ذلّه يوم القيامة، منتظره كتابها، و يتصل الحديث هنا بذلك الدرس عبر بيان انقسام الأمم يومئذ فريقيين: مؤمنين و كافرين، و نساءل: لماذا يؤكّد الله سبحانه على تمايز البشر عند الحساب؟ لبيان أنّ كلّ إنسان يصنّف حسب عمله و سلوكه، لا- حسب صفاته أو لونه أو انتمائه أو حسب وحدته الجغرافيه أو حالته التاريخيه أو حتى انتمائه الدينى، و لا- بد أن نعكس التمايز فى الآخره فى الدنيا، بأن نصنّف الأمم و المجتمعات و الأفراد على أساس أعمالهم فقط (مؤمن و كافر).

و تستعرض الآيات الأخيره صفات الكفّار، كيف استكبروا عن آيات الله و كانوا مجرمين، و كذبوا بالساعه، و اتخذوا آيات الله هزوا، و غرّتهم الحياه الدنيا، و بالتالى استحقّوا عذاب الآخره.

[٣٠] يميز الله الناس يوم القيامة فريقين:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ الرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ تَخْتَلِفُ عَنْهَا فِي الْآخِرَةِ، فَبِالدُّنْيَا قَدْ يَشُوبُهَا الْبَلَاءُ وَالْإِمْتِحَانُ، وَفِي الْآخِرَةِ تَأْتِيهِمْ صَافِيَةٌ مِنْ كُلِّ كَدْرٍ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ إِحْيَاءُ كَلِمَةِ «فِي رَحْمَتِهِ» حَيْثُ تَحِيطُ بِهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، كَمَا أَنَّ فِي قَوْلِهِ «رَبُّهُمْ» لِمَسَّهُ حَنَانٌ وَعَطْفٌ، وَإِشَارَةٌ إِلَى رَحْمَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا.

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الَّذِي لَا فَوْزَ فَوْقَهُ، فَقَدْ نَجَّوْا مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، وَضَمَّهِمُ الرَّبُّ فِي ضِيَاغَتِهِ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي بَحَارِ رَحْمَتِهِ. أَفَيْتَصَوَّرَ الْقَلْبُ فَوْزًا أَعْظَمَ مِنْهُ؟ تَعَالَوْا نَسْمُوا إِلَى حَالِهِ التَّطَلُّعِ إِلَى هَذَا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ، لَعَلَّنَا نَدْرِكُهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ.

[٣١] وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ، وَيَطَالِبُونَ بِالْإِعْتِرَافِ بِجُرْمِهِمُ الْمَتَمَثِّلِ فِي اسْتِكْبَارِهِمْ ذَلِكَ الَّذِي أُرْدَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ.

أَفَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَصْطَلِحَاتٌ ثَلَاثَةٌ: الْكُفْرُ وَالْإِسْتِكْبَارُ وَالْإِجْرَامُ، أَمَّا الْإِسْتِكْبَارُ فَهُوَ مَنْطِقُ الْكُفْرِ، بَيْنَمَا الْجُرْمُ عَاقِبَتُهُ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَقْبَلَ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ دُونِ حُجْبٍ، وَمِنْ دُونِ مَفَاهِيمٍ وَعَقَائِدٍ مَسْبُوقَةٍ، فَإِنَّ فِطْرَتَهُ وَعَقْلَهُ يَقُودَانِهِ إِلَى تَقْبَلِهَا، وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَقْبَلَ الْإِنْسَانَ آيَاتِ رَبِّهِ عَبْرَ نَظَارَةِ الْإِسْتِكْبَارِ السُّودَاءِ، وَرَأَى نَفْسَهُ



أكبر من الحق، أو أنّ ذاته هي المحور و ليس الحق، فإنّه لن يتقبّلها، و متى ما جعل الإنسان نفسه فوق الحق أو اعتبرها هي الحق، فإنّه سوف يتجاوز الآخرين و يظلمهم و يجرم بحقّهم، و نقرأ فى الروايات ما يهدينا إلى ذلك:

-١

عن أبى عبد الله صلى الله عليه و آله قال: «الكبر أن تغمص الناس، و تسفّه الحق» (١).

-٢

عنه عليه السلام: «قال رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلّم: إنّ أعظم الكبر غمص الخلق، و سفّه الحق»، قال (الراوى): قلت: و ما غمص الخلق، و سفّه الحق؟ قال: «يجهل الحق، و يطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه» (٢).

[٣٢] و لكى نتخلّص من الكفر و الاستكبار و الاجرام يجب أن نجعل الحقّ هو المحور، و أن نتذكّر بالآخره، و نخشى الجزاء فيها.

وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا لَمْ يَنْكُرُوا الْآخِرَةَ عَلَى شِدَّةِ وَضُوحِهَا، فَالإنسان يرى بفطرته أنّ الجزاء واقع، كما يرى تحقيق ذلك فى الدنيا، فمن يظلم يبتليه الله، بينما يحصل المحسن على جزاء حسن، و لكنّه يرى أنّ سنّه الجزاء ليست دائمه فى الدنيا و لا وافيه ممّا يهديه إلى يوم الجزاء الأوفى.

و حين يراجع قلبه يراه مقتنعا به، إلاّ أنّه يجحد به لاستكباره عنادا و عتوّا، و يتساءل: ما الساعه؟ أيان مرساها، و ما أشراطها، و كيف يبعث الله الرميم، و كيف تتمثّل الأعمال فيها تمثّلا؟

ص: ١٠٨

١-١) بحار الأنوار/ج(٧٣)/ص(٢١٧).

٢-٢) المصدر/ص(٢١٨).



«وَلِحَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» ففي الآخرة تنزل بهم نتيجة الاستهزاء، و تحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم، و قد قال البعض أنّ كلمة «حِاقٍ» مشتقة من مادة الحق، و يكون معناها آتشد أنّ ذلك الذي سخروا منه-زعما بأنّ باستطاعتهم التهريب منه-قد نزل بهم، و أصبح حقًا واقعا لا مناص من الاعتراف به.

[٣٤] وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّئُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا لَقَدْ تَغَافَلُوا عَنِ الْآخِرَةِ وَ نَعِيمَهَا حَتَّى كَانَتْهُمْ نِسْوَاهَا، وَ هُنَاكَ يَغْفَلُ عَنْهُمْ حَتَّى لَكَأَنَّهُمْ مَنْسِيُونَ، فَلَا يَقْدِرُ لَهُمْ خَيْرٌ، وَ لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا، جَزَاءً وَفَاقًا لِنَسْيِهِمُ الْحَقَّ، وَ إِعْمَانًا فِي إِذْلَالِهِمْ عَقَابًا عَلَى اسْتِكْبَارِهِمْ.

و بالطبع لا يعنى نسيان الله جهله بهم، كما لا يدل نسيانهم جهلهم بالآخرة،

قد ذكر فى الروايه أنه جاء بعض الزنادقه إلى أمير المؤمنين-عليه السلام-وقال:

لولا ما فى القرآن من الاختلاف و التناقض لدخلت فى دينكم، فقال له على-عليه السلام-: و ما هو؟ قال: قوله: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» و قوله: «فَالْيَوْمَ نُنَسِّئُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا» و قوله: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»... إلخ.

قال أمير المؤمنين-عليه السلام-: فأما قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» يعنى إنّما نسوا الله فى دار الدنيا، لم يعملوا بطاعته، فنسيهم فى الآخرة، أى لم يجعل لهم من ثوابه شيئاً، فصاروا منسيين من الخير، و كذلك تفسير قوله عزّ و جلّ:

«فَالْيَوْمَ نُنَسِّئُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا» يعنى بالنسيان أنّه لم يشبههم كما يشب أولياءه، الذين كانوا فى دار الدنيا مطيعين ذاكرين، حين آمنوا به و برسوله، و خافوه بالغيب.

و أمّا قوله: «وَمَا كُنَّا نَسِيًّا» فَإِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَوْا كَبِيرًا لَيْسَ بِالذِي يَنْسَى وَ لَا يَغْفَلُ، بَلْ هُوَ الْحَفِيزُ الْعَلِيمُ، وَ قَدْ يَقُولُ الْعَرَبُ: قَدْ نَسِينَا فُلَانًا فَلَا يَذْكُرُنَا، أَيْ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ لَهُمْ بِخَيْرٍ وَ لَا يَذْكُرُهُمْ بِهِ (١).

وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَ كَثِيرًا مَا يُؤَكِّدُ اللَّهُ عَدَمَ النَّصْرَةِ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَنْجِي مَنْ عَذَابَ اللَّهِ نَاصِرًا - إِنْ وَجَدَ فَعَلًا - فَلَا الطَّوَاغِيَتِ وَ الْأَخْلَاءِ وَ لَا الثَّقَافَةَ الْفَاسِدَةَ وَ الْأَهْوَاءَ تَنْصِرُنَا مِنَ اللَّهِ، وَ تَنْجِينَا مِنْ عَذَابِهِ، وَ هَذَا غَايَةُ الضَّعْفِ وَ الْمَسْكَنَةِ فِي الْآخِرَةِ، فَالْإِنْسَانُ يَقِفُ فَرِيدًا، وَ أَمَامَهُ النَّارُ، وَ لَا يَجِدُ مِنْ يَدَبِّ عَنْهُ، فَتَرَاهُ مُسْتَسْلِمًا.

[٣٥] لماذا يحقّ بهم العذاب، و ينسأهم الله، و لا يجدون لهم نصيرا؟ أؤلا:

ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا ثَانِيًا:

وَ عَزَّتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ تَصَوَّرْتُمْ أَنَّكُمْ فِيهَا مَا كُنْتُمْ، وَ كَفَرْتُمْ بِآخِرَتِكُمْ.

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ إِنَّهُمْ لَا يَخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ لِأَنَّهَا حَاقَتْ بِهِمْ، وَ صَارَتْ مَاؤَاهِمُ، وَ لَا يَعَاتِبُهُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِلْعِتَابِ، مَا دَامَ قَدْ أَدْخَلَهُمُ النَّارَ، وَ الْعِتَابُ نَوْعٌ مِنَ الْإِكْرَامِ وَ هُمْ

ص: ١١١

(١ - ١) بحار الأنوار/ج (٩٣)/ص (٩٨-٩٩).

لا يستحقونه ما داموا قد استهزءوا بالحق.

[٣٦] فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ربما لأنَّ الله أراد أن ينهى سورة الجاثية التي كانت شديده الوقع على النفوس بما فيها من آيات الإنذار و العذاب بإعطاء الأمل، فلله الحمد لأنه تعالى يفعل ما يستحق الحمد، و له الحمد لأنه ربَّ السموات و الأرض، إذ بثَّ فيهما آياته، و جعلها هدى للمؤمنين، و لأنه يمسك السموات و الأرض أن تزولا، و له الحمد ربَّ العالمين لأنه خلقهم و رزقهم، و فطرهم على الايمان، و هو بهم رحيم.

(٣٧) و كما أنَّ له الحمد في السموات و الأرض فله السلطان و الملك.

و لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فلما ذا تتكبرون عن آياته، ما دام هو واسع الكبرياء، و إنَّ آيات كبريائه سبحانه تتجلى في كلِّ شيء في السموات و الأرض.

و هُوَ الْعَزِيزُ فهو المقتدر القاهر على عباده، يجرى فيهم سننه، و يمضى فيهم قدره، شاؤوا أم أبوا، و لكنَّه لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته البالغة.

الْحَكِيمُ فلا يظلم و لا يجور، و يعطى كلَّ ذي حقَّ حقه، سبحانه.

ص: ١١٢

سوره الأحقاف

اشاره

ص: ۱۱۳



بسم الله الرحمن الرحيم

## فضل السوره

قال الامام ابو عبدالله الصادق عليه السلام : «من قرأ كل ليله أو كل جمعه سورہ الأحقاف لم يصبه اللّٰه عز و جل بروعه في الحياه الدنيا، و آمنه من فزع يوم القيامة إن شاء اللّٰه».

تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٧

ص: ١١٥





لكى نبصر حقيقه الأشياء لا بد أن نعرف الحقائق الكبرى التى هى غيب كل حقيقه و هى:

أولاً:حقيقه الخلق،و أنّ كلّ شىء قد أنشأ و قدّر و دبّر أمره من لدن عزيز حكيم.

ثانياً:حقيقه الواقعيه،و أنّ الأشياء حق لا وهم و لا خيال.

ثالثاً:حقيقه الزمن و أنّ لكلّ شىء أجلا.

و لكن لماذا لا يفقه أكثر الناس هذه الحقائق الواضحه،و حتى حين يندرهم الله عبر الرسل تراهم يعرضون عنها؟ لعلّ أهم قضيه تعالج فى القرآن هى هذه القضيه،لأنه من دون معالجتها لا يبلغ الإنسان علما و لا حكمه.

و السؤال:ما هى الحجب التى تغشى أبصار الخلق عن رؤيه هذه الحقائق؟

إنها عديده، ولعل السياق في سورة الأحقاف يعالجها مع التركيز على بعضها، شأنها شأن سائر السور.

أولاً: الشرك بدعوه غير الله، ويتساءل السياق: ترى هل خلقوا ما يدعونهم شيئاً من الأرض أم لهم مساهمه في إداره السموات؟ كلا.. ثم أنهم لا يستجيبون لهم بشيء إلى يوم القيامة، و يعادونهم يوم الحشر.

ثانياً: كيل التهم (و الأحكام المسبقه و الباطله) على الرساله و الرسل، ممّا يحجبهم عن معرفه حقيقتهم، فقالوا أنّها سحر و أنّه مفتر.

و كيف يكون مفتر و الله يحيط قدره بمن يفترى، و يحيط بكلّ شيء علماً، و هو شهيد على صدق الرساله؟! و هذا الرسول ليس بدعا فلقد بعث الله أنبياء سابقين.

ثم أنّ الرسول متمخّض في رسالته فما عليه إلاّ البلاغ، ثمّ أنّ بعض علماء بنى إسرائيل قد شهد بصدقه، بينما استكبر الجاهلون.

و قد يكون الحسد و الضغينه و العصبية تجاه صاحب الدعوه سبباً للكفر بها، و لكن لما ذا يحرم الإنسان نفسه من الحق لموقفه الشخصى ممّن يدعوه إليه؟ و أساساً:

لماذا هذا الموقف الظالم الذى يصدّ الإنسان عن الهدى، ذلك أنّ الله لا يهدى القوم الظالمين؟ و كتاب موسى (الذى يتعصّب البعض له، و يصدّون عن النسخه الأكمل منه) ما نزل لتأييد الظلم، بل رحمه، و هكذا القرآن، فهو نذير للظالمين، و بشرى للمحسنين.

و أصحاب الرساله بحاجة إلى الاستقامه لمواجهه تلك العقبات، و آتئذ لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون.

والموقف السليم من الجيل الماضى يساهم فى توفير فرض الإيمان، ويبيّن السياق وصيه ربّنا بالوالدين، كما يبيّن التطلّع المشروع عند الإنسان فى إنشاء ذرّيّه صالحه.

و يعدّ التائبين فى سنّ الأربعين المسلمّين لربهم غفران الذنوب، ودخول الجنّات.

أمّا المتمرّد على والديه وهما يدعوانه للإيمان، لأنّ وعد الله حق، فيقول ما هذا إلاّ أساطير الأوّلين فأنّه مثل لمن أعاقته نزوه الشباب عن اتباع الحقّ الذى يدعوا إليه آباؤه (وهو بالتالى مثل للظالم الذى منعه تمرّده على أبيه عن اتباع الحقّ لمجرّد أنّه دعوه أبيه).

وبعد أن يبيّن القرآن أنّ درجات الناس على قدر أعمالهم، يعرض لنا صورته أهل النار تستقبلهم جهنّم بلظاها، وهم يحاكمون هنالك لأنّهم أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا، (ويبدو أنّ الإسراف فى اللذات عقبه أخرى فى طريق الإيمان)، ولعلّ الإسراف فى الاستمتاع بالطيبات سببه الاستكبار فى الأرض، وعاقبته الفسق عن حدود الشريعة.

و أيّه عقبه كأداء كالاسترسال مع العادات الباليه و التقاليد الباطله، كما فعلت عاد حيث أعرضوا عن أخيهم هود و هو ينذرهم بالأحقاف و يستعجلونه العذاب، ولكن حين استقبلهم عارض فى الأفق زعموا من فرط غفلتهم أنّه عارض ممطرهم، بينما كان ريحا تدمر كلّ شيء بأمر ربّها.

لما ذا كفرت عاد، هل لفقر و حاجه، أم لنقص فى وسائل المعرفه من السمع

و الأبصار؟ كلاً.. إنّما لجحود آيات الله و الاستهزاء بها، فكانت عاقبتهم الدمار.

أ فلا- نعتبر بمصيرهم قبل أن نصبح عبره لمن يتعظ من بعدنا؟ أ فلا نزور الأطلال التي بقيت من القرى الهالكة، و ننتفع بالآيات التي صرّفها الله لإيقاظنا من الغفلة؟ إنّ هذه الآيه التي يعتمد عليها الإنسان في كفره برّبّه، و يزعم أنّها مانعته من عذاب الله، هلاًّ منعت عن تلك القرى العذاب.

و ترى بعضهم يستعيذون بالجن، و يزعمون أنّهم يكفونهم العذاب، بينما الجن كما الانس أنذروا بالرساله، و لقد صرف الله نفراً منهم فاستمعوا للقرآن فأصبحوا منذرين، و دعوا قومهم للاستجابه للرساله، و بينوا لهم أنّ من لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض.

و تبين الآيات الأخيره من السوره قدره الله على إحياء الموتى، و أنّ الكفّار يؤمنون بذلك حين يرون العذاب، و أنّ على الرسول الصبر في دعوته دون أن يستعجل لهم، لأنّه مهما طال بهم العمر فإنّ مكثهم في الدنيا يشبه ساعه إذا قيس بالخلود في النار.

ص: ١٢٠

## [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ٨]

## إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَيَّمٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)

## اللغه

(٤) أَثَارَةٍ بِقِيَمِهِ.

ص: ١٢١

(٨) تُفِيضُونَ فِيهِ: أى ما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن و القول فيه أنه سحر.

ص: ١٢٢

**بينات من الآيات:**

[١] تبدأ هذه السوره المباركه بكلمه قصيره، مقطّعه تشبه سائر المقطّعات القرآنيه التي مررنا بها في السور المتقدمه، و سبق الحديث عن تفسيرها، و هي:

حم [٢] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ سَمِيَ الْكِتَابُ كِتَابًا لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ مُثَبَّتٌ، وَ كَذَلِكَ الْقُرْآنُ، فَهُوَ مَكْتُوبٌ وَ دَائِمٌ وَ ثَابِتٌ، وَ لِهَذَا سَمِيَ بِاسْمِ «الْكِتَابِ»، وَ ثَبَاتُ الْقُرْآنِ يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ سَائِرِ الْكُتُبِ لِأَنَّهُ كَمَا

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله : «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» (١).

و السؤال: لماذا لا يقاس القرآن بالكتب البشريه؟ لماذا بينهما مسافه لا تحد؟

ص: ١٢٣



و الجواب: لأنّه نزل من الله، والله هو العزيز الحكيم، فبِعزّته يفرض الكتاب على الإنسان و طبيعه فرضاً، و بحكمته يجعله كتاب هدايه و بصيره، و مصدر توجيه للإنسان إلى الحق و إلى ما فيه صلاحه.

[٣] و فيما يلي من الآيات يحدّثنا القرآن الحكيم عن تجلّيات اسمى العزّه و الحكمه فى الكون، و عن الظواهر ذات الدلاله الواضحه على عزّه الربّ و حكمته، و نحن لا بد أن نفقه تلكم التجلّيات و هذه الظواهر، لأنّ فهمنا للخليفه من حولنا لا يكون فهما عميقاً إلا إذا كان فهما مترابطاً متفاعلاً، فلا بد أن نربط -مثلاً- بين ارتفاع القمر و نزوله و بين المدّ و الجزر فى البحر، كما نربط بين طلوع الشمس و بين التفاعلات الكيماويه التى تحدثها فى أوراق الأشجار، فالكائنات حقائق مترابطه يتصل أدنى شىء منها بأقصاها، و الكبير و الصغير و القريب و البعيد فى ذلك سواء، كلّهم متفاعلون مع بعضهم يجرى ربّنا عليهم حكماً واحداً و نظاماً مطّرداً، و لا نستطيع أن نفهم القوانين الثابته التى تجرى فى الخلق إلا بفهم ذلك التفاعل، فالقانون الذى تتحرّك على أساسه أكبر مجرّات الفضاء هو نفس القانون الذى تتحرّك وفقه الكريات المتناهيه فى الصغر داخل الدرّه المتواضعه، ثم إنّ كلّ ذلك التواصل و التفاعل و الخضوع للسنن الواحده يهدينا إلى الحقيقه العظمى الا و هى التوحيد: ان ربّنا العزيز الحكيم هو الخالق لها جميعاً، و هو المدبر لها.

و يبدو أنّ منهج القرآن لانماء هذا الوعى الشمولى للكائنات الذى يشكل مستوى رفيعاً من تكامل عقل الإنسان يتمثل فى أنّ القرآن يذكّرنا باسم من أسماء الله الحسنى، تم يتدرّج نازلاً من ذلك الاسم إلى مختلف الظواهر التى يتجلّى فيها ذلك الاسم الكريم، فى عالم الطبيعه (الآفاق) و عالم الإنسان (الأنفس)، فى حاضر الإنسان أو ماضيه أو مستقبله، لكى تتماوج بنور الله اشعه فكره صاعده من بعض ظواهر الخلق إلى أسماء الخالق، و نازله من أسماء الربّ إلى سائر الظواهر،

و من ماضى البشريه إلى حاضرها و إلى مستقبلها،فتتسع آفاق معرفته،و تغور فى أعماق الغيب بصائر وعيه،و يسمو فى درجات اليقين عقله،و تزكو بنور الايمان نفسه،و يهديه الله الى نوره الأبهى،قويا عزيزا كما أنّ ربّه قوى عزيز،و يصبح حكيما خيرا كما أنّ ربّه حكيم خبير،كلّ ذلك بمعرفه أسماء الله الحسنى.

و ربما تدرّج المنهج القرآنى بصوره عكسيه،فبين ظاهره فى آفاق العالم أو أغوار النفس أو أبعاد التاريخ،ثم يذكر اسما من أسمائه الحسنى،و نهايات الآيات القرآنيه مثل: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَ اللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

مفيده جدا لو تدبرنا فيها،لأنّ الرب يذكرنا بظاهره ثم يربط بينها و بين اسم من أسمائه الحسنى،فاذا و عيناه حقّ الوعى عرفنا تجلياته فى سائر الظواهر أيضا.

و حيث ذكر السياق فى الآيه الثانيه أنّ هذا الكتاب منزل من الله،و الله هو العزيز الحكيم بين فى الآيه الثالثه بعض تجليات العزّه و الحكمه،فقال:

مَّا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى لَّعَلَّ خَلْقَهَا عَلَىٰ عَظَمَتِهَا هَانَتْ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ لَهَا تَنَزَّلْنَ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ وَاتَّقِينَ اللَّهَ الَّذِي تَخَوَّيْتُمْ مِنْهُ إِذْ تُبْعَثُونَ وَاتَّقِينَ اللَّهَ الَّذِي تَخَوَّيْتُمْ مِنْهُ إِذْ تُبْعَثُونَ وَاتَّقِينَ اللَّهَ الَّذِي تَخَوَّيْتُمْ مِنْهُ إِذْ تُبْعَثُونَ  
كان قائما على أساس الحق فهو إذا حكيم.

و نستوحى من هذه الآيه أنّ حكمه الله اقتضت محدوديه الخلقه،فلكلّ شىء يه أجل محدود،و حد محدود،هكذا يكون الزمان جزء من حقيقه الخلقه،و ربما انفتحت أمامنا آفاق واسعه لو تدبرنا أكثر فأكثر فى حرف الباء الذى يستخدم للاستعانه،و تساءلنا:لماذا ذكره السياق فيما يتصل بالأجل كما ذكره عند الحديث عن الحق،فهل يمكن أن نستنتج أنّ الحق و الأجل هما ركيزتا الخلق،على أن يكون الحق هو المعبر عن النظام الحق الذى يسيّر الخلقه،و الأجل هو الجانب

المادى للخليقه، ثم هل نستطيع أن نقول أن الحق تجلّ لاسم الحكمه، والأجل لاسم العزّه؟ أنى كان فإن الله يشير فى مواقع عديده من القرآن إلى مثل ذلك، فيقول -مثلا- فى سورة الأعراف (آيه ٥٤): إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسِيحِرَاتٍ بِأَمْرِهِ، و يقول فى سورة فضيلت (آيه ٩-١٠): قُلْ أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنْزِلَ .

و لا بد أن نعيش هذه الحقيقه فيما يتصل بموقفنا من الوقت الذى هو جزء من حقيقتنا، و انّ وعى الزمن ركيزه أساسيه فى حكمه البشر، و سلامه عقله، و تنامى حضارته.

لا- بدّ أن نعرف أننا- نحن البشر- كسائر الأشياء الأخرى، يحدونا الليل و النهار، و يتعقّبنا الموت، و إذا ينبغى علينا أن نخاف و نخشى، ليس لأنّ حياتنا الدنيا ستنتهى و يقفل الموت أبوابها، بل لأنّ النهايه ستلقى بنا و إلى الأبد فى واحده من اثنتين إما روضات النعيم و إمّا حفر الجحيم.

و لأهميه العلم بهذه الحقيقه كان الامام على -عليه السلام- يذكّر بها أبناءه و أنصاره فى مواظبه البليغه، فترى يذكّر بها-مثلا-

فى وصيته لابنه الحسن -عليه السلام- حيث يقول فى أولها:

«من الوالد الفان، المقر للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدنيا، الساكن مساكن الموتى، و الطاعن عنها غدا، إلى المولود المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، و أسير الموت، و حليف الهموم، و قرين الأحزان،

و نصب الآفات، و صريع الشهوات، و خليفه الأموات». ثم يشرع فيها عليه السلام و كان ممّا قاله خلالها: «و ذلك- قلبك- بذكر الموت، و قرّره بالفناء...، و حدّره صوله الدهر، و فحش تقلّب الليالي و الأيام»، «و اعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياه، و أنّ الخالق هو المميت، و أنّ المفنى هو المعيد»، «و اعلم أنّ أمامك عقبه كؤودا، المخفّ فيها أحسن حالا من المثقل، و المبطن عليها أقبح حالا- من المسرع، و أنّ مهبطك بها لا- محاله امّا على جنه أو على نار، فارتد لنفسك قبل نزولك، و وطئ المنزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعتب، و لا إلى الدنيا منصرف»، «و اعلم يا بنى أنّك أنّما خلقت للآخرة لا للدنيا، و للفناء لا للبقاء، و للموت لا للحياه، و أنّك فى قلعه، و دار بلغه، و طريق إلى الآخرة، و أنّك طريد الموت، الذى لا ينجو منه هاربه، و لا يفوته طالبه، و لا بدّ أنّه مدركه، فكن منه على حذر أن يدركك و أنت على حال سيئه، قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبه، فيحول بينك و بين ذلك، فاذا أنت قد أهلكت نفسك»، «يا بنى أكثر من ذكر الموت، و ذكر ما تهجم عليه، و تقضى بعد الموت إليه، حتى يأتيك و قد أخذت منه حذرک، و شددت له أزرک، و لا يأتيك بغته فيبهرک»، «رويدا يسفر الظلام، كأن قد وردت الأضغان، يوشك من أسرع أن يلحق! و اعلم يا بنى أنّ من كانت مطيته الليل و النهار، فأنه يسار به و إن كان واقفا، و يقطع المسافه و إن كان مقيما و ادعا»، «و اعلم يقينا أنّك لن تبلغ أملك، و لن تعدو أجلک» (١) هكذا أشبع عليه السلام وصيته بتلك الحقيقه، و لو نظرنا فى خطبه و رسائله و حكمه فى نهج البلاغه لرأينا أنّ أغلبها يركّز على تلك الحقيقه و تحوم حولها.

و هكذا القرآن الحكيم يذكّر البشر بالموت و النشور و الحساب و الجزاء، و أنّ الإنسان محدود، و أنّه إذا جاءه أجله لا يستأخر ساعه و لا يستقدم، و لكنّ أكثر

ص: ١٢٧

الناس لا يعقلون هذه الحقيقة، سادرين في الغفلة حتى ينتهي أجلهم، ويفاجئهم الموت.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ وَالْعَلاَقَةُ مَتِينَةٌ بَيْنَ خَاتَمَةِ الْآيَةِ وَ فَاتِحَتِهَا، حَيْثُ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مَسْمُومٍ، ثُمَّ تَتَرَى عَلَيْهِمْ نَذْرَ رَبِّهِمْ فَيَعْرِضُونَ عَنْهَا.

[٤] و قد يتَهَرَّبُ الإنسان من هذه الحقيقة بالشرك الذي هو حجاب بين الإنسان و بين فهم الحقائق، فيزعم بأن شيئاً ما يستطيع إنقاذه من قبضه الموت أو الحساب من بعده.

قال الامام على عليه السلام: «ما رأيت إيماناً مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان، إنه كل يوم يودع إلى القبور و يشيع، و إلى غرور الدنيا يرجع، و عن الشهوة و الذنوب لا يقلع» (١).

و

قال الامام الصادق عليه السلام: «لم يخلق الله عزّ و جلّ يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت» (٢).

إنّ الناس كلّهم يموتون، و هذه حقيقة لا شك فيها، و لكنّ أغلبهم يتصوّرون في خبيثه أنفسهم أنّهم يبقون و يخلدون في الدنيا، و لعلّ سبب ذلك هو فظاعه تصوّر الموت و ما وراءه من حساب دقيق و جزاء أوفى، و لذلك تراهم يتشبّثون بأيّ تبرير ليقتنعوا أنفسهم بأنّهم لا يموتون أو لا يحاسبون، و هنا تنعقد نطفة الشرك و التوسّل بغير

ص: ١٢٨

١-١) بحار الأنوار/ ج ٦/ ص ١٣٧

٢-٢) المصدر/ ص ١٢٧

اللّه ابتغاء إنقاذهم من مصيرهم المحتوم، فقد يتصوّرون المال منقذا لهم من الموت، فتراهم يجمعون البلايين من الدولارات، و يحرصون في الحصول على الأكثر، بالرغم من أنّ تلك الأموال الهائلة تكفيهم و تكفي ذريّاتهم إلى عشرات الأجيال، ولكنهم لا يريدون المال للعيش به، و إنّما لسد النقص الذى يشعرون به فى أنفسهم، إنّهم فعلا- يفتشون عن الخلود، و يخافون العقابه المرّه، يقول تعالى موضحا هذه الحقيقه:

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ\* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (١)، « وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » (٢)، و قد يتصوّرون السلطه سببا للفرار من الموت، و وسيله للهروب من الفناء، قال تعالى عن فرعون: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْمَأْرَضِ بَغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣)، و قد يتصوّرون أنّ القوه المحدوده التى يملكونها تحجز عنهم أمر اللّه فيهم بالموت أو الحساب أو العذاب، قال تعالى: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ « (٤).

و لكن كلّ تلك التصوّرات زائفه، و لهذا يقول الرب: أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ (٥)، و يقول عزّ و جل: وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (٦)، فأنت كنت تخاف من سكره الموت، و حتى تخلّص نفسك منها و لو عبر عمليه الخداع الذاتى أشركت باللّه ما ليس لك به علم، و الآن هل يمكن أن يغنى عنك ذلك الشريك شيئا؟ كلا.. فهى قد جاءتك، و ستذوق مراره الموت، و تتحسس عنفه و فظاعه نزعاته.

ص: ١٢٩

١-١) الهمزه ٢-٣

٢-٢) الشعراء ١٢٩/

٣-٣) القصص ٣٩/

٤-٤) الحشر ٢/

٥-٥) النساء ٧٨/

٦-٦) ق ١٩/

و فى الحقيقه: لو يتفكر الإنسان و يتعمق فى واقع أمر الشركاء يعلم بفطرته أنهم لا يغنون عنه شيئاً، و لكنّه يشبه ذلك الغريق الذى يتشبث بكلّ حشيش، مع علمه بعدم جدوائيتها، و إنّما يريد أن يقنع نفسه بأنه يعمل على إنقاذها.

كلّا.. إنّ فطره الإنسان تهديه إلى أنّ الشريك الذى يتخذه من أجل إنقاذ نفسه لا بد أن يكون ذا قوه كافيه، لا بد أن يخلق شيئاً فى الأرض (حتى يتساوى مع خالق الكائنات و لو بقدر محدود) أو يمتلك سلطه ما فى إداره السماوات.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَ هُمْ يَعْرِفُونَ -حقاً- أنّ شركاءهم ليسوا كذلك، و لا- لهم علاقه بالله يوظفونها لمصلحه المشركين إذا فآين حجتهم فى ذلك؟ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَأَيُّ كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيهِ دَلٌّ عَلَىٰ أَنْ لِلَّهِ شَرِيكًا؟ أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ وَ أَى بَقِيَّةٍ مِنْ بَقَايَا الْعِلْمِ، دَلَّتْ عَلَىٰ أَنْ لَهُ شَرِيكًا؟ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِذَا كَانَ بِمَكَانِكُمْ أَنْ تَأْتُوا بِبِرْهَانٍ فَأْتُوا بِهِ، مِنْ كِتَابٍ يَتْلَىٰ أَوْ حَدِيثٍ يَرُوى؟ و لكن من لا- برهان له يتشبث بأفكار باطله، مع علمه بكذبها، و إنّما لكى يخلص نفسه من مواجهه الحقيقه المرّه، و هذه ضلاله خطيره، فهو كمن يفقد عزيزاً

و يصعب عليه امتصاص صدمه فقدته فيبادر قائلاً: كلاً.. إن غير ميت.

[٥] وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ هَكَذَا هُمُ الشُّرَكَاءُ إِنَّهُمْ لَوَدَعَهُمُ الْإِنْسَانُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمَّا اسْتَجَابُوا لَهُ، بَلْ هُمُ غَافِلُونَ عَن دُعَائِهِمْ يَشْغَلُهُمْ شَأْنُهُمُ الْخَاصُّ عَن شَأْوَنِ الدَّاعِينَ، وَ سِوَاكَ كَانَ الشُّرَكَاءَ الْحَجَرِيَّةِ، أَوْ الْأَمْوَاتِ مِمَّنْ يَزْعُمُ الشُّرَكَاءُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُمْ شَفَعَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ الْأَصْنَامَ الْبَشَرِيَّةَ الَّتِي تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَبَبًا لُغْفَلْتَهُ عَمَّنْ يَدْعُونَهُمْ، أَمَّا الْأَحْجَارُ فَانْهَالًا - تَعَى شَيْئًا، وَ أَمَّا الْأَمْوَاتُ فَهَمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ مُجَزَّيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَ أَمَّا سُلَاطِينَ الْجُورِ وَ الْمُتَرْفُونَ وَ أَشْيَاعَهُمْ فَهَمُ لَا هُونَ بِمِصَالِحِهِمْ عَن مِصَالِحِ مَنْ يَشْرِكُ بِهِمْ.

[٦] وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ الْمُشْرِكُونَ بِشُرَكَائِهِمْ وَ يَعَادُونَهُمْ، وَ يَقُولُونَ لَهُمْ: أَنْتُمْ الَّذِينَ ضَيَعْتُمُونَا، وَ أَدْخَلْتُمُونَا النَّارَ، وَ قَدْ قَالَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ كَرِيمِهِ يَصُورُ لَنَا الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ\* وَ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنَ اللَّهِ (١).

[٧] وَ أَمَّا الرِّسَالَةُ، فَكَيْفَ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ مَعَهَا؟

ص: ١٣١



و الجواب: إنهم من أجل رفض الأفكار القرآنيه السليمه كانوا يلفقون تهما و يلصقونها بها.

وَ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ إِنَّهَا آضِحَةٌ بَيْنَهُ، حتى لتكاد تكرههم بقبولها، و لكنهم يصدّون عنها بقوّه، و يمنعون عن أنفسهم نورها بإصرار، كالذى يهرب من الغيث أن يصيبه رذاذه أو الشمس أن تحوطه أشعته.

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ حينما يأتيهم الحق يقولون بكلّ وقاحه: إنّه سحر مبین. لما ذا؟ لأنّه يهيمن عليهم، و لا يدعهم يواجهونه بدليل و برهان.

إنهم يقولون: هو سحر، فيقال لهم: ما هو دليلكم على بطلانه؟ فيقولون: ليس عندنا دليل، و لكنّه سحر! هكذا يعادى الإنسان الحق، حتى أنّه يتهم نفسه بفقدان الاراده و الوعي و يقول: أنا أصبحت مسحورا، كلّ ذلك ليخلص نفسه من مسئوليّه الايمان بالرساله.

[٨] و البعض الآخر يقول: إنّه افتراء على الله، و إذا كان قولهم أنّه سحر دلّ بوضوح على مدى تأثير الرساله عليهم و أخذها بمجامع قلوبهم، و سدّ الطريق أمام تحرّصاتهم، حتى أنّهم اعترفوا بقدرتها و بعجزهم عن مقاومتها، فإنّ كلمتهم التى زعموا بها أنّ الرساله افتراء دلّت على أنّ الرسول لم يكن يدعو الناس إلى نفسه بل إلى ربّه، ممّا دعاهم إلى اتهامه بأنّه مفتر.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ وَلَكِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ بِوُجُوهِ الْاِفْتِرَاءِ، وَ أَنَّهُ لَوْ افْتَرَى حَدِيثًا عَلَى اللَّهِ فَسَوْفَ يَعْذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا، وَ كَانَ يَعْتَرَفُ بِذَلِكَ عِبْرَ ذِكْرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ.. فَكَيْفَ يَدِينُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ؟! كَيْفَ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ جَزَاءَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ أَنَّهُمْ لَا يَفْلَحُونَ، وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ؟! قُلْ إِنَّ افْتَرِيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فَالرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَعْلَمُ يَقِينًا بِأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِ عُلْمًا، وَ إِنَّمَا يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَ مَنْ لَا يَعْلَمُ بِأَنَّهُ يَحِيطُ بِهِ عُلْمًا، وَ يَعْلَمُ مَا يَدُورُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْآخِرِينَ مِنْ حَدِيثٍ، عَلْنَا أَوْ سَرًا.

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ مِنْ تَخَرِّصَاتٍ أَوْ تَهْمٍ حَوْلَ الرِّسَالَةِ، وَ هُوَ يَحَاسِبُكُمْ عَلَيْهَا جَمِيعًا.

كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ يَبْدُو أَنَّ هَاتَيْنِ الْبَصِيرَتَيْنِ (عِلْمُ اللَّهِ بِمَا يَسْتَرْسِلُونَ فِيهِ مِنْ كَلَامٍ، وَ شَهَادَتُهُ عَلَيْهِ) هُمَا الْعِلَاجُ النَّفْسِي وَ الْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَيْهِمْ. أَوْ لَيْسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَأْمَنُ فِي قَرَارِهِ نَفْسَهُ بِكَذِبِهِ، وَ لَكِنَّهُ غَافِلٌ عَنِ أَبْعَادِ جَرِيمَةِ نِكْرَانِهِ لِلْحَقِّ، فَيَذْكُرُهُمُ الْقُرْآنُ بِاللَّهِ الَّذِي يَحِيطُ عُلْمًا بِمَا يَقُولُونَ، وَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ شَهَادَةً تَمَثَّلُ بِنَصْرِهِ لِلْحَقِّ وَ خِذْلَانِهِ لِلْبَاطِلِ وَ أَهْلِهِ.

وَ هُوَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ مَا هِيَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْمُقْطَعِينَ: كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغُفُورُ

الرَّحِيمُ؟ ربما العلقه هى أن الله شهيد على الإنسان، يعلم انحرافه و ضلاله، و لا يرضى عنه و يبغضه، و لكنّ لأنه غفور رحيم فهو يمهل لفته معينه إذا لا تقل أيها الإنسان: أنا سأكفر بالله و ليأخذنى إن كان يحب رسالته، لأنه غفور رحيم، يتركك تعصى لمدّه معينه رحمه بك، و إذا لم ترعو و لم تراجع نفسك و لم تعد إلى الحقيقه فإنه يأخذك أخذ عزيز مقتدر.

ص: ١٣٤

إشاره

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُفٌّ قَدِيمٌ (١١) وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

اللغه

(٩) بدعاً: جديداً بديعاً.

هدى من الآيات:

الحقّ هدفنا، و الحق القديم الذى يصدّقه الرسول الجديد يتّبع، بينما الباطل المبتدع لا- بد من نبذه، حتى و لو احتفظ بطراوه الحداثه.

يبدو أنّ هذه الحقيه هى محور الدرس الذى يفتح بأنّ نبينا الأكرم جاء خاتما لسلسله الأنبياء الكرام فهو ليس بدعا، و هو لا يدعى الالوهيه إنّما إبلاغ رسالات ربّه، و يصدّقه شاهد من بنى إسرائيل (فكتابه امتداد لتلك الرساله التى أوحيت الى موسى عليه السلام)، و إنّما استكبر عنه البعض لظلمهم و الله لا يهدى القوم الظالمين.

و حين يبادر الصالحون للإسلام يرفضه المستكبرون، و يقولون: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ! ثمّ يهتمون الرساله بأنّها إفك قديم، لأنّهم لم يهتدوا بها.

و فعلا الرساله ذات امتداد فى عمق التاريخ لأنّها تصدّق ما نزل على موسى إماما

ثم يأمر القرآن بالاستقامه على التوحيد(و مواجهه البدع)و هى ثمن الجنه.

### بينات من الآيات:

[٩]للناس فى الرسالات و الرسل مذاهب ثلاث:

الأول:النفى المطلق،و إذ لم يعرف هؤلاء كيف يبعث الله الرسل اتبعوا جهلهم و أهواءهم و أنكروا الرساله رأسا.

الثانى:إنّ صله الرسل بربهم صله تكوينيه،بمعنى أنّ الرسل-عليهم السلام- هم قطعه منفصله عن الإله و نازله الى الدنيا.

و بهذا يزعمون أنّهم يحلّون المشكله و يعرفون كيف يتم الاتصال بين الخالق و المخلوق،إذ أنّ هذه الصله كانت قديمه،و هى أساسا صله تكوينيه،فكيف يكون واحد منهم يأكل الطعام،و يمشى فى الأسواق،و يشبههم فى كلّ شىء من حياته، كيف يكون أعلى و أفضل منهم؟!لا- بد أن يكون جنسه مختلفا عن جنسهم،و ذاته غير ذواتهم،و لا- بد أن يكون من أنصاف الآلهه و من طبيعتها.

الثالث:إنّ الأنبياء و الرسل هم مثل سائر البشر،و لكنّ الله تعالى ميّزهم بالرساله،حيث جعلها فيهم جعلاً،و لو شاء لسلبها منهم،فهى تشبه المصابيح فى الغرفه فإن لم يكن وهاجا لن يحوّل الغرفه إلى واقع نورانى،إنّما سينعكس النور عليها ما دام الضوء متّقدا.

هكذا الرساله،فما دام روح القدس مؤيّدا للنبي فهو نبي،فاذا افترضنا -جدلا- أنّ ربّنا أراد-بمشيئته المطلقه-أن يسلب روح القدس منهم فإنّهم يصبحون

و علم الرسل هكذا، ليس علما ذاتيا، وإنما هو مضاف إليهم من عند الله الذى يهب لهم موجات من المعرفة تلو موجات من العلم بقدر ما شاء، وإذا أراد أن يسلبها منهم فإنه على ذلك قدير.. و لهذا ينبغي أن لا نذهب بعيدا فيما يتصل بالأنبياء عليهم السلام، بل نعرف أنهم يعلمون ما يشاء الله و يجهلون ما سوى ذلك، فكيف لم يكن يعقوب عليه السلام و هو من أنبياء الله العظام يعلم بمكان يوسف عليه السلام؟! و كيف لم يكن إبراهيم عليه السلام يعلم بأن السكين الذى وضعه على أوداج إسماعيل لا يفريها؟! الجواب ببساطه: لان الأنبياء بشر، و الله يغيب عنهم ما يشاء من العلم.

و هذا يفسر قوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ» (١) فغيب الله له و ليس لأحد، و هو علام الغيوب، و عنده مفاتيح الغيب، و لا يعلم الغيب إلا هو، و لكنه يعطى قدرا منه لأنبيائه لحكم معينه.

و هكذا تحل عقده الغرابه من ابتعاث الرسل، و تعالج المعضله التى يتشبث بها الكافرون، و التى كانوا يعودون إليها كلما بعث إليهم نبي جديد مع أنه سبقه إخوانه فى رساله.

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِّنَ الرُّسُلِ إِنَّ بَعْضَ الظَّوَاهِرِ الكُونِيهِ تَتَكَرَّرُ كُلَّ يَوْمٍ، و بَعْضُهَا كُلَّ أُسْبُوعٍ، و بَعْضُهَا تَتَكَرَّرُ كُلَّ سَنَةٍ، و بَعْضُهَا كُلَّ قَرْنٍ، و من الظواهر التى تتكرر بين فتره و أخرى الحروب، فهى إحدى الظواهر الاجتماعيه التى تقع عادة بين الحين و الآخر، و نحن نعتزف بوجودها بالرغم من غرابتها الشديده، لأنها واقعه و تقع فى المستقبل

و هكذا بالنسبه للرسول، فهم حتما و جزما يرسلون من قبل الرب، ما دامت العوامل المؤيده لإرسالهم متوفره.

و هنا يأمر الله عزّ و جلّ رسوله الأكرم صلى الله عليه و آله بأن يوضح للناس هذه الحقيقه، فكونه رسولا مبعوثا من قبل الله ظاهره متكرره و سنّه جاريه، و لا داعى للغرابه.

و لكن-من جهه أخرى-ليس علم الرسول من ذاته.

وَ مَا أَذْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ بِهِ وَلَا بِهِمْ إِلَّا بِقَدَرِ مَا يُشَاءُ اللَّهُ، بمعنى أنّه لا يدري كلّ ما يفعل به و بهم إلاّ فى حدود رسالته، لأنّ الرسول صلى الله عليه و آله بشر كسائر الناس لا يعلم ماذا سيحدث مستقبلا بذاته بلى. إنّ الرسول-مثلا- يعلم أنّ الناس جميعا سيموتون و نحن كذلك نعلم ذلك، أمّا معرفه التفاصيل و الاطلاع على دقائق الأمور فإنّ الله سبحانه يزيده منها بقدر مشيئته الحكيمه.

و الرسول-كما يبدو من هذا المقطع من الآيه-لا يعلم كلّ التفاصيل المستقبلية، و إنّما عليه أن يتبع الوحي الذى ينزل عليه حسب الحكمة الالهيه.

إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ قَدْ ذَهَبَ الْمَفْسُورُونَ مَذَاهِبَ شَتَىٰ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، و يبدو لى أنّها ظاهره بل صريحه فيما قلناه آنفا، فإنّ عدم معرفه الرسول بما يفعل به أو بهم لا يشمل ما يوحى إليه، و لا ريب أنّه سبحانه أوحى إليه أنّ له عند ربّه مقاما محمودا، و أنّ المجرمين من أعدائه فى سقر.

وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

ص: ١٣٩



فأنا لست كفيلكم، ولا وكيلا عنكم.

و هذه الفكرة تتكرّر كثيرا فى القرآن الحكيم، و ذلك لما لها من أهميه فى دفع الإنسان للإيمان بالرساله و تحمّل المسؤوليه، لأنّ الإنسان الذى تدعوه إلى الله لو علم بحقيقه أنّك لست مسئولا عنه، و أنّه هو المسؤول عن نفسه، فإنّه ربما يكون ذلك مشجعا له على التحرك الذاتى، و بالتالى يهتدى إلى الحق.

[١٠] عند ما يكون الخطر كبيرا يكفينا أذنى احتمال فى وقوعه لكى نتخذ التدابير اللازمه لدرئه. أ رأيت لو خشيت من انفجار يقع فى بيتك أ فلا تتركه فورا، حتى و لو كان افتراض وقوعه بنسبه ٥٪ فقط؟ إنّ أكثر إجراءات السلامه فى أوقات الحرب بل حتى أيام السلم تهدف درء احتمالات ضئيله، إلا أنّ أهميتها تنبع فى أنّ الأخطار التى تهدف درءها عظيمه.

إننا لا نتخذ إجراءات وقائيه كبيره إذا خشينا الاصابه بنزله برد طارئه، حتى و لو كان الخوف بنسبه ٥٠٪، و لكننا نتقى خطر الموت حتى و لو كان بنسبه ١٠٪ أو حتى ١٪. أليس كذلك؟ و كما فى الجانب السلبي كذلك فى الجانب الايجابى، فلا ريب أنّنا لا نغير اهتماما لاحتمال حصولنا على ربح ضئيل، و إن كانت إمكانيه ذلك كبيره مثلا بنسبه ٩٠٪، و لكن كلكم ازداد الربح فإنّ اهتمامنا باحتمالاته يزداد حتى يصل إلى الاهتمام به إذا كان بنسبه ١٠،٠٪ - ترى كم هى نسبه حصولك على الجائزه فى عمليه اليانصيب، لا- ريب أنّها أقل من واحد بالألف، و لكن لما ذا تهتم بها؟ أليس لان الجائزه كبيره يسيل لها اللعاب؟ و الآن دعنا نتساءل: اولا تستحق الحياه الأخرى، بما تحمل من إنذار بعذاب

ص: ١٤٠

شديد خالد، و من بشاره بنعيم عظيم دائم، الاهتمام بها و بإمكانيه وقوعها حتى و لو كان بنسبه ضئيله جدا؟! كيف و أن نسبه احتمالها مرتفعه حتى عند الجاحدين بها لتواتر الأدله عليها؟! قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ فكم تكون خساره البشر عظيمه عند ما يكفر برساله ربّه، و يتحدّى خالقه و رازقه و من إليه مصيره؟! إن هذا التساؤل يهزنا من الأعماق، و يجعلنا نبدأ مسيره الشك المنهجى فيما نسترسل فيه من الأفكار و القناعات.

و حتى بالنسبه إلى المؤمنين برسالات الله ينبغى أن يكسروا حاله الجمود الفكرى، و يتساءلوا فى أنفسهم: كم هى عظيمه رسالات ربهم، و كم حظهم عاثر لو استخفوا بها أو لم ينفذوا كلّ تعاليمها؟ حقاً: إنه يسقط عنا-نحن المؤمنين- حجاب العاده التى تمنع إيماننا من التسامى، كما يسقط عن الآخرين حجاب الاستكبار الذى يمنعهم عن رؤيه شواهد صدق الرساله، فتراهم-مثلا- يغفلون عن شهادة العلماء بصدق الرساله، و لا يسألون أنفسهم: كيف أسلم علماء بنى إسرائيل للرساله الجديده، كأمثال عبد الله بن سلام الذى كان معروفا عندهم بالصدق و النزاهه.

وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّنَ بِالرَّغْمِ مِنْ مَخَالِفِهِ الْإِيمَانَ ظَاهِرًا لِمَصْلَحَتِهِ. أليس يفقد مكانته عند قومه كقائد، و يصبح جندياً فى جيش الإسلام؟

وَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنِ الْحَقِّ، فَلَمْ تَوْمِنُوا بِهِ بِالرَّغْمِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَوَاتَرَتْ عَلَى صَدَقِهِ.

بلى إنّ الحجاب الكبير الذى يحجز نور الايمان عن قلوبهم هو استكبارهم فى الأرض، و ظلمهم للناس. أو ليس الظلم ظلما دامسا؟ إنّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١١] ما الذى يمنع الظالمين من الايمان بالرساله؟ إنّهُ استكبارهم على الناس، و اعتقادهم بتميزهم عنهم، حتى لو سبق طائفه منهم إلى الايمان بالرساله كفروا بها ترفعا عن التساوى معهم، و قالوا: كيف نسمح لأنفسنا أن نكون عند الناس من اللاحقين، بينما يسبقنا إلى الرساله من هم أدنى منا؟ إذا دعنا نكفر بها خشيه العار! وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ لَقَدْ كَانَتِ الْقِبَالُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَدِيدَةً بِالْخِلَافِ بَيْنَهَا، تَعَالَى عَلَى بَعْضِهَا، وَ لَا تَرْضَى أَنْ تَعْتَرَفَ بِأَيِّهِ فَضِيلَةً لِبَعْضِهَا، فَإِذَا آمَنَتْ قَبِيلَةٌ كَفَرَتْ الْمُنَافِسَةُ لَهَا حَتَّى لَا تَسْجَلَ لِحُصْمَتِهَا نَقْطَةً عَلَيْهَا.

مثلا كانت قبيلة غفار البدويه تستصغر من قبل قريش، و تسميها الحلفاء استهانها بها، فلما أسلم أبو ذر الغفارى و أسلمت معه قبيلته قالت قريش: غفار الحلفاء!! لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه. (١)

ص: ١٤٢

---

١- ١) قال ابن المتوكل أنّ الآيه نزلت فيهم (تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٨٩).

و هكذا كُفرت بنو عامر و غطفان و تميم و أسد و حنظله و أشجع، و قالوا لمن أسلم من غفار و جهينه و مزينه و خزاعه: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا إليه رعاه البقر البهم إذ نحن أعز منهم. (١)

كما أنّ اليهود الذين استوطنوا الجزيره العربيه بزعم انتظارهم للنبي الموعود فيها كفروا بالنبي بعد إيمان العرب به، و قالوا: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .

كما أنّ قريشا كُفرت بالرساله حين رأت مبادره الموالى من أمثال بلال و صهيب و عمّار إليها. إنهم كانوا يبحثون عن دين يقوى نفوذهم فى الطبقات الدنيا لا أن يساويهم بها.

و هكذا اليوم نجد الدعوات الصلاحيه التى يستجيب لها المحرومون و المستضعفون تلقى الصّدّ من قبل المترفين و المستكبرين، بدعوى أنّنا أعرف منهم و أعلى مقاما فلا- يجوز أن نعترف بحقوقهم أو بميزتهم علينا فى السبق إليها. أو ليس السابقون هم المقربون؟! كما أنّ بعض السفهاء يخالفون الحق و يمنعون عن أنفسهم خيراته لمجرد أن منافسيهم سبقوهم إلى الايمان به. إنّ ذلك من بقايا العصبية الجاهليه التى تمنع نور الهدى.

وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ بسبب عصبيةتهم و ظلمهم و استكبارهم فإنّهم يبحثون عن تبرير لجحودهم يقنعون به الضعفاء منهم، بل و يريحون نفوسهم التى تلومهم أبدا على ترك الحق، فتراهم يتهمون الرساله بالإفك.

ص: ١٤٣

---

١-١) قال الكلبي و الزجاج و حكي عن ابن عباس ان الآيه نزلت فيهم (المصدر ص ١٩٠).

فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ وَ هَكَذَا يَتَسَاوَلُ الْجَاهِلُ فِي دَرَكَاتِ الْكُفْرِ ابْتِدَاءً مِنْ ظَلَمِهِ لِلنَّاسِ وَ اسْتِكْبَارِهِ عَلَيْهِمْ، وَ مَرُورًا بِالتَّشْبِيهِ بِدَلِيلٍ ضَعِيفٍ أَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَ انْتِهَاءً بِوَضْعِ نَظَرِيهِ مَعَادِيهِ وَ اتِّهَامِ الرِّسَالَةِ بِأَنَّهَا إِفْكٌ قَدِيمٌ، كَمَا قَالُوا بِأَنَّهَا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

[١٢] كَلَّا.. إِنَّهَا رِسَالَةُ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي تَشْهَدُ حَقَائِقَ التَّارِيخِ بِصِدْقِهَا، وَ أَعْظَمَ مَا يَصَدِّقُهَا أَنَّ بَعْضَهَا مُصَدِّقُ الْبَعْضِ.

وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً فَهُوَ بِرَنَامَجٍ لِلْاِقْتِدَاءِ، وَ رَحْمَةً لِمَنْ اِقْتَدَى بِهِ.

وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِلسَّانِ عَرَبِيًّا فَهُوَ لَيْسَ إِفْكًا قَدِيمًا كَمَا زَعَمُوا، بَلْ صَدَقَ شَهِدَتْ أَحْدَاثُ التَّارِيخِ عَلَى نَفْعِهِ الْعَامِّ لِلنَّسَانِيَةِ. أَفَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ كَانَ كِتَابُ اللَّهِ النَّازِلُ عَلَى مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنْقَذَهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ وَ الْاِسْتِضْعَافِ وَ الْحَرَمَانِ حِينَ طَبَّقُوهُ؟ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَالطَّغَاهِ وَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَ الْمَتْرَفُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا النَّاسَ لَا يُمْكِنُهُمْ اتِّخَاذُ الْقُرْآنِ وَسِيلَةً لِاسْتِثْمَارِ الْآخِرِينَ كَمَا تَهْوَاهُ أَنْفُسُهُمْ، بَلْ جَاءَ الْكِتَابُ لِانذَارِهِمْ وَ لَانْقَاذِ الْمَحْرُومِينَ مِنْ ظَلَمِهِمْ.

وَ بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ

من أيه طبقه كانت، فاذا آب أولئك إلى رشدهم و تابوا و أحسنوا فان لهم البشرى كما للمحرومين.

[١٣] التوحيد هو عباده الله أبدا، و عدم التسليم للآلهه المزعومه التى تعبد من دون الله باسم السلطه السياسيه أو النظام الاقتصادى أو الضغوط الاجتماعيه، و إنما يتبين توحيد الإنسان عند ما يتعرّض لإرهاب السلطه و ترغيب الثروه و مقاطعه المجتمع إذا استقام على الدين، و الكتاب بشرى للمحسنين الذين يتحدّون كلّ تلك الصعاب.

و لعلّ سياق الآيه يدلّ على ضروره الاستقامه أمام البدع الجديده التى تخلقها القوى المتسلطه، و تتهم الرساله بأنّها إفك قديم سعيًا وراء تغيير بعض بنودها الذى يخالف مصالحها، كلاً. لا بد من الاستقامه على أحكام الدين بلا تحريف أو تأويل أو نقص أو زياده.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [١٤] بالرغم من إرهاب الطغاه فأنّه لا خوف عليهم، لأنّ العاقبه لهم، و غدا حين ينتصر الحق لا يحزنون على ما فاتهم من الخيرات.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و حين يدخلون الجنه يعلمون أنّ الثمن الذى قدّموه لها كان زهيدا نسبه بما حصلوا عليه من ثواب الله العظيم.

و نستوحى من كلمه «جزاء» هنا أنّ الجنّه لا تعطى بالتمنّيات، إنّما هى ثمن الاستقامه و الصبر و التحدى.

وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِإِيتِيهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ  
 سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي  
 تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ  
 الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنِّي قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ  
 اللَّهُ وَبِكَ آمَنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم  
 مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ الْآرِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي  
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) وَ أَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَ قَدْ خَلَتْ الْأَنْدَادُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِن خَلْفِهِ إِلَّا  
 تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)  
 قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَبْلُغْكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا  
 عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ  
 نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

(٢٤) عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا: أى شيئاً كالسحاب ذى المطر عرض فى أفق السماء.

ص: ١٤٧



هدى من الآيات:

لكى ينظّم الإنسان علاقته سليمة مع والديه و الجيل السابق لا بد أن يختار الرشد الذى يدعونه إليه، و يترك الغى، أما التمرد الذى يحدو إليه النزق، و الذى يدفع بعض الأبناء إلى اتّهام آبائهم بالرجعية، و الافتراء على الدين الذى يدعون اليه بأنّه من أساطير الأولين، فإنّه سفه و طيش لا يقل سوء عن تقديس الآباء و تقليد عاداتهم، و ردّ الدعاه الى الإصلاح.

فى هذا الدرس يوصينا الرب بالإحسان إلى الوالدين الذى هو عنوان العلاقة السلمية، حيث أنّه الطريق القويم بين التقليد الأعمى و التمرد الطائش.

كما يذكّرنا بأنّ عاقبه الطيش و التمرد النزق على الآباء هى الخسران.

بينما نقرأ فى الدرس التالى قصة الذين اتبعوا آباءهم الضالين، و لم يستجيبوا لداعى الله هود الذى أمرهم بالإصلاح، فكانت عاقبتهم الدمار.

و تعتبر العلاقة السليمه مع الآباء سمه إيمانيه، كما أنّ العلاقة الشاذّه عقبه كأداء في طريق الايمان.

### بينات من الآيات:

[١٥] بما تتميز الوصيه عن الحكم؟ ولماذا نجد في القرآن التعبير بالوصيه حيناً و بالحكم حيناً؟ لعلّ الوصيه تتصل بالقيم التي هي محتوى الأحكام، بينما يعبر عن النظام، و الذى هو منهج تطبيق القيم، فاذا كان التعبير بالحكم فلا بد من الالتزام بحدوده و حروفه و تفاصيله بدقه و صرامه، بينما إذا جاء التعبير بالوصيه فلا بد من الالتزام بالقيم بأيّه طريقه ممكنه، و بالمنهج الذى يراه العرف مناسباً.

و حين يأمر ربنا بالعدل فإنّ التعبير يأتى بصيغه الأمر: «اعْمِدُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» ذلك لأنّ العدالة قيمه تتحقق بالأحكام المفصله، و النظام الشامل، أمّا إذا كان الحديث عن الإحسان فإنّه يأتى بصيغه الوصيه، لأنّ الإحسان يتحدّد بالعرف و حسب ظروف كلّ شخص و منهجه.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا لَا بَدَّ أَنْ يَهْتَمَّ الْإِنْسَانُ -أىّ إنسان- بوالديه أتى كانا اهتماماً يبلغ درجه الإحسان، و هى فوق أداء حقوقهم القانونيه.

و يختلف الأمر بالإحسان عن الأمر بالطاعه اختلافاً كبيراً، ذلك أنّ الإحسان ينبعث من اليد العليا، بدافع الاحساس بالاستقلال و القدره، و صاحبه يقدر متى و كيف و بأيّ قدر يمارسه، بينما الطاعه حاله التسليم و الخضوع و فقدان الاستقلال و حسب الأمر الموجّه إليه دون أن يكون لصاحبه الحق في تقدير أىّ أمر منه.

و لم يأمر الإسلام بطاعه الوالدين بل بالإحسان إليهما، لأنّ الطاعه لله و للرسول

و لأولى الأمر، ولا يستطيع الوالدان أن يحزّما حلالاً أو يحلّلا حراماً، بل أمر بالإحسان إليهما، وقد يتجلّى الإحسان فى قبول أمرهما فيما لا يخالف الشرع و العقل، و يكون فيه فائده عائده إليهما.

و الدليل الذى يبيّنه السياق للوصيه بالإحسان إلى الوالدين يعمّ المؤمنين و الكافرين، البرّين و الفاجرين، حيث يعزى السياق ذلك إلى الجهود الكبيره التى بذلها فى سبيل تنشئه الولد.

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا فَمِنْ ذَاكَ السَّاعَاتِ الْأُولَى مِنَ الْحَمْلِ يَمْتَصُّ الْجَنِينَ طَاقَاتِ الْأُمِّ مِمَّا يَعْرِضُهَا لِلْإِرْهَاقِ وَ الْأَخْطَارِ، وَ كَلَّمَا تَقَدَّمَ بِهَا الْحَمْلُ كَلَّمَا زَادَتْ الصَّعُوبَاتِ الْجَسَدِيَّةِ، كَمَا تَزِيدُ عِنْدَهَا الْمَخَافُوفُ وَ الْهَمُومُ.

وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ قَدْ تَكُونُ الْوِلَادَةُ عَسِرَةً مِمَّا تَجْعَلُ الْأُمَّ تَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا.

ثم أنّ ذلك لا يتمّ عبر فتره بسيطه، بل يمتدّ أشهراً عديده، ممّا يجعل دين الأم عظيماً فى ذمّه الولد.

وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا فَخِلَالَ تِسْعِمَائِهِ يَوْمٌ تَقْرِيْبًا تَنْشَغَلُ الْأُمُّ بِوَلِيدِهَا. أ فَلَا يَنْبَغِي لِلْوَلَدِ بَعْدَ أَنْ يَشْتَدَّ عَوْدُهُ وَ تَخُورَ طَاقَاتُ أُمِّهِ أَنْ يَحْسَنَ إِلَيْهَا؟ بلى. و هذا من ديدن الرجل الصالح الذى قد تستمرّ رعايه الوالدين إليه حتى

يبلغ أشده، بل و يبلغ أربعين سنة و تكتمل رجولته.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنَهُ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَيَّ وَالْإِنْسَانَ الَّتِي بَلَغَ أَشُدَّهُ، هل عند ما يصل إلى سنّ البلوغ الشرعى الذى هو عند الفتى كمال سن الخمسه عشر أو الاحتلام، و عند الفتاه كمال التاسعه من عمرها، أم عند ما يبلغ سنّ الرشد الذى قيل أنّه بلوغ الثامنه عشر؟ قال البعض: إنّ الإنسان لا يبلغ أشده إلاّ عند سنّ الأربعين، بيد أنّ الأقرب الى ظاهر الآيه هو بيان نوعين من البلوغ: الأول: البلوغ الأوّلى الذى يجعل الفرد مستعدّا لدخول الحياه، الثانى: البلوغ الأتمّ الذى يحدث عند سنّ الأربعين حيث يكتمل نموّ خلايا المخ، و تتراكم تجارب الحياه، و يكون الإنسان فى قمّه عمره حيث ينحدر من بعدها شيئًا فشيئًا إلى نهايته، و من هنا جاء فى الحديث أنّ الشيطان يمسح يده على وجهه من زاد على الأربعين و لم يتب، و يقول: بأبى وجه لا يفلح.

و يؤيد ذلك أنّ الإنسان يمثّل فى العقد الأربعين من عمره دور الولد الذى أكمل الوالدان دورهما فى نموّه و تطوّره، كما يمثّل الوالد الذى ذاق -بدوره- الصعوبات التى تحمّلها والداه فى أمره فعرف قدرهما، و عى قدر النعم التى أسبغها الله عليه. فطفق يشكر الله شكرًا جزيلًا، و لكنّه كلّما ازداد وعيا بالحياه و مشاكلها كلّما عرف عجزه عن أداء شكر الله فأخذ يدعو الله أن يوفّقه لشكرهما بفضلله، لأنّ منبعث الشكر الرؤيه الايجابيه إلى الحياه، و هى تطلق قدرات الإنسان من عقال اليأس و التشاؤم و السلبيه، و تزرع فى قلبه حبّ السعى، و روح النشاط، و همّه التقدّم، و التطلّع إلى الأهداف الساميه.

وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ نَسْتَوْحَى مِنْ آيَةِ مِقْيَاسِينَ لَصَالِحِ الْعَمَلِ: المقياس الذاتى الذى يتمثل فى فائده العمل و صحته بحكم العقل و العرف، و المقياس الشرعى الذى يتمثل فى مرضاه الله التى نعرفها بالقيم الدينيه.. و المؤمن يتطلع لتحقيق العمل الصالح فى ذاته الذى يقرّ به شرعا إلى الله، و هو بالطبع ليس كلّ عمل صالح، بل الذى يقع ضمن استراتيجيه رساله، فمثلا: تعبيد الطرق عمل صالح، إلا أنه قد لا يكون مرضيا عند الله، كما لو ابتغى الفرد منه علوا فى الأرض أو فسادا، كذلك حين يكون هذا الفعل الصالح معارضا لعمل أولى كالدفاع عن الوطن أو مقاومه الطاغيه.

و هكذا يدعو الإنسان السوى ربّه التوفيق للقيام بعمل صالح مرضى عنده و ليس كلّ عمل صالح، كما يدعو إلى أن يكون امتداده فى الحياه و ذريته من الصالحين.

لقد سهر الآباء لتربيه هذا الجيل على الفضيله و التقوى، و أنفقوا فى سبيل إنشاء المدارس و المعاهد، و توفير الثقافه الحكميه، و بناء الجوامع و مراكز التوعيه و التوجيه، و قد أثمرت جهودهم فى بناء هذا الجيل الصالح. أ فلا نسعى نحن فى سبيل بناء الجيل الصاعد على ذات الأسس الصالحه؟ بلى. إنّ ذلك هو الشكر العملى على نعمه الصالح التى أسبغها علينا الرب.

### و أصلح لى فى ذريتي

إنّ صلاح الذريّه يكرّس مكاسب هذا الجيل الحضاريه، و يبقى لهم الذكر الحسن، و يكون بمثابة صدقه جاريه تغدق عليهم الثواب و هم مستريحون فى أجدانهم، و لعلّه لهذه الأسباب جاء التعبير القرآنى «لى»، بلى. إنّ فائده صلاح الذريّه لى قبل غيرى.

### إنى تبت إليك

ص: ١٥٢

فخلال رحله العمر ذات الأربعين ربيعا أزاغته الذنوب عن صراط ربّه العزيز الحميد، وقد ذهبت الآن شرّه السهو عنه، كما تلاشت لذّات الشهوات، وأزالت طوارق الزمن سكره الشباب، و اكتمل عقله، و عرف أنّ طريق الفلاح ينحصر في التوبه إلى الله عزّ و جلّ.

لقد قرأت أخيرا في مجلّه غربيّه واسعه الانتشار مقالا يدعو من بلغ الأربعين ألاّ يحاول تغيير عاداته، و يبدو أنّ الكاتب كان يعتمد في ذلك على أنّ الإنسان في مثل هذا الوقت لا يملك إرادته التغيير، و هذا ينسجم مع النظرة الماديّه إلى الإنسان، و تلخيص دوافعه في الشهوات الدنيويّه التي تتراجع عند سنّ الأربعين و يتلاشى بعضها ممّا لا يجد دافعا نحو التغيير، بينما البصيره القرآنيّه تدعونا إلى التوبه عند سنّ الأربعين، حيث يكتمل العقل، و تلتهب جذوه الضمير، و تنتهي فرصه الإصلاح، و تنامي دواعي الخير و بواعث الفضيله فيه.

و هكذا يكون عقد الأربعين أفضل مناسبه للثوره الذاتيه، بالتوبه إلى الله، و التسليم للشريعه التي تخاطب العقل، و تذكى دواعى السعى للآخره التي يكون صاحب الأربعين أقرب إليها من غيره.

وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فاذا دعتنى سكره الشباب الى التمرد ردحا من الزمن فها أنا ذا اليوم أعترف بالذنب، و أخضع لك يا ربّ خضوعا تاما، و أفتش في صفحات تاريخي، فاذا وجدت فاحشه هنا و خطيئه هناك، و ظلما للناس، و غصبا للحقوق، و انحرافا في العقيدّه، و زيفا في الثقافه، و عادات سيئه و ما أشبه، فأنّى أسعى لتغييرها و التخلّص من وزرها و تبعاتها بتوفيقك. أو ليس كلّ ذنب و زيغ و انحراف يخلف

أثره في قلب الإنسان، دعنا إذا نتخلص منه بالتوبه، لنظهر القلب من أدرانه، و السلوك من سيئات العادات، و نترك جانبا الاستخفاف بالقيم، و التهاون بالواجبات و السهو عن الصلاة و الزكاه و..و..

[١٦] و بالرغم من ابتعاد هذا الفريق من الناس حيننا عن الصراط السوى فإنّ توبتهم مقبولة، و يتقبل الله حسناتهم، و يتجاوز عن سيئاتهم، و يدخلهم الجنة مع الصالحين من عباده.

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا و إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، و قد يتقبل من غيرهم بعد توبتهم حيث يعتبرهم كالذين لم يذنبوا أبدا و هم المتقون من عباده.

و قال المفسرون: إنّ المراد من أحسن الأعمال الواجبات و المندوبات، بينما المباحات لا ثواب عليها بالرغم من حسناتها.

و قد يقال: إنّ لقبول الحسنات أيضا شروطا لا- تتوافر فيها جميعا فلا يتقبل الله منها إلاّ الأحسن، ممّا يبعث الإنسان إلى السعى لتحقيق كلّ شروط العمل الصالح. مثلا لا يقبل الله من الصلاة إلاّ ما التفت العبد فيها إليه، فلنقم الصلاة بحيث يتقبلها الله جميعا لا جزء منها هو الأحسن.

و نَتَجِدُ أَوْرَثَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ أَوْ لَيْسُوا قَدْ تَابُوا إِلَى اللَّهِ مِنْهَا تَوْبَهُ نَصُوحًا، و الله سبحانه هو التّوَابُ الرَّحِيمُ؟ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ أَخْلَصُوا لِلَّهِ حَيَاتِهِمْ، و أيّه كرامه أعظم لأمثالنا أن

يدخلنا الله في الصالحين من عباده و نحن ممن خلط عملا صالحا و آخر سيئا؟! وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ [١٧] و يضرب القرآن مثلا من واقع الصراع بين الأجيال، حيث يتمرد الجيل الصاعد على قيم الحق و تقاليد الصلاح عند الجيل السائد، لنعتر به ألا نهلك باتباعه.

وَ الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِّ لَكُمْمَا بينما الدّين أوصانا بالإحسان إليهما نجد هذا الفاسق يضجر من والديه اللذين هما أصل وجوده و كلّ خير فيه، و يقول لهما: أفّ لكما.

و كلّما يحذّره الوالدان من معبته الإيغال في الخطيئة ينهرهما، و يكفر بالجزاء قائلا:

أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ، كَلًّا. إِنَّهُ وَعَدَ مَكْذُوبٌ، ثُمَّ يَسْتَشْهَدُ بِمَا دَرَجَ عَلَيْهِ الْجَاهِدُونَ لِلْجَزَاءِ: بِأَنَّ الْقُرُونَ الْمَتَطَاوَلَةَ قَدْ مَضَتْ، وَ لَمَّا يُخْرَجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ. أَرَأَيْتَ مَيِّتًا أَحْيَاهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ أَقْبَرَ وَ أَوْقَفَهُ لِلْجَزَاءِ؟! كَذَلِكَ لَا أُخْرَجُ أَنَا.

وَ قَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي أَفَلَا- يعلم أنّ الحياه الآخرة تأتي بعد انقضاء الحياه الأولى، و يومئذ يبعث الله الأولين و الآخرين معا، و يحقّق وعده الحق؟ و هكذا يتمرد الفاسق على تربيته الوالدين و هما يبذلان كلّ جهد ممكن لإقناعه



بالحق، فإذا شعرا بالفشل استغاثا بالله أن يعينهما في إصلاح ابنهما الضال.

وَهُمَا يَسْتَتِعِيَانِ اللَّهَ وَالتَّربِيَةِ الْحَقَّ هِيَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي قَلْبِ الْوَلَدِ خَشْيَةَ اللَّهِ، إِذْ مَا قِيَمَهُ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَعْقَبَهَا الشَّقَاءُ الْأَبَدِي؟! وَيَلْكَ أَمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ وَ نَسْتَلْهُمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْمَنْهَجَ السَّلِيمَ لِتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ الَّتِي كَانَ يَتَّبِعُهُ الْوَالِدَانِ الْمُؤْمِنَانِ، وَ الَّتِي أَنْشَأَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ الْجِيلَ الصَّالِحَ الَّتِي أَحْتَرَمَ الْجِيلَ الْمَاضِيَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَ الِاسْتِغْفَارِ لَهُ، كَمَا عَمِلَ فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ جِيلٍ صَالِحٍ بِالْدَعَاءِ وَ الْعَمَلِ. وَ هَذَا الْمَنْهَجُ قَائِمٌ عَلَى أُسَاسِ تَوْسِيعِ رُؤْيَةِ الْوَلَدِ لِرُؤْيِ الْحَيَاةِ الْآخَرِي فَيُوزَنُ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ الدُّنْيَا فِي قَرَارَاتِهِ، فَيَسْعَى لَهُمَا سَعْيًا عَادِلًا، وَ لَا يَتْرُكُ إِحْدَاهُمَا لِلْآخَرِي، لِأَنَّهُمَا فِي الْوَاقِعِ حَيَاةٌ وَاحِدَةٌ مَمْتَدَةٌ مِنَ الْيَوْمِ حَتَّى يَوْمِ الْجَزَاءِ.

يَدُ أَنْ بَعْضُ الْآبَاءِ يَخْفَقُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَقْلُقُوا فَقَدْ أَدَّوْا مَسْئُولِيَتَهُمْ، وَ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا سُلْطَانًا يَكْرَهُانَ بِهِ وَلَدَهُمَا عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ. كَيْفَ وَ قَدْ خَاطَبَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ»، وَ قَالَ: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ».

وَ قَدْ خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ أَحْرَارًا يَبْتَلِيهِمْ، وَ لَعَلَّنَا نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَسْئُولِيَةَ الدَّعَاةِ وَ حَمَلَةَ الرِّسَالَةِ تَقْتَضِرُ عَلَى الْبَلَاغِ، وَ حَتَّى لَوْ كَانَتْ لَدَيْهِمْ قُوَّةٌ رَادِعَةٌ فَلَا يَسْتَحْسِنُ التَّوَسُّلَ بِهَا لِإِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّشْدِ، فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ لِلْوَالِدِينَ السَّيْطَرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَلَى الْوَلَدِ إِلَّا أَنَّهُمَا حِينَ يَقُومَانِ بِدَوْرِ الدَّعَاةِ يَسْتَفْرِغَانِ الْجُهْدَ فِي إِقْنَاعِهِ بِالْحُجَّةِ، وَ لَيْسَ بِإِكْرَاهِهِ، وَ عَادَةً يَنْجَحَانِ، أَمَّا إِذَا فَشَلَا فَذَلِكَ أَمْرٌ يَعُودُ إِلَى

وجود حريه القرار عند الولد الذى قد يتمرد على الحق بحجه أنه تقاليد باليه و أفكار رجعيه.

فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَيبدو من هذه الكلمه أنه متمرد على الماضى، و يتهمه بأنه يمثّل الخرافه و الدجل، و هذا شأن صراع الأجيال الذى يحرم الجيل الصاعد من ثقافه الجيل السائد و تجاربه و عبره و عظاته، و يقضى على التواصل الحضارى الذى هو عنوان تقدّم الأمم.

و قد كان لهذا النفس المشؤوم آثاره السيئه علينا نحن المسلمين فى العصر الحديث، حيث لم يميّز الشباب بين المسلمين و الغثّ من تجارب آبائهم فرفضوها، و سعوا نحو تقليد الأجنب، فكانوا كالغراب الذى حاول تقليد الطاووس فى مشيته فلم يفلح فضيغ المشيتين! إنّ من لا يملك أصاله لا يستطيع الانتفاع بتجارب الآخرين، لأنّه لا يملك مقياسا سليما يميّز به ما ينفعه من تجاربهم و ما يضره، فيكون كمن يبنى على الرمال سرعان ما ينهار بناؤه.

و قد دلّت تجارب التاريخ على أنّ الأمم ذات الأصاله هى الأقدر على احتواء تجارب غيرها من الأمم المتمرّده على تاريخها و مكاسب حضارتها.

و نحن اليوم بانتظار ذلك الجيل المؤمن الذى يعيش بثلاثه أبعاد: متفاعلا مع حاضره، مستفيدا من ماضيه، متطلّعا لمستقبله.

[١٨] الدّين و الكفر قديمان عند البشر، فكما كان منذ القدم رجال صالحون ملتزمون بالدّين كان آخرون يكفرون به، فاذا كان كلّ قديم رجعيه فإنّ الكفر هو

الآخر قديم، وهذه الأفكار التي يروجها الجاهليون باسم التقدميه موغله في الرجعيه، إذ أنها تدعو إلى حاله البدائيه حيث لم يكن لدى أهلها التزام بالقيم و العادات الصالحه، وهذا الذى يكفر بالبعث و يدعى أنه من أساطير الأولين سوف يحشر مع أولئك الكفار من الأولين، حتى يتبين له أن الكفر- وليس الدين- هو من أساطير الأولين.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَ كَيْفَ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ؟ لقد كفروا فطبع الله على قلوبهم، و سلبهم توفيق الايمان، فظّلوا كافرين حتى أدخلهم الله النار فى الأُمم الغابره.

إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ و علينا أن نعتبر بمصيرهم فلا نبادر إلى الكفر فيغلق الله علينا باب التوبه إلى الأبد، و لا يقولنّ الواحد: أكفر الآن فاذا أردت الايمان فالطريق مفتوح أمامى.

كلا.. إن فرصه الايمان محدوده، و قد تسلب منك حتى الأبد.

و فى هذا درس للداعيه ألا يهلك نفسه أسفا على بعض الناس إن لم يؤمنوا، فلعلهم ممّن طبع الله على قلبه فلا يستطيع الايمان أبدا.

[١٩] و لكى لا- يزعم الإنسان أن تقسيم الناس على الجنه و النار اعتبارى، يزيدنا السياق هدى بأن أعمال الناس هى التى تسوق أصحابها إلى المصير النهائى إمّا الجنه أو النار، و تأكيدا على ذلك أن للجنه درجات كما للنار دركات، و منازل أهل الجنه أو أهل النار تحدّد بأعمالهم أيضا، حتى لا يدع للشك مجالا فى أنهم لا

يظلمون، بل هم يجزون بما كانوا يعملون.

وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا يَبْدُو أَنَّ الْمَرَادَ مِنْ «و لِكُلِّ» أَهْلُ الْجَنَّةِ وَ أَصْحَابُ النَّارِ لِكُلِّ دَرَجَتِهِ وَ مَنْزِلَتِهِ حَسَبَ عَمَلِهِ.

وَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ أَي لِيَجْزِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ جِزَاءً تَامًا وَافِيًا.

وَ هُمْ لَا يُظَلِّمُونَ فَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا هُنَا، يَرَهُ هُنَاكَ بِدَرَجَاتِهِ الْمُتَعَالِيَةِ فِي الْجَنَّةِ، وَ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا هُنَا، يَرَهُ هُنَاكَ بِعَذَابِ دَرَكَاتِ النَّارِ.

[٢٠] و لا- يدع كتاب ربنا الحكيم الإنسان في غمّه من أمره بل يكشف له أسباب الكفر فيبين له علاجها، لكي لا تكون للناس حجة بعد البيان، ذلك أنّ النار شيء عظيم، فكيف يلقي ربّ الرحمة عبده العاصي فيها دون أن يتمّ عليه الحجج كامله.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ هُنَاكَ حَيْثُ تَسْتَعِدُّ النَّارُ لِاسْتِقْبَالِ أَفْوَاجِ الْكُفَّارِ وَ الْعِصَاةِ بِأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ الْمُتَصَاعِدَةِ وَ الشَّهَقَاتِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي تَبْتَلِعُ الْمَلَائِكِينَ، هُنَاكَ إِذْ تَتَوَضَّحُ الْحَقَائِقُ، فَلَا غُفْلَةَ، وَ لَا اسْتِرْسَالَ وَ لَا تَبْرِيرَ، وَ لَا إِهْمَالَ، هُنَاكَ تَقَالُ لَهُمْ كَلِمَةُ الْحَقِّ الَّتِي لَوْ عَرَفُوهَا فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا أَهْمَلُوا، وَ لَا تَشَبَّهُوا بِالْأَعْدَارِ الَّتِي لَا تَغْنَى شَيْئًا.

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

فهذا هو السبب المباشر للمأساه. الوقت و الطاقة و الفراغ و سائر النعم هي ذخيره الإنسان ليوم الحساب، فمن بذرها للمتعه العاجله في الدنيا فما ذا يبقى له ليوم فاقتة؟ إنما السعيد من قَدَم شيئاً ممّا عنده لحياته الخالده، و قَسَم وقته و طاقاته بين السعى للدنيا و العمل للآخره، و لم يكن همّه التمتع بكل ما يملك في دنياه فيكون مثله كذلك الشاب الذي أبلى شبابه في اللذات فاذا تقدّم به العمر إلى خريف الحياه لم يجد إلا الحرمان و الألم و الحسرات.

و لكن ما الذى يدعو الإنسان إلى التبذير بالطيبات في الدنيا، هل الحاجه الضروريه؟ كلاً.. ذلك أنّ حاجات الإنسان محدوده، و يمكن له توفيرها ببعض قدراته. إنّه يوفر لقمه عيشه و سكناه و أمتعته بأيسر الجهد، إنّما لهث البشر يكون عاده وراء الكماليات. إنّه يختار الذّ الطعام، و أرفه المساكن، و أرقى المتاع، حتى و لو كان على حساب آخرته، فيظلم الناس بالسرقه و الغش، و قد يصبح أداه للطغاه من أجل الحصول على الكماليات، و لأنّ الكماليات بدورها درجات و لا يمكنه أن يبلغ مداها فأنّك تراه دائب اللهث وراءها، فاذا بنى قصرا و وجد قصر صاحبه أفخم عقد العزم على بناء ما هو أعظم من بناء صاحبه، و إذا اقتنى سياره و علم أنّ أخرى خيرا منها دخل السوق سعياً نحو شرائها بكلّ وسيله ممكنه، و هكذا..

و هنا نتساءل: ما هو جذر التنافس على الكماليات بهذه الشده، مع أنّ بعضها لا يمسّ شهوات الإنسان من قريب؟.

الجواب: إنّه الاستكبار. حيث يبحث الإنسان أبداً عن التعالى على أقرانه بحق أو بباطل، و إذا نزع الإنسان رداء الكبرياء، و تسربل بالخشوع و القنوع، فأنّه يقتلع جذر الانحراف من نفسه، هنالك يكتفى بالضرورات و ما يتيسر له من زينه الدنيا،

فيقسّم طاقاته بعداله بين حياته هنا و حياته الأبدية هناك. أمّا إذا استكبر فأنه يشتري هوان العذاب في الآخرة، و يقال لمثله:

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ وَ الْفُسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْحُدُودِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَكْبِرَ بغيرِ حَقِّ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الشَّرْعِ مِمَّا يُوْجِبُ لَهُ أَلِيمَ الْعَذَابِ.

### الحياه بين الحكمة و المتعه:

إنّ حياتنا في هذه الدنيا ذات حكمه تنبسط على كلّ ممارستنا فيها، ممّا يجعل لكلّ بعد منها هدفا محدّدا لو سعينا نحوه كانت الحياه شريفه. أمّا إذا فرغنا أعمالنا من أهدافها، و مارسناها لذاتها، فإنّها تصبح متعه زائله، فمثلا: الطعام سبيلنا إلى القوه فمن طعمه لشهوه الأكل (لا- لبلوغ سلامه البدن و قوته) كان ممّن أذهب طبيّاته، و الثياب و سيله للستر و الزينه فمن استهدف المفاخره بها أذهب طبيّاته، و هدف التعلّم العمل فمن تعلّم العلم للعلم دون أيّ هدف آخر ضلّ سبيله و أضلّ عمله، و ليس صحيحا أن نجعل الفنّ للفنّ، إنّما لتوعيه الناس، و تحسيسهم بالحقائق، و إثارة حوافز الخير فيهم، و من دون ذلك يصبح الفنّ هراء، و يذهب بطبيّاتنا.

و حين يفقه الإنسان حكمه الحياه و مفرداتها يعتدل سلوكه فيها. يبصر الهدف من طعامه فيزهد فيما لا ينفع جسده، و يعرف الهدف من ثيابه فلا يفاخر ولا يبذّر، و يضع علمه في خدمه قيمه، و إذا مارس الفنّ حقّق أهداف أمّته من ورائه.

ألا ترى كيف كان يعيش رسول الله و الأئمه الصالحون من خلفائه عليهم جميعا

روى فى الحديث أنّ عمر ابن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وآله فدخلت عليه فى شربه أمّ إبراهيم، وإنّه لمضطجع على خصفه وإنّ بعضه على التراب، وتحت رأسه وساده محشوّه ليفاً، فسلمت عليه ثمّ جلست فقلت:

يا رسول الله أنت نبيّ الله و صفوته و خيرته من خلقه، و كسرى و قيصر على سرر الذهب و فرش الديباج و الحرير؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أولئك قوم عجلت طيباتهم، و هى وشيكه الانقطاع، و إنّما أخرت لنا طيباتنا» (١).

أمّا

الإمام أمير المؤمنين فيقول عنه حفيده الإمام الباقر (عليهما السلام):

«و الله ان كان على يأكل أكله العبد، و يجلس جلسه العبد، و إن كان يشتري القميصين فيخيّر غلامه خيرهما ثمّ يلبس الآخر، فإذا أجاز أصابعه قطعه، و إذا جاز كعبه حذفه، و لقد ولّى خمس سنين ما وضع آجره على آجره، و لا لبنة على لبنة، و لا أورث بيضاء و لا حمراء، و إن كان يطعم الناس خبز البرّ و اللحم، و ينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير و الزيت و الخل، و ما ورد عليه أمران كلاهما لله عزّ و جل فيه رضا إلاّ أخذ بأشدهما على بدنه، و لقد أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه، تربت منه يداه، و عرق فيه وجهه، و ما أطاق عمله أحد من الناس، و إن كان ليصلّى فى اليوم و الليله ألف ركعه، و إن كان أقرب الناس به شبها علىّ بن الحسين ما أطاق عمله أحد من الناس بعده» (٢) و هكذا كان يربّي النبي أصحابه،

فقد ورد فى الحديث أنّه (صلى الله عليه وآله) دخل على أهل الصّفه و هم يرقعون ثيابهم بالأدم (٣) ما يجدون لها رقاعاً، فقال:

ص: ١٦٢

١- ١) نور الثقلين / ج (٥) - ص (١٥).

٢- ٢) المصدر / ص (١٦).

٣- ٣) الجلد المدبوغ.

«أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلّه و يروح في أخرى، و يغدى عليه بجفنه و يراح عليه بأخرى، و يستر بيته كما تستر الكعبة؟ قالوا: نحن يومئذ خير، قال: بل أنتم اليوم خير» (١).

[٢١] عذاب الدنيا أهون من جهنّم، و لكنّه شاهد عليها، و لقد استمتع الكفّار بدنياهم، و أذهبوا فيها طياتهم، فابتلوا بعذاب بئس هنا قبل الآخرة. ألا- يكفيننا ذلك عبره؟ هؤلاء قوم عاد ملأ قلوبهم حبّ الدنيا حتى حجبهم عن فهم حقائق الآخرة، فإذا بهم يعرضون عن النذر بالرغم من بلاغ إنذارهم.

و يبدو أنّ السياق يضرب لنا من قصّه عاد مثلاً- على جملة البصائر التي تقدّمت في هذا الدرس، و التي منها: تشبّث الإنسان بالتقاليد، و توغّله في شهوات الدنيا.

وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ دَعَانَا نذَكْرَهُمْ لنتعظ بمصيرهم.

و كان هود من ذات القبيلة فكان إنذاره بليغاً. أو ليس يتحدّث بلسانهم و حسب مستواهم العقلي؟ و بالإضافة إلى ذلك هو من أنفسهم يحبّ لهم الخير.

إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ قَالَوا: الأحقاف هي الكثبان الرملية التي تتجمّع هنا و هناك.

و قالوا: إنّها كانت وسط الجزيرة العربية بين نجد و الأحساء و حضرموت

ص: ١٦٣



وقال بعضهم: كانت جنوب الجزيرة باتجاه اليمن أو في سواحل بحر العرب بين عمان و عدن، وقيل أنّهم كانوا مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر. (١)

و يبدو أنّ ذكر الأحقاف هنا للدلالة على أنّ الله أسبغ عليهم نعمه الماء و الكلاً في موقع يندران فيه أى بين التلال الرملية المتحرّكه، و كان عليهم أن يشكروا نعمه الله، و يستجيبوا للنذر. أو لا- يرون طبيعه الأرض من حولهم، و كيف تكاد الرمال المتحرّكه تبتلع حضارتهم الهشّه، و لكنهم اغتروا، و تجبروا، و استكبروا فى الأرض بغير الحق، و فسقوا عن أمر ربهم فجاءتهم عاصفه رملية دمّرت حياتهم.

وَ قَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مَنْ خَلْفَهُ لَعَلَّ الْمَرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: أَنَّ النَّذْرَ تَوَالَتْ عَلَيْهِمْ فِي فترات متعاقبه قبل بعثه هود، فبعضهم كانوا قريبين من عصره «مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ»، بينما كان بعضهم بعيدين من عصره «مَنْ خَلْفَهُ»، و الله العالم.

□ □  
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ هَذِهِ هِيَ الرِّسَالَةُ بِصُورِهِ مَخْتَصِرُهُ، وَ هِيَ تَحْتَوِي عَلَى سَائِرِ التَّعَالِيمِ، فَمَنْ عَبْدَ اللَّهَ وَ حَدَهُ تَعَبَّدَ بِالشَّرِيعَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا، وَ مِنْ عَبْدَ اللَّهَ وَ حَدَهُ كَفَرَ بِالطَّاعُونَ وَ كُلِّ مُسْتَكْبِرٍ وَ ظَالِمٍ، وَ رَفَضَ التَّبَعِيَّةَ، وَ مِنْ عَبْدَ اللَّهَ وَ حَدَهُ لَمْ يَسْتَرْسِلْ مَعَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا حَتَّى الْهَلَاكِ.

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

ص: ١٦٤

[٢٢] أما عاد فقد تشبثوا بالواقع الراهن رغم فسادهم، لأنهم زعموا أنّ مصالحهم تتعرض للخطر لو آمنوا بربهم.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا وَكَأَنَّ آلِهَتِهِمْ الَّتِي كَانَتْ رَمَزًا لِقَوَى الظلم و الاستكبار هي المقدّسات التي أراد هود أن يصرفهم إفكا عنها.

و ربما يوحى الاستفهام بأنهم لم يصدّقوا أنفسهم كيف يجراً أحد على مقاومه تلك الآلهة، لذلك تحدّوا هوداً بكلّ صلافة قائلين:

فَأَنذِرْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ و هكذا الذى يركن إلى المادة يستبدّ به الغرور إلى درجة تراه يتحدّى من ينذره، و يستعجل لنفسه العذاب.

[٢٣] و كعاده الكفّار بالغيّب زعمت عاد أنّ هوداً هو الذى ينزل عليهم العذاب، و أنّ بيده أمره، فنفى ذلك بصراحه:

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ و إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ يَبْلُغُهُمْ أَمْرَ اللَّهِ.

و أَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ و هذه مسئوليّه أصحاب الرساله الأساسيه، بيد أنّ ذلك لا يعنى أنّه مجرد ساعى بريد، كلاً.. بل له بدوره كلام ينصحهم به ألاّ يكذبوا بالرساله:

وَ لَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ

ذلك أنّ تحدّى جبار السموات و الأرض، و استعجال عذاب الإباده و التدمير، لا يكون إلا عن جهل مطبق.

[٢٤] وها هي إرهاصات العذاب تلوح فى الأفق. أ رأيت الأعاصير الترايبه كيف تبدو من بعيد؟ كأنها سحابه سوداء، و بما أنهم قد منع عنهم الغيث لفته حتى أجذبت أرضهم استبشروا خيرا بما رأوا، و زعموا أنه غيث يستقبل أوديتهم العطشى.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا و لعلّ تأخر المطر عنهم كان بهدف إنذارهم عمليًا لعلهم يتضرعون إلى ربهم، كما كانت بين يدي غرق فرعون و جنوده آيات تهدف إيقاظهم من سباتهم، و لكنهم أصروا على كفرهم، فجاءهم النداء:

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ.

رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [٢٥] إنها عاصفه رمليه مأموره من عند الله بأن تدمر كل شىء مما عند قوم عاد فى الوقت المحدد، فهى إذا ليست هو جاء تمضى من دون أمر.

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا تتصل ظواهر الطبيعه بعمل الإنسان حتى لا تكون حادثه صغيره أو كبيره إلا و لها علاقه بما يختلج فى قلبه أو تكسبه يده، أو تبلو به سرائره و تختبر إرادته، فحتى

الأمواج الهادره التى تحيط بالسفن الشراعيه و هى تمخر عباب البحر ليست بعيده عما يجرى فى داخل السفينه. أ رأيت كيف تتساقط أغشيه الشرك عن أبصارهم فيهرعون إلى الدعاء لكى ينقذهم الله من ورطتهم، كما يصف ربنا ذلك بقوله : «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْمِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» . (١)

بلى. إن هذه البصيره تجعل الإنسان يزداد تحسّسا بالمسؤوليه، و اتقاء للأخطاء، و انضباطا فى أعماله و أقواله و نيّاته ألا تفسق عن الحدود التى رسمها له الله. أو ليس كلّ شىء يحدث بأمر ربّه؟ أو ليس الله حكيمًا لا يقضى بشىء من دون استحقاق؟ إذا دعنا نكن حذرين، نتورّع عن ما يغضب الرب، و نعتبر بمصير الغابرين.

إنّ الجهل و العناد و الجحود لا- تنفعنا شيئًا، بل هى مسئوله عن وقوع أكثر الناس فى المهالك. إنهم يزعمون أنّ الطبيعه عمياء تصيب ضحاياها بلا قانون! كلاً..

إنها مأموره، و ربّها الذى يدبرها عليم حكيم.

و ها قد نزلت الكارثه بقوم عاد بأمر الله، و اجتاحت العاصفه ديارهم و دمّرتهم.

فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ وَ دَلِيلَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مَأْمُورَهُ أَنَّهَا لَمْ تَأْخُذْ إِلَّا الْمَجْرِمِينَ مِنْهُمْ.

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

ص: ١٦٧

فهي سنّه عامه لا تخصّ عادا وحدهم، فأى قوم مجرمين لا بد أن يحيق بهم عملهم يوما.

أما هود و المؤمنون معه فقد أنجاهم الله. قالوا: إنهم اعتزلوا في حظيره، ما يصيبه و من معه إلا ما يلين أعلى ثيابهم، و تلتذ الأنفس به، بينما كانت تمرّ من عاد بالظعن بين السماء و الأرض و تدمغهم بالحجاره حتى هلكوا. (١)

و قد جاء فى التاريخ: أنّ الخليفه العباسى المهدي أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادى (و هو حسب قول الحموى: منزل فى طريق مكه من القادسيه إلى العذيب) لعطش الحاج هناك، فحفروا أكثر من مأه قامه، فبينما هم يحفرون إذ خرقوا خرقا و إذا تحته هواء لا يدرى قعره، و هو مظلم، و للريح فيه دوى، فأدلوا رجلين فلما خرجا تغيّرت ألوانهما فقالا: رأينا هواء واسعاً، و رأينا بيوتا قائمه، و رجالاً - و نساء، و إبلا و بقرا و غنما، و كلّما مسنا شيئا رأينا هباء، فسألنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو، فقدم أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام - على المهدي فسأله عن ذلك فقال: «هؤلاء أصحاب الأحقاف و هم بقيه من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم» و ذكر على مثل قول الرجلين. (٢)

ص: ١٦٨

---

١- ١) تفسير القرطبي/ج(١٦)-ص(٢٠٧).

٢- ٢) تفسير نور الثقلين/ج(٥)-ص(١٨) نقلا عن الخرائج و الجرائح.

وَ لَقَدْ مَكَرَ أَهْمُ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَ صَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَهُ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) وَ إِذْ صَيَّرْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَ إِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مِنْ لَأِ-يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوْ لَعَمْرُؤُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

(٣١) يُجِرُّكُمْ: أى يحفظكم.

ص: ١٧٠

هدى من الآيات:

يستمر السياق في الحديث عن سنّه الله في الخليقه التي تتجسد في بعث الأنبياء -عليهم أفضل الصلاه و السلام- كلما انحرف الناس عن المسيره، و إنذارهم بمصيرهم المرتقب، و يشير إلى القرى التي أنذر أهلها بالأنبياء، و أنزل لهم الكتب لعلهم يهتدون، و لكنهم بدل أن يعبدوا الله و يعتمدوا عليه إذا بهم يعبدون الأنداد من دونه، فلم يغنوا عنهم -ساعه الانتقام- شيئا.

و يقصّ علينا ربنا في هذا السياق كيف صرف إلى الرسول نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما آمنوا به ولّوا إلى قومهم منذرين، و لعلّ سبب ذكر هذه القصة في هذا السياق أنّ الكفّار كانوا يزعمون بأنّ الجن أنصاف آلهه، و أنّهم يدفعون عنهم الضراء. أو لم يقل ربنا سبحانه: «وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ»، فجاءت هذه القصة لبيان حاجه الجن أيضا إلى الرساله.



[٢٦] عند ما يفزّ الجاحد-آيات الله-من مسئوليته الاعتراف بالحق، و التسليم له، يلجأ-فى زعمه-إلى ركن الغرور بالقوّه و العلم، و يعتقد أن ما يملكه من أموال، و من كيد، و من مكر تغنيه شيئاً عند ما يحرق به خطر الدمار، بسبب كفره بالله و رسالته.

كلا.. إن مصير الغابرين من عاد، و ثمود، و فرعون و هامان و جنودهما، و غيرهم يكفيننا عبره بأن قدراتنا الماديه و العلميه إن هى إلا غرور.

وَ لَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ قَالَ الْمُبْرَدُ: «مَا» فِى قَوْلِهِ: «فِيمَا» بِمَنْزِلِهِ (الَّذِى) وَ «إِنْ» بِمَنْزِلِهِ (مَا) وَ التَّقْدِيرُ: وَ لَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِى الَّذِى مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَى مِنْكُمْ، وَ أَكْثَرُ مِنْكُمْ أَمْوَالًا (١) وَ كَذَا فِى قَوْلِهِ تَعَالَى: «كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِى الْأَرْضِ» وَ هَكَذَا كَانَتِ الْإِمْكَانَاتُ الَّتِى سَخَّرَتْ لَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا سَخَّرَتْ لِقَرِيشٍ، وَ رُبَّمَا لِكُلِّ قَوْمٍ يَتْلُونَ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً وَ بِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا مَزُودِينَ بِهَذِهِ الْأَجْهَازِ زَعَمُوا بِأَنَّهَا تَنْقُذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهْلِكُ إِذَا كَانَ ضَعِيفًا، أَوْ جَاهِلًا، أَوْ غَافِلًا، وَ لَمْ يَكُنْ أَوْلَثَكَ الْقَوْمِ كَذَلِكَ، وَ مَعَ ذَلِكَ أَهْلَكُوا عِنْدَ مَا أَرَادَ اللَّهُ.

ص: ١٧٢

١-١) يمرط: ينزع.

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَيِّمُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَأَمَّا يَنْتَفِعَ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الْجَوَارِحِ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِ اللَّهِ، أَمَّا إِذَا كَفَرَ بِهَا فَإِنَّهُ سَوْفَ يَخْطَأُ الْمَنْهَجَ السَّلِيمَ لِلانْتِفَاعِ بِهَا.. أَرَأَيْتَ الَّذِي يَمْلِكُ أَفْضَلَ وَسِيلَهُ سَيْرِ ثُمَّ يَخْطَأُ السَّبِيلَ فَهَلْ تَنْفَعُهُ وَسِيلَتُهُ لِبُلُوغِ غَايَتِهِ إِذَا كَانَتْ وَجْهَهُ سِيرَهُ خَاطِئَةً؟! كَذَلِكَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْحَقَائِقِ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالْحَقَائِقِ الْجَزْئِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ فِي أَطَارِهَا وَيَكُونُ مِثْلَهُ كَالَّذِي لَا يَعْتَرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ يَمْتَلِكُ قَبْلَهُ نَوِيَّةً، ثُمَّ يَجِدُّ فِي مَعْرِفَةِ عَدَدِ دَبَابَاتِ الْعَدُوِّ.. إِنَّهُ سَيَخْسِرُ الْمَعْرَكَةَ قَطْعًا حَتَّى إِذَا عَرَفَ كُلَّ حَقِيقَتِهِ فِي سِلَاحِ الْمَدْرَعَاتِ عِنْدَ الْعَدُوِّ.

هكذا من لا يعتقد بقوة الله التي أرسلت على قوم عاد تلك العاصفة الهوجاء، التي دمرت كل شيء باذن ربها، أو التي أخذت فرعون وجنوده ونبذتهم في اليم نبذا. إن مثل هذا الرجل لن ينتفع شيئا بمعرفته مثلا بأصول الهندسة، أو كيفية تنظيم الجيش، لأن كل ذلك وضع في مواجهه أخطار بسيطه، أما مقاومه تغيير طبيعى هائل فانه فوق قدراتنا المنظوره.. تماما كالذى يجهد نفسه فى بناء خندق عميق فى مواجهه سلاح ذرى.. إنه مغرور لأن الخندق انما أنشئ لمواجهه سلاح تقليدى و ليس سلاحا ذرىا.

وهكذا السمع و الأبصار و الأفتده انما هى أدوات لمواجهه أخطار عاديه، و لا تنفع الذى يخالف إرادته الله شيئا.

إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَقِّ بَيْتِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَى الَّتِي جَحَدُوا بِهَا، وَ سَخَرُوا مِنْهَا. إِنَّهَا نَزَلَتْ بِهِمْ كَالصَّاعِقَةِ، وَ تَنْزَلُ بِمَنْ يَسِيرُ فِي خَطِّهِمُ الْبَاطِلِ.

[٢٧] لا تزال على طبيعته من حولنا آثار تنطق بسنن الله في التاريخ، فهذه القرى من حولنا قد أهلكت بفعل ضلالتهم عن الحق. و لكن هل أهلكوا فجأه و من دون نذر؟ كلاً..

و كانت قريش تمرّ على قرى مدين و ثمود عند رحلتهم صيفا نحو الشمال، و على قرى الأحقاف عند رحلتهم شتاء نحو الجنوب، و جاء القرآن يبصّرهم بعبء تلك القرى الخاويه على عروشها، و تلك الآبار المعطله، و آثار القصور المشيده.

و هكذا يستنطق كتاب الله حوادث التاريخ و آثار الغابرين، و يجعلها تحكى للإنسانيه عبر أسلافهم لعلهم يسعدون بتجاربهم.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مِمَّا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَ فِي أَيِّ بَلَدٍ كُنْتَ عَلَى الْقَرْيَةِ الْغَابِرَةِ مِنْ حَوْلِكَ. قَفَّ عَلَى أَطْلَالِهَا، وَ اسْتَنْطَقَ آثَارَ الْأُولَىٰ، وَ سَأَلَهُمْ: لِمَاذَا أَهْلَكُوا، فَاسْتَوْعَبَ عِبْرَ حَيَاتِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ عَبْرَهُ لِمَنْ يَعْقِلُ مِنْ بَعْدِكَ، ذَلِكَ أَنَّ الْبِلَادَ جَمِيعًا لَا تَخْلُو مِنْ آثَارِ الْغَابِرِينَ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَيْهَا دُرُوسًا لِمَنْ يَتَعَلَّمُهَا مِنْ أَحَدٍ، وَ لَوْ تَعَلَّمُوا بَعْضُهَا إِذَا مَا أَهْلَكُوا.

وَ صَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَنَا كَمَا لِأَوْلَئِكَ الْغَابِرِينَ، فَلَمْ تَدْمِرْ حَيَاتِهِمْ بِلَا سَابِقِ إِذْذَارٍ، وَ كَانَتِ النَّذْرُ تَتْرَىٰ عَلَيْهِمْ بِهَدَفٍ صَرَفَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ إِذَا اتَّبَعُوا النَّذْرَ وَ عَادُوا إِلَى الرَّشْدِ.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَ نَسْتَوْحِي مِنْ كَلِمَةِ «يَرْجِعُونَ» أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهِمْ، مَاضِينَ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَىٰ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا أَنْذَرُوا بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى فِطْرَتِهِمْ

[٢٨] فلما ذا تولّوا عن النذر، و لم يستجيبوا لداعى الله، و لماذا لم يعتبروا بمصير من سبقهم؟ لأنهم اتخذوا من دون الله قربانا آلهه فزعموا أنّهم ينصرونهم من عذاب الله، و لكن هيهات.

و هكذا يزعم الإنسان أنّ بمقدوره التمسك بذيل من يزعم أنّهم مقربون إلى الله، من آباءه أو عظماء قومه لينجونه من مصيره، و هكذا يخدع نفسه و يظل فى غروره حتى يأتيه العذاب فيكتشف متأخرا أنّه كان فى ضلال بعيد، و أنّهم لا يستطيعون نصره أبدا.

فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۗ وَ كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا عَلَىٰ نَصْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدَّمَارِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْصُرُونَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ.

بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ لَقَدْ ضَلَّتِ الْآلِهَةُ عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا أَثْرًا عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ، شَأْنُهُمْ شَأْنُ كُلِّ دَجَلٍ وَ خِدَاعٍ تَرَىٰ لَهُ صُورًا، وَ تَسْمَعُ جَلْبَهُ، وَ تَسْتَقْبِلُ وَ عُودًا فِي الرِّخَاءِ، أَمَّا عِنْدَ الشَّدَةِ فَهِيَ تَتَلَاشَىٰ كَمَا يَتَلَاشَى السَّرَابُ عِنْدَ مَا تَقْتَرِبُ مِنْهُ.

و لكن من المسؤول: الآلهة التى طالما وعدت أنصارها بالنصر ثم ضلّت عنهم عند ما دقت ساعه الانتقام، أم أولئك الذين خدعوا بهم؟ لا ريب أنّ الذين قبلوا الانسياق مع ضلالات الآلهة هم المسؤولون، لأنّ الآلهة من دون الأنصار لا تعنى

شيئا. أ رأيت لو لم يعبد أحد صنما هل يختلف الصنم عن آيه حجاره أخرى؟ أو رأيت إن لم يتبع الناس الطغاه هل هم يتميزون شيئا عن غيرهم؟ إذا المسؤول أولا الإنسان الذى يصنع الإفك، ويفترى على الله.

وَ ذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ قَالُوا: الْإِفْكُ الْكُذْبُ، وَ كَذَلِكَ الْأَفْيَاكُ، وَ الْجَمْعُ الْأَفَاكُ، وَ إِفْكُ الْجَمَاعَةِ كَانَ يَتِمُّ فِي تَقْدِيسِ الْأَلْهَةِ وَ الْإِعْتِقَادِ بِقُوَّتِهِمْ.

وَ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَ لَعَلَّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْأَنْظُمَةُ الْفَاسِدَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا الْإِفْكِ، وَ الَّتِي كَانُوا يَفْتَرُونَهَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

و هكذا تكون الحاله الشركيه و الفساد العريض الذى يودى إليه نتيجة ثقافه الضلاله، و فساد الأخلاق و الأنظمه و العادات، و يزعم البسطاء أنّ الكيان السياسى الفاسد و النظام الاقتصادى و الاجتماعى المنحرفين قادرين على المحافظه على مصالحهم، و لكنهم يصطدمون فجأه بالواقع المرير الذى يفرزه هذا الإفك الكبير حين لا ينفعهم الندم.

و قد نستلهم من الآيه أنّ الأصنام التى كانت تعبد من دون الله، و كذلك الطغاه و المترفين الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الناس، إنّما هم جميعا صورهم مجسده لمجمل ضلاله المجتمع و انحرافه.

[٢٩] و من الناس من يتخذ الجن آلهه من دون الله، و يأفك القداسه لهم، فلا ينتفع بعبر الغابرين اتكالا عليهم، و قد يستعيد بهم من دون الله، و يزعم أنّهم

يمنعونه عن سيئات عمله، و يغنون عنه من الله شيئاً.

كلاً..الجن كالإنس خلق برأهم الله، وهم بحاجة إلى الرساله، و أنّ الرسل الذين يبعثون إلينا هم النذر المرسلون إليهم أيضاً..و إذ يحدثنا السياق هنا عن قصه استماع الجن للقرآن و إيمان نفر منهم ثم انصرفهم الى قومهم منذرين فإنه يصحح بذلك تلك الصورة المشوّهه عنهم فى أذهان كثير من الناس حيث يزعمون بأنّ الجن مصدر كلّ شر و خبث، كلاً..بل منهم المؤمنون الذين يحملون رسالات الله إلى قومهم.

و يبدو من خطاب القرآن إليهم فى آيات عديده أنّهم مكلفون به، و أنّهم متعايشون معه، و لكننا حتى الآن محجوبون عنهم، كما يظهر أنّهم مجزيون على إيمانهم و أعمالهم كما الإنس سواء بسواء، فلا يجوز أن يستعيز بهم الإنس لأنّهم يزيدونهم رهقا.

وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ أَى أَلْهَمْنَا نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ الْحُضُورِ عِنْدَكَ، أَوْ حَمَلْنَا هُمْ عَلَى الْمُرُورِ بِكَ مِنْ دُونِ تَقْدِيرِ مِنْهُمْ.

يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ قَالُوا: فى أثناء عوده الرسول صلى الله عليه و آله من سوق عكاظ نزل بمكان يقال له:مجنّه، نسبة إلى الجن، فبات فيه، و كان من عادته صلى الله عليه و آله انه يبيت لربه ساجدا قائما، يتلو أجزاء القرآن يرتلها ترتيلا، و بينما كان يتلو القرآن مرّ به نفر من الجن قالوا كانوا من أهل نصيبين، فإذا بهم يسمعون ذكرا عجا.

فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا

دعونا نستمع لهذا الذكر! وقد ذكر المفسرون هنا قصه رحله النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف التي التقى في العوده منها بالجن، و هي رحله حافله بالدروس و العبر، بالذات فيما يتصل بالصبر و الاستقامه للذين أمرنا بهما في نهايه السوره، و لهذا نجد من المفيد بيان أبعاد هذه الرحله الجهاديه العظيمه.

قال المفسرون (ابن عباس و سعيد بن جبیر و مجاهد و غيرهم): لما مات أبو طالب خرج النبي (صلى الله عليه و سلم) وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصره، فقصد عبد يا ليل و مسعودا و حبيبا و هم إخوه بنو عمرو بن عمير - و عندهم امرأه من قريش من بنى جمح، فدعاهم إلى الإيمان، و سألهم أن ينصروه على قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبه إن كان الله أرسلك! و قال الآخر: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك! و قال الثالث: و الله لا أكلمك كلمه أبدا، إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام، و إن كنت تكذب فما ينبغي لى أن أكلمك. ثم أغروا به سفهاءهم و عبيدهم يسبوناه و يضحكون به، حتى اجتمع عليه الناس و الجؤوه إلى حائط لعتبه و شبيهه ابني ربيعه، فقال للجمحيه: «ماذا لقينا من أحمائك؟» ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، و قلّه حيلتي، و هوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، و أنت ربّي، لمن تكلني! إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدوّ ملكته أمرى! إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، و لكن عافيتك هي أوسع لى، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك أو يحلّ علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، و لا حول و لا قوه إلاّ بك»، فرحمه ابنا ربيعه، و قالوا لغلام لهما نصرانى يقال له عدّاس: خذ قطفًا من العنب وضعه فى هذا الطبق ثم ضعه بين يدي هذا الرجل، فلما وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه و سلم) قال النبي

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «بِاسْمِ اللَّهِ» ثُمَّ أَكَلَ، فَنظَرَ عَدَّاسٌ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدِ! فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):

«مَنْ أَىَّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ وَ مَا دِينُكَ؟» قَالَ: أَنَا نَصْرَانِيٌّ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «أَمِنْ قَرْيَةٍ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟» قَالَ: وَ مَا يَدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ قَالَ: «ذَاكَ أَخِي كَانَ نَبِيًّا وَ أَنَا نَبِيٌّ» فَانكَبَّ عَدَّاسٌ حَتَّى قَبَلَ رَأْسَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَ يَدَيْهِ وَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ رَبِيعَةَ: لِمَ فَعَلْتَ هَكَذَا؟ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي مَا فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ. ثُمَّ انصَرَفَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حِينَ يَثْسُ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَصَلِّي فَمَرَّ بِهِ نَفَرٌ مِنْ جَنَّ أَهْلِ نَصِيبِينَ، وَ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْجَنِّ كَانُوا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ، فَلَمَّا حَرَسَتِ السَّمَاءَ وَ رَمَوْا بِالشَّهْبِ قَالَ إِبْلِيسُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي حَدَّثَ فِي السَّمَاءِ لَشَيْءٌ حَدَّثَ فِي الْأَرْضِ، فَبَعَثَ سَرَايَاهُ لِيَعْرِفَ الْخَبْرَ، أَوْلَهُمْ رُكْبَ نَصِيبِينَ وَ هُمْ أَشْرَافُ الْجَنِّ إِلَى تَهَامِهِ، فَلَمَّا بَلَغُوا بَطْنَ نَخْلَةٍ سَمِعُوا النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصَلِّي صَلاةَ الْغَدَاةِ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ وَ يَتْلُو الْقُرْآنَ، فَاسْتَمَعُوا لَهُ وَ قَالُوا: أَنْصَتُوا. (١)

فَلَمَّا قُضِيَ حِينَ انْتَهَى الرَّسُولُ مِنْ قِرَاءَتِهِ..

وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ

ص: ١٧٩

١ - ١) تفسير القرطبي/ج(١٦)-ص(٢١٠-٢١١). و ما نقله القرطبي قد يتعارض مع ظاهر الآيات التالية. من أن إبليس قد بعث بسراياه ليعرفوا ما الخبر من حراسه السماء. لأنهم أولا: و كما أكدت الآيات التالية انهم مؤمنون بموسى عليه السلام. و هذا يتناسب و الآية(١٠) من ايمان بعض علماء بنى إسرائيل بالنبي صلى الله عليه و آله ، و ثانيا: هذه الحادثة(أى إرسال إبليس لسراياه ليعلموا ما الخبر) ذكرها المفسرون فى بعثه النبي صلى الله عليه و آله و بعض ذكرها فى مولده الشريف صلى الله عليه و آله .



يبدو أنّهم كانوا ذاهبين إلى مهمّة ما، ولكنهم حينما استمعوا إلى القرآن عادوا دون أن يقوموا بمهمتهم، لكي يندروا قومهم.

[٣٠] و فيما يلي من الآيات نصّ الإنذار الذي حمّله الجنّ إلى قومهم:

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ قَالُوا: إِنَّ الرِّسَالَةَ الْحَقِيقَةَ مِنْ بَعْدِ رِسَالِهِ إِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ رِسَالَةُ اللَّهِ إِلَىٰ عِبَادِهِ وَ كَلِمَةُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ أَمَّا الْإِنْجِيلُ فَقَدْ كَانَ تَكْمِيلًا لِلتَّوْرَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْ لِسَانِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» (١)، وَ اسْتَمَرَّتْ رِسَالَةُ مُوسَىٰ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّنَا الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ خِلَالَ هَذِهِ الْفِتْرِه-بَيْنَ الرِّسَالَتَيْنِ- بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَ وَ لَكِنْ ضَمِنَ رِسَالَةُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَيْهِ إِنَّ وَحْدَهُ الْقِيَمَ وَ الْمَبَادِي وَ التَّعَالِيمَ وَ الْمَنَاهِجَ وَ الشَّرَائِعَ فِي الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَةِ شَاهِدَ صَدَقَ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْوَاحِدِ، وَ لَوْلَا ذَلِكَ كَيْفَ تَتَنَاقَمُ هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ الْمُتَكَامِلَةُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَ الْأَنْظُمَةِ عِبْرَ الْعُصُورِ الْمُخْتَلِفَةِ وَ الْبِلَادِ الْمُتَفَاوِتِ وَ الرِّجَالِ الْمُتَبَاعِدِينَ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي أَكْثَرِ الْأَبْعَادِ الْمَادِيَةِ؟ وَ هَكَذَا اهْتَدَى الْجَنُّ إِلَىٰ صَدَقَ الرَّسُولِ مِنْ خِلَالَ النَّظْرِ الْعَمِيقِ فِي رِسَالَتِهِ وَ أَنَّهَا تَنْسَجَمُ مَعَ جَوْهَرِ رِسَالَاتِ اللَّهِ السَّابِقَةِ، فَهِيَ صَادِقَةٌ كَمَا أَنَّ مَا سَبَقَتْهَا كَانَتْ صَادِقَةً.

و يا ليت شعري كيف كان يكفر بالقرآن من آمن حقًا بالتوراه، و القرآن هو

ص: ١٨٠

الصيغه الأكمل للتوراه؟! يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ و الحق هو ذلك النور الذى يسطع على كل قلب سليم، و كل عقل متحرّر، و كل فطره نقيه، و حين يذكر القرآن به لا يجد الإنسان مبرّرا للكفر به، إذ يتوافق الكتاب مع حقائق العقل.

و هكذا استدل الجن على صدق رساله بمحتواها الحق، فعرفوا الرسول برسالته فصدّقوا به.

وَ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ آيَةٌ إِلَّا وَ تَهْدِينَا إِلَى مَا يَحْكُمُ بِهِ الْعَقْلُ، إِلَّا أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَعْرِفَةِ الشَّرَائِعِ الْوَاضِحَةِ لِتَحْقِيقِ الْحَقِّ، فَمِثْلًا - عِبَادَةُ اللَّهِ وَ التَّحَرُّرُ مِنَ الطَّاعُوتِ وَ الْعَدَالَةُ وَ التَّقَدُّمُ وَ التَّعَاوُنُ وَ السَّلَامُ تِلْكَ هِيَ الْحَقَائِقُ الَّتِي يَذْكُرُ بِهَا الشَّرْعُ، وَ يَشْهَدُ بِهَا الْعَقْلُ، وَ لَكِنْ كَيْفَ نَحَقِّقُهَا؟ إِنَّ الْإِجَابَةَ عَنْ ذَلِكَ نَجِدُهَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي تَهْدِينَا إِلَى السَّبِيلِ الْوَاضِحِ وَ الْقَوِيمِ لِبُلُوغِ الْأَهْدَافِ السَّامِيَةِ، تِلْكَ الَّتِي نَسَمِّيهَا بِالشَّرِيعَةِ وَ الْأَحْكَامِ.

[٣١] و ما لبث المنذرون من الجن أن تحمّلوا مسئوليته الدعوه بإصدار الأمر بطاعه الرسول بعد أن عرفوا صدقه قائلين:

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ أَشَارُوا بِكَلِمَتِهِ «قَوْمَنَا» أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ بَاعْتِبَارِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، ثُمَّ أَمَرُوا بِطَاعَةِ الرَّسُولِ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَ هَكَذَا يُؤَدِّبُنَا الْقُرْآنُ أَلَّا نَكْرُمَ أَحَدًا أَوْ نَطِيعَهُ إِلَّا

باسم الله و باعتباره داعيا إليه.

وَ آمَنُوا بِهِ لَعَلَّ الْإِجَابَةَ هِيَ التَّسْلِيمُ لَهُ بِصُورِهِ مَجْمُوعًا، بَيْنَمَا الْإِيمَانُ هُوَ الْعَمَلُ بِرِسَالَتِهِ.

يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ تِلْكَ الذُّنُوبُ الَّتِي تَرَاكَمَتْ عَلَيْنَا قَدْ ذَهَبَتْ لِدَاتِهَا وَ تَلَاشَتْ دَوَافِعُهَا، بَيْنَمَا بَقِيَتْ تَبَعَاتُهَا وَ آثَارُهَا عَلَى الْقَلْبِ، وَ عَوَاقِبُهَا عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ، لَعَلَّنَا نَسِينَاهَا، يَبْدُ أَنَّ كِتَابَ رَبِّنَا قَدْ أَحْصَاهَا، لِذَلِكَ كَانَ الْخُلَاصُ مِنْهَا غَايَةَ مَنَى الْمُوقِنِينَ، وَ أَعْظَمُ بَاعَثَ لَهُمْ نَحْوَ الطَّاعَةِ لِلْقِيَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَ رَبَّمَا الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

و تساءل المفسرون: لماذا قال «مِنْ ذُنُوبِكُمْ»، أو ليس الإسلام يجب ما قبله، ممَّا يعنى أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ كُلَّ الذُّنُوبِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ؟ وَ مِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ «مِنْ» زَائِدَةٌ.

و لكن قال الآخرون: إِنَّ «مِنْ» ليست زائدة، و إِنَّ مَجْرَدَ الْإِسْلَامِ لَا يَطْهِّرُ صَاحِبَهُ مِنْ تَبَعَاتِ كُلِّ الذُّنُوبِ، بَلْ كُلَّمَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ بِبَعْضِ الْوَاجِبَاتِ كُلَّمَا سَقَطَتْ عَنْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الذُّنُوبِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا - النَّزْرُ الْيَسِيرُ، وَ انْتِظَارًا مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُوَافِقِ لظَاهِرِ الْقُرْآنِ (حَيْثُ أَنَّ الظَّاهِرَ الْأَوَّلَ تَكُونُ أَيُّهُ كَلِمَةٌ أَوْ حَرْفٌ زَائِدَةً) يَجْتَهِدُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِتَنْزِيلِ السَّيِّئَاتِ.

وَ يُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَ مِنْ ذَا الَّذِي يَجِيرُ الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ الْمَحِيطُ بِهِ عِلْمًا وَ قُدْرَةً؟! وَ إِذَا كَانَ الْجَنُّ

بحاجه إلى من يجيرهم من عذاب الله، فهل يقدرّون على إجاره أحد من الأنس ممّن يستعيدون بهم؟! حقًا: إنّنا جميعا نبحث عن الأمان فهل نجده إلاّ عند ربّنا الكريم، و لكن هل يجيرنا الربّ من دون طاعه رسوله الداعي إليه؟ [٣٢] و هل يستطيع أحد أن يهرب من حكمه الله، و يخرج من حدود سلطانه؟ أنّى له ذلك و كلّ ذرّه في وجوده قائمه به سبحانه.

وَ مَنْ لَا يُجِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ فَلَا يَسْتَطِيعُ هَرَبًا مِنْ عَاقِبِهِ كَفَرَهُ أَنْتَى مَضَى مِنْ أَطْرَافِ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ فِي قَبْضِهِ رَبِّهَا. إِنَّهُ لَا يَعْجِزُهُ فِرَارًا كَمَا يَعْجِزُ أَحَدُنَا الْآخَرَ بِالْإِنْتِقَالِ مِنْ حُدُودِ سَيِّطَرْتِهِ أَوْ عِلْمِهِ.

وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ يَنْصُرُونَهُ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَزْعُمُ أَنَّ عَشِيرَتَهُ أَوْ أُسْرَتَهُ أَوْ حِزْبَهُ وَ نَادِيَهُ يَهْرَعُونَ إِلَى مَسَاعِدَتِهِ عِنْدَ مَا يَتَعَرَّضُ لِلْعَذَابِ، وَ لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُ أَمَامَ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي قَدْ يَشْمَلُهُمْ جَمِيعًا.

بلى. الخلاص من العذاب ممكن بالهرب إلى الله من عذابه، و الالتجاء إلى فناء عفوّه، فرارا من سطوه انتقامه، و لكنّ ذلك مشروط بإجابه داعى الله.

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَدْ يَضِلُّ الْإِنْسَانُ وَ هُوَ يَزْعُمُ أَنَّ عَلَى هَدًى، وَ لَكِنَّ ضَلَالِ الْبَشَرِ عَنْ رَبِّهِ لَا يُمْكِنُ

تبريره أو إخفاءه أنه ضلال مبین، لأنّ القياس باطل تماما بين الله و خلقه. أليس كذلك؟ فكيف يمكن للإنسان أن يزعم أنّ من خلقه الله بقادر على إنقاذه من غضبه ربّه الخالق الجبار؟! [٣٣] أو العذاب الأدنى في هذه الحياه شاهد صدق على العذاب الأكبر في الآخرة، أوّلا: لأنّه ينسف بنى التبرير، و التشبّث بالأعداء، و الغرور بنعم الله، و الاعتقاد بأنّ الله لا يعذب أحدا، كلاً.. أو ليس قد عدّب عادا الأولى، و ثمود فما أبقى؟، و ثانيا: لأنّه يرينا صورته واضحة عن شدّه عذاب الله، فإذا كان العذاب الأدنى ريحا تدمر كلّ شيء ياذن ربّها فكيف بالعذاب الأكبر؟! إذا فإنّ ما أنذر به المرسلون من عظيم العقاب في اليوم الآخر حق لا ريب فيه، ثالثا: حينما نشهد عذاب الله للأمم الغابره تلين القلوب، و تستعد لتقبّل المواعظ الربّانيه، و كانت من قبل سادره في غفلتها، محجوبه بغرورها و بانشغالها بالشهوات العاجله و الأمانى و الأحلام، لذلك كانت تلجأ إلى كهف التكذيب بالآخرة، و اختلاق الشبهات حولها، فرارا من ثقل المسؤوليه، و مسارعه في اللذات، و مضيا مع الشهوات حتى الثمالة.

و أكثر الشبهات شيوعا عندهم ما قالوا: كيف يعيد الله هذه الأعظم الباليه و قد أضحت رميما تذروه الرياح؟! و كيف يحيى الله الموتى و قد فسد نظام أجسادهم، و ماتت خلايا المخّ عندهم، و لم نر أحدا منهم عاد إلى الحياه أبدا؟! و هذه الشبهه تافهه جدّا، إلّا أنّها تستمد قوّتها من عزم البشر على التهرّب من الإيمان بالآخرة خشيه تحمّل مسؤولياته الثقيله، و لو لا ذلك فإنّها تتلاشى كما يتلاشى ظلام الليل حينما ينبلع فجر الحقيقه، بشرط ألاّ يحتجب الإنسان عنه بغشاوه الشهوات، دعنا نستمع إلى القرآن و هو يبّد هذه الشبهه بتساؤل يمسّ أوتار



وقدره الله تنبسط على الخليقه، حتى لا تدع شيئاً يتصوّر البشر إلا وقد خلقه ربّنا، وأكمل خلقه، وخلق له صنوفاً وأنواعاً. سبحان ربّنا وتعالى! [٣٤] وما عسى أن ينفع التكذيب؟ هل يذهب نور الشمس لو احتجبت عنه؟! هل يدرأ خطر الموت عن نفسه من يكذب به، أم أنّه بتكذّيبه يقربه إلى نفسه أكثر فأكثر؟! هكذا من يكذب بالآخره لا يدرأ عن نفسه عذابها، بل يزداد إثماً بتكذّيبه واستحقاقاً للعذاب أكثر فأكثر.

و حين يحس جحده البعث بحراره النار، ويرون بأّم أعينهم جبالاً - من اللهب الذى يتميّز من الغيظ فى جهنّم حتى لكاد قلوبهم تنخلع من شهيقها وزفيرها، يومئذ يؤمنون بالعذاب، ولكن بعد فوات الأوان.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ إِنَّهَا عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ  
و بالعذاب، و جحد بالبعث، و تساءل مستنكراً: كيف يحيى الله الموتى؟! حقّاً: مجرد تصوّر تلك اللحظه التى يأتى الله بالكفّار ليشهدوا جهنّم و نيرانها الملتهبه يكفى للتصديق بها. أو تدرى لماذا؟ لأنّ أساس الكفر بالآخره قائم على الغفله، و الاسترسال مع الهوى، و الاستهزاء بالحق، فيكون تصوّر هذا العذاب المهيب كافياً لزعزعه أساس الكفر، و تنبيه الإنسان إلى ضروره التفكير الجدى، و إيقاف استرساله الخطير مع الشهوات، و بالتالى إسقاط حجب الغرور عن عينه ليرى بها الحقائق مباشره.

[٣٥] لكي تمضى سنّه الامتحان فى الكافرين كما ارادها الله بحكمته البالغه، لا بدّ أن يكتفى المنذرون بالبلاغ، و يصبروا على اذى قومهم دون أن يستعجلوا لهم العذاب.

و لكي لا يتحوّل الصراع مع الكفار إلى صراع ذاتى بين طائفه و أخرى، بل يبقى نقيًا عن أيّه مصلحه ماديه لأهل الحق حتى تتم الحجه على أعدائهم، لا بد من الصبر.

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَوْ لَيْسَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله مِنْهُمْ وَ هُوَ أَفْضَلُهُمْ، فليصبر كما صبر نوح عليه السلام عند ما دعا قومه ألف سنه إلاّ خمسين عاما فلم يؤمن به إلاّ نفر قليل، و كما صبر إبراهيم عليه السلام عند ما ألقى فى النار، و عند ما هاجر إلى ربّه، و عند ما أسكن من ذرّيته بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرّم، و عند ما حاول ذبح ابنه استجاب له لأمر ربّه، و كما صبر موسى عليه السلام فى مواجهه أعتى طاغوت مع شعب خائر العزيمه كبنى إسرائيل، و كما صبر عيسى عليه السلام مكاره الدنيا بزهده و مقاومه لعتاه بنى إسرائيل.

هؤلاء هم أولوا العزم من الرسل الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا، لأنهم كانوا أصحاب شريعته جديده، لكلّ أهل الأرض، و كانوا بحاجة إلى صبر عظيم لتبليغها إلى الناس.

فقال ربّنا سبحانه عنهم: «وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا.» (١)

ص: ١٨٧

(١ - ١) الأحزاب / (٧).



و هذه الآيه تشهد على مدى الأذى الذى كان ينتظر هذه الصفوه الخالصه من الأنبياء فأخذ منهم ميثاقا غليظا على ضروره الصبر عليه.

وقال ربنا و هو يبين أنّ هؤلاء الخمسه المطهرين هم أصحاب شريعه: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى» (١).

و هكذا

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام):

«ساده النبيين و المرسلين خمسهم، و هم أولوا العزم من الرسل، و عليهم دارت الرحى: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد» (٢).

أما عن سبب تسميه هؤلاء الخمسه بأولى العزم

فقد جاء فى حديث مروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«الآن نوحا بعث بكتاب و شريعته، و كل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح و شريعته و منهاجه، حتى جاء إبراهيم بالصحف و بعزيمه ترك شريعته نوح لا كفرا به، فكل نبي جاء بعد إبراهيم أخذ بشريعته و منهاجه و بالصحف، حتى جاء موسى بالتوراه و شريعته و منهاجه و بعزيمه ترك الصحف، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراه و شريعته و منهاجه، حتى جاء المسيح بالإنجيل و بعزيمه ترك شريعته موسى و منهاجه، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته و منهاجه، حتى جاء محمّد فجاء بالقرآن و بشريعته و منهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أولوا العزم من الرسل» (٣).

ص: ١٨٨

١- ١) الشورى/ (١٣).

٢- ٢) تفسير (نمونه) ج (٢١) - ص (٣٨٠) نقلا عن الكافي/ ج (١) باب طبقات الأنبياء و الرسل.

٣- ٣) نور الثقلين/ ج (٥) - ص (٢٢).

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ لَأَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يَرُونَهُ يَكْفِيهِمْ، وَالْأَجَلَ الَّذِي يَتَمَتَّعُونَ فِيهِ لَا يَسْوَى شَيْئًا إِذَا قِيسَ بِذَلِكَ الْعَذَابِ الرَّهيبِ الْخَالِدِ.

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ فَإِذَا كَانَ الْيَوْمَ الْوَاحِدَ فِي الْآخِرَةِ أَلْفَ عَامٍ، فَمَا قِيمَةُ سَبْعِينَ عَامًا إِذَا قِيسَتْ بِسِنِّي تِلْكَ الْأَيَّامِ؟ إِنَّهَا فِي أَفْضَلِ حَالٍ لِحَظَاتٍ مِّنْ نَّهَارٍ فِي عَمْرٍ طَوِيلٍ، وَهَلْ يَسْعُدُ مَن خَسِرَ كُلَّ عَمْرٍهُ لِقَاءَ لِحَظَاتٍ تَمْتَعُ فِيهَا؟! وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَسَلَّحَ الْمُؤْمِنُ بِحِسَابَاتٍ أُخْرَى، فَلَا يَجْزِعُ مَن تَأَخَّرَ النُّصْرَ، وَيَقُولُ: كَمَ سَنَةٌ مَرَّتْ وَلَمَّا يَنْصُرْنَا اللَّهُ! بَلْ يَحْسَبُ سَنَوَاتِهِ قِيَاسًا عَلَى أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَسِنِينِهَا، هُنَالِكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّبِعَ خَطَى أَوْلَى الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ فِي الصَّبْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ. أَلَيْسَ يَتَّبِعُهُمْ فِي مَسْئُولِيهِ أَدَاءَ الرِّسَالَةِ وَبِلَاغِهَا؟ كَذَلِكَ نَجِدُ فِي النُّصُوصِ الْإِسْلَامِيَةِ التَّوْصِيَةَ بِالصَّبْرِ اتِّبَاعًا لِنَهْجِ الْأَنْبِيَاءِ،

فَفِي رِسَالِهِ مَفْصَّلُهُ إِلَى أَصْحَابِهِ يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):

إِنَّهُ لَا يَتِمُّ الْأَمْرُ حَتَّى دَخَلَ (يَدْخُلُ) عَلَيْكُمْ مِثْلَمَا دَخَلَ عَلَى الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَحَتَّى تَبْتَلُوا فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَحَتَّى تَسْمَعُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ أذى كَثِيرًا وَتَصْبُرُوا وَتَعْرُكُوا (1) بِجَنُوبِكُمْ، وَحَتَّى يَسْتَذِلُّوكُمْ وَيَبْغُضُوكُمْ، وَحَتَّى تَحْمِلُوا الضَّيْمَ، فَتَحْتَمِلُوهُ مِنْهُمْ، تَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَحَتَّى تَكْظُمُوا الْغَيْظَ الشَّدِيدَ فِي الْأذى فِي اللَّهِ جَلًّا وَعِزًّا، يَجْتَرْمُونَهُ إِلَيْكُمْ، وَحَتَّى يَكْذَّبُوكُمْ بِالْحَقِّ، وَيَعَادُوكُمْ فِيهِ، وَيَبْغُضُوكُمْ عَلَيْهِ، فَتَصْبُرُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ.

ص: ١٨٩

(١-١) عرَكَ الْأذى بِجَنْبِهِ أَى احْتَمَلَهُ.

و مصداق ذلك كله في كتاب الله الذي أنزله جبرئيل على نبيكم. سمعتم قول الله عزّ وجلّ لنبيكم: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» (١) بِالْبَلَاغِ أَلَا يَكْفِينَا هَذَا الْبَلَاغُ؟ بلى. لمن يأخذه مأخذ الجدّ.

فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُونَ الْحُدُودَ بِأَعْمَالِهِمْ.

ص: ١٩٠

---

١-١) نور الثقلين / ج (٥) - ص (٢٣).

سوره محمد

اشاره

ص: ۱۹۱



## فضل السوره

قال الامام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : «من قرأ سوره الذين كفروا لم يرتب أبدا، و لم يدخله شك في دينه أبدا، و لم يبتله الله بفقر أبدا، و لا خوف سلطان أبدا، و لم يزل محفوظا من الشرك و الكفر أبدا حتى يموت، فاذا مات و كلّ الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره، و يكون في أمان الله و أمان محمد صلى الله عليه و آله».

تفسير نور الثقلين ج / ٥٥ ص ٢٥ و

عنه عليه السلام انه قال: من أراد أن يعرف حال أعدائنا فليقرأ سوره محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) فإنه يراها آيه فينا و آيه فيهم.

المصدر

ص: ١٩٣



الاسم الآخر لهذه السوره هو: القتال، و بين الطاعه لمحمد-صلّى الله عليه و آله-الذى ذكر اسمه المبارك فى فاتحه السوره و للقياده الشرعيه عموما و بين القتال ضد الكفار الذى يحتاج إلى الطاعه التامه للرسول تدور محاور هذه السوره التى تميز بالتركيز على بيان الأمثال للناس..حيث تتوالى آياتها، تضرب مثالب الكفار و المنافقين، و تقارنها بصفات المؤمنين و لعل ١٧ مفارقه بين الفريقين تنطوى عليها السوره مما يثير التساؤل لماذا هذا التركيز فى سوره القتال على الفرق بين الفريقين؟ الجواب لسبيين:

ألف/ربّما لأن قلوب المؤمنين تعتمر بالرحمه الإيمانيه، و من الصعب تعبئه هذه القلوب بروحيه الحرب إلاّ ببيان صفات الكفار السلبيه، ليكون عداءهم للكفر و مثالبه قبل أن يكون لأشخاص الكفار.

باء/لأن القتال أفضل ميزان يعرف به الرجال، و يتميز به المؤمنون عمن فى



١- فى مستهل السوره يصرّح السياق ببيان أن الله يضلّ أعمال الكفار، بينما يصلح بال المؤمنين، و يغفر ذنوبهم. لماذا؟ ٢- لأن أولئك اتبعوا الباطل، بينما سلّم هؤلاء للحق، و هنا يؤكد ربنا ما يبدو انه المحور الأساسى للسوره حيث يقول: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ».

و بعد أن يأمر بقتال الكفار بلا هواده، و استمرار ذلك حتى تضع الحرب أوزارها-بظهور الحق كله على الباطل كله- و يختصر تبيان حكمه القتال فى كلمه (الابتلاء) بعدئذ يبين فضائل الشهداء فى سبيل الله حيث يحفظ الله دماءهم، و سيهديهم، و يصلح بالهم، و يدخلهم الجنة.

٣- و ينصر الله الذين آمنوا إن هم نصرروا دينه و رسوله، بينما يفشل الكفار، و يضئع جهودهم. أو ليس قد كرهوا ما أنزل الله؟! (فلم التعس و الفشل) و أحبط الله أعمالهم (حتى تلك التى تبدو صالحه) و حوادث التاريخ تشهد بهذه السنه. أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ؟ أن دمر الله عليهم، حتى ما بقى منهم شىء، و هذه سنه الله تجرى فيمن يأتى بمثل ما جرى فيمن مضى، و لذلك كان للكافرين أمثالها.

٤- و الله مولى الذين آمنوا (يؤيدهم بنصره و يرفع شؤونهم) و ان الكافرين لا مولى لهم (بالرغم من ولايتهم للأصنام و الأنداد إلا انها ليست بشىء).

٥- الذين آمنوا و عملوا الصالحات يسرون عبر منهج سليم نحو اهداف ساميه، و لذلك يدخلهم الله الجنة، بينما الكفار يتمتعون بالدنيا بلا أهداف،

وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْعَوْا فِي الدُّنْيَا لِاتِّقَائِهَا.

و ينسف القرآن أساس الأفكار على القوه الظاهريه التى يملكها الكفار ببيان:

ان هناك قرى كانت أشد من قريه مكه أهلكتها الله فلم يكن لها ناصر.

٦- المؤمنون على هدى من ربهم لا- يمارسون عملا- إلا- بحجّه واضحه من الله، بينما الكفار يتبعون أهواءهم التى زينت لهم و ليسوا سواء أبدا. هؤلاء يمضون على شريعته من الأمر واضح، بينما أمر أولئك فرط، لأنهم يميلون مع رياح الهوى انى اتجهت.

٧- قرار المؤمنين و عاقبه أمرهم الجنه بانهارها المتنوعه التى تعطيهم الرواء، و القوه، و النشاط، و اللذنه، و بثمراتها المتنوعه، و بما فيها من نعمه روحيه متمثله فى مغفره الله، بينما ليس للكفار إلا النار بما فيها من ماء يغلى يقطع أمعاءهم.

٨- كل ذلك لأن الكفار أصمّوا آذانهم عن الحق، بينما اهتدى المؤمنون فزادهم الله هدى، و علمهم كيف يتقون النار.

أولئك لا- يؤمنون حتى تأتيتهم الساعه التى ظهرت علاماتها، بينما هؤلاء- يستغفرون لبعضهم لأنهم يعلمون ألا- إله إلا- الله، و يستغفرون لذنوبهم، كما للمؤمنين و المؤمنات.

بعد بيان هذه الصفات التى تبصرنا الفروق بين المؤمنين و الكفار ترى السياق يعطف لبيان المنافقين، حيث بين أمثالهم أيضا و يجعل القتال فى سبيل الله محكّ التجربه لهم، فحين ينتظر المؤمنون حقا. و بفارغ الصبر الأوامر الالهيه بالقتال ترى أولئك إذا نزلت سوره محكمه و ذكر فيها القتال ينظرون نظر المغشى عليه من الموت (خوفا و حزنا) و هكذا يخرج الجهاد أضغانهم، و يظهر مرض قلوبهم.

وقد كان خيرا لهم لو أنهم صدقوا الله في ساعه الجدد، وإذا ملكوا السلطه-و هي مختبر آخر بعد الجهاد لحقيقه أنفسهم-تراهم يفسدون في الأرض، بمنع أعمارها، و نشر الرذيله، و الفسق، و الظلم بين أرجائها، و يقطعون أرحامهم، كما فعلت بنو أميه و بنو العباس بآل الرسول (صلى الله عليه و آله).

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ (عن سماع الحق) و أعمى أبصارهم (عن رؤيه شواهد).

(و القرآن ميزان لمعرفة حقائق الناس و لكن لمن تدبر فيه) « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (فلا تنفذ بصائر القرآن إلى أفئدتهم).

و يهدينا السياق إلى سبب الضلاله بعد الهدى عند هذا الفريق من مرضى القلوب، الذين سقطوا في وهذه النفاق و يقول: ان هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد أن عرفوا السبيل فانما الشيطان سؤل لهم (بأن زين لهم الضلال) و أملى لهم.

و إن من مثالب المنافقين و مؤامراتهم القذره انك تراهم يقولون للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى نحن معكم، و سوف نطيعكم في بعض الأمر، و نتعاون على ضرب الإسلام (و الله يعلم اسرارهم- كما يعلم اعلانهم).

و انهم يزعمون ان اتصالهم بالعدو يوفر لهم الحمايه، و لكنهم ماذا يصنعون غدا حين تضرب ملائكه الموت وجوههم و ادبارهم (و لا ينفعهم يومئذ أعوانهم من المشركين بل لا ينتفعون حتى من أعمالهم الصالحه) ذلك لأنهم اتبعوا ما أسخط الله، و كرهوا رضوانه (التمثل في طاعه الرسول، و النصح للقياده الشرعيه، و التسليم لأوامر القتال الصادره منها) فأحبط الله أعمالهم.

كلا..و يعتمد المنافقون على مبدأ السريه،و لكن أ يحسبون ان الله لن يخرج أضغانهم،و يظهر مرض القلب الذى تنطوى عليه أنفسهم بالأمر بالقتال؟! بلى.ربنا قادر على كشفهم الآن،بتغيير صورهم،بل انك قادر على معرفتهم من خلال تضاعيف كلماتهم،أو من ملامح صورهم.

و يعود القرآن إلى الحديث عن القتال ببيان حكمته المتمثله فى الابتلاء، و يؤكد: أن الكفار لن يضرروا الله شيئا،و سيحبط أعمالهم.و يأمر المؤمنين بطاعه الله و الرسول و التسليم لأمره بالقتال،و لا يطلوا أعمالهم.

أما الكفار الذين يموتون و هم كفار فلن يغفر الله لهم.

و يشحذ الله عزمه الاستقامه عند المقاتلين،و يدعوهم إلى الصمود،و ألاّ يهنوا، و يدعوا إلى السلم(الذليل)و هم الأعلون(بايمانهم)و أن الله لن يترهم أعمالهم.

و يهون شأن الدنيا فى أعينهم،و يبين إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ (إلا ما طلب بها الآخره)ففيه الجزاء بشرطين(الايمان و التقوى)و إذا آمنوا و اتقوا يؤتهم الله أجورهم،و لا يطلب منهم أموالهم.

و فى خاتمه السوره يذكرنا السياق بضروره الإنفاق فى سبيل الله-خصوصا و ان القتال بحاجه إليه-و إذا طلب الله كل أموالكم- و هذا امتحان صعب-لأنكم تبخلون،و يخرج الله أضغانكم(و مدى تشبثكم بالدنيا).

كيف و أنتم حين تدعون لإنفاق بعض أموالكم فان منكم مَنْ يَبْخُلُ،وَ مَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ،وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ .

و فى نهايه السوره نجد إنذارا للمؤمنين بأنهم إن لم يتحملوا مسئوليه الرساله، و يتولوا،يستبدل الله بهم قوما غيرهم.



## [سوره محمد (٤٧): الآيات ١ الى ١١]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَ كُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)

## اللغة

(٢) بِالَهُمْ: حالهم شأنهم.

(٤) أَثَخْتُمُوهُمْ: أى أثقلتموهم بالجراح و ظفرتهم بهم، وقيل أى بالغتم فى قتلهم و أكثرتم القتل حتى ضعفوا.

أَوْزَارَهَا:الوزر الثقل،أى أثقالها فإن للحرب أثقالا كالسلاح و نحوها،و إضافتها إلى الحرب مجازيه.

ص:٢٠٢

هدى من الآيات:

هل يكفي الإنسان مكسبا أن يمارس العمل أنى كان؟ كلاً.. بل لا بد أن يكون العمل على أساس الإيمان بالله و برسله، و التسليم لما جاءت به رساله. أمّا الذين يكفرون بذلك فإنّ الله يضل أعمالهم.

هكذا تذكّر آيات الدرس الأول من سوره القتال بالأسس الثابته للعمل المقبول، و هي:

أولاً: الإيمان بما نزل على محمّد (صلّى الله عليه و آله) دون تمييز أو انتقاء.

ثانياً: اتباع الحق، و نبذ الباطل.

ثالثاً: الجهاد فى سبيل الله.

و عن الأساس الثالث الذى يمحصّ الله به قلوب المؤمنين، و يطهر صفوفهم من



المنافقين، يفصّل السياق انسجاماً مع الإطار العام للسورة المباركة، ويبيّن هنا درجات الشهداء حيث يتقبّل الله أعمالهم، ويهديهم، ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة التي وعدهم إيّاها وعرفهم بها.

ويحرّض ربنا على الجهاد الذى يعتبره نصراً لدين الله، بأن يعدّ المؤمنين بالتأييد الظاهر المتمثّل فى النصر، والباطن المتمثّل فى تثبيت الأقدام.

كما ينذر الكافرين (الذين رفضوا قبول رسالته ككل، فلم يتبعوا الحق، ولم يجاهدوا فى سبيل الله) بزلزله المواقف، وعدم ثبات القدم، كما بضياح الجهود، و ضلال الأعمال، كما ينذرهم بإحباط العمل جزاء كرههم لما أنزل الله، ويأمرنا بالسير فى الأرض لنرى بأنفسنا هذه الحقيقة، وكيف أنّ مخالفته الحق سبّبت فى هلاكهم و تدميرهم كلياً.

### بينات من الآيات:

[١] لماذا يضلّ الله أعمال الكافرين؟ وكيف تتلاشى جهودهم، و تنهار مقاومتهم للرسالة الإلهية؟ أ رأيت الذى يجدّ السير فى اتجاه الشرق و هو يتغىّ مدينه فى الغرب، هل يبلغ هدفه يوماً؟ كذلك الذى يعاكس حركة التاريخ، و يخالف سنن الله فى الحياه، ألم يخلق الله السموات و الأرض بالحق، فكيف يحقّق من ينشد الباطل هدفه؟ لقد جاهد المترفون من النصارى أكثر من ألف عام ليثبتوا للناس أنّ الجنس لعنه، فهل استطاعوا تمرير ذلك؟ و حاول المادّيون أن يلغوا الجانب الروحى فى الإنسان، فهل قدروا؟ لماذا فشل هؤلاء و أولئك؟ لأنّهم ساروا فى الاتجاه المعاكس لسنن الله، لأنّ الله أودع فى البشر الجنس، كما فطره على الإيمان، فهو لا يستطيع أن يتجرّد عن المادة كلياً و لا عن المعنويات، فذهبت جهود القوم سدى، لأنّها

رامت الباطل، و هكذا قاوم الجاهليون على امتداد الزمن بعثه الرسل فأضلّ الله أعمالهم، لأنها لم تكن فى الإطار الصحيح.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ فَلَا تُنْفَعُ لَهُمْ جَنَّتُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَأَمْ يَكْتُمُونَ  
الحاج، و عمرو المسجد الحرام، فإنها لم تكن نافعه، لأنها كما البناء الذى زلزل أساسه أو الشجره التى اجتثت من فوق الأرض.

فمن كفر بالله يكفر بقيم الرسالات، بالحريه و الاستقلال و العداله و المساواه و المنهجيه العلميه و..و..، و هذه القيم أساس كل عمل صالح.

و هكذا لا ينبغى أن نغتر بظاهر التقدّم الذى يحرزّه هذا الفريق من الناس، لأنه ينطوى على تخلف خفى، و لا يزال بنيانهم على شفا جرف هار.

أ رأيت كيف وظّفوا تقدمهم فى انتهاب ثروات الشعوب، و استعباد المحرومين، و العلوّ فى الأمراض بغير الحق؟ أ رأيت كيف أشعلوا نار الحروب، و دمّروا الديار لكى يحزّكوا عجله اقتصادهم بيع الأسلحه؟ ألم تر كيف تسابقوا فى صناعه اللعنه، و ملأوا ترساناتهم بأدوات التدمير ذات الشرّ المستطير؟ أ ليس ذلك شاهدا كافيا على تلك الحقيقه، أنّ أعمالهم قد ضلّت عن طريقها، و لم تحقّق أهدافا فى رفاه الإنسانيه و خيرها؟

ص: ٢٠٥

كما أنهم حين صدّوا عن سبيل الله، و قاوموا الرسالات الإلهيه و امتداداتها، فشلوا و ذهب مساعيهم سدى، و هل ينفع سعى من أراد حجب ضوء الشمس بيده؟! [٢] أمّا الذين آمنوا بالله، و آمنوا بكلّ تلك السنن الماضيه فى الكائنات و القيم المنبعثه منها، فإنّهم اختاروا الإطار المناسب لعملهم، و بالتالى و فروا الضمانه المناسبه لبقاء أعمالهم، كمن بينى فى الصحراء سورا منيعا يحفظ أرضه من الرياح السافيات و العواصف الهوج ثم يزرع ما يشاء.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ضَمِنَ إِطَارَ الْإِيمَانِ، وَ عَلَى أُسَاسِهِ، وَ انْتِظَارًا مِنْ قِيَمِهِ.

وَ آمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ الَّذِى أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ رِسَالَاتِهِ، فَلَمْ يَفْسُدُوا قُلُوبَهُمْ بِالْعَصِيْبَةِ وَ الْحَقْدِ وَ الْعَدَاءِ لِلرَّسُولِ وَ التَّكْبَرِ عَلَيْهِ.

و تشير الآيه إلى ضروره الإيمان بالنبيّ محمد (صلّى الله عليه و آله) بصوره كامله، فمن يزعم بأنّه نبي العرب دون غيرهم، أو أنّه قائد بشرى لا- يتميّز بالعصمه الإلهيه، أو أنّه قد ينطق عن الهوى، أو يهجر حسب الظروف، أو ما أشبهه، فإنّه لم يؤمن حقًا بمحمد (صلّى الله عليه و آله)، و قد قال الله سبحانه: «مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (١)، و قال: «وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»، و قال:

«وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ».

ص: ٢٠٦

الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله دليل لصدق الإيمان بالله، فمن استكبر عن هذا الإيمان فإنه قد كفر بالحق وهو أساس كل إيمان.

وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فَلَأَنَّهُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ لَا بَدَّ مِنَ التَّسْلِيمِ لَهُ، لَا عَلَى أُسُسٍ بَاطِلَةٍ، فَلَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ لَا بَدَّ مِنْ طَاعَتِهِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ، لِأَنَّهُ قَائِدٌ عَرَبِيٌّ أَوْ سَيِّدٌ قُرَشِيٌّ أَوْ عَظِيمٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ.

و من آمن بالرسول انطلاقاً من هذه القيمة-قيمة الحق- آمن كذلك بخلفائه الأئمة الأبرار، لأنهم الامتداد الصادق له، و من آمن بالأئمة على هذا الأساس فإنه يؤمن بالفقهاء الصالحين، الذين هم ورثه الأنبياء و حجج الله بالنباه.. و هكذا لا يجد المؤمن بالحق حرجاً في نفسه من طاعته أولى الأمر الشرعيين و من التسليم لكل ما هو حق، لأن مقياسه في كل ذلك سواء.

أمّا من آمن بالرسول بحوافز مادية فإنه ينفصل عن خط الرسول، و يمضي أنى اتجهت حوافزه، فإذا وجد قائداً عربياً مخالفاً للرسول أو سيّداً قرشياً عاصياً لله أو عظيماً هاشمياً فاسقاً فإنه لا يجد حرجاً في اتباعه، بينما الله يأمره بالكفر بالطاغوت و الثوره عليه.

كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ يَبْدُو أَنَّ هَذَا جَزَاءُ إِيمَانِهِمْ. أ تَدْرِي لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْهَدَفَ الْأَسْمَى مِنْ تَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ ابْتِلَاءُ الْإِنْسَانِ فِي مَدَى طَاعَتِهِ لِلْحَقِّ وَ تَسْلِيمِهِ لِمَنْ أُرْسِلَ بِهِ، فَإِذَا أَطَاعَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ، وَ سَلَّمَ لِلْقِيَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ، فَقَدْ ابْتُلِيَ بِأَصْعَبِ الْأُمُورِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ فِي الْمَسَائِلِ السِّيَاسِيَّةِ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَ حَيْثُ تَعْصَفُ رِيَّاحُ الْفِتَنِ، وَ تَغْتَلَمُ

العصبيات، و يعلو غبار الشبهات. إن هذه الطاعة هي صعب مستصعب لا يحتمله إلا من امتحن الله قلبه للإيمان.

و إن كثيرا من الناس ممن سكن شيطان الكبر و العصبية في قلوبهم يفضّلون أداء أحمز الأعمال الصالحة على لحظه واحده من التسليم للقياده الشرعيه فيما يخالف أهواءهم أو يعارض آراءهم.

من هنا يكفر الله سيئات من أطاع الله و رسوله و أولى الأمر الشرعيين تسليما لله و رضا بما فرضه عليه.

وَ أَصْلَحَ بِاللَّهِمَّ قَالُوا: الْبَالُ هُوَ الْحَالُ أَوْ الشَّأْنُ، وَ أُمُورُ الْإِنْسَانِ، وَ أَهَمُّ أَحْوَالِهِ، وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْقَلْبُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَا يَخْطُرُ بِاللَّيْلِ. (١)

و إصلاح البال: رخاء الحال بما يرضى القلب.

و يبدو أنّ ذلك يتعلّق بالأعمال الصالحة التي أدّوها ضمن إطار الإيمان فأثمرت صلاحا في أنفسهم و ما يتعلّق بها من شؤون، لأنّها كانت في الطريق السليم، و لو كانت في سبيل الكفر فإنّها لن تثمر بل كان الله يضلّها.

[٣] كيف نقيّم الناس، و على أيّ مقياس، هل بلغتهم أو وطنهم أو أنسابهم أو بقدر ما يملكون من مال و جاه و سلطه؟ كلاً.. لأنّ كلّ ذلك جاهليه و تخلف، فهل تصادق كلّ من يتحدّث العربيه و لو كان خائنا شقيّاً؟ و أيهما أفضل لك من يسكن بلادا بعيدة و يسدى إليك خدمه أو جارك السيء الذي دائما يؤذيك؟ و هل

ص: ٢٠٨

هما سواء عندك ابن عمك الذى يأكل أموالك بالباطل و القاضى الذى يردّ حقك إليك؟ و ماذا ينفعك غنى الثرى الذى يمتص دماء المحرومين؟ و ما ذا يضرك فقر البائس الذى يعيش إلى جنبك بوداعه و طيبه؟ العقل يحكم بفساد تلك المقاييس جميعا، و إنّما المقياس هو الحق، فمن اتبعه صاحبه، و من خالفه عادينه، أنّى كانت سائر الوشائج بيننا و بينه.

و بما أنّ الكفار اتبعوا الباطل بما يحمل من أخطار عليهم و على الإنسانىه فإننا نعادىهم، حتى و لو كانوا ينطقون بلغتنا، و يسكنون وطننا، أو كانوا من ذوى أقاربنا.

بينما المؤمنون الذين يتبعون الحق نستريح إليهم، لأنّ الحق ينفعنا جميعا، حتى و لو كانوا من الأبعدين لعه، و وطننا، و قرابه.

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ الْعَقْلُ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَ لَكِنْ لَيْسَ بِذَلِكَ الْوَضُوحُ الَّذِى يَجْعَلُهُ مَطْمَئِنًا بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ، بَيْنَمَا الْوَحَى الَّذِى يَهْدِينَا إِلَيْهِ الْعَقْلُ يَفْضَلُ مَجْمَلَاتِ الْعَقْلِ تَفْصِيلاً مَبِيناً. الْعَقْلُ يَحْكُمُ -مَثَلًا- بِحَسَنِ الْعَدْلِ، وَ لَكِنَّهُ قَدْ يَتَشَابَهُ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فِي قَضِيهِ فَيَقِفُ حَائِراً، وَ هُنَا يَفْضَلُ الْوَحَى حُكْمَ الْعَدْلِ فِيهَا بِمَا يَسْتَشِيرُهُ مِنْ دَفَائِنِ الْعَقْلِ، وَ يَكْشِفُهُ مِنْ خَبَايَا الْعِلْمِ، وَ مَا يَبَيِّنُهُ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ.

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ الْمَثَلُ: مَجْمُوعَةُ الصِّفَاتِ الَّتِي يَجْسِدُهَا الشَّخْصُ، فَإِذَا قَلْنَا: مَثَلُ فُلَانٍ، أَى

جمله نعوته الحسنه أو السيئه، مما تستصحب على من يشابهه فيها، و هي في مقابل الذات، و الذات لا تهمننا (لأنّ الناس في الذات لا يختلفون)، إنّما يهمننا الصفات التي تحيط بهذه الذات، و هي مثالهم.

و حين يعطينا القرآن مقياس الحق و الباطل فإنّه يبيّن لنا أمثال الناس، و جمله صفاتهم، و التي بها نستطيع أن نعرف كيف تتصرّف مع هذا و ذاك، فمن اتبع الحق والينا، لأنه (مثل حسن)، و من اتبع الباطل عادينا، لأنه (مثل سيء).

[٤] و لأنّ هنالك مثالين: مثال الحق المتجسّد في المؤمنين، و مثال الباطل المتجسّد في الكفّار، فإنّ الصراع قائم بينهما، و يتحوّل إلى قتال، و على المؤمنين أن يستعدّوا نفسياً للمواجهه.

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ ۗ أَلَلَّ ۗ هُنَا هُوَ لِقَاءُ الْمَوَاجِهَةِ الدَّامِيَةِ، وَ لَا يَعْنِي -فِيمَا يَبْدُو مِنْ سِيَاقِ الْكَلِمَةِ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ- أَيْ لِقَاءَ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَ كَافِرٍ.

و ضرب الرقاب: تعبير عن أشدّ أنواع القتل و أوضح صورته، و به يتجلّى الغضب المقدّس الذي تمتلأ به روح المؤمن المخلص للحق.

و قالوا: معناه: اضربوا ضرب الرقاب.

و لعلّ الكلمه توحى بضروره حسم المعركه بأقوى الأسلحه، ممّا تسمّى بالحرب الصاعقه التي عاده تقلّل من الخسائر في الطرفين، بعكس حرب الاستنزاف التي قد تكون وبالاً على الطرفين.

و لعلّ الحرب الصاعقه هي المراده أيضاً من آيات أخرى في الكتاب، كقوله

سبحانه: «فَإِمَّا تَثَقَفَنَّهٗمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» حَتَّىٰ إِذَا أَثخنْتَهُمْ قالوا: الثخن بمعنى الغلظه، و يطلق على الغلبه، و نقل عن لسان العرب اثخن إذا غلب و قهر، و قال البعض: أنه بمعنى تراكم القتلى و الجرحى فوق الأرض.

فَشُدُّوا الْوَثَاقَ أَي قَيِّدُوهُمْ بِجَبَلٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ بِشِدِّهِ كُنَايَهُ عَنْ أَسْرِهِمْ.

و يستوحى من الآيه أنّ مرحله أخذ الأسرى متأخره عن مرحله القتال، فلا ينبغي أن يشغل الجيش قبل قهر عدوّه بالأسرى.

فَإِمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَإِمَّا فِتْدَاءٌ هُنَالِكَ يَخْتَارُ الْقَائِدُ بَيْنَ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الْأَسِيرِ بِإِطْلَاقِ سِرَاحِهِ، حِينَ لَا يَرَى فِي إِبْقَائِهِ مَصْلَحَةً أَوْ يَرَى فِي إِطْلَاقِ سِرَاحِهِ مَصْلَحَةً هَامَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَبَيْنَ أَنْ يَقْبَلَ الْفَدْيَةَ الَّتِي قَدْ تَكُونُ قَدْرًا مِنَ الْمَالِ يَفْرُضُ عَلَى الْعَدُوِّ بِإِزَاءِ كُلِّ أَسِيرٍ، وَ قَدْ تَكُونُ بَعْضُ التَّنَازُلَاتِ وَ الضَّمَانَاتِ أَوْ مَا أَشْبَهَ، وَ لَعَلَّ مِنْ مَعَانِيهِ الْقِيَامُ بِتَبَادُلِ الْأَسْرَى مَعَ الْعَدُوِّ.

و قال الفقهاء تبعاً للنصوص الشرعية: إنّ هنالك خياراً ثالثاً هو استرقاق الأسرى.

حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَ الْوِزْرُ هُوَ الثَّقَلُ، وَ الْحَرْبُ ثَقِيلَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ بِمَا فِيهَا مِنْ مَشَاكِلٍ، كَمَا أَنَّ



ساحات القتال تشهد الأسلحة و الأدوات و الأجهزة القتالية و إذا توقف القتال أعيدت كلياً إلى المخازن، و هذه كناية عن توقف الحرب، و لكن متى تتوقف حرب المسلمين مع أعدائهم بصورة كلياً؟ إن من السداجه الركون إلى السلم فى عالم تحكمه شريعته الغاب، يأكل القوى الضعيف، و ينفق الأعداء قسماً كبيراً من مواردهم فى الاستعداد للحرب، بالرغم من أن النفوس تكره الحرب بطبيعتها، و تميل إلى الخفض و الدّعه، و قد ينخدع الإنسان بمظاهر الوّد و المودعه الحاكمه على الأـجواء، فلا يعدّ نفسه للقتال، فيؤخذ على غزّه.

لذلك أمرنا القرآن بالاستعداد أبداً للدفاع عن أنفسنا و عن رسالته التى نحملها إلى الإنسانى المعذب، فقال: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِجَالٍ حَنِينٍ». فما دام المسلمون يرفضون التخلّى عن قيمهم و استقلالهم و حقوقهم فلا بد أن يستعدوا للدفاع المقدّس، و قد يكون الاستعداد التام للدفاع أفضل و سيله لتجنّب ويلات الحرب، لأنّه يردع الأشرار من الاعتداء.

لذلك

جاء فى الحديث المأثور عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم): «و الجهاد ماض مذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدّجال».

(١)

ذَلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأْتَنَّصِرَ مِنْهُمْ وَ لَكِنْ لِيَبْلُؤَا بَعْضَ كُمْ بِبَعْضٍ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِى دَمَّرَ عَاداً الْأُولَى بِالرِّيحِ الصَّرْصَرِ، وَ أَهْلَكَ ثَمُودَ  
فَمَا أَبْقَى، وَ لَمْ يَذِرْ أَحَدًا مِنَ الْقُرَى الْمُؤْتَفِكَةِ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ، أَوْ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَى كُلِّ طَائِفَةٍ مَسْتَكْبِرٍ صَاعِقَهُ مِنَ  
السَّمَاءِ فِيهِلِكُهُمْ؟ بلى. و قد يفعل بهم عند ما يبلغون

ص: ٢١٢

آجالهم، لأنه ينصر دينه بما يشاء، كيف يشاء.

يبد أن حكمه الحرب التي يخوضها المسلمون تتلخص في إظهار خبايا المسلمين، و إبلاء سرائرهم.

أولاً: بفصل الصادقين منهم عن الكاذبين.

ثانياً: بتطهير قلوب الصادقين منهم من شوائب النفاق و المصلحيه.

و قد قال ربنا سبحانه (و هو يبين الهدف الأول): «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ» (١)، و قال تعالى (و هو يشير إلى الهدف الآخر): «وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» (٢).

و إذا كانت الحرب بوتقه تطهر المجتمع الإسلامي من العناصر الضعيفه و المنافقه، كما تطهر قلب كل من يخوضها من أدرانه، فإن علينا أن نتخذ منها مدرسه للبطوله و الإيثار، لا نشد منها فخرا و لا نصرا، و إنما نسعى لتزكيه أنفسنا فيها، و تربيتها على الشجاعه و الفداء، و نتبع في ذلك

الإمام على (عليه السلام) حيث يقول: «و الله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها» (٣)، و

يقول و هو يوصي نجله محمّد بن الحنفية حين يدفع به في أتون المعركة: «تزول الجبال و لا- تزول عضّ على ناجذك. أعر الله جمجمتك. تد في الأرض قدمك. إرم ببصرك أقصى القوم، و غضّ بصرك، و اعلم أن النصر من عند الله سبحانه» (٤).

ص: ٢١٣

١-١ (١) آل عمران/ (١٤٢).

١-٢ (٢) آل عمران/ (١٤١).

٣-٣ (٣) نهج البلاغه/ كتاب (٤٥).

٤-٤ (٤) المصدر/ ص (٥٥).

و إذا كان الهدف من الحرب الأساسى ابتلاء المؤمنين فإن النصر من عند الله، ينزله عليهم متى تمت حكمه الابتلاء، و علم منهم الصبر و الاستقامه، سواء توافرت عوامل النصر الماديه، أم لا، و معرفه هذه الحقيقه تزيد الجيش الإسلامى بطوله و استبسالا و صبرا و استقامه.

□  
وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ لِأَنَّهُمْ مَضُوا عَلَىٰ النَّهْجِ الْإِلَهِيِّ، وَ اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْوُدائع، اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ. إِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَحْفَظُ أَعْمَالَهُمْ، وَ يُؤَيِّدُ بِقُدْرَتِهِ الْقَضِيهَ الَّتِي ضَحَّوْا مِنْ أَجْلِهَا، وَ هَذَا هُوَ أَهَمُّ مَا يَنْشُدُهُ الْعَامِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

و نستوحى من هذه الآيه أن الدم المقدس الذى يرخسه صاحبه فى سبيل الله هو السياج المنيح لقيم الرساله.

و ربما أشار إلى ذلك

الحديث المأثور عن الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه و آله) فى فضل الجهاد فى سبيل الله:

«للجنة باب يقال له باب المجاهدين، يمشون إليه فاذا هو مفتوح، و هم متقلدون سيوفهم، و الجمع فى الموقف، و الملائكة ترحب بهم، فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذللاً فى نفسه، و فقرا فى معيشته، و محقا فى دينه. إن الله تبارك و تعالى أعز أمي بسنابك خيلها، و مراكز رمحها» (١) [٥] الأئمة التى تجاهد فى سبيل الله لا تضيع جهودها، و لا تضل أعمالها. إنها سوف تحقق أهدافها، و لا يستطيع أحد أن يصادر حقوقها، و ينهب ثروتها.

ص: ٢١٤

١- ١) بحار الأنوار/ج (٩٧)-ص (٩).

أليست تقاوم المعتدى، وتصنع حول حقوقها و جهودها سورا منيعا من بطولا- أبنائها و دماء شهدائها؟ و هذه الأمه لا تضلّ طريقها، لأنّ الله يهديها بفضل جهادها في سبيله.

سَيَهْدِيهِمْ إِنَّ الْجِبْنَ أَكْبَرَ حَاجِزٍ دُونَ فَهْمِ الْحَقَائِقِ، وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَبْرُرُونَ الْفَسَادَ وَ التَّبَعِيَةَ جَبْنًا وَ فِرَارًا مِنْ مَوَاجِهَةِ السُّلْطَاتِ الطَّاعِيَةِ، وَ هَكَذَا يَخْدَعُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَ يَسْلُبُ اللَّهُ عَنْهُمْ نُورَ الْهُدَايَةِ، وَ يَذَرُهُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ، أَوْ لَمْ يَقُلْ رَبَّنَا سُبْحَانَكَ: «وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»؟ بينما المجاهدون الذين يتقدمون بخطى شجاعه حتى الشهاده في سبيل الله، يتبصرون الحقائق بوضوح كاف، لأنهم مستعدون لمواجهتها أتي كانت عواقب المواجهه.

و هذه الهدايه التي يورثها الشهداء لأمتهم تتصل بالهدايه في الآخره حيث تبلغ بهم منازلهم في الجنه.

وَ يُضَيِّحُ بِالْهُمِّ إِنَّ الشَّهَادَةَ عُنْوَانُ الْإِسْتِقْلَالِ، وَ سُرُورُ التَّقَدُّمِ، وَ طَرِيقُ الْغِنَى، وَ سَبِيلُ الْعِزَّةِ، وَ أُمَّةٌ تَمْلِكُ الشَّهَادَةَ لَا تَعْدَمُ هَذِهِ الْمَكَاسِبَ.

إِنَّ الْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ الْمُطْمَئِنَّةَ الصَّالِحَةَ رَهِينَةُ الدَّمَاءِ الَّتِي تَرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

و صلاح البال و رفاه الحال في الدنيا يتصل بصلاح بال الشهداء في الآخره(بل

و صلاح بال من هم فى خطهم و على خطاهم من أنصارهم و من تجرى فيهم شفاعتهم) حيث هم أحياء عند ربهم يرزقون.

و هكذا نستوحى من الآيه أنّ المعنى بها ليس فقط الشهداء أنفسهم، بل أمتهم أيضا و ليس فى الآخرة فحسب، بل فى الدنيا أيضا، أو ليست الآخرة امتدادا للدنيا، و هما بالتالى حياه واحده أولها هنا و آخرها هناك؟ و إنّنا نجد فى النصوص الإسلاميه التى وردت فى فضل الجهاد توضيحا لهذه الشموليه (للدنيا و الآخرة)، لأنّ المجاهدين كلمه تعمّ الشهداء منهم و الأحياء المنتظرين للشهاده، كما قال ربنا سبحانه: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (١).

[٦] وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي طَالَمَا اسْتَأْتَقُوا إِلَيْهَا بِمَا عَرَفَهَا رَبُّهُمْ لَهُمْ، و ربما شاهد كل واحد منهم منزله فى الجنة قبل خروج روحه لينتقلوا إلى الدار الآخرة بكل رضا وطمأنينه،

فقد جاء فى حديث مفصل مأثور عن أمير المؤمنين عن النبى (صلى الله عليه و آله):

«و إذا زال الشهيد عن فرسه بطعنه أو ضربه لم يصل إلى الأرض حتى يبعث الله عزّ و جلّ زوجته من الحور العين فتبشّره بما أعدّ الله له من الكرامه، فإذا وصل إلى الأرض تقول له: مرحبا بالروح الطيبه التى أخرجت من البدن الطيب. أبشّر فإنّ لك ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر.

و يقول الله عزّ و جلّ: أنا خليفته فى أهله، و من أرضاهم فقد أرضانى، و من أسخطهم فقد أسخطنى، و يجعل الله روحه فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة

ص: ٢١٦

حيث تشاء، تأكل من ثمارها، و تأوى إلى قناديل من ذهب معلقه بالعرش، و يعطى الرجل منهم سبعين غرفه من غرف الفردوس ما بين صنعاء و الشام، يملأ نورها ما بين الخافقين، فى كل غرفه سبعون بابا، على كل باب سبعون مصراعا من ذهب» (١).

[٧] و يحرض القرآن الذين آمنوا، و استعدوا لتنفيذ أوامر الرساله، و عرفوا قيم الحق الذى أنزل من ربهم، يحرضهم على الجهاد فى سبيل الله بنصر دينه، و يبشّرهم لقاء ذلك بالفتح و الثبات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصِيرُوا اللَّهُ يَنْصِرْكُمْ وَ يثبتْ أَقْدَامَكُمْ ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ مَجْرَدَ الْعَمَلِ بِالْإِسْلَامِ فِي حُدُودِ الْقَضَايَا الشَّخْصِيَّةِ، وَ إِنَّمَا أَيْضًا تَحْمَلُ مَسْئُولِيَةَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ.

و ربما جاء التعبير بنصر «الله» مع أنّ الله غنى عن العالمين، ليكون شاملا لنصر كل ما يتصل بالإيمان بالله، فى كل حقل، و فى كل عصر و مصر، حتى يكون المؤمن قواما لله، مستعدا للدفاع عن الحق أبدا فى مواجهه أى شخص أو قوه.

و إنّما جزاء النصر نصر مثله، فمتى نصرت الله بتطبيق دينه على نفسك و أهلِكَ و الأقربين منك و مجتمعك، و دافعت عنه ضد أعداء الله، فإنّ الله ينصرك بذات النسبه. أمّا إذا اقتصر نصرك على بعض المجالات فلا تنتظر نصرا شاملا.

و هكذا تتسع آفاق هذه الآيه لكل جنات الحياه، و لا تختصر فى الجهاد المقدّس، بالرغم من أنّه المثل الأعلى لها.

ص: ٢١٧

و ثبات القدم هو التأييد الربانيّ الأسمى، لأنّ هزيمة النفس أنكر هزيمه، و الحرب صراع إرادات قبل أن تون مقارعه الأسلحه، و من كان أكثر صبرا، و أمضى إرادته، و أعظم ثباتا، فإنّه يكون أقرب إلى النصر.

و صراع الإنسان مع هوى نفسه أعظم من صراعه مع أعدائه. ألم تكن مخالفة الهوى هي الجهاد الأكبر؟ و الله سبحانه قد وعد المؤمنين بأن يعينهم في جهادهم مع أنفسهم إن هم نصرروا دينه و جاهدوا أعداءه، و هذه أعظم نعمه من نصرهم على عدوّهم الظاهر.

و الواقع: إنّ سنّه الله قد قضت بأنّ القيم و الشرائع التي أريقّت الدماء من أجل تكريسها أشدّ ثباتا في النفوس و في المجتمع من غيرها، و هكذا في كلّ أمر، فكل مكسب حصلت عليه بصعوبه لا بد أن تتشبّث به بشده، أمّا الذي ملك البلاد بغير حرب فإنّه يهون عليه تسليم البلاد.

[٨] أمّا الكفر الذي يتشعب إلى شعب، فمنه الكفر بالله، و منه الكفر بالرسول، و منه الكفر ببعض ما أرسل به كالجهاد في سبيل الله، فإنّه يؤدّي إلى زلزاله الموقف، و ضياع الجهد.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ قَالُوا: التَّعَسُ هُوَ الْوُقُوعُ عَلَى الْوَجْهِ، وَ كَأَنَّهُ تَعْبِيرٌ عَمَّا يُقَابِلُ ثَبَاتَ الْقَدَمِ.

وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ حَتَّى الَّذِي يَبْدُو صَالِحًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ.

[٩] ما هو سبب كفرهم و هلاكهم؟ إنّ جذر ذلك كرههم لرساله الله المنبعث

من كبرهم و تعصبهم و تقليدهم لآبائهم، فاتخذوا موقفا سلبيا من رساله.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ بِالذَّاتِ فِيمَا يَخَالِفُ هَوَاهُمْ، أَوْ يِعَارِضُ مَصَالِحَهُمْ كَالسِّيَاسَةِ وَ الْاِقْتِصَادِ.

فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ فَإِذَا لَمْ يَسْلَمُوا لَوْلَا يَهُ اللَّهُ فِي السِّيَاسَةِ وَ الْاِقْتِصَادِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الْأَسَاسِيَةِ لَمْ تَنْفَعَهُمْ صَلَاتُهُمْ وَ صِدْقَاتُهُمْ، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ضَمَّنَ الْإِطَارَ الصَّحِيحَ، وَ كَانَ مِثْلَهُمْ كَالَّذِي زَرَعَ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ أَوْ سَعَى بِغَيْرِ هَدْيٍ أَوْ سَارَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِهِ.

إنَّ عَشْرَاتِ السَّنِينَ مِنَ الْجُهْدِ قَدْ تَذَهَبُ بِهَا سَاعَةٌ مِنَ التَّهَوُّرِ أَوْ الْجَبِينِ أَوْ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ، كَالَّذِي يَبْنِي أَعْظَمَ عِمَارَةٍ فَوْقَ أَرْضِ رَمْلِيَةٍ! أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَقُودُ طَآغِيَهُ مَهْوُوسٌ بِالسَّلْطَةِ بَاحِثٌ عَنِ الْكِبْرِيَاءِ فِي الْأَرْضِ شَعْبَهُ الَّذِي سَلَّمَ لَهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا فِي حَرْبِ طَاحِنِهِ، تَهْدِمُ الْبِلَادَ، وَ تَقْتُلُ الْمَلَائِينَ، وَ تَضِيغُ مَسَاعِيَ عَشْرَاتِ السَّنِينَ فِي بَضْعِهِ أَيَّامًا؟ أَوْ مَا سَمِعْتَ مَا حَدَثَ فِي أَلْمَانِيَا عَلَى عَهْدِ الطَّآغِيَةِ هَتْلَرِ، وَ كَيْفَ أَنَّهُمْ بِخُضُوعِهِمْ لِذَلِكَ الدِّيْكَتَاتُورِ أَحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ، وَ تَلَاشَتْ جُهُودُهُمْ؟ وَ كَمَ مِنْ مِثْلِ يَتَجَلَّى لَنَا فِي صَفْحَاتِ التَّارِيخِ لِهَذِهِ الْمَعَادِلَةِ.

وَ لَيْسَ الْاِقْتِصَادُ الْفَاسِدُ بِأَقْلَ خَطَرًا مِنَ السِّيَاسَةِ الْفَاسِدَةِ، فَإِنَّ الْاِسْتِغْلَالَ قَدْ بَذَهَبَ بِمَكَاسِبِ الْمَلَائِينَ مِنَ الْبَشَرِ، وَ لَا يَدْعُهُمْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ مَكَاسِبِهِمْ. أَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَصْلِحُوا اِقْتِصَادَهُمْ حَتَّى لَا تَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ، وَ لَا تَذَهَبَ جُهُودُهُمْ سُدًى؟ قَالُوا: إِنَّ الْجِسْمَ الَّذِي يَبْتَلَى بِالطَّفِيلِيَّاتِ لَا تَنْفَعُهُ الْمَقْوِيَّاتِ، إِذْ أَنَّهَا بَدَلَ أَنْ تَقْوَى الْجِسْمَ تَقْوَى عَدُوِّهِ الْمَتَمَثِّلِ فِي الطَّفِيلِيَّاتِ، وَ كَذَلِكَ الْاِقْتِصَادُ الْمَبْتَلَى بِالْمَسْتَعْلِينَ



لا ينشط إلا لمصلحتهم، و باعتبارهم أعداء الإقتصاد فإنّ دوره نشاطه لا تزيده إلا تخلفاً، و هذا أحد معاني الإحباط.

و فى الأخلاق- كما فى السياسة و الإقتصاد- تصدق هذه المقولة، فإنك تجد البعض من الناس يفقدون فى لحظه تهوّر أو نزق ما اكتسبوه من سمعه حسنه خلال عشرات السنين. أ ليس ذلك يعنى الإحباط؟ و بكلمه: إنّما ينفع العمل إذا كان أساسه سليماً، أمّا العمل القائم على أساس منهار فإنه ليس لا ينفع فقط، بل و قد يصبح خطراً على صاحبه.

و أساس العمل الصالح: السياسة الصالحه، الإقتصاد الصالح، القيم الراشده فى السلوك.

[١٠] و التاريخ أفضل مدرسه، و السير فى الأرض لدراسه تجارب الأولين على الطبيعه أفضل منهج فى هذه المدرسه، إذ يجعلنا نلمس الحقائق بصوره مباشره بعيداً عن تفسيرات المتخلفين، و خرافات الأولين.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ دَعْنَا نَسِيرَ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ لِنُبْحَثَ عَنْ آثَارِ الْأُولِينَ فِيهَا، بشرط ألاّ تستوقفنا الآثار بل العبر التى وراءها.

فَيَنْظُرُوا بِأَمْ أَعْيُنِهِمْ عَلَى الطَّيْبِ، دون وسائط نقل، و تفسيرات خاطئه.

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

كان الدمار شاملا فوقهم، فلم يبق من أنبيائهم و أموالهم و ديارهم شىء، و هذه ليست خاصه بعصر دون عصر، إنما هي شامله لكل العصور.

وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهُمْ فَكُلٌّ كَافِرٌ لَا يَدْرِي أَيُّ يَوْمٍ يَأْتِيهِ الْعَذَابُ، لِأَنَّ سِنَّ اللَّهَ لَا تَتَّعَبُ.

[١١] ما الذى يضمن أعمال المؤمنين؟ إيمانهم بالله، و دخولهم فى حصن ولايته، و هى الولاية الحق التى تشمل الخليفه. أما الكفار فهم بقوا خارج هذا الحصن المنيع فضاعت جهودهم، و تلاشت مساعيهم.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ قَدْ زَعَمَ الْكُفَّارُ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰ أَعْمَالِهِمْ فَخَابَ سَعْيُهُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَمْلِكُ لِقَوْمٍ يُكْفَرُونَ أَمْثَالَهُمْ فَكُلٌّ كَافِرٌ لَا يَدْرِي أَيُّ يَوْمٍ يَأْتِيهِ الْعَذَابُ، لِأَنَّ سِنَّ اللَّهَ لَا تَتَّعَبُ.

ص: ٢٢١

اشاره

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيُّنْ مِنْ قَوْمِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَوْمِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلِكَ نَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّمًا (١٩)

اللغة

(١٥) غَيْرِ آسِنٍ: غير متغير الطعم و الريح.

(١٨) أَشْرَاطُهَا: علاماتها.

(١٩) مُتَقَلِّبِكُمْ: أى تقلبكم فى كافه أحوالكم.

وَمَمَّا كُمْ: حين ترجعون إلى بيوتكم للمنام و الاستراحه.

ص: ٢٢٣

هدى من الآيات:

لكى لا تتميع الحدود بين الحق و الباطل، بين الكفر و الايمان، و بالتالى بين الكافرين و المؤمنين، تتوالى آيات الذكر ببيان الفروق الكبيره بين الفريقين فى الدنيا و فى الآخره.

و لكى يستعدّ المؤمنون لمواجهه الكفّار عسكريا، بالرغم من اعتمار قلوبهم بالرحمه الايمانيه، لا بد أن يعرفوا ماذا يعنى الكفر، و ما مصير الكفّار؟ أَلْف/إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ لِمَاذَا؟ لَأَنَّهُمْ عَرَفُوا حُكْمَ الْخَلْقِ فَحَقَّقُوا بِأَفْعَالِهِمْ، بينما استمتع الكفّار بالحياه الدنيا، و أكلوا بلا هدف، كما تأكل الانعام، فكان مصيرهم النار.

باء/ و الله ولى المؤمنين ينصرهم، بينما الكفّار لا ناصر لهم، و شاهد ذلك أنهم أهلكوا فلم ينتصر لهم أحد.

جيم/و المؤمنون على هدى و بينه من ربهم. أمّا الكفّار فقد زين لهم سوء أعمالهم، و اتبعوا أهواءهم.

دال/و فى الجنة أنهار مختلفه، تروى عطش المؤمنين، و تعطىهم القوه و النشاط و اللذه، بينما الكفّار يخلدون فى النار، و يسقون ماء حميما يقطع أمعاءهم.

هاء/و بينما طبع الله على قلوب الكفّار حتى أنّهم لا يفقهون ما يقال لهم فاتبعوا أهواءهم، نجد المؤمنين قد اهتموا بضياء الوحي فزادهم الله هدى، و زوّدهم بالتقوى حتى يتبعوا الحق من ربهم.

و ترى الكفّار ينتظرون، بينما المؤمنون يهتدون، و لكن ما ذا ينتظرون؟ الساعه. فهذه علاماتها و قد جاءتهم، و إذا نزلت بهم فجأه ما ذا ينفعهم الهدى؟ و ينتهى الدرس بالتذكيره بالله الذى لو علم الإنسان أنّه الله الواحد الأحد استغفر لذنبه (و لم يتشبّث بالأنداد من دونه ليخلصوه من ذنوبه) كما استغفر للمؤمنين و المؤمنات الذين سوف يرتبط بهم إيمانها، و يتخذ منهم موقفا لا عداه فيه و لا تقديس، و الله يعلم أطوار حياه البشر و تقلباتهم، كما يعلم مثواهم.

### بينات من الآيات:

[١٢] من يؤمن بالله، و لا يكتفى بالايمان وحده، بل يجعل من صبغه حياته تفيض على سلوكه، فله أجره عند ربه، و ما أعظمه من أجر! إنّ الله يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَعَالَوْا إِلَىٰ حَيْثُ رَسُولُ اللَّهِ يَرغَبْنَا بِكَلَامِهِ الصَّادِقِ الْعَذْبِ فِي جَنَّاتِ رَبِّنَا،

حيث أعدّها الله داراً لضيافته، و دعا إليها كرام خلقه، و ها

هو الرسول يحدّثنا ألا تسمعون: فيدخل (المؤمن الجنة) فإذا هو بشجرة ذات ظل ممدود، و ماء مسكوب، و ثمار مهدله، يخرج من ساقها عينان تجريان، فينطلق إلى إحداهما فيغتسل منها فيخرج عليه نضرة النعيم، ثم يشرب من الأخرى فلا يكون في بطنه مغص و لا مرض و لا داء أبداً، و ذلك قوله: «و سَيَقَاهُم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً»، ثم تستقبله الملائكة فتقول: طبت فادخلها مع الخالدين، فيدخل فإذا هو بسماطين من شجر، أغصانها اللؤلؤ، و فروعها الحلّى و الحلل، ثمارها مثل ثدى الجوارى الأبيكار، فتستقبله الملائكة معهم النوق و البراذين و الحلّى و الحلل فيقولون: يا ولى الله اركب ما شئت، و البس ما شئت، و سل ما شئت، قال: فيركب ما اشتهى، و يلبس ما اشتهى، و هو على ناقه أو برذون من نور، و ثيابه من نور، و حلّيته من نور، يسير في دار النور، معه الملائكة من نور، و غلمان من نور، و وصائف من نور، حتى تهابه الملائكة ممّياً يرون من النور، فيقول بعضهم لبعض: تنخروا فقد جاء وفد الحليم الغفور، قال: فينظر إلى أول قصر له من فضه مشرفاً بالدرّ و الياقوت فتشرف عليه أزواجه فيقولون: مرحباً مرحباً انزل بنا، فيهم أن ينزل بقصره، قال: فيقول الملائكة: سر يا ولى الله فان هذا لك و غيره، حتى ينتهى إلى قصر من ذهب مكلل بالدر و الياقوت فتشرف عليه أزواجه فيقلن: مرحباً مرحباً يا ولى الله انزل بنا، فيهم أن ينزل به فتقول له الملائكة: سر يا ولى الله فانّ هذا لك و غيره.

قال: ثم ينتهى إلى قصر مكلل بالدر و الياقوت فيهم بالنزول بقصره فيقول له الملائكة: سر يا ولى الله فانّ هذا لك و غيره، قال: ثم يأتي قصر من ياقوت أحمر مكلل بالدر و الياقوت فيهم بالنزول بقصره فيقول له الملائكة: سر يا ولى الله فانّ هذا لك و غيره، قال: فيسير حتى أتى تمام ألف قصر، كلّ ذلك ينفذ فيه بصره، و يسير في ملكه أسرع من طرف العين، فإذا انتهى إلى أقصاها قصرًا نكس رأسه، فتقول

الملائكة:مالك يا وليّ الله؟قال:فيقول:و الله لقد كاد بصرى أن يختطف، فيقولون:يا وليّ الله أبشر فإنّ الجنه ليس فيها عمى ولا صمم،فأتى قصرا يرى باطنه من ظاهره،و ظاهره من باطنه،لبنه من فضه،ولبنه ذهب،ولبنه ياقوت، و لبنه در ملاطه المسك،قد شرف بشرف من نور يتلأأ،و يرى الرجل وجهه فى الحائط.

قال:و إنّ فى الجنّه لنهرا حافته الجوارى،قال:فيوحى إليهن الرب تبارك و تعالى:أسمعن عبادى تمجيدى و تسبيحى و تحميدى،فيرفعن أصواتهنّ بألحان و ترجيع لم يسمع الخلائق مثلها قط،فتطرب أهل الجنه، و إنّ لتشرف على وليّ الله المرأه ليست من نساءه من السجف فملأت قصوره و منازل ضوءا و نورا،فيظنّ وليّ الله أنّ ربّه أشرف عليه،أو ملك من ملائكته،فيرفع رأسه فاذا هو بزوجه قد كادت يذهب نورها نور عينيه،قال:فتناديه:قد آن لنا أن تكون لنا منك دوله،قال:

فيقول لها:و من أنت؟قال:فتقول:أنا ممّن ذكر الله فى القرآن: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾،فيجامعها فى قوه مائه شاب،و يعانقها سبعين سنه من أعمار الأولين،و ما يدرى أينظر إلى وجهها أم إلى خلقها أم إلى ساقها؟!فما من شىء ينظر إليه منها إلا رأى وجهه من ذلك المكان من شدّه نورها و صفائها،ثم تشرف عليه أخرى أحسن وجهها و أطيب ريحا من الأولى،فتناديه فتقول:قد آن لنا ان يكون لنا منك دوله،قال:فيقول لها:و من أنت؟فتقول:أنا من ذكر الله فى القرآن:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال:و ما من أحد يدخل الجنّه إلا كان له من الأزواج خمسمائه حوراء،مع كلّ حوراء سبعون غلاما و سبعون جاريه كأنهنّ اللؤلؤ المنثور،كأنهنّ اللؤلؤ المكنون (و تفسير المكنون بمنزله اللؤلؤ فى الصدف لم تمسه الأيدى،و لم تره الأعين،و أما المنثور فيعنى فى الكثره)و له سبع قصور فى كلّ قصر سبعون بيتا،فى كلّ بيت سبعون



سريرا، على كل سرير سبعون فراشا، عليها زوجه من الحور العين، «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» «أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ» صاف ليس بالكدر، «وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» لم يخرج من ضرر المواشى، «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» لم يخرج من بطون النحل، «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» لم يعصره الرجال بأقدامهم، فإذا اشتهوا الطعام جاءهم طيور بيض يرفعن أجنحتهن فيأكلون من أى الألوان اشتهوا جلوسا إن شأؤوا أو متكئين، وإن اشتهوا الفاكهه تسعت إليهم الأغصان فأكلوا من أيها اشتهوا، قال: «الْمَلَأْنَاهُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (١).

هذا و طبيعه المتقين فى الجنة تختلف عنها فى الدنيا اختلافا شاسعا،

فقد روى عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام :

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جَرْدُ مَرْدٍ مَكْحَلِينَ مَكْلَلِينَ مَطُوقِينَ مَسُورِينَ مَخْتَمِينَ نَاعِمِينَ مَحْبُورِينَ مَكْرَمِينَ، يُعْطَى أَحَدُهُمْ قُوَّةَ مَائَةِ رَجُلٍ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجَمَاعِ، قُوَّةَ غِذَائِهِ قُوَّةَ مَائَةِ رَجُلٍ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَجِدُ لَذَّةَ غِذَائِهِ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَ لَذَّةَ عِشَائِهِ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَدْ أَلْبَسَ اللَّهُ وَجُوهُهُمْ النُّورَ، وَ أَجْسَادَهُمُ الْحَرِيرَ، بِيضَ الْأَلْوَانِ، صَفَرَ الْحَلِيِّ، خَضَرَ الثِّيَابِ».

«إِنَّ هَلَّ الْجَنَّةِ يَحْيُونَ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا، وَيَسْتَيْقِظُونَ فَلَا يَنَامُونَ أَبَدًا، وَيَسْتَعْنُونَ فَلَا يَفْتَقِرُونَ أَبَدًا، وَيَفْرَحُونَ فَلَا يَحْزَنُونَ أَبَدًا، وَيَضْحَكُونَ فَلَا يَبْكُونَ أَبَدًا، وَيَكْرُمُونَ فَلَا يَهَانُونَ أَبَدًا، وَيَفْكُهُونَ وَ لَا يَقْطُبُونَ أَبَدًا، وَيَحْبِرُونَ وَ يَسْرُونَ أَبَدًا، وَيَأْكُلُونَ فَلَا يَجُوعُونَ أَبَدًا، وَيُرْوُونَ فَلَا يَظْمَؤُونَ أَبَدًا، وَيَكْسُونَ فَلَا يَعْرُونَ أَبَدًا، وَيَرْكَبُونَ وَ يَتْرَاوِرُونَ أَبَدًا، وَيَسْلَمُ عَلَيْهِمُ الْوَالِدَانُ الْمُخَلَّدُونَ أَبَدًا بِأَيْدِيهِمْ

ص: ٢٢٨

أباريق الفضة و آنيه الذهب أبدا، متكئين على سرر أبدا، على الأرائك ينظرون أبدا، يأتيهم التحيه و التسليم من الله أبدا، نسأل الله الجنة برحمته. أَنَّهُ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

أما الكافرون فليس لهم سوى النار مثوى و حصيرا.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَ السَّبَبُ فِي دُخُولِهِمُ النَّارَ بِدَلِّ الْجَنَّةِ هُوَ أَنَّهُمْ اسْتَنْفَذُوا طِبْيَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَ غَارُوا فِي أَوْحَالِ الشَّهَوَاتِ، وَ لَمْ يَسْتَهْدِفُوا مِنْ وَرَاءِ النِّعَمِ الْوَصُولَ إِلَى الْغَايَةِ الْأَسْمَى (الدَّارِ الْآخِرَةِ)، وَ هَذَا مَا بَيَّنَّتْهُ الْآيَةُ الْعِشْرِينَ مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ:

« وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ».

و نتساءل: ما معنى «يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ»؟ الجواب: المؤمن يأكل ليعمل، و يعمل للهدف، و يتبغى الهدف لله، «وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى»، بينما القضييه معكوسه عند الكافر الذى يعمل ليحصل على متعه الأكل (و سائر الشهوات)، فالهدف عنده الذى تتمحور حوله سائر نشاطاته هو الأكل. أليس ذلك حاله الأنعام؟ [١٣] تلك كانت النار و هى موعدهم (فى الآخرة)، أمّا فى الدنيا فقد يصيبهم الله بعذاب من عنده اليم.

وَ كَأَيُّنْ مِنْ قَوْمِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَوْمِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ

ص: ٢٢٩

كانوا يبنون بكل ريع آيه يعثون، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون، وإذا بطشوا بطشوا جبارين، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين، وكانت الأنهار تجري من تحتهم، وكانوا يستخفون بالمؤمنين، ويقولون: إنهم لشرذمه قليلون.. ولكن ألم تر كيف فعل ربك بهم، ألم يصب عليهم سوط عذاب؟! بلى. فهل وجدوا لهم نصيرا؟! و من هذا السياق (علاقه الآيه ١٢ بالآيه ١٣) نستوحي الحقيقه التاليه: إن المؤمنین يتعاملون مع الأشياء-كل الأشياء-باعتبارها وسائل للوصول إلى الأهداف، فهم لا يعتمدون عليها، ولا يتخذونها أندادا لله، ولا يحجبهم حبهم لها أو تعاملهم معها عن الله و رسالاته و أحكامه، و بكلمه واحده: إنهم يجعلونها وسيله يسخرونها لتحقيق الحكمه من خلقهم، و لا يجعلون أنفسهم سخره لها، بينما الكفار ينظرون إلى الأشياء نظره ذاتيه، فيغترون بها، و يعتمدون عليها، و لكنّها لن تغنى عنهم شيئا.

[١٤] حين يفصل الكتاب بين المؤمنین و الكافرين لا يفصل بينهما كعنوانين ظاهرين، بل كقيمتين واقعتين، يفصل على أساسهما من يتظاهر بالايمان عن الفاسق و المنافق.

ذلك أنّ القرآن يتحدّث غالبا عن الحق، و ليس عن مظاهره، و لذلك فالكافر في آياته ليس دائما الذى يتظاهر به، بل قد يكون الذى يكفر-مثلا-بآيه فى القرآن أو يكفر عمليا بفريضة إلهيه، لأنّ الحديث القرآنى هو عن واقع الكفر لا ظاهره، ممّا يشمل كلّ من يوجد لديه هذا الواقع.

و هذه السوره تتميّز بالصراحه فى هذا الفصل، و لذلك

جاء فى الحديث المروى عن أبى عبد اللّٰه الصادق عليه السلام : «من أراد أن يعرف حالنا و حال أعدائنا فليقرأ سوره محمّد (صلّى الله عليه و آله و سلم)، فإنّه يراها آيه فينا و آيه فيهم» (١) أى أنّها تتحدّث بوضوح تام عن منهاج محمّد و آله الحق، و منهاج الباطل المخالف لهم.

أَقَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَدَارَ مَعَ الْحَقِّ أَيْنَمَا دَارَ، وَ لَمْ يَجْعَلْ ذَاتَهُ أَوْ هَوَاهُ مَحْوَرًا لِقَرَارَاتِهِ.

كَمَنْ زُوِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ كَلًّا.. لا يستويان. إنّهُ لفرق كبير بينهما، فأولئك محورهم الحق، و هؤلاء محورهم الهوى.

إنّ المؤمن يفكر ثم يتحدّث، و يخطط ثم يعمل، بينما الكافر و المنافق يتحدّث بلا رويه، و يعمل بلا هدف سليم، لأنّه لا يعتمد الحق مقياسا لشؤون حياته. أو لم يقل

الامام على عليه السلام : «لسان العاقل وراء قلبه، و قلب الأحمق وراء لسانه»؟ (٢).

إنّ المؤمن يعلم أنّه قد يخطئ صراط الحق، و من هنا فهو لا يتحرّك إلا عن بينه، فلا يخطو خطوه إلا و هو يعلم أنّه سيضعها فى الموقع السليم، كمن يحمل مصباحا و يقدّمه أمامه ثم يبدأ المشى، و بالعكس الكافر و المنافق. إنّهُ يتخبّط فى ظلمات الباطل، لأنّ الدافع الأساسى له الهوى

«و كم من عقل أسير، تحت هوى

ص: ٢٣١

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥- ص ٢٤

٢- ٢) نهج/ حكمه ٤٠/ ص ٤٧٦

و إنّ المؤمن يعيش حياه الصدق، لأنّه يعيش فى إطار الحق فلا يحتاج إلى التبرير و التلبس و الدجل، بينما يعيش أصحاب الهوى الالتواء و الأعذار و الزيف. إنّ ضمائرهم ترفض باطلهم لو لا أنّه يزيّن لهم، و يلبس بالحق، و يبرر بصنوف المعاذير. أ رأيت الذى يطعم العسل لا يحتاج إلى خلطه بماده أخرى، بينما الذى يجترع العلقم لا يستسيغه إلا إذا وضع فيه قطعه حلوى. كذلك الحق و الباطل. فهل الحاكم المنتخب بنزاهه، العامل بالعدل، الحكيم، الصادق، الصالح، بحاجة إلى الاعلام كالطاغية الظالم الطائش الفاسد؟ و هكذا نجد الدول كلّما توغّلت فى الظلم كلّما أنفقت على الدعايه.

كما نجد أكثر الفلسفات البشريه جاءت لتبرير واقع فاسد للناس فرادى أو جماعات، ففى العهد الماضى ابتدعت نظريات كثيره كالمرجئه و القدرية لتبرير الواقع الفاسد للأفراد و حالات الترهل و الكسل، كما انتشر فى العصر الحديث الفساد الجنسى، و غطت أوروبا الميوعة و المجون، فجاء فرويد بنظريته الجنسيه المعروفه.

[١٥] لكى يتعمق الفصل بين فريقى المؤمنين و الكافرين فى أعيننا حتى لا نزعّم انهما سواء، و نستدرج-بسبب هذا الزعم-نحو الكفر، و لكى نرغب فى الايمان بما يلقىه على عواتقنا من مسئوليات، و نحذر من الكفر بالرغم مما حفت به من شهوات، لكل ذلك يذكرنا السياق بمصير الفريقين، و يبين صفات الجنه و النار:

مَثَلُ الْجَنَّةِ

ص: ٢٣٢

هذه هي صفة الجنة.

الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ، وَيَتَجَنَّبُونَ مَا يَسْخَطُ رَبَّهُمْ، وَيَحْفَظُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَ مَا يَوْجِبُهَا مِنْ سَيِّئَاتٍ.

فِيهَا أَنْهَارٌ مُتَنَوِّعَةٌ أَوْلَا.

مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ غَيْرِ مُتَغَيِّرٍ لَطُولِ الْمَقَامِ كَمَا تَتَغَيَّرُ مِيَاهُ الدُّنْيَا، ذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ طَاهِرَةٌ مِنَ النِّجَاسَاتِ وَالْجِرَاطِيمِ وَالْأَدْرَانِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ هَذَا النَّهْرَ وَضِعَ لِرَفْعِ عَطَشِهِمْ. وَأَقُولُ: بَلَى.

وَأَيْضًا لِتَطْهِيرِ أَجْسَادِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ مِنْ شَوَائِبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِذَا شَرَبُوا مِنْهَا نَظَّفَتْ أَسْبَابَهُمْ مِنْ كُلِّ جَرْتُومَةٍ أَوْ مَرَضٍ كَمَا طَهَّرَتْ قُلُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ غَلٍّ.. وَنَسْتَوْحِي ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ قَابِلِيَةِ الْمَاءِ لِلْأَسْنِ وَالتَّغْيِيرِ. وَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ الْمَاءَ بَدَاثَةٌ مَطْهَرَةٌ، فَإِنَّ مَقَاوِمَتَهُ لِلتَّأَثُّرِ تَعْنِي أَنَّهُ مَاءٌ مَطْهَرٌ لِكُلِّ نِجَاسَةٍ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ إِذَا كَانَ يَتَأَثَّرُ بِهَا، وَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا الْحَدِيثُ الَّذِي مَضَى آتِفًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ فَلَا يَعْتَرِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَصِيبُ الْأَلْبَانَ فِي الدُّنْيَا، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ اللَّبْنَ شَرَابٌ يَقُومُ بِدَوْرِ الطَّعَامِ، أَوْ طَعَامٌ مُتَكَامِلٌ فِي صُورِهِ شَرَابٌ سَائِغٌ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَتَغَيَّرُ بِسَبَبِ سُرْعَةِ اجْتِنَابِهِ لِلْجِرَاطِيمِ. بَيِّنُ أَنَّ لَبْنَ الْآخِرَةِ يَقَاوِمُ الْجِرَاطِيمَ، فَهُوَ إِذَا غَدَا سَائِغٌ هَدَفَهُ بَعَثَ الْقُوَّةَ فِي أَسْبَابِهِمْ.

ص: ٢٣٣

وَ أَنهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّدَهُ لِلشَّارِبِينَ يتلذذون بشربها، ولا يتأذون بها ولا بعاقبتها، بخلاف خمر الدنيا التي لا تخلو من المراره و السكر و الصداع، فاذا شربوها ازدادوا نشاطا و حيويه.

وَ أَنهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَيِّفٍ خالص من الشمع و الرغوه و القذى و من كل ما يقلل من قيمته، و من جميع العيوب التي تكون لعسل الدنيا، فهو حلوى يتذوقونها. أو ليس تشتهي النفس بعد الطعام الى الحلواء؟ هكذا تجرى في الجنة هذه الأنهار تبعث البهجه و الطمأنينه في نفوس أهل الجنة حيث لا يبقى في نفوسهم خوف من الجوع مستقبلا، أو حرص على الطعام في الحاضر. أ رأيت من يعيش على شاطئ الفرات الفانض هل يخشى العطش أو يحرص على تخزين الماء لمستقبله؟ كلا. هكذا أهل الجنة يبعث الله في نفوسهم الغنى بما تراه أعينهم من وفور النعمه.

وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ لا يتناولونها بعد جهد و عناء كما في الدنيا، لأنها متهدله عليهم.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بعد تلاوته للآيه الكريمة: «وَ ذَانِيَهُ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا»: «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهي من الثمار بفيه، و هو متكئ، و إن الأنواع من الفاكهه ليقلن لولى الله: يا ولى الله! كلنى قبل أن تأكل هذا قبلى» (1) و حيث كان يتحدث عن شجره طوبى قال صلى الله عليه و آله :

«أسفلها ثمار أهل الجنة، و طعامهم متذلل فى بيوتهم، يكون فى القضييب منها مأه

ص: ٢٣٤

لون من الفاكهه، مما رأيتم فى دار الدنيا و مما لم تروه، و ما سمعتم به و ما لم تسمعوا مثلها، و كلما يجتنى منها شىء نبتت مكانها أخرى، لا مقطوعه و لا ممنوعه» (١).

و بالرغم من وجود لحم الطير مما يشتهيهِ الإنسان فانه لم يذكر فى هذا السياق، و لعل منشأ ذلك شمول كلمه الثمرات لمثله إذ ان الثمره هى التى تفرزها الأرض أو النبات ثم ينتفع بها الإنسان بلا صعوبه.. و لحوم الطير من هذا النوع و الله العالم.

وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ حيث لا- يبقى بينهم و بين معرفه الله و الانس بحضرتة حجاب من ذنوب، و هذا أعظم نعمه إذ ان لذه الروح أعمق من لذه الجسد، و ان من عرف الله و نجاه و ازداد معرفه به بلغت به الراحة، و الطمأنينه و الانس، و الحب، و انشراح القلب، و لذه الروح أبعد مداه.

روى عن على بن الحسين (عليهما السلام): إذا صار أهل الجنة فى الجنة، و دخل ولى الله الى جنانه و مساكنه، و اتكأ كل مؤمن منهم على أريكته، حفته خدامه، و تهدلت عليه الثمار، و تفرجت حوله العيون، و جرت من تحته الأنهار، و بسطت له الزرابى، و صفت له النمارق، و أتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك، قال: و يخرج عليهم الحور العين من الجنان فيمكنون بذلك ما شاء الله.

ثم إن الجبرار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائى و أهل طاعتى و سكان جنتى فى جوارى الأهل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا و أى شىء خير مما نحن فيه؟ نحن فيما اشتهدت أنفسنا، و لذت أعيننا من النعم فى جوار الكريم. قال:

ص: ٢٣٥



فيعود عليهم بالقول فيقولون:ربنا نعم فاتنا بخير مما نحن فيه فيقول لهم تبارك و تعالى:رضاي عنكم و محبتي لكم خير و أعظم مما أنتم فيه.قال:فيقولون:نعم يا ربنا رضاك عنا و محبتك لنا خير لنا و أطيب لأنفسنا.ثم قرأ على بن الحسين (عليهما السلام) هذه الآية: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .(١)

إن الله خلق الإنسان و هو يحمل في جوانحه طموحا لا- حدود له،فكلما حصل على نعمه هفت نفسه نحو نعمه أخرى،و الرب يذكر النعيم الا-خروي الذي وعده المتقين،و يعلم ان الإنسان لا يكتفى به،لهذا يعقب: «و مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» أو ليس الله و رضاه غايه آمال العارفين،و منتهى طموح الراغبين؟ و تتساءل:أيهما أفضل أن تنتقل من الدنيا الى الآخرة فنحصل على ذلك النعيم العظيم المعنوي و المادي،أو أن نلقى في النار على وجوهنا أذلاء خاسئين،مهانين مخزيين؟! كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ

روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام حديث طويل،قاله للأحنف بن قيس،يصف فيه أهل النار:

«فكم يومئذ في النار من صلب محطوم،و وجه مهشوم،و مشوه مضروب على الخرطوم،قد أكلت الجامعه كفه،و التحم الطوق بعنقه.

فلو رأيتهم يا أحنف ينحدرون في أوديتها،و يصعدون جبالها،و قد ألبسوا

ص: ٢٣٦

المقطعات من القطران، و أقرنوا مع فجارها و شياطينها، فاذا استغاثوا بأسوء أخذ من حريق شدت عليهم عقاربها و حياتها، و لو رأيت مناديا ينادى و هو يقول:

يا أهل الجنة و نعيمها و يا أهل حليتها و حللها، خلدوا فلا موت، فعندها ينقطع رجاؤهم و تنغلق الأبواب، و تنقطع بهم الأسباب، فكم يومئذ من شيخ ينادى، و اشيبته! و كم من شاب ينادى و شباباه! و كم من امرأه تنادى و فضيحتاه! هتك عنهم الستور. فكم يومئذ من مغموس، بين أطباقها محبوس، يا لك غمسه ألبستك بعد لباس الكتان، و الماء المبرد على الجدران، و أكل الطعام ألوانا بعد ألوان. لباسا لم يدع لك شعرا ناعما كنت مطعمه إلا بيّضه، و لا عينا كنت تبصر بها الى حبيب إلا فقأها» (1) و سَقُوا مَاءً حَمِيمًا إِنْهُمْ لَا يَسْتَسِينُونَ بَلْ يَضْطَرُّهُمْ عَطَشُهُم الشَّدِيدَ إِلَى شَرْبِ الْمَاءِ الَّذِي يَغْلَى حَرَارَهُ.

فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ وَ هُنَا نَنْقُلُ حَدِيثًا رَهِيْبًا مَأْثُورًا

عن الامام الباقر (عليه السلام) يصف فيه بعضا من عذاب الكافرين:

ثم يضرب رأسه ضربه فيهوى سبعين ألف عام حتى ينتهي الى عين يقال لها آنيه، يقول الله تعالى: «تسقى من عين آنيه» و هو عين ينتهي حرها و طبخها، و أوقد عليها من خلق الله جهنم، كل أوديه النار تنام و تلك العين لا تنام من حرها، و يقول الملائكة: يا معشر الأشقياء ادنوا فاشربوا منها، فاذا أعرضوا عنها ضربتهم الملائكة بالمقامع، و قيل لهم: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ».

ص: ٢٣٧

قال: ثم يؤتون بكأس من حديد فيه شربه من عين آنيه، فإذا أدنى منهم تقلصت شفاههم، و انتشر لحوم وجوههم، فإذا شربوا منها و صار فى أجوافهم يصهر به ما فى بطونهم و الجلود (١) و المتقون لهم من كل الثمرات، اما هؤلاء المجرمون فليس لهم سوى الزقوم مطعما..

يقول الامام الباقر عليه السلام :

«ثم يضرب على رأسه ضربه فيهوى سبعين ألف عام حتى ينتهى الى شجره الزقوم، شجره تخرج فى أصل الجحيم، طلعتها كأنه رؤوس الشياطين، عليها سبعون ألف غصن من نار، فى كل غصن سبعون ألف ثمرة من نار، كل ثمرة كأنها رأس الشيطان قبحا و نتنا، تشب على صخره مملسه سوخاء كأنها مرآه ذلقه، ما بين أصل الصخره (الشجره خ ل) سبعون الف عام، أغصانها يشرب من نار و ثمارها نار، و فرعها نار، فيقال له: يا شقى اصعد، فكلما صعد زلق، و كلما زلق صعد، فلا يزال كذلك سبعين الف عام فى العذاب، و إذا أكل منها ثمرة يجدها أمرّ من الصبر، و أنتن من الجيف، و أشد من الحديد، فإذا وقعت بطنه غلت فى بطنه كغلى الحميم، فيذكرون ما كانوا يأكلون فى دار الدنيا من طيب الطعام». (٢)

هل نختار هذا المصير السيء على عاقبه المتقين؟ و هكذا يبين القرآن مدى الفرق بين المؤمن و الكافر، لكى لا ننظر الى ظاهر الأمر و نزعّم انه يستوى هذا و ذاك، أو تستوى حاله الايمان و حاله الكفر، فننجر الى الكفر باهمالنا و غفلتنا، نعوذ بالله منه و من مصير الكافرين.

ص: ٢٣٨

١- ١) بحار الأنوار/ ج ٨- ص ٣٢١

٢- ٢) المصدر

[١٦] ولا تعى القلوب المحاطه بالهوى بصائر القرآن، أما من اتقى حجب الشهوات تلقى أنوار الهدى. أو لم يقل: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ».

و هذه البدايه، و علينا أبدا العوده الى المبادئ لحل الغاز الحياه. فاذا كنت تبحث عن الجنه أصلح اولاً منهج التفكير فى نفسك، فلا تتبع الهوى و استمع الى الحق و تفكر فى آيات الله.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ لَا لَكَ يَفْقَهُ، و انما ليجادل فى آيات الله بغير هدى.

حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا عَنْ مَاذَا تَحَدَّثَ؟ و الى أى شىء أشار؟ و ما هى الأفكار التى ذكرها؟ و ما هى الأوامر التى كلفنا بها؟ يقول ذلك فور خروجه من بيت الرساله، لماذا؟ لأنه لم يقتنع بما قيل له فحاول أن يجد له تفسيراً و تأويلاً. إنه لفرط عقده النفسيه لا يرى الأمور إلا بصوره معكوسه، و لا يعتقد صدق متحدثيه، بل يبحث فى أحاديثهم عن زوايا مبهمه يجعلها ماده تساؤله، و مناقشاته، و جدلياته، و يزعم ان ذلك من العلم و لا يعرف انه دليل جهله و انغلاق قلبه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحَتْ لَا تَعَى وَلَا تَعْقِلُ. مضوا قدما فى طريق الهوى.

وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ

لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يخضع لشهواته، ويركب مطيَّه أهوائه، وهو واع بصير. إذ انه آتذ سيهتهم بتزكيه نفسه و ترويضها، كما

الامام أمير المؤمنين على عليه السلام الذى قال و هو يحكم إمبراطوريه عريضه: «و إنما هى نفسى أروضها بالتقوى لتأتى آمنه يوم الخوف الأكبر، و تثبت على جوانب المزلق، و لو شئت لاهتديت الطريق، الى مصفى هذا العسل و لباب هذا القمح، و نسائج هذا القرّ، و لكن هيهات أن يغلبنى هواى، و يقودنى جشعى الى تخيير الأطمعه..

إليك عنى يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسلت من مخالبك، و أفلت من حباثلك، و اجتنبت الذهاب فى مداحضك.. اعزبى عنى افو الله لا- أذل لك فتستدلىنى، و لا أسلس لك فتقودينى، و أيم الله يمينا أستثنى فيها بمشيئه الله- لأروضن نفسى رياضه تهش معها الى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، و تقنع بالملح مأدوما، و لأدعن مقلتى كعين ماء نضب معينها، مستفرغه دموعها».

(١)

[١٧] و من أراد ان يعى الحقائق، و يزداد بصيره و هدى، و يستقيم على المنهج السليم، فعليه أن يسعى بنفسه نحو الهدايه، لأن على الإنسان الخطوه الاولى و على الله التوفيق.

وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بَحْثُوا عَنِ الْحَقِّ بِأَنْفُسِهِمْ، وَسَعَتْ قُلُوبُهُمْ نَحْوَ الْبَصِيرَةِ، أَوْلَيْكَ الَّذِينَ يَأْخُذُ رَبَّهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فِي طَرِيقِ الْهُدَايَةِ، فَيُزِيدُهُمْ هُدًى كَمَا يَثْبُتُ أَقْدَامُهُمْ أَنْ تَزُلَّ بِفِعْلِ عَوَاصِفِ الشَّهْوَةِ وَ رِيَاكِ الْفِتَنِ.

ص: ٢٤٠

زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّاهُمْ تَقْوَاهُمْ تَمَامًا بِعَكْسِ أَوْلِيَّتِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ سَبَقَ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ، فَبَيْنَمَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ أَوْلِيَّتِكَ، زَادَ هُدًى هَؤُلَاءِ. وَ بَيْنَمَا يَتَّبِعُ أَوْلِيَّتِكَ أَهْوَاءَهُمْ، أَتَى هَؤُلَاءِ التَّقْوَى بِتَنْمِيهِ مَعَارِفِهِمْ وَ وَعِيهِمْ، وَ تَنْبِيهِهِمْ فِي أَوْقَاتِ الْغَفْلَةِ، وَ تَنْمِيهِ إِرَادَتِهِمْ وَ عَزْمِهِمْ، وَ إِغْنَائِهِمْ بِنِعْمَةِ الْحَلَالِ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ. وَ بِكَلِمَةٍ: تَوْفِيْقِهِمْ لِتَجَنُّبِ مَا يَسْخَطُ رَبَّهُمْ.

[١٨] لما ذا- إذا- لا نخطو نحو ربنا الخطوه الاولى ليزيدنا هدى و يؤتينا التقوى؟ إنه الانتظار الساذج، و التسوييف الخادع، كأننا نتوقع أن تكون الخطوه الأولى من غيرنا، و ننتظر و الى متى ننتظر؟ هل الى قيام الساعة، حيث لا تنفع التوبه. فقد توافرت علائها أ فلا نبادر بالتوبه قبل فوات أوانها؟ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً قَدْ تَمَثَّلَ السَّاعَةَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ عِنْدَ مَا يَنْزِلُ اللَّهُ عَذَابَ الْاِسْتِيصَالِ، أَوْ عِنْدَ مَا يَفَاجِئُ الْإِنْسَانَ أَجَلُهُ الَّذِي لَا مَفْرَ مِنْهُ. الْمَهْمُ أَنَّهَا تَبَاغَتِ الْبَشَرَ، بِيَدِ انْهَاءِ لَيْسَتْ مَفَاجِئُهُ تَمَامًا إِذْ اِنْ عَلَامَاتُهَا قَدْ ظَهَرَتْ مِمَّا تَكْفِينَا دَلَالَهُ عَلَيْهَا.

فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا أَشْرَاطُ السَّاعَةِ، أَى عَلَائِمُهَا مَا هِيَ عَلَائِمُهَا؟ لَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي تَأْوِيلِهَا قَالِ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا بَعَثَةُ الرَّسُولِ أَوْ لَمْ يَقُلْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ:

بَقِيَتْ أَنَا وَ السَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَ ضَمَّ السَّبَابَهُ وَ الْوَسْطَى. أَوْ لَمْ يَخْطُبْ فِي أَصْحَابِهِ قَبْلَ الْغُرُوبِ وَ

قَالَ: وَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مِثْلُ مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا

بقى منها، إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقى منه، وما بقى منه إلا اليسير (١) مما يدل على اننا نعيش فى نهايات الدنيا.. و من علامات ذلك بعثه خاتم الرسل الذى لا نبى بعده الى يوم القيامة.

وقال بعضهم: إن أشراف الساعة هى ما ذكر فى النصوص من انتشار الفساد و لا ريب ان ذلك أيضا من علامات قيام الساعة التى تقوم على شر خلق الله.

بيد ان أشراف الساعة-حسبما يبدو-تعم كل الشواهد التى تهدينا الى قيامها، و تختلف الشواهد حسب الأشخاص و الأمم و العصور. فلا- ريب ان ما جرى على الأمم الماضيه من عذاب التدمير من أشراف الساعة التى تهدينا الى وقوعها، و حتى موت الأجزاء و رحيلهم الأبدى عن الدنيا يمكن أن يكون منذرا لنا حتى نبادر بالتوبه.

بلى. هناك علامات الساعة ذكرت فى النصوص توحى بضروره انتظار قيام الساعة عند ما ينتشر الفساد و ينحسر الصلاح كما

جاء فى الحديث المأثور عن عبد الله بن عباس قال: حججنا مع رسول الله صلى الله عليه و آله حجه الوداع، فأخذ بحلقه باب الكعبه ثم أقبل علينا بوجهه فقال: ألا أخبركم بأشراف الساعة؟ و كان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمه الله فقال: بلى يا رسول الله. فقال: من أشراف القيامه إضاعه الصلوات و اتباع الشهوات، و الميل مع الأهواء، و تعظيم أصحاب المال، و بيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن فى جوفه كما يذاب الملح فى الماء مما ترى من المنكر، فلا يستطيع أن يغيره. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان إن عندها يليهم أمراء جوره، و وزراء فسقه، و عرفاء ظلمه، و أمناء خونه. قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول

ص: ٢٤٢

١-١) تفسير نمونه/ج ٢١-ص ٤٥١ نقلا عن روح المعانى.

اللّٰه؟ قال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان، ان عندها يكون المنكر معروفًا و المعروف منكرا، و يؤتمن الخائن و يخون الأمين، و يصدق الكاذب و يكذب الصادق، قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول اللّٰه؟ قال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان، فعندها ستكون إماره النساء و مشاوره الإمام و قعود الصبيان على المنابر، و يكون الكذب ظرفا، و الزكاه مغرما و الفىء مغنما، و يجفو الرجل والديه، و يبر صديقه، و يطلع الكوكب المذنب. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول اللّٰه؟ قال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها تشارك المراه زوجها فى التجاره، و يكون المطر قيظا، و يغيظ الكرام غيظا، و يحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئا و قال هذا لم اربح شيئا، فلا ارى إلا ذاما للّٰه.

قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول اللّٰه؟ قال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان، فعندها يليهم أقوام إن تكلموا قتلوهم، و إن سكتوا استباحوهم ليستأثرون بفيئهم و ليطن حرمتهم، و ليسفكن دماءهم، و لتملن قلوبهم غلا- و رعبا فلا- تراهم إلا- و جلين خائفين مرهوبين. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول اللّٰه؟ قال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان، إن عندها يؤتى بشىء من المشرق و شىء من المغرب يلون أمتى فالويل لضعفاء أمتى منهم و الويل لهم من اللّٰه لا- يرحمون صغيرا و لا- يوقرون كبيرا و لا يخافون (1) عن مسىء، جثتهم جثه الأدميين و قلوبهم قلوب الشياطين. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول اللّٰه؟ قال: أى و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها يكتفى الرجال بالرجال، و النساء بالنساء، و يغار على الغلمان كما يغار على الجارية فى بيت أهلها، و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال، و تركبن الفروج السروج، فعليهن من أمتى لعنه اللّٰه. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول اللّٰه؟ قال: أى و الذى نفسى بيده يا سلمان إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع و الكنائس، و تحلى المصاحف، و تطول المنارات، و تكثر

ص: ٢٤٣



الصفوفات بقلوب متباغضه، و السن مختلفه. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها تحلى ذكور أمتى بالذهب و يلبس الحرير و الديباج، و يتخذون جلود النمر صفاقا. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها يظهر الزنا و يتعاملون بالعينه و الرشى و يوضع الدين و ترفع الدنيا. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها يكثر الطلاق. فلا يقام لله حد. و لن يضروا الله شيئا. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها تظهر القينات (1) و المعازف و يليهم أشرار أمتى. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان، و عندها تحج أغنياء أمتى للنزاهه، و تحج أوساطها للتجاره، و تحج فقراؤهم للرياء و السمعه، فعندها يكون أقواما يتعلمون القرآن لغير الله، و يتخذونه مزامير، و يكون أقواما يتفقهون لغير الله، و تكثر أولاد الزنا، و يتغنون بالقرآن و يتهافتون بالدنيا. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان: ذاك إذا انتهكت المحارم و اكتسبت المآثم و تسلط الأشرار على الأخيار و يفشو الكذب و تظهر اللجاجه و تغشو الفاقه و يتباهون فى اللباس، و يمطرون فى غير أوان المطر و يستحسنون الكوبه (2) و المعازف، و ينكرون الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان أذل من الامه، و يظهر قراؤهم و عبادهم فيما بينهم التلاوم فأولئك يدعون فى ملكوت السماوات الارجاس الأنجاس. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي و الذى نفسى بيده يا سلمان، فعندها لا يحض الغنى على الفقير حتى أن السائل يسأل فيما بين الجمعيتين لا يصيب أحدا يضع فى كفه شيئا. قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول

ص: ٢٤٤

١-١) القينات: المغنيات.

٢-٢) الكوبه: كالشطرنج و الطبل الصغير.

اللّٰه؟ فقال: إى و الذى نفسى بيده يا سلمان، فعندها يتكلم الروييضه، فقال سلمان: و ما الروييضه يا رسول اللّٰه فداك أمدى و أبى؟ قال صلى اللّٰه عليه و آله:

يتكلم فى أمر العامه من لم يكن يتكلم، فلم يلبثوا إلا- قليلا- حتى تخور الأرض خوره فلا- يظن كل قوم إلا- انها خارت فى ناحيتهم، فيمكنون ما شاء اللّٰه، ثم ينكتون فى مكنهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها ذهبا و فضه- ثم أوما بيده الى الأساطين- فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضه، فهذا معنى قوله:

«فقد جاء أشرطها». (١)

و لعل هذا النص و النصوص المشابهه تحثنا على مقاومه الفساد و مناهضه الانحراف حتى لا تبغتنا الساعه بدمارها سواء كانت الساعه النهائيه للعالم (يوم القيامه). أم ساعه أمتنا أم ساعه الأفراد.

فَأَنى لَهُمْ إِذا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ هل ينتفع التلميذ فى المدرسه حين يجيب على الأستله خارج قاعه الامتحانات؟ كلا.. و هكذا لا تنفع التوبه بعد قيام الساعه، كما قال تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْدِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

[١٩] إذا كان الانتظار و التسوييف، و تجاهل الحقائق و اتباع الهوى، و الانغلاق دون هدى اللّٰه، انها جميعا ينهار بأهله فى نار جهنم! فكيف النجاه؟ العلم و التوحيد و الاستغفار.. ركيزه النجاه، لأن العلم بالتوحيد يجعل العبد

ص: ٢٤٥

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥- ص ٢٤. نقلا- عن تفسير القمى ج ٢/ ص ٣٠٣ و هى أصح. نقلها صاحب نور الثقلين بأغلاط كثيره، و صححت على أساس المصدر الأساسى.

يتحسس بضالته أمام جبار السموات و الأرض فيستغفر لذنبه، و لشفقته على أحبائه من المؤمنين يستغفر لهم أيضا.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ رَبَّنَا يَقُولُ: «فَاعْلَمْ» لأن العقبة التي تعترض الإنسان أمام التوحيد هي الجهل، أو لم يقل عز و جل: «وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (١) و لهذا كرر القرآن الحكيم كثيرا ذكر هذا العامل الذي يصرف الناس عن الايمان و الهدى. قال عز من قائل: «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (٢)، «قُلْ أَفَعَيِّرُ اللَّهَ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» (٣)، «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ» (٤) «وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» (٥)، «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (٦)، «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (٧).

و كلما ازداد البشر علما ازداد تواضعا، لأنه يعرف حجمه بإزاء سائر ما يعلم من مخلوقات، بينما الجهل سبب التكبر، و لذلك يقول ربنا سبحانه و هو يعالج صفة التكبر في النفس: «وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا» (٨).

و كلما ازداد البشر علما ازداد خشوعا لربه أ ليست الكائنات مرآه أسماء الله،

ص: ٢٤٤

١- ١) الأحزاب ٧٢/

٢- ٢) الأعراف ١٣٨/

٣- ٣) الزمر ٦٤/

٤- ٤) الانعام ١١١/

٥- ٥) الأحقاف ٢٣/

٦- ٦) الأعراف ١٩٩/

٧- ٧) النمل ٥٥/

٨- ٨) الإسراء ٣٧/

و تجليات خلقه و قدرته و حكمته؟ و هكذا تتصل كلمات هذه الآيه ببعضها، فالعلم يهديننا الى التوحيد، و التوحيد يهديننا الى الاستغفار، لأن الاستغفار هي حاله النفس عند معرفه الرب، و وعى قدرته و هيمنته و عظمته، إنه الاحساس بالتقصير فى مقام الألوهيه، إنه الاحساس بالذنب المقرون بالتطلع نحو الإصلاح، و أى سلم أفضل لبلوغ درجه القبول عند ربّ العزه من معراج التوبه، أم أى تحيه أكرم عند لقاء العبد بربه من التسليم، و أى حاله تسليم أفضل من الاستغفار. ثم إنّ الكبر هو الحجاب الأكبر الذى يمنع إشراقه نور الحق على جنبات الفؤاد، و أى علاج أنجح من الاستغفار لاقتلاع جذوره.

ليس من اليسير القضاء على كبر النفس، لأن منشأ الكبر هو الجهل، و الجهل هو من ذات النفس، و مرتكز فى صميم خلقته، و إنما بدوام الاستغفار من الذنب نستطيع القضاء على الجهل و مظهره المتمثل فى الكبر.

و الذى يستغفر لذنبه يزداد تقوى و ورعا من العوده اليه، كما يزداد عزما لتنفيذ واجبات الدين و اجتناب محرماته.

و يتساءل البعض: كيف أمر الرسول صلّى الله عليه و آله بالاستغفار؟ أو ليس هو المعصوم من كل ذنب؟ بلى. و لكن:

أولا: ليكون قدوه لأمته فى الاستغفار.

ثانيا: لأن الحضور فى مقام الربّ يستدعى الاستغفار، لأنه المعراج الى المزيد من الكمال، و لأنه بالتالى الحبل الممتد بين الربّ و العبد. و حتى لو كان الفرد غير مذنّب بالذنوب المعروفه، و لعل التعبير بالذنب دون الذنوب يشير الى إن المراد منه هو مجمل القصور و التقصير الذى لا يخلو منه العبد.

ثالثاً: إن القرآن نزل على لغة إياك أعنى و اسمعى يا جاره، فالرسول هو المخاطب و الأمة مقصوده بذلك.

و نتساءل-مره أخرى- عن معنى الاستغفار للمؤمنين و المؤمنات فى هذا السياق؟ و الجواب:

أولاً: إنه فيما يتصل بالرسول يعنى الشفاعه، لأن حقيقه الشفاعه هى طلب المغفره من الله للمذنبين.

ثانياً: إن الاستغفار يعبر عن العلاقه الحميده مع سائر المؤمنين، فهى ليست عدائيه بدليل طلب الرحمه لهم، و ليست تابعيه بحيث يسترسل المؤمن مع إخوته باعتقاد انهم كلهم معصومون من الخطأ، لأنهم بالتالى بشر، و البشر يخطأ و يصيب، و إذا بالغ المؤمن فى حبه لإخوانه و إكرامه لهم الى درجه الاعتقاد بقداستهم، فانه سوف يعطل عقله فى تقييمهم و إصلاحهم.

بلى إن لهم ذنوبا و لكنها لا تدعونا الى قطيعتهم بل الى إصلاحهم و لو بالاستغفار.

□ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمُنْوَاجِكُمْ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ حَرَكَاتَ الْإِنْسَانِ وَ سَكَنَاتَهُ فِي نَهَارِهِ وَ لَيْلِهِ، كَمَا يَعْلَمُ تَقَلُّبَاتَهُ الرُّوحِيَّةَ مِنَ الْكُفْرِ وَ النِّفَاقِ وَ الْكِبْرِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَ الْإِيمَانِ وَ التَّقْوَى..

فلا بد من الحذر الشديد لكى لا نفكر فى الخداع، فان الإنسان إذا لا يخدع إلا نفسه.

اشاره

و يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَأِذَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (۲۰) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَأِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ (۲۲) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (۲۳) أَ فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا (۲۴) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَأَ لَهُمْ (۲۵) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مِمَّا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (۲۷) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (۲۸) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمَائِهِمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَنَّكُمْ (۳۱)

اللغة

(۲۰) فَأُولَئِكَ لَهُمْ: أى أن الموت أولى لهم من الحياه و هذا دعاء عليهم بالهلاك.

(۲۵) سَوَّلَ لَهُمْ: سهّل لهم ركوب الآثام، من السول بمعنى الاسترخاء.

وَ أَمَلِي لَهُمْ :أى قرّر عليهم كالذى يملئ على الآخر الشيء ليكتبه، فالشيطان أولا جعلهم رخوا ثم قرّر لهم أن يخرجوا عن الطاعة.

(٢٩) أَضْغَانُهُمْ :أحقادهم.

(٣٠) بَسِيمَاهُمْ :سيما الإنسان ملامح وجهه.

لَحْنِ الْقَوْلِ :اللحن هو الإمالة فإن المنافق يميل بكلامه حيث أن قلبه لا يرضى أن يتكلم حسب موازين الإيمان.

ص: ٢٥٠

إشاره

أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا

هدى من الآيات:

كيف يتميز المؤمنون عن المنافقين و من فى قلوبهم مرض؟ و كيف يخرج الله أضغان القلوب؟ و كيف يبلو المجاهدين و الصابرين؟ يضرب لنا القرآن الأمثال لنعرف هذه المقاييس الحق فى ذلك.

أولاً: المؤمنون يتطلعون الى آيات الجهاد، و يستجيبون لها، أما الذين فى قلوبهم مرض فتراهم فى حاله المحتضر إذا سمعوا آيات القتال.

ثانياً: المؤمنون يطيعون الله و يقولون قولاً معروفاً و يصدقون الله فى المواقف الصعبه. بينما المنافقون يولون الأدبار و يفسدون فى الأرض و يقطعون أرحامهم تماماً فى الجبهه المعاكسه للمؤمنين.

ثالثاً: يتدبر المؤمنون فى القرآن ليجدوا فيه شفاء دائهم، بينما على قلوب أولئك



أقفالها، و يرتدون على أديبارهم و الشيطان يقول لهم و يملئ لهم، بينما القرآن يشفي قلوب هؤلاء و يهديهم.

رابعاً: ترى المنافقين يبحثون عن أمثالهم و يتآمرون معهم لضرب القيادة الرشيدة. و الله لهم بالمرصاد حين يتوفاهم ملائكة العذاب يضربون وجوههم و أديبارهم، و يحبط الله أعمالهم لأنهم اتبعوا الشيطان، و رفضوا ولايه الرحمن.

و هكذا يخرج الله أضغان أولئك المنافقين (بآيات القتال) و يفضحهم، و كما يبلى حقيقة المجاهدين و الصابرين و يرفع مقامهم.

### بينات من الآيات:

(٢٠) يستقبل المؤمنون الحقائق بأذن واعيه، و بصائر نافذه من دون حجاب، و بقلوب طاهره من الجهاله و العناد و التكبر، بلى. إن مثل حقائق الرساله و مثلهم كما الأرض الموات تستقبل زخات الغيث المباركه، فاذا نزلت عليهم سوره و عوها و استعدادا لتنفيذ أحكامها، و إذا لم تزل تراهم يتساءلون أ فلا حيننا بها، أ فلا قرّت أعيننا بالنظر الى آيات جديده؟! و يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ لَمَا يَغْمِرُ قُلُوبَهُمْ مِنَ اللَّهْفَةِ إِلَيْهَا، و لما تنطوى جوانحهم من العزم الشديد للعمل بكل ما فيها من أوامر. أما الذين فى قلوبهم مرض، فإنهم على العكس تماما، إذ يتخوفون أن تنزل عليهم أوامر جديده، تأمرهم بالقتال مع العدو، لأنهم لا يملكون الاستعداد الكافى لتطبيق الأحكام.

فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ لَا يُمْكِنُ الْجِدَالَ لَأَنَّهَا وَاضِحَةٌ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ.

وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ أَنْتَذِ تَبْلَى حَقَائِقَ الرِّجَالِ.

رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِنْ نِفَاقٍ، أَوْ شَكٍّ، أَوْ جِبْنٍ.

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظْرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ وَ هَكَذَا يَمْتَاذِ الْمُؤْمِنُونَ عَن هَوْلَاءِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَثْبُتُونَ فِي مَخْتَلَفِ الطَّرُوفِ، بَيْنَمَا هَوْلَاءُ فِي حَالِهِ مِنَ الرَّعْبِ تَشْبَهُ حَالِهِ الْمُحْتَضِرِ الَّذِي يَشْخَصُ بِبَصْرِهِ فِرْعَاوُ، وَ هُوَ فَاقِدٌ لِقُدْرَةِ التَّرْكِيزِ وَ رِبْمَا قَالِ رَبِنَا: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» وَ لَمْ يَقُلْ: (الَّذِينَ نَافَقُوا) لِأَنَّ الْخَطَّ الْمُنْحَرِفَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، بَلْ يَضْمُّ الْكَثِيرَ مِمَّنْ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَ لَكِنَّ وَجُودَ الْمَرَضِ فِيهِمْ يَجْرِّهُمُ إِلَى خَطِّ النِّفَاقِ، وَ يَتَوَضَّحُ لِنَا مِنْ بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى غَيْرِ الْمُنَافِقِينَ، يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: «لَيْسَ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَآئِدِينَ لَنْغَرِيَنَّكَ بِهِمْ».

يَهْدِدُ الْقُرْآنُ هَوْلَاءَ، وَ يُوْعِدُهُمُ الْعَاقِبَةَ السُّوْءَى قَائِلًا:

فَأُولَى لَهُمْ تَسْتَعْمِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي اللَّعْنِ، وَ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهَا الدَّقِيقِ، هَلْ هُوَ بِمَعْنَى: يَلِيهِ مَكْرُوهٌ، أَوْ لَهُمُ الْوَيْلُ أَوْ الْمَوْتُ أَوْلَى لَهُمْ، وَ يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تَأْتِي بَعْدَ بَيَانِ سَيِّئِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِعْلًا أَوْ قَوْلًا فَيَكُونُ مَعْنَاهَا إِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ تِلْكَ السَّيِّئَةَ وَ هُمْ أَحَقُّ بِهَا، وَ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ، وَ فِي الْمَقَامِ يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْعَاقِبَةَ السَّيِّئَةَ الَّتِي انْتَهَوْا إِلَيْهَا مِنْ

رفضهم لسوره القتال يستحقونها لما كان في قلوبهم من مرض، ذلك لأن النفاق و الخوف الذى يحول الإنسان عن قتال الأعداء، جرم كبير و ضلاله بعيده، لأنه يجر صاحبه الى الاستسلام للطاغوت و فقدان استقلاله أمام الغزاه، و التنازل عن قيمه و شخصيته خشيه بطش الجبارين. و كل من ارتد عن الدين أو اتبع الظالمين انساق الى مصيره الأسود بسبب تلك الأمراض الخطيره التى تمكنت من قلبه.

[٢١] بينما لو أطاعوا أوامر رساله، و استقبلوها برضى، و طهروا قلوبهم من الأمراض الفتاكه، و صدقوا فى الظروف الصعبه، لكانوا يعيشون العزّه و الكرامه و الاستقلال.

طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ عَزَمَ الْأَمْرَ، يعنى بلغ الموقف حدا يستدعى الهزيمه و الاراده النافذه، و قال البعض معناه: جد القتال.

و نستوحى من هذه الآيه بصيرتين: - الأولى: إن قول المعروف عند صدور أوامر رساله و برامجها بعد التسليم و الطاعه مؤشر واضح على تفاعل الإنسان مع رساله، و صدق انتمائه لها، و خلوّ قلبه من حسكه النفاق و أى مرض آخر، كالجهل و الجبن و التكبر، لأن هذه الأمراض تجعل الإنسان يعيش حاله التقزز و الاشمئزاز و الضجر مما يظهر على فلتات لسانه، فلا يقول قولاً معروفاً عند المواقف الصعبه.

و بالرغم من أنّ المنافقين قد يعيشون هذه الحاله، و لكن الظرف قد يستدعى منهم أن يكتموها، بيد انه عند ما يعزم الأمر لا يمكنهم كتمان واقعهم.

إن مرضى القلوب هم الذين يؤدون الطاعات و يعملون الصالحات على كره،

فلذلك تراهم يرفقونها بالحديث السلبي معها، ولذا لك تراهم لا يقضون صلاتهم إلا و يتبعونها بالقول تضجراً، كم هي ثقيله هذه الصلاة؟! لا ينهاون صوم يوم من أيام رمضان إلا ويقولون كم هو مرهق هذا الصيام؟! لا يزكون و يخمسون إلا و يضجون: لقد أفقرنا هذا الدين.. في حين كان عليهم أن يتحصنوا هذه النعم الجسم، و يحمداوا الله عزّ و جلّ على أن وفقهم لها، ولكنه الجهل و التكبر و النفاق و حب الدنيا كل أولئك لا يدع الإنسان يعرف قيمه الرساله، و نفعها العميم للإنسان.

الثانيه: نستشف من هذه المقطوعه الرائعه: « طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ » ان علينا أن ننفذ الأوامر الرساليه و نسعى جاهدين من أجل تحقيقها دون نقاش أو تبرير أو جدال أو معارضه، لأنها صادرة من الله تبارك و تعالى. و الواجب علينا أن نروض أنفسنا لتستجيب و تتفاعل مع الأحكام الالهيه. و لكن كيف؟ من شاء أن يكون صادقاً في المواقف الصعبه، مستعداً لتحمل المسؤوليات الجسم، فعليه أن يتدرج في تربيته نفسه شيئاً فشيئاً، فأولاً- يعوّدها على تأديه الأعمال الصغيره بصدق و جدّيّه، ثم الأ-كبر منها فالأكبر، حتى يرتقى الى مستوى عال فيؤدي الأعمال الكبيره بكل صدق و رضى.

[٢٢] إنهم يهربون من القتال، و إنما فرض الله القتال من أجل إصلاح الأرض، و تكريس قيم المحبه، فمن يتولّى عنه فسوف يقاتل، و لكن في صفوف المنافقين و من أجل نشر الفساد في الأرض و قطع الأرحام (و مخالفه قيم الخير و الفضيله). أو ليست الحياه صراعاً، و لا- مفر منه، و من لم يقدم على اختيار جبهه الخير انساق الى جبهه الشر، و لا مسافه بين الحق و الباطل، فمن لم ينفعه الحق أضره الباطل.

أولئك الذين يزعمون ان القتال شر مستطير، و انهم دعاه السلام، تراهم وقود معارك الباطل ضد الحق. ألم تقرأ فى التاريخ: كيف ان أهل الكوفه رفضوا القتال مع الامام الحسين عليه السلام ضد الأمويين باسم الخروج من الفتنه، ثم استخدمهم يزيد فى قتال السبط الشهيد كرها.

إن لحكم القرآن ثنا من لم يدفعه راضيا ابتلى بحكم الطاغوت و دفع أضعاف ذلك الثمن مكرها.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ كَلِمَةً عَسَى تَدُل عَلَى التَّوَقُّعِ.. فهذه هى العاقبه المتوقعه لمن يتولى عن الحق! و لان الحديث فى هذه السوره عن الحكم الالهى و الولايه الشرعيه و تحمل مسؤولياتها فى طليعتها الدفاع عن الدين، فان معنى التولى هنا الانسحاب من ساحه المواجهه و ترك القيادة الرشيده وحدها فى الميدان، و لذلك فسر البعض هذه الكلمه، بأنه بمعنى الولايه أى إذا أصبحتم حكاما، و أوله البعض فى بنى أميه استنادا الى ما

رواه عبد الله بن مغفل قال سمعت النبى صلى الله عليه و آله و سلم يقول: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض.. ثم قال: هم هذا الحى من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا فى الأرض و لا يقطعوا أرحامهم. (١)

و الفساد فى الأرض، هو النتيجة الطبيعيه للنظام الذى لا يستلهم من الدين أحكامه.. فيفسد الإقتصاد و الاجتماع كما يفسد الأخلاق و الآداب و من أبرز مظاهر إفساده تفريق الكلمه، و اشاعه الفساد فى الخلق، الذى يؤدى الى تفكك الأسره و قطع الأرحام. و يبدو ان قطع الرحم هو آخر عروه ينقض من عرى

ص: ٢٥٦

المجتمع، لأن الفساد إذا بلغ الأسره فقد أتى على آخر قلعه من قلاع الاستقلال عند البشر.

[٢٣]و إذا بلغ الإنسان هذا الدرک فقد كل فرصه له للهدايه، لأن الله يلعنه و يسد عليه أبواب الهدى.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ و طردهم من رحاب رحمته.

فَأَصَمَّهُمْ فلم ينتفعوا بتجارب غيرهم.

وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ فلم يعودوا ينتفعون حتى بتجاربهم، و هكذا يستمرون فى الهبوط حتى الدرک الأسفل. و هذه عاقبه الدول و التجمعات التى لم تقم على أساس الوحى. و هكذا نعرف ان بدايه السقوط الكبير قد يكون زللا بسيطا يستهين به صاحبه، كما قد تكون بدايه رحله الموت ميكروبا يستخف به المريض.. و استخفاف الإنسان بالدفاع، و بخله بنفسه و ماله عن الإنفاق فى سبيل الله، هو بدايه رحله السقوط الكبير.. و هو بدوره ناشئ من الأمراض القلبيه التى لا بد من المبادره بعلاجها.

[٢٤]و السؤال العريض كيف إذا نعالج أمراض القلب الكبير، المرض المستفحل الذى جعل إبليس يرفض السجود لادم، و جعل أبناء آدم يرفضون التسليم للقياده الشرعيه عبر التاريخ؟ الحسد ذلك الذى أوقد نار الحرب بين هايل و قابيل، و لا يزال يجعلنا فى صراع

ص: ٢٥٧

الجبن الذى هدم حضارات عظيمه لم يدافع أهلها عنها أمام الغزاه البرابره.

و غيرها من أمراض القلب؟ و يجيب القرآن.. بالتدبر فى القرآن.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ التَّدْبِرَ أَنْ نَسِيرَ بِأَفْكَارِنَا إِلَى عَاقِبَةِ الْأُمُورِ أَوْ دَبَّرَهَا. وَ حِينَ نَتَدَبَّرُ فِي الْقُرْآنِ فَانِنَا نَتَفَكَّرُ فِي تَطْبِيقَاتِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، وَ تَجَسُّدِهَا فِي الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ، وَ حَسَبِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي تَأْوِيلِهَا.

الَّذِينَ يَتَدَبَّرُونَ فِي الْقُرْآنِ يَطْبِقُونَ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى وَاقِعِهِمْ، فَإِذَا قَرَأُوا فِيهَا آيَةَ تَذَكَّرَهُمْ بِسُنَنِ الْأَوَّلِينَ، بِقَوْمِ عَادٍ وَ ثَمُودٍ. يَتَسَاءَلُوا مَاذَا لَوْ فَعَلُوا مِثْلَ فَعَلْتَهُمْ. أَفَلَا- يَكُونُ جَزَاؤُهُمُ الدَّمَارَ أَيْضًا؟ وَ إِذَا سَمِعُوا مَوْعِظَهُ زَجَرُوا أَنْفُسَهُمْ بِهَا أَوْ سَمِعُوا مَرَضًا قَالُوا لَعَلَّهُ مَوْجُودٌ فِينَا دَعْنَا نَفْتِشَ فِي أَوْضَاعِنَا عَنْ آثَارِهِ، فَانْ وَجَدْنَاهُ سَارِعِنَا لِمَحَارَبَتِهِ وَ هَكَذَا..

وَ لِأَنَّ مِثْلَ الْقُرْآنِ مِثْلَ الشَّمْسِ فَانْ يَطْبُقُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلاَ بَدَّ أَنْ نَفْتِشَ فِي الْوَاقِعِ الْخَارِجِيِّ، وَ فِي أَنْفُسِنَا عَمَّنْ يَجْرَى فِيهِمُ الْقُرْآنُ بِأَعْيُنِهِمْ وَ صِفَاتِهِمْ. فَمَنْ هُمُ الْمُنَافِقُونَ الْيَوْمَ وَ مَنْ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ؟ وَ مَنْ هُوَ الطَّاعُوتُ الَّذِي أَمَرْنَا لِنَكْفُرَ بِهِ؟ وَ مَنْ هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ؟ وَ مَنْ هِيَ الدُّوَلُ الَّتِي تَنْتَظِرُ عَاقِبَةَ قَوْمِ عَادٍ؟ وَ مَا هِيَ الْحَضَارَاتُ الَّتِي تَمَثِّلُ حَضَارَةَ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَوْ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ؟ وَ هَكَذَا.. وَ حِينَئِذٍ تَعْصَفُ بِالْأَمَةِ الْفِتْنُ حَتَّى تَدْعَ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا، هُنَالِكَ لاَ بَدَّ مِنَ التَّدْبِرِ فِي الْقُرْآنِ لِمَعْرِفَةِ السَّبِيلِ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا. هَكَذَا

أَمَرْنَا الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ قَالَ: «فَإِذَا التَّبَسْتَ عَلَيْكَ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ» (١) و

قال الامام أمير المؤمنين عليه السّلام: «عليكم بكتاب الله فانه الجبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والرّى النافع، والعصمه للمتمسك، والنجاه للمتعلق». (٢)

و المتدبر فى القرآن يطبق آياته على نفسه، و يتساءل عن آيه عائبه فيها ليصلحها، أو عارفه ناقصه عنده ليكملها، أو طريقه رشد فيتبعها، أو منهج ضلال فيتركه.

قال الامام أمير المؤمنين عليه السّلام و هو يصف المؤمنين:

«أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلا، يخوفون به أنفسهم، و يستثيرون به دواء دائهم. فاذا مروا بآيه فيها تشويق، ركنوا إليها طمعا، و تطلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنوا أنها نصب أعينهم. و إذا مروا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنوا أن زفير جهنم و شهيقها فى أصول آذانهم». (٣)

و بكلمه: إن ما أفهمه من التدبر هو البحث عن تطبيقات الآيات سواء على أنفسهم أو على الخليقه.. و لكن للتدبر أيضا شرطه المتمثل فى الانفتاح على القرآن بعيدا عن حجب القلب و أقفاله، عن تلك الأحكام المسبقه، و القوالب الفكرية الجاهزه، و التأويلات القائمه على أساس الهوى و الشهوات.

أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا

ص: ٢٥٩

١-١ (١) بحار الأنوار/ج(٩٢)-ص(١٧).

٢-٢ (٢) المصدر/ص(٢٣).

٣-٣ (٣) نهج البلاغه/الخطبه رقم(١٩٣).



قالوا:القفل من القفيل الذى هو ما يبس من الشجر،فكان القلب يعشو فلا يستقبل نور القرآن و يكون كالشجره اليابسه التى لا تستفيد من الماء و الأشعه.و قال البعض:إنه من القفول بمعنى الرجوع،فكان القلب المنصوب عليه القفل لا ينفذ فيه الهوى،بل يرجع عنه كما يرجع من واجه بابا مقفلا..و يبدو إن أقفال القلب هى الأهواء المطاعه،و الرذائل الراسخه فيها،و ما يسبب قسوتها أو الختم عليها.و من أراد فهم القرآن زكى نفسه،و طهرها من الشكوك و الريب و حب الشهوات و من الكبر و الحقد و الحسد و الجبن و ما أشبهه،فآئذ ينساب نور الهدى فيه بلا حجب و لا موانع.

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السّلام: إن لك قلبا و مسامع و إن الله إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه،و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه،فلا يصلح أبدا و هو قول الله عزّ و جلّ «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (١)

[٢٥]و لأن هذه الفئه تركت أمراضها القلبيه تتراكم،فقضت على بقايا نور الايمان فى أنفسهم،كانت عاقبه أمرهم الرده عن القيادة الشرعيه،و بالتالى عن الدين.

و كثير أولئك الذين ارتدوا عن الدين بسبب بعض هذه الأمراض،و نحن نشير الى بعضهم لنعتبر بهم.فأولهم قابيل الذى طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين،و كان مرضه الحسد إذ تقبل قربان أخيه و لم يتقبل منه،و كذلك كان مرض عابد بنى إسرائيل المعروف ب(بلعم باعورا)الذى بلغ درجه عاليه من الأيمان و التقوى حتى استحق أن يعطى الاسم الأعظم،و كان يدعو به فيستجيب الله له،و لكنه حين اختار الله موسى عليه السّلام مال الى فرعون و ارتضى لنفسه أن

ص:٢٦٠

يكون بمثابة الكلب، كما قال تعالى: «وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ \* وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ». (١)

أما الزبير بن العوام الذي كان له تاريخ نضالي حافل، و ملاحم بطوليه رائعه، و لقد كان يكشف الكرب بسيفه عن وجه رسول الله صلى الله عليه و آله، إنه الآخر انحرف، إذ أسرته الدنيا بمناصبها الحقيقه و زيتتها الفانيه.. فدفعه حب الرئاسة الى محاربه إمام عصره أمير المؤمنين على عليه السلام.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ و تراجعوا عن العهود و المواثيق التي الزموا أنفسهم بها تجاه الرسول ألا يخونوه، و ألا يخذلوه عند لقاء العدو.

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ و علموا أن الرسول على حق، و لكنهم جنبوا عن مواجهه الأعداء، و بحثوا عن السلطه و الثروه.

الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ رَغْبَهُمْ فِي ذَلِكَ عِنْدَ مَا زَيْنَ لَهُمُ الدُّنْيَا و غرهم بما فيها من فتنه ظاهره، و كلمه سَوَّلَ من السَّوَّلِ أى الحاجه، و كأن الشيطان جعلهم حريصين على هذه الحاجه، و أثار فيهم الرغبه فيها.

وَ أَمْثَلِي لَهُمْ

ص: ٢٤١

قالوا:الكلمه من الأمل بمعنى مناهم بطول الأمل،فأنساهم الحساب.

[٢٦]لقد رغبوا فى البقاء لينعموا بالرئاسه،كما إنهم انضموا الى ركب الرساله من أجلها.لقد كانت حساباتهم تدعوهم الى مواكبه هذا التيار الاجتماعى الصاعد ليرثوا مغانمه،فما دام الخيره يتنافسون على نيل الشهاده فسوف يصفو لهم الجو، و تتاح لهم الفرصه للسيطره على الناس،و حكمهم باسم الرساله..لذلك ما كانوا ينفكون عن المؤامره ضد السلطه الشرعيه،وقد بلغ بهم الأمر الى التخابر مع الأعداء (اليهود و المشركين)لجلب تأييدهم!!و أعطوهم وعدا بطاعتهم فى بعض القضايا التى تهمهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَيُظِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُرِ وَلَعَلَّ الْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى مَوَامِرِهِ كَانَ بَعْضُ الْمُرْتَدِينَ يَحْسَبُونَهَا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِيَنْفِذُوهَا مِنْ بَعْدِهِ. وَ الْفِتْنَةُ الْكَارِهُةُ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَعَارِضَةُ لِلْإِسْلَامِ وَ هِيَ قُوَّةُ بَنِي أُمِيَّةٍ الَّتِي عَارَضَتْ الرَّسُولَ مِنْذُ الْبِدَايَةِ وَ حَتَّى اسْتِسْلَامِهَا فِي فَتْحِ مَكَّةَ، حَيْثُ غَيَّرَتْ اسْتِرَاطِيَجِيَّتَهَا فَقَطَّ فَعَمَلَتْ سِرًّا بَعْدَ مَا كَانَتْ تَعْمَلُ جَهْرًا.

و يشير الى ذلك

حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال: «دعوا بنى أميه الى ميثاقهم ألا يصيروا الأمر فينا(أهل بيت الرساله)بعد النبى و لا يعطونا من الخمس شيئا». (١)

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ وَ يَمْكُرُ بِهِمْ وَ هُوَ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، وَ هَكَذَا ذَهَبَتْ جُهُودُ بَنِي أُمِيَّةٍ هَبَاءً، وَ بَقِيَ الدِّينُ خَالِصًا لِلَّهِ عِبْرَ الْقُرُونِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنْ هَدَفَ بَنِي أُمِيَّةٍ وَ حُلَفَاءَهُمْ كَانُوا طَمَسُوا

ص:٢٦٢

[٢٧] إن نجحت مؤامرتهم ضد الولاية الالهيه، وأفلتوا من عقاب الدنيا، فهل يهربون من عذاب الله الذى يفاجئهم منذ خروج أرواحهم من الدنيا؟ فكيف إذا توفتتهم الملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم تلك الوجوه التى كلحت فى وجه الحق، وتلك الأدبار التى تولت عنه، ولكن أين أعمالهم الصالحه؟ أين صلاتهم و زكاتهم و حسناتهم التى اقترفوها؟ إنها تحبط لأنهم خالفوا الله فى أعظم أوامره و اتبعوا أهواءهم.

[٢٨] ذلك بأنهم اتبعوا ما أشخط الله من أهواء. وإذا صلى العبد و صام و قام، ولكنه اتبع هواه فما ذا ينفعه عمله؟ أو ليست حكمه هذه الفرائض ترويض النفس حتى لا تتبع هواها و تركيتها من كبرها و حسدها و غلها الدفين فيها، بينما مثل هؤلاء يكرسون بصلاتهم و أعمالهم كبرهم و عنادهم بل يجعلون صلاتهم وسيله لنيل شهواتهم من الرئاسه فى الدنيا.

و كرهوا رضوانه المتمثل فى ولايته التى أمر بها، فلم يطيعوا قيادتهم الشرعيه.

فأحبط أعمالهم [٢٩] هكذا ابتلى الله عباده حتى ظهروا على حقيقتهم و أخرج الله ما ستروه من أمراض.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ

إن هذا الظن هو الذى غرهم بربهم و جعلهم يزعمون قدرتهم على الاختباء وراء مظهر النفاق الى الأبد،و لكن الله أخرج ما ستروه من أحقاد و حسد و بغضاء.قالوا الاضغان: ما يضم من المكروه.

[٣٠] و كما الله قادر على أن يظهر حقيقتهم بامتحانهم فى القتال،فهو قادر على أن يعرف رسوله واقعهم بطريق أخرى كأن يجعل على سيماهم و ملامحهم علامات النفاق.

وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ و فعلا هناك على مظهر كل واحد منهم علامات النفاق،و لكن لا تظهر إلا لأهل الخبره و المؤمنين المتوسمين الذين ينظرون بنور الله.فمثلا: باستطاعتك أن تعرف المنافق بالنظر الى قسما و وجهه،حينما ينادى المنادى بالصلاه أو بالزكاه أو بالجهد أو بطاعه ولى الأمر،فان قسامته تنكمش كالشن البالى،بينما تنبسط قسما و وجه المؤمنين كما البدر.

وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ بلى.فى تضاعيف الكلام تظهر حقيقه المتحدثين،أو ليس المرء مخبوء تحت لسانه حتى أن التحليل الحديث لعلم النفس يستفيد من أغلاط المتحدث لمعرفة خلفياته النفسيه،و حتى أعظم رجال السياسه و أشدهم مكرالا يمكنه أن يخفى مواقفه الحقيقه عند الحديث عن شىء،لأن الكلمه التى يتلفظ بها إذا كانت صادقه تخرج بعفويه و يسر،بينما إذا كانت كاذبه لا تخرج إلا بصعوبه و بتكلف.

و من هنا

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه». (١)

ص: ٢٦٤

(١- ١) نهج البلاغه/الحكمه رقم (٢٦).

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ كَمَا يَعْلَمُ اقْوَالَكُمْ، يعلمها بنياتها و خلفياتها.

[٣١] و هذه سنه الله فى خلقه أن يختبرهم اختبارا لا لى يفضح المنافقين فقط، بل و أيضا لتتجلى حقيقه المجاهدين و الصابرين لأنفسهم و للناس فيتخذوا قدوه و نبراسا.

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ وَ مِنْهَا الْقِتَالُ.

حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ جَهْدًا لَدَيْهِمْ إِلَّا بَدَلُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَ الصَّابِرِينَ وَ لَعَلَّهُمْ أَعْظَمُ دَرَجَةٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ وَ أَشَدُّ تَعَرُّضًا لِلْبَلَاءِ.

وَ نَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ تِلْكَ الَّتِي يَحَاوِلُ الْبَشَرُ أَنْ يَسْتَرَهَا بِأَيِّ دَاعٍ مِنَ الدَّوَاعِي فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْشَى أَنْ يَظْهَرَ خَبْرَهُ خَشْيَةَ الْفُضِيحَةِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ يَخْشَى ذَلِكَ خَوْفَ الرِّيَاءِ وَ السَّمْعَةِ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَبْلُوهَا بِحِكْمَتِهِ عِبْرَ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ، وَ مِنْ أَمْزَجَاتِ الْقِتَالِ.

ص: ٢٤٥

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتْرُكَنَّ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَخَفُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَٰ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُفُوقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٣٨)

اللغه

(٣٢) وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ: هم فى شق أى طرف و الرسول فى شق.

(٣٧) فَيُخْفِكُمْ: فيبالغ فى الطلب، فإن الإحفاء بمعنى المبالغه.





إشاره

وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ

هدى من الآيات:

إن التسليم للرسول (و الولي المنصوب من عند الله) شاهد على صدق التسليم لله، بينما الشقاق عنه كفر و صدّ عن سبيل الله، و يسبب حبط العمل و إبطاله.

فلا بد إذا من الطاعة للرسول التي هي امتداد لطاعه الله، لكي لا تبطل أعمالنا.

و إذا مات العبد كافراً فلن يغفر الله له.

هكذا أرسى القرآن قواعد الانضباط (التي نحتاجها في السلم و بصوره أكبر في الحرب) و اتباع القيادة الشرعيه، ثم أمر المسلمين بالاستقامه و عدم الوهن بطلب السلام الذليل ما دمننا الأعلى و الأقوى و إن الله مع المؤمنين و لا يضيع أجر العالمين.

و في الختام رغب السياق المؤمنين عن الدنيا التي هي عبث و لهو (إلا إذا طلب الإنسان بها الآخرة فصارت ذات هدف سام) و وعد المؤمنين المتقين بأنه يؤتيهم أجرهم و لا يسألهم أموالهم. فلو سألها كلها بإصرار أخرج ما يخفوه من البخل ألا ترى

كيف ان البعض يبخل عن الإنفاق (ببعض أمواله) في سبيل الله، بينما الإنفاق هو ذخيره لنفسه. فاذا بخل فانما يبخل عن نفسه، لأن الله هو الغنى و هم الفقراء.

و أنذر ربنا المسلمين بأن توليهم عن واجبات رساله (و فى طليعتها القتال و الإنفاق) يفقدهم صلاحيه حمل رساله، فيستبدل الله غيرهم فلا يكونوا أمثالهم.

### بينات من الآيات:

[٣٢] ليس من السهل التسليم لقياده الحق للأسباب التاليه:

أولاً: لأن القائد بشر كسائر الناس يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و لا ينى الشيطان يوسوس للإنسان، كيف تطيع بشرا مثلك؟ و من الذى فضله عليك؟ و كانت هذه أخطر العقبات التى منعت الناس من اتباع الرسل بادية ذى بدء.

و ثانياً: لأن كثيراً من قرارات قياده تمس الحياه اليوميه، و قد لا تكون مفهومه عند الفرد كما قد تخالف مصالحه العاجله أو آراءه أو أهواءه.. مما يستدعى المزيد من العزم حتى يتغلب الفرد على الحاله النفسيه التى تمنعه من تنفيذ القرار.

و ثالثاً: لأن صاحب الولايه الالهيه يسوق الناس نحو الكمال أبداً، مما يجعل قراره صعباً مستصعباً.. لا يحتمله إلا كل مؤمن امتحن الله قلبه للايمان.. لأن قراره نابع من الوحي و القيم الحق التى أنزل بها، و منها التطلع نحو الكمال.

من هنا فان طاعه الرسول تأتى فى مقدمه فرائض رساله، كما ان مخالفته تعتبر ارتداداً عن الدين و كفراً و سبباً لابطال الأعمال.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُجْزَىٰ أَعْمَالَهُمْ

و يبدو من قوله سبحانه «و شاقوا الرّسولَ» وقوله سبحانه «مِنْ بَعِيدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ» ان هذا الفريق هم من المنافقين الذين فضحتهم الأوامر بالقتال، وزعموا أن شقهم عصى الطاعة يفت في عضد الرسول بينما الواقع هو انهم هم الذين خسروا أعمالهم الصالحة التي قاموا بها، فاحبطها الله حيث لم يستقيموا على الصراط، ولا يجوز أن يمنوا بها على الرسول، لأنهم أبطلوها بخيانتهم للقيادة في الوقت الحرج.

و قال أكثر المفسرين إن المعنى بهذه الآية هم كفار مكة أو يهود المدينة، لأنهم صدّوا عن سبيل الله بمحاربه الإسلام. و فسروا قوله تعالى «مِنْ بَعِيدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ» بوضوح الحجج الالهيه عموما للناس الشاهده على صدق الرسول. و لكنى أرجح التفسير الأول لموافقته للظاهر من الآية حيث يظهر من هذه الكلمه انه قد تبين لهم الهدى فاهتدوا بالرساله ردحا من الزمان، كما إن هذا التفسير متوافق مع السياق القرآنى الذى يحدثنا عن الموقف من القيادة الشرعيه.

[٣٣] و يعود القرآن يؤكد ضروره الطاعه للرسول و ينذر المؤمنين بأن شقاقهم عنه يبطل أعمالهم.

﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ فَالآيَه هذِهِ هِيَ الْعِبْرَهُ الْوَاعِظَهُ الَّتِي لَا بَدَ أَنْ يَعِيَهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ عَاقِبِهِ مَنْ سَقَطَ فِي الْامْتِحَانِ فَارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَ شَاقَ الرَّسُولَ. وَ هَذَا الْأَمْرُ يَنْسَحِبُ عَلَى كُلِّ وَلايَه الْهِيَه فِي كُلِّ عَصْرٍ.

فقد جاء في الحديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله): «حدثني جبرئيل عن ربّ العزّه جلّ جلاله انه قال: من علم انه لا إله إلا أنا وحدى، و أن محمّدا عبدي و رسولى، و أن على بن أبى طالب خليفتى، و أن الأئمه من ولده حججى أدخلته الجنة برحمتى، و نجيته من النار بعفوى، و أبحث له جوارى، و أوجب له

كرامتى، و أتممت عليه نعمتى، و جعلته من خاصتى و خالصتى، إن نادانى لبيته، و إن دعانى أجبته، و إن سألتنى أعطيته، و إن سكت  
ابتدأته، و إن أساء رحمته، و إن فرّ منى دعوته، و إن رجع الى قبلته، و إن قرع بابى فتحته.

و من لم يشهد أن لا إله إلا أنا وحدى أو شهد و لم يشهد أن محمدا عبدي و رسولي أو شهد بذلك و لم يشهد أن على بن أبى  
طالب خليفتى أو شهد بذلك و لم يشهد أن الأئمة من ولده حججى فقد جحد نعمتى، و صغر عظمتى، و كفر بآياتى و كتبى. إن  
قصدنى حجبتة، و إن سألتنى حرمتة، و إن نادانى لم أسمع نداءه، و إن دعانى لم أسمع دعاءه، و إن رجانى خيبته، و ذلك جزاؤه  
منى، و ما أنا بظلام للعبيد». (١)

و

عن مهزم الأسدى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله تبارك و تعالى: «لأعدبن كل رعيه دانت بإمام ليس من  
الله، و إن كانت الرعيه فى أعمالها بره تقيه، و لأعفون عن كل رعيه دانت بكل إمام من الله و إن كان الرعيه فى أعمالها مسيئه». (٢)

و

عن عبد الله بن سنان عن الامام أبى عبد الله (عليه السلام) انه قال: «إن الله لا يستحى أن يعذب أمه دانت بإمام ليس من الله، و إن  
كانت فى أعمالها بره تقيه، و إن الله يستحى أن يعذب أمه دانت بإمام من الله، و إن كانت فى أعمالها ظالمه مسيئه». (٣)

و

عن ابن أبى يعفور قال الامام الصادق (عليه السلام): لا دين لمن

ص: ٢٧١

١-١ المصدر/ص(١١٨).

٢-٢ المصدر/ص(١٠٥).

٣-٣ المصدر/ص(١١٣).

دان بولايه إمام جائر ليس من الله، ولا- عتب على من دان بولايه إمام عدل من الله، قال: قلت: لا- دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء؟ فقال: نعم، لا- دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء، ثم قال: أما تسمع لقول الله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» يخرجهم من ظلمات الذنوب الى نور التوبه و المغفره لولايتهم كل إمام عادل من الله و قال: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» يخرجونهم من النور إلى الظلمات قال: قلت: أليس الله عنى بها الكفار حين قال: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا»؟ قال: فقال: و أى نور للكافر و هو كافر فأخرج منه الى الظلمات؟ انما عنى الله بهذا انهم كانوا على نور الإسلام فلما أن تولوا كل امام جائر ليس من الله، خرجوا بولايتهم إياهم من نور الإسلام الى ظلمات الكفر فأوجب لهم النار مع الكفار، فقال: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (١).

[٣٤] هل لهؤلاء الذين كفروا بالرسالة و مضوا على كفرهم من توبه؟ كلا..

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و يبدو ان أعظم الصدد هو منع الناس عن الجهاد، و لو بإصدار الفتاوى السلطانية التى تزور الحقائق، و تحرف الآيات و تبرر الواقع الفاسد.

ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ بلى. إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله يزعمون انهم سوف يتوبون الى الله، كما انهم يستخفون بذنوبهم، أو انهم يحسبون أنهم مهتدون.

ص: ٢٧٢

[٣٥] إن صلابه الجبهه الداخليه شرط أساسى للانتصار، و يعطف السياق نحو المؤمنين فيأمرهم-بعد الطاعه-بمقاومه إغراءات السلام، بعد تراكم الصعوبات، ذلك السلام الذى يعنى الاستسلام و الصغار.

□  
فَلَا تَهْنُؤُوا لَا تَخْشُوا الْهَزِيمَةَ، وَلَا تَهَابُوا الْعَدُوَّ وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ مِنْكُمْ عَدُوًّا وَعَدَدًا.

وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ فَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُوا إِلَى الصَّلَاحِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَحَارِبِينَ، خَشِيَ الْمَوْتَ وَالْهَزِيمَةَ.

وَ أَنْتُمْ الْمَاعْلُونَ فَمَا دَمْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ بِقِيَامِكُمْ وَقِدْرَاتِكُمْ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِصِيرِهِ وَقُوَّةَ، بِصِيرِهِ لَمَا يُوفِّرُهُ فِينَا مِنْ مَنْهَجِيهِ عَقْلِيهِ، وَرُؤْيِهِ حَيَاتِيهِ، وَقُوَّةَ بِمَا يُلْهِمُهُ مِنْ عَزْمٍ فِي الْإِرَادَةِ، وَتِلَاحْمٍ فِي الصَّفُوفِ، وَوَلَهُ فِي الشَّهَادَةِ، وَاسْتِقَامَهُ وَصَبْرَهُ فِي الْمَكَارِهِ.

و السؤال: أى صلح هذا الذى نهى عنه القرآن، بينما يقول ربنا سبحانه:

□  
«وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا □ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ □؟» فهل هذه ناسخه أم تلك؟ يبدو ان هذه الآيه نهت عن الدعوه الى الصلح القائم على أساس الوهن، لأنها تستتبع الذل و الهزيمه، و هى بالتالى استسلام للعدو.. بينما أمرت الآيه الأخرى بقبول الصلح الذى يدعوه اليه العدو لوهن أصابه و ضعف، و كلا الأمرين يخدمان بالتالى القيم الرساليه.. ففى الوقت الذى يكون الصلح لمصلحه الإسلام و قوته و غلبته و تأتى الدعوه اليه من العدو لا بد من قبوله، بينما لا ينبغى المبادره من قبل

المسلمين الى الدعوه اليه انطلاقا من الاحساس بالوهن والضعف.و لذلك

جاء فى الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) فى عهده لمالك الأشتر انه قال:

«و لا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك و لله فيه رضا». (١)

□  
وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتْرُكُكُمْ أَعْمَالُكُمْ قالوا:معناه لن يؤدكم من دون أعمالكم، لأن الوتر بمعنى الأفراد، و إنما سمي الذى قتل منه أحد موتور، لأنه بقى مفردا من دونه. و هكذا ضمن الله حفظ أعمال المؤمنين، كما أوعد الكفار بحبط أعمالهم، فكلما بذله المسلمون فى طريق تقدم رساله يحفظه الله و يجعله مفيدا.

ينبغى إذا ألا نستعجل النتائج، و أن نصبر فى المواجهه، حتى يأتى النصر.

و لنعلم ان النصر آت، و كل آت قريب، و قد لا نراه نحن و إنما يقطف ثماره أبنائنا.

و زينب بنت على (عليهما السلام) ضربت أروع الأمثله فى التحلى بهذه البصيره، فلقد كانت تتذكر حين شده البلاء، و تراكم المصائب و الآلام، هذه الحقيقه إن الله لا- يضيع جهود المجاهدين. فلقد ألقت نظره على مصارع إخوتها و أبنائها و أصحاب الرساله، و

قالت مخاطبه الامام على بن الحسين (عليهما السلام) ابن أخيها: «مالى أراك تجود بنفسك يا بقيه جدى و إخوتى، فو الله إن هذا لعهد من الله الى جدك و أبيك، و لقد أخذ الله ميثاق أناس لا- تعرفهم فراعنه هذه الأرض، و هم معروفون فى أهل السموات، انهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعه، و الجسم المضرجه، فيوارونها، و ينصبون بهذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء، لا- يدرس أثره، و لا- يمحي رسمه على كرور الليالى و الأيام، و ليجتهدن أئمه الكفر و أشياع الضلال فى محوه و طمسه، فلا يزداد أثره الا علوا» (٢) و كذلك

حين خاطبت يزيد الحاكم

ص: ٢٧٤

١- ١) تفسير نمونه نقلا عن نهج البلاغه الرساله رقم (٥٣).

٢- ٢) كامل الزيارات: ص (٢٦١).

الأموى الذى قتل ذريه رسول الله فقالت له: «و لئن اتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك.. فكذ كيدك، واسع سعيك، و ناصب جهدك، فو الله لا تمحو ذكرنا، و لا تميت وحيننا، و لا يرخص عنك عارها». (١)

هكذا كانت عليه السلام تنظر الى آفاق المستقبل البعيدة، دون أن تأسرها مصاعب اللحظات الراهنة الآتية، و هكذا كان جميع حملة الرسالة عبر التاريخ، ينظرون الى الآفاق البعيدة، فكانوا يتحملون تلك المصائب الرهيبة التى لو أنزلت على جبل لهدّته هداً ابلى. بالايمان بأن الله معهم، و انه لا يضيع أعمالهم الصالحة، و يحفظ جميع جهودهم، و يباركها و ينميها و انه يكيد الكافرين، و يحبط أعمالهم و يبطلها، و ان العاقبة للمتقين، بكل ذلك كان المجاهدون على امتداد التاريخ يتحدون الصعاب.

[٣٦] و نتساءل: لماذا تخور عزائم البعض فى مواجهه أعداء الدين؟ لماذا يستحوذ عليهم الوهن و يدعون الى السلم؟ إن السبب هو حب الدنيا، و لذلك يحذرنا الرب منها، و يبين لنا قيمه الحقيقيه لها فيقول:

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِذَا انْتَرَعْنَا حَبَ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِنَا، فَسَوْفَ نَتَسَلَّحُ بِالشَّجَاعَةِ الكَافِيَةِ لِمُوجَاهَةِ الأَعْدَاءِ، كَمَا نَسْتَعِدُّ لِقِتْلَاعِ جُذُورِ سَائِرِ الأَمْرَاضِ القَلْبِيَةِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا هَذِهِ السُّورَةُ المَبَارَكَةُ كَالنَّفَاقِ وَ الحَسَدِ وَ الكِبَرِ، لِأَنَّ

«حب الدنيا رأس كل خطيئه» - كما فى حديث مأثور-.

ص: ٢٧٥



و إذا جردت حياتنا فى الدنيا من هدفها المتعالى المتمثل فى بلوغ الجنه و الرضوان، فهل يبقى فيها هدف معقول؟ كلا.. و ماذا نتصوره من هدف حكيم للطعام و الشراب لو تفكرنا فيه ليس سوى لذه عابره، و قوه تتبدد، و دورات قصيره لا تنتهى من واحده حتى نقع فى الثانيه، و اللعب هو السعى الذى يهدف غايه غير حكيمة (خياليه)، و اللهو هو السعى الذى لا هدف له أبدا.. و ما الدنيا إلا لعب و لهو لأن ما فيها يزول، لو لا ما نبقى منها لحياتنا الحقيقه فى الآخره، و هو الذى يشير اليه السياق:

وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَرَامَةً وَ سَعَادَةً وَ عَزَاءً، وَ فِي الآخِرَةِ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ.

وَ لَا يَسْئَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ قَالُوا: معنى ذلك انه سبحانه لا- يطلب منكم أجرا بإزاء هدايتكم، و لعل معناه انه سبحانه يعترف لكم بالملكيه، و لا- يسلبكم الأموال بصوره كامله دون إكراه، بل بالترغيب و هذا لا- ينافى الأمر بالإنفاق لما فيه من فوائد عظيمه لكم، لأنه دليل واقعى على انتماء الفرد لمجتمع الايمان و الفضيله، كما انه سيجعل النفوس نقيه صافيه طاهره، و سيجعل المجتمع متماسكا ملتحما و يسير بسرعه أكبر نحو التقدم.

[٣٧] و من حكمه ربنا و رحمته بنا انه لم يأمرنا بإنفاق جميع أموالنا، و إلا لم يكن يتمسك بعروه الإسلام إلا القليل من الناس.

إِنْ يَسْئَلُكُمْ مَوَالِيَهُمْ فَيُحْفِكُمْ يَجْهَدُكُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْإِحْفَاءِ بِمَعْنَى الْإِصْرَارِ فِي الْمَسْأَلَةِ.

تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ و لكنه جعل دينه سهلا لينتمى اليه أكبر عدد من الناس، و إذا كان صعبا و يأمر بإنفاق كل المال كان يظهر البخل الذى تنطوى عليه أغلب النفوس.

[٣٨] و بالرغم من ان الله لم يأمرنا بإنفاق جميع الأموال، ترى البعض يبخلون، كما بخلوا بأنفسهم حين أمروا بالقتال.

هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُفْقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنفُسَهُمْ عَلَى الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ وَ التَّضْحِيهِ، وَ جَذِبَهُمْ حُب الدنیا و أوثقهم بوثاقه، و بالتالى تصوروا ان الإنفاق مغرم، بينما هو مغنم كبير.

وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّهُ يَبْخُلُ عَن نَفْسِهِ لَأَنَّهُ لَوْ أَنْفَقَ شَيْئًا لَرَدَّ إِلَيْهِ أضعافا مضاعفه، و حاز على رضوان الله الأكبر. و أى خساره كهذه الخساره، أن يحرم الإنسان ثواب ربه و رضاه؟! و لا يدل أمر الله بالإنفاق على حاجته الى ما نملكك، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ لَأَنَا فَقراء يجب علينا أن ننفق حتى يغنيننا من فضله.

وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَكُمْ فإِذَا بَخَلت أمة عن العطاء، فان الرب يستبدلها بأمة خيرا منها، تنفق من أموالها، و تجاهد فى سبيل الله، و تقدم التضحيات تلو التضحيات، و تصبر و تستقيم.

إن توفيق حمل الرسالات الالهيه شرف عظيم لا يعطيه الله إلا لمن استعد لدفع ثمنه، و ثمنه خوض القتال و الإنفاق، فاذا ضعفت أمه عنها قتيض الله لها أمه أخرى! و حول هذا المقطع من الآيه جاءت روايه ذكرها أغلب المفسرين و بطرق عديده:

عن أبي هريره إن أناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه؟ و كان سلمان الى جنب رسول الله صلى الله عليه و آله فضرب صلى الله عليه و آله يده على فخذه سلمان فقال: «هذا و قومه، و الذى نفسى بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» (١) و

جاء فى روايه أخرى عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: «و الله أبذل بهم خيرا منهم الموالى» (٢).

و الواقع: إن التاريخ يشهد ان رساله الإسلام حملها بعد العرب شعوب أخرى كالبرابره و الفرس و الأتراك، و إذا خذلها المسلمون اليوم فقد يقضي الله لها من أقصى الأرض من يحملها و يؤدى حقها ثم لا يكونوا أمثال المسلمين.

ص: ٢٧٨

---

١- ١) نور الثقلين / ج (٥) - ص (٤٦).

٢- ٢) تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان / ج (٩) - ص (١٠٨)

سوره الفتح

اشاره

ص: ۲۷۹



## فضل السوره

قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام : حصنوا أموالكم و نسائكم و ما ملكت أيمانكم من التلف بقراءه «إنا فتحنا لك» فانه إذا كان ممن يدمن قراءتها نادى مناد يوم القيامة حتى تسمع الخلائق: أنت من عبادى المخلصين، الحقوه بالصالحين من عبادى، و أدخلوه جنات النعيم، و اسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور.

تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٤٦-٤٧

ص: ٢٨١



لقد كان صلحا صاخبا ذلك الذى رجع المسلمون به من مكه بعد أن تمنوا دخولها منتصرين أو لا أقل آمنين، و الصلح مع مشركى قريش واحد من أهم أحداث السيره النبويه إثاره للجدل.. إذ كيف يمكن للمؤمنين الذين امتلأت نفوسهم غضبا على الكفار و سوقا إلى القتال معهم، و شوقا إلى الشهاده أن يصلحوا عدو كافر ظالم؟ و لعل نزول سوره كامله فى هذا الموضوع و تسميتها باسم الفتح دليل على حساسيه معالجه موضوع الصلح، و من زوايا عديده.

أولا: إن الصلح لا يعنى تسليمًا، و لا ضعفا، و لا تنازلا عن الأهداف الاستراتيجيه للامه.

ثانيا: لا يعنى الصلح تغليب رأى المنافقين الداعين إلى الصلح أو التهاون بالتعبئه العسكريه.



ثالثا:الصلح أو الحرب رهين أوامر القيادة،والامه المتمسكه بحبل قيادتها الالهيّه لن تهزم لا فى الحرب و لا فى الصلح.

و لعل هذه الزوايا هى مجمل محاور هذه السوره الكريمه التى وصفت الصلح بأنه فتح مبين،و أن الله قد غفر لنبيه ما تقدم و ما تأخر مما اعتبرها الأعداء ذنوبا،و أنه هداه الى الصراط المستقيم الذى يؤدى إلى أهدافه الساميه و التى منها النصر العزيز.

و بعد هذه البراعه فى افتتاح السوره(٣/١) نجد القرآن يمدح المؤمنين،الذين أطاعوا الرسول فى الصلح بمثل طاعتهم له فى الحرب،و يجعل ذلك وسيله للنصر، حيث أنه سبحانه أنزل سكينته فى قلوب المؤمنين..و علموا أنهم لمنصورون ما داموا قد انتظموا فى سلك جند الله،الذى له جنود السماوات و الأرض،و أنهم ينتظرون جنات تجرى من تحتها الأنهار.

أمّا المنافقون الذين خالفوا الرسول فى السلم بمثل مخالفتهم له فى الحرب فان الله يعذبهم،لأنهم ظنوا بالله ظن السوء-و أنه لا ينصرهم-فدارت عليهم دائره السوء أنى اتجهوا وجدوا سوءا،و غضب الله عليهم و لعنهم و أعدّ لهم جهنم.

إذا محور المجتمع الاسلامى هو الرسول الذى لو نصحوا له أطاعوه مخلصين سعدوا به،لأن الله قد أرسله شاهدا و مبشرا و نذيرا،و جعله محورا لحياتهم،ليؤمنوا بالله و رسوله و يعزروه و يوقروه..و يعظموا الله بتعظيم رسوله.ذلك ان يد الرسول هى يد الله،و يد الله فوق أيديهم.

و ينعطف السياق على المنافقين الذين أرادوا انتهاز فرصه الصلح ليطعنوا فى مصداقيه رساله و يقول:سيقول الاعراب الذين تخلفوا عن الرسول فى خروجه إلى مكه شغلنا أموالنا و أهلونا،و يريدون العوده إلى صفوف رساله بعد أن أبعدوا

عنها بتخلفهم، و لكن الله يفضح مكرهم و أنهم كانوا يرجون ألا يعود الرسول إليهم، و ظنوا ظن السوء فكانوا قوما بورا-هالكين-.

و الآن حيث صعد نجم المسلمين و طوعوا أكبر قوه فى الجزيره-قريش-حتى اعترفت بهم كقوه سياسيه مناوئه، يريد الانتهازيون الالتحاق بركب الرساله طمعا فى المغانم، و هذه من مشاكل الصلح دائما. و رفض الإسلام عودتهم إلا إذا استعدوا للجهاد إذا دعوا اليه مره أخرى، فيومئذ إن أطاعوا يؤتيهم الله أجرا حسنا، و إن تولوا-كما فى السابق-يعذبهم الله عذابا أليما.

و بعد أن استثنى السياق من هذا الحكم المرضى و المعوقين عاد و أثنى على المؤمنين الذين بجهودهم حصل المسلمون على هذا الصلح حيث أنهم بايعوا الرسول على القتال تحت شجره كانت هنالك فرضى الله عنهم، و أنزل السكينه عليهم، و أثابهم-فى الدنيا-فتحا قريبا متمثلا فى مكاسب صلح الحديبيه، ثم فتح مكه.

و يعدد الله مكاسب المؤمنين بما يلى: صلح الحديبيه كما أنه صدّ أذى الناس عنهم، و جعل ذلك آيه، و عبره تاريخيه يستفيد منها المؤمنون.

و كان نصر المؤمنين على اقتدار، و ليس عن ضعف أو ذل و مهانه، فلو قاتلهم الذين كفروا عند مداخل الحرم المكى لولوا الأدبار و هذه سنه الله التى لا تتبدل، و لو أن الله أراد لشب القتال و انهزم الكفار، و لكن لحكمه كف الأيدى عن الحرب ببطن مكه. و كانت قريش تستحق القتال، فقد صدوهم عن المسجد الحرام، أما حكمه كف الأيدى فلأنه كانت طوائف من المؤمنين متداخلين مع قريش يعملون بالتقاه.

قتال المؤمنين لا ينبعث من العصبيه بل من مصلحه الرساله لذلك فهو يدور على محور المصلحه الايمانيه، بينما قتال الكفار ينطلق من منطلق العصبيات الجاهليه،

و لذلك فهم لا يبلغون أهدافهم به.

فقلوب الكفار مليئه بالحميه الجاهليه،بينما تعتمر أفئده المؤمنين بالسكينه الايمانيه،لأنهم قد التزموا بكلمه التقوى.

هذا و قد تبين صدق الرؤيا التى رآها الرسول،بأنه يدخل المسجد الحرام هو و المؤمنين بالحق،بلا خوف فجعل قبله فتحا قريبا.أما الهدف الأبعد فهو أن يظهر الدين الاسلامى على الدين كله و لو كره المشركون.

و فى خاتمه السوره يبين القرآن صفات أصحاب الرسول الذين اتبعوا الرسول فى ساعه العسره،فى السلم كما فى الحرب،و يبين أن كل فضائلهم آتية من علاقتهم بعباده ربهم،و التبتل إليه،لذلك تراهم أشداء على الكفار رحماء بينهم،يبحثون عن رضوان ربهم سيماهم فى وجوههم من أثر السجود..

و بهذا تحيط السوره بكل زوايا الصلح مع قريش،و تعالج المشاكل الجانيبه التى قد تنشأ من أى صلح محتمل مع عدو كافر.

ص: ٢٨٤

## [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَ يُضَيِّرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكْفَرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّيِّئَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)

## اللغه

(٦) عَلَيْهِمُ لَلدَّائِرَةُ السَّوْءِ: دائر عليهم و حائق بهم، و سميت دائره من دوران الفلك فقد دارت دائره سيئه بالنسبه إليهم، و قوله «عليهم» إما إخبار أو دعاء عليهم.

ص: ٢٨٨

هدى من الآيات:

بالرغم من أنّ الله ينجز وعده لعباده المؤمنين فينصرهم على أعدائهم، وبالرغم من أنّهم ينتظرون فتحاً قريباً و نصراً عاجلاً، إلاّ أنّه قد يتأخر عنهم، لمصلحه يعلمها الله، فلربما لو جاءهم النصر عاجلاً منع عنهم فتحاً كبيراً لما تنهياً أسبابه، فهذا رسول الله صلى الله عليه و آله يرى في منامه، و يخبر المؤمنين أنّه سوف يدخل المسجد الحرام آمناً، ثم يقودهم حاجاً الى بيت الله، فيجد المشركين قد استعدوا لحربه أو صدّه عنه، فلم تتحقق رؤياه في الظاهر، ولكنّه صلى الله عليه و آله دخله فاتحاً في السنين اللاحقه، بسبب ذلك الصلح الذي أبرمه في تلك السنه.

المسلمون من جهتهم فهموا رؤيا الرسول على أنّها تؤكد دخول مكة في تلك السنه، و لكنّه صلى الله عليه و آله مع علمه بالواقع جعلها غامضه، فلم يبين لهم بأنّ النصر لا يأتيهم في ذلك العام، لأنّه لو أخبرهم ربما تفاعسوا عن الجهاد، و إذ لم يخبرهم الرسول بواقع الأمر سارعوا نحو مكة يحدوهم أمل الانتصار، و انتهى الأمر بهم الى

صلح الحديبيه الذى كان تمهيدا لفتح مكّه المكرمه، و لو أنّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام فى ذلك العام فلربما فاتهم فتحها، و بالتالى فتح الجزيره العربيه، و انتشار الإسلام فى الأرض.

إنّ الهدف القريب الذى توخاه المسلمون بعد إخبار الرسول لهم برؤياه هو دخول مكّه، و لم يشأ الله أن يتحقّق ذلك تمهيدا لتحقيق الهدف الأ-كبر و هو فتح مكّه، و العبره من ذلك أن لا-يستعجل المسلمون للنتائج، و إنّما ينبغى الانتظار ريثما تنضج الظروف.

### بينات من الآيات:

[١] إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ماذا تعنى كلمه الفتح فى هذه الآيه؟ قال بعض المفسرين: إنّ الآيه و إن كانت نزلت قبل فتح مكّه إلاّ أنّها تعنيه و تؤكّده و تبشّر المؤمنين به، و قال آخرون: إنّها تنصرف الى فتح خير، و لكنّ الآيه تدلّ كما يبدو على الفتح السياسى و الثقافى لمكّه و الذى سبق فتحها العسكري، و قد تجسّد ذلك فى صلح الحديبيه الذى مهّد لفتحها عسكرياً، و منه انطلق انتصار الإسلام و انتشاره فى الجزيره العربيه، ذلك لأنّ أىّ حركه ناشئه-و بالذات تلك التى تعاكس أفكار المجتمع و عاداته-تسعى نحو اكتساب الاعتراف من المجتمع المحيط حتى تتحرك بحريه فى التوسعه و الانطلاق، و حركه الإسلام-فيما يتعلّق بالجانب الظاهرى منها و ليس الغيبى-كانت فى البدء حركه ناشزه عند المشركين حيث كان المجتمع الجاهلى يعتبرون المسلمين صابئه لأنّهم فى نظرهم متمردون على العادات و التقاليد، فحركتهم إذن حركه خارجه عن الشرعيه.

و السؤال: متى تم الاعتراف بحركه الرسول فى ذلك المجتمع؟ لقد تم ذلك فى صلح الحديبيه، حيث اعترفت من خلاله قريش التى كانت سيده على مكه و سائر العرب بالرسول و أتباعه و رسالته كأمر واقع، و قد تأكد هذا الاعتراف بوضوح عند التوقيع على البند القائل: من أراد من القبائل الانضمام الى الرسول صلى الله عليه و آله و التحالف معه، أو الانضمام الى قريش و التحالف معها فله ذلك..

و ذلك يعنى أنّ هناك حكومتان فى الجزيره حكومه قريش و حكومه الإسلام.

و فعلا تحالفت طائفه من القبائل -كخزاعه- مع الرسول صلى الله عليه و آله، و بدأ الإسلام بالانتشار فى ربوع الجزيره، و لعل الآثار الايجابيه التى ترتبت على صلح الحديبيه -و من أهمها تحالف القبائل العربيه مع النبى الأعظم- هى التى يسميها القرآن بالفتح المبين.

فالفتح المبين ليس هو الفتح العسكرى، إنّما هو الفتح السياسى و الثقافى الذى حققه الرسول فى صلح الحديبيه، و كان تمهيدا و مرتكزا للفتح العسكرى فيما بعد، حيث حصل بعد الصلح على حاله السلام، صار يتحرك بسرعه جاده تحت مظلته لنشر الدين،

قال الامام الصادق عليه السلام: «فما انقضت تلك المدّه -يعنى مده الصلح- حتى كاد الإسلام يستولى على أهل مكه» (1).

و من الطبيعى أنّ الحركه الثوريه الناجحه تتقوى، و تبني نفسها فى ظروف السلام، و تستعد لظروف المواجهه، و ما دامت الحكومه (الواقعيه) فى الجزيره أوقفت حربها مع الحركه الرساليه بعد الصلح، تحرّك المؤمنون بقيادة الرسول صلى الله عليه و آله لنشر الإسلام، و صاروا يقوون أنفسهم فى ظروف الهدنه، الى أن فتحوا مكه عسكريًا بعد سنوات قليله.

ص: ٢٩١



[٣-٢] و كان لهذا الفتح معطيات عظيمه، من أبرزها غفران الله لرسوله الأكرم صلى الله عليه و آله ما تقدّم و ما تأخر من الذنب، و إتمام النعمه عليه، و هدايته الى الصراط الحق، و قد اختلف المفسرون فى بيان معنى الذنب بالنسبه للرسول، فمن قائل بأنّ للرسول ذنوبا قبل الإسلام و بعده غفرها الله له، و من قائل بأنّه كانت له ذنوب قبل الفتح و بعده (فتح مكه) فأعطاه الله صك الأمان بغفران السابق و اللاحق منها، و قالت جماعه بأنّ الرسول لم يذنب و إنّما الغفران متوجه الى أمته باعتبارها أمّه مرحومه.

و يبدو أنّ كلمه الذنب لا- تنصرف الى المعنى الظاهر منها و هو المعصيه، و إنّما تنصرف الى ما كان الكافرون و المشركون يعدّونه ذنبا، إذ كانت حركه الرسول صلى الله عليه و آله بذاتها ذنبا فى اعتقادهم، لأنّها تمرّد على الواقع القائم، فصار جزء من الواقع القائم بعد الصلح فارتفع عنه ذلك التصوّر و غفر له ذنبه فى نظرهم، و لتقريب الفكره أكثر نقول: إنّ موسى عليه السلام لم يكن فى ذمته ذنب حينما قال: «و لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (١) و إنّما كان ذلك وفق القانون الحاكم، كذلك الرسول صلى الله عليه و آله كان مذنبا حسب ذلك القانون حتى تعيّر القانون فى صلح الحديبيه، حيث أنّ رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله كان قد قتل منهم فى بدر و أحد و الأحزاب، و غنم أموالهم، و أسر رجالهم، بل و غيّر أوضاعهم، فهو كان عندهم مذنبا، و جاء الصلح ليطوى هذه الصفحه من أذهان المشركين، و يصيّرهم فى سلام مع المسلمين.

أمّا أن يكون معنى الذنب هو ظاهر الكلمه فإنّ ذلك لا- يليق بمقام الأنبياء، و بالذات مقام أعظمهم شأنًا و أرفعهم منزله عند الله، و حاشا لله أن يبعث رسولا- يرتكب الذنوب، كما أنّه من الخطأ أيضا القول بأنّ الله أعطى الرسول صك الغفران، إذ كيف يرفع المسؤوليه عن أحد بدون مبرّر؟ و هل بينه و بين أحد من

ص: ٢٩٢

خلقه قرابه حتى يفعل ذلك؟ أو لم يقل فى شأن رسوله صلى الله عليه وآله: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ \* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ \* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ \* فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (١). بلى. هناك بعض الفرق الصوفيه هى التى تعتقد بأن الإنسان يصل الى مستوى من العبوديه و الوعى بحيث ترفع عنه المسئوليه، حتى قال قائل منهم لأتباعه: أنتم تجب عليكم الصلاه، أميأ أنا فقد وصلت الى مقام فوق الصلاه! إن الإسلام لا يرى نهايه للمسئوليه إلا باليقين (الموت)، و هذا هو القرآن يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله -مع أنه انتهى الى غايه الكمال البشرى- بأنه يحتاج الى المزيد من الصلاه و التقرب الى الله عز و جل: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكِ الشَّمْسُ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا \* وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» (٢).

و يقول القرآن فى هذه السوره:

لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ الْغُفْرَانَ هُنَا مِنْ بَابِ الْوَعْدِ وَ لَيْسَ الْحَتْمُ وَ الْإِجْرَامُ، وَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاقْتَضَى الْأَمْرَ تَغْيِيرَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» (٣)، وَ الْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ رَسُولَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِنَفْسِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَوْلِهِ، وَ تَنَاسَبَ اللَّامُ هُنَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَ الْاسْتِغْفَارِ لَا مَعَ الْفَتْحِ، لِأَنَّ الْفَتْحَ قَضِيهِ سِيَاسِيهِ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الذَّنْبُ هُوَ الْآخِرُ ذَنْبًا سِيَاسِيًّا، بَيْنَمَا لَوْ اعْتَبَرْنَا الذَّنْبَ هُنَا شَخْصِيًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَ رَبِّهِ لَظَهَرَ اللَّامُ مَبْهَمًا.

ص: ٢٩٣

١- ١) الحاقه ٤٤-٤٧

٢- ٢) الإسراء ٧٨-٧٩

٣- ٣) محمد ١٩/

وَيُنَمِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بِالْفَتْحِ، وَبِتَكْرِيسِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَجْتَمَعِ.

وَ يَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً قَالَ الْبَعْضُ: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ السَّبِيلُ إِلَى تَدْعِيمِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَ نَشْرِهِ، وَ لَعَلَّنَا نَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ وَ السِّيَاقِ أَنَّ لِكُلِّ تَطَوُّرٍ جَدِيدٍ فِي السَّاحَةِ السِّيَاسِيَةِ مَعْطِيَاتٍ سَلْبِيَةِ وَ إِيْجَابِيَةِ يَخْشَى أَنْ تَحْرَفَ مَسِيرَهُ الْإِنْسَانَ، فَمَعَ كُلِّ تَطَوُّرٍ ضُغُوطٍ، وَ مَعَ كُلِّ ضُغُوطٍ اِحْتِمَالٌ لِلانْحِرَافِ، وَ اللَّهُ يَعِدُ نَبِيَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ لَا تَوْثُرَ فِيهِ تِلْكَ التَّطَوُّرَاتُ، سِوَاكَ كَانَتْ مِنْ نَوْعِ الضُّغُوطِ وَ الْهَزَائِمِ، أَوْ الْاِغْرَاءَاتِ وَ الْاِنتِصَارَاتِ، وَ أَنْ يَبْقَى مُسْتَقِيماً عَلَى خَطِّ الرِّسَالَةِ.

وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصِيراً عَزِيزاً لَعَلَّ مَعْنَى الْعَزِيزِ هُنَا الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَغَالِبُ، وَ قَدْ تَجَسَّدَ هَذَا النِّصْرُ فِي فَتْحِ مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ، حَيْثُ أَنَّ صَلْحَ الْحَدِيثِيِّ كَانَ تَمْهيداً لِهَذَا النِّصْرِ الْعَزِيزِ.

إِذْ نَفَلَتْ خَمْسَ نَتَائِجٍ رِئِيسِيَةٍ وَ هَامَةٍ وَ هِيَ:

أَوَّلًا: غَفْرَانُ ذَنْبِ الرِّسُولِ الَّذِي كَانَ يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ، حَيْثُ انْتَهَى بَعْدَ الصِّلْحِ الْحِصَارِ الْاِعْلَامِيَّ الْمَطْلُوقِ، فَتَحُولُ الرِّسُولِ مِنْ حَرَكَةِ الْعَصِيَانِ وَ التَّمْرُدِ إِلَى الْحَرَكَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

ثَانِيًا: اِتِّمَامُ النِّعْمَةِ عَلَى الرِّسُولِ، بِأَنْ هَيَأُ رَبَّنَا بِهَذَا الصِّلْحِ لَهُ الظُّرُوفَ لِيَكُونَ أَقْدَرُ عَلَى نَشْرِ الدِّينِ فِي الْمَجْتَمَعِ.

ثالثاً: تصفيه العقبات التي اعترضت طريق انتشار الإسلام، و بالتالي دفع جانب من الضغوط التي يواجهها الرسول صلى الله عليه و آله و أصحابه.

رابعاً: تهيئه الظروف المناسبه للنصر العزيز.

[٤] أمياً النتيجة الخامسة و التي يمكننا اعتبارها نعمه كبيره بذاتها، فهي بعث روح السكينة فى روع المؤمنين، فإذا بهم وهم بضع مئات يتحرّكون من المدينة باتجاه مكة التي يوجد فيها عشرات الألوف من أعدائهم المدججين بالسلاح، و لو لا هذه السكينة لما تحرّك الجيش الاسلامى الى حدودها.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرُدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ و هل الايمان يزيد و ينقص؟ بلى. إذن فما هو الايمان حتى يقبل الزيادة و النقصان؟ إنه إقرار بالقلب، و قول باللسان، و عمل بالحواس و الجوارح، و معنى ذلك أنّ الإنسان بكلّ كيانه المادى و المعنوى قوه واحده يسلم لها بطوعه و إرادته و هى قوه الله، فليس بإيمان ذلك الذى يبقى فى حدود العلم و المعرفة، دون أن يعكس على صاحبه سلوكا و عملا من جنسه فى الحياه، و القرآن يقول عن فرعون و قومه حيث كفروا بالآيات: «وَجَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » (١) إذن فيقين القلب وحده لا ينفع من دون العمل الصالح.

إنّ مشركى قريش كانوا يعرفون فى داخل أنفسهم صدق الرسول و أمانته، و لكنهم لم يعترفوا له بذلك فى واقع حياتهم، بل خالفوه و اتهموه بالكذب و السحر، بينما الايمان الحقيقى هو المعرفة بالقلب و العمل بالجوارح، و لذلك

جاء فى حديث

ص: ٢٩٥

مفصّل عن الامام على عليه السلام أنّ الإيمان موزّع على جوارح الإنسان، لكلّ جارحه منه ما يناسبها من الايمان (١)، وبقدر انحراف أى جارحه عن التزاماتها يفقد البشر من إيمانه.

و

عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله : من لقي الله كامل الايمان كان من أهل الجنة، و من كان مضيقاً لشيء مما فرضه الله تعالى فى هذه الجوارح و تعدّى ما أمره الله، و ارتكب ما نهاه عنه، لقي الله تعالى ناقص الايمان، قال عزّ و جل: ﴿وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾، و قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، و قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ و قال: ﴿وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، و قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، و يعلق الامام على عليه السلام على هذه الروايه فيقول: «فلو كان الايمان كلّ واحد لا زياده فيه و لا نقصان، لم يكن لأحد فضل على أحد، و لتساوى الناس، فبتمام الايمان و كماله دخل المؤمنون الجنّه، و نالوا الدرجات فيها، و بذهابه و نقصانه دخل الآخرون النار» (٢).

و ربنا فتح للمسلمين مكه، و أنزل عليهم السكينه، لكي يكمل إيمانهم أكثر، فيصير اقتصادهم و اجتماعهم و حكمهم إيمانياً، و تصبح سياستهم و شؤونهم العسكريه مبنيه على أساس الايمان.

﴿ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ﴾

ص: ٢٩٦

١-١) الروايه مفصله و طويله، راجع بح/ج ٩٣ ص ٤٩-٥٣

٢-٢) بح/ج ٩٣ ص ٥٣

و هو ينصر المؤمنين، إمّا عن طريق تثبيتهم و تقويه عزائمهم بانزال السكينه فى قلوبهم، و إمّا عن طريق جنود من عنده مباشره كالملائكه و الظواهر التى تقوم الملائكه بتديرها.

وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا فَهُوَ لَا يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ يَبْعَثُ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ وَيُزِيدُهُمْ إِيْمَانًا إِلَّا بِحُكْمِهِ بِالْغَيْهِ، وَ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجَاهِدُوا لَمَا حَصَلُوا عَلَى كُلِّ ذَلِكَ.

[5] و هدف المؤمنين من الانتصار و الفتح يجب أن لا يكون إسقاط الحكم الفاسد و اغتنام الأنفال، أو أن يتحوّلوا من حركة إلهيه الى حركة ثقافيه مترفه، أو حركة سياسيه متقلبه، إنّما الهدف الأسمى من ذلك هو دخولهم الجنة، كما يقول تعالى:

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَرِينًا إِنَّهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا  
إذن فالهدف الأسمى ليس النصر أو الفتح، و القرآن يعبر عن هذه الفكره فى سوره الصف بصيغه أخرى إذ يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ \* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ ذَلِكُمُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ» (١).

[6] و كما أنّ جزاء المؤمنين الحقيقى ليس هو انتصارهم على عدوّهم، فإنّ

ص: ٢٩٧

جزاء أعدائهم ليس سقوٲهم من سدّه الحكم، و لا ما يلقونه من العذاب على أيدي المؤمنين و حسب، و إنّما جزاؤهم الحقيقي عذاب الله الدائم في الآخرة.

و يُعَذَّبُ الْمُتَافِقِينَ وَ الْمُتَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ فهم محاطون بالشر من كلّ جانب، كما تحيط الدائرة بمركزها.

وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا [٧] و في خاتمه الـرس يؤكد ربنا قوته و حكمته التي يدبر بها شؤون الخلق.

وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا و هدف هذا التأكيد على قدره الله بعث روح الأمل بالنصر و الفتح في نفوس المؤمنين، حيث يشعرهم الرب بأن جند الله الذين لا يحصر عددهم كالملائكة و السنن الطبيعيه و..و..كلهم يقفون صفًا واحدًا الى جانبهم و هم يجاهدون في سبيله، فهم على خلاف أعدائهم الذين يحوطهم الشر كالدائرة.

### صلح الحديبيه:

و قبل إنهاء الحديث في هذا الـرس لا بأس أن نقرأ جانبًا من قصه الصلح التي تنفع الأمة الاسلاميه في بعض ظروفها، فهي حينما تصالحت عدوها عن قوه و مناوره حكيمة فإن صلحها حينئذ سيكون كصلح الحديبيه، أمّا لو صالحت عن ضعف، و كانت مكاسب العدو منها أكبر من مكاسبها من الصلح فإن ذلك استسلام لا يقبله الله.

جاء فى تفسير على بن إبراهيم عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: كان سبب نزول هذه الآيه و هذا الفتح العظيم أنّ الله جلّ و عزّ أمر رسوله (صلى الله عليه و آله و سلم) فى النوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و يحلق مع المحلقين، فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا، فلما نزل ذا الحليفه أحرموا بالعمرة، و ساقوا البدن، و ساق رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) سته و ستين بدنه، و أشعرها عند إحرامه، و أحرموا من ذى الحليفه ملتين بالعمرة، و قد ساق من ساق منهم الهدى معرات مجللات، فلما بلغ قريشا ذلك بعثوا خالد بن الوليد فى مأتى فارس كميناً يستقبل رسول الله (صلى الله عليه و آله) فكان يعارضه على الجبال، فلما كان فى بعض الطريق حضرت صلاه الظهر فأذن بلال فصلى رسول الله (صلى الله عليه و آله) بالناس، فقال خالد بن الوليد: لو كنّا حملنا عليهم و هم فى الصلاه لأصبناهم، فإنهم لا يقطعون صلاتهم، و لكن تجيء الآن لهم صلاه أخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا فى الصلاه أغرنا عليهم، فنزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه و آله) بصلاه الخوف فى قوله عزّ و جل: ﴿وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية، فلما كان فى اليوم الثانى نزل رسول الله (صلى الله عليه و آله) الحديبيه و هى على طرف الحرم، و كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) يستنفر الأعراب فى طريقه، فلم يتبعه أحد، و يقولون: أطمع محمد (صلى الله عليه و آله) و أصحابه أن يدخل الحرم أو قد غزتهم قريش فى عقر ديارهم فقتلوهم، أنه لا يرجع محمد (صلى الله عليه و آله) و أصحابه إلى المدينه أبداً.

و من هذه الروايه نعرف بأنّ الأعراب لم يدخلوا الإسلام، و لم يقبلوا دعوه الرسول صلى الله عليه و آله قبل الصلح (1).

ص: ٢٩٩



فى روايه اخرى قال ابن عبياس: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج يريد مكّه، فلتمّيا بلغ الحديبيه وقفت ناقته، و زجرها فلم تنزج، و بركت الناقه، فقال أصحابه:

خلأت الناقه، فقال صلى الله عليه وآله: ما هذا لها عادة، و لكن حبسها حابس الفيل، و دعا عمر بن الخطاب ليرسله الى أهل مكّه ليأذنوا له بأن يدخل مكّه، و يحلّ من عمرته، و ينحر هديه، فقال: يا رسول الله مالى بها حميم، و إننى أخاف قريشا لشده عداوتى إيّاه، و لكن أدلك على رجل هو أعز بها منى: عثمان بن عفّان، فقال: صدقت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان فأرسله الى أبى سفيان و أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، و إنّما جاء زائرا لهذا البيت، معظّما لحرمة، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله و آلّه و المسلمين أنّ عثمان قد قتل (١)، فقال صلى الله عليه وآله: «لا نبرح حتى نناجز القوم» فدعا الناس الى البيعه، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله الى الشجره فاستند إليها، و بايع الناس على أن يقاتلوا المشركين و لا يفروا، قال عبد الله بن مغفل:

كنت قائما على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك اليوم، و بيدي غصن من السيمره (شجره شائكته تنبت فى الأماكن الحاره) أذب عنه و هو يبايع الناس، فلم يبايعهم على الموت، و إنّما يبايعهم على أن لا يفروا (٢)، فبينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعه و كانوا عيبه نصح رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل تهامه، فقال: إننى تركت كعب بن لؤى و عامر بن لؤى و معهم العوذ المطافيل و هم مقاتلوك و صادوك عن البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّا لم نجئ لقتال أحد، و لكنّا جئنا معتمرين، و إنّ قريشا قد نهكتهم الحرب و أضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدّه و يخلوا بينى و بين الناس، و إن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، و إلّا فقد جموا، و إن أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذنّ الله تعالى أمره»، (و هذا من الحكمة السياسيه و لا ريب أنّ

ص: ٣٠٠

١- ١) و عادة ما تنشر الشائعات فى مثل هذه الظروف و الأحداث.

٢- ٢) بح/ج ٢٠ ص ٣٢٩

بيعه الرسول صلى الله عليه وآله مع أصحابه تحت الشجرة قد أرهبت قريشا، لأنها كانت مظهرا للقوه، و مناوره يرهبها الأعداء، و التظاهر بالقوه أمر مهم، و بالذات لمن يريد الصلح، لأن ذلك يجعله فى موقع القوى المهاب على طاولة المفاوضات، و فى سياسه اليوم تتكرر كلمه الردع النووى و هى مظهر لسياسه القوه).

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، و إنه يقول كذا و كذا، فقام عروه بن مسعود الثقفى فقال: إنه قد عرض عليكم خطه رشد فاقبلوها و دعونى آتته، فقالوا: آتته، فأتاه فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وآله، و قال له رسول الله صلى الله عليه وآله و آله نحوه من قوله لبديل، فقال عروه عند ذلك: أى محمّد أ رأيت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ و إن تكن الأخرى فو الله إني لأرى وجوها و أرى أو باشا من الناس خلقا أن يفزوا و يدعوك، فقال له أبو بكر: أمصص بظر اللات. أ نحن نفرّ عنه و ندعه؟ فقال: من ذا، قالوا: أبو بكر، قال: أما و الذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: و جعل يكلم النبى صلى الله عليه وآله، و كلّما كلمه أخذ بلحيته، و المغيره بن شعبه قائم على رأس النبى صلى الله عليه وآله و معه السيف و عليه المغفر، فكلماه أهوى عروه بيده الى لحيه رسول الله صلى الله عليه وآله و آله ضرب يده بنعل السيف، و قال: أخر يدك عن لحيه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن لا ترجع إليك، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيره بن شعبه، قال: أى غدر. أو لست أسعى فى غدرتك؟ قال: و كان المغيره صحب قوما فى الجاهليه، فقتلهم و أخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى صلى الله عليه وآله: «أما الإسلام فقد قبلنا، و أما المال فإنه مال غدر لا حاجه لنا فيه.» ثم

إنّ عروه جعل يرمق صحابه النبى صلى الله عليه وآله و آله إذا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله و آله ابتدروا أمره، و إذا توضّأ ثاروا يقتتلون على وضوئه، و إذا تكلموا أخفضوا أصواتهم عنده، و ما

يحدّون إليه النظر تعظيماً له، قال: فرجع عروه إلى أصحابه وقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوكة، ووفدت على قيصر و كسرى و النجاشي، والله إن رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد محمّداً، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توجّساً كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنّه قد عرض عليكم خطّه رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتته، فقال: آتته، فلمّا أشرف عليهم قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«هذا فلان و هو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها» فبعثت له، واستقبله القوم يلّتون، فلمّا رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص فقال: دعوني آتته: فقالوا: آتته، فلمّا أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وآله : «هذا مكرز و هو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وآله فيبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال صلى الله عليه وآله : قد سهّل الله عليكم أمركم، فقال: أكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام) فقال له: «أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أمّا الرحمن فو الله ما أدري ما هو، ولكن أكتب: باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلاّ بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وآله : «أكتب: باسمك اللهم، هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله و آله» فقال سهيل: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك، و لكن أكتب: محمّد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله و آله : إنّى لرسول الله و إن كذبتُمونى ثم قال لعليّ (عليه السّلام):

«أمح: رسول الله» فقال: «يا رسول الله إنّ يدى لا تنطق بمحو اسمك من النبوه»، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله فمحاها، ثم قال: «أكتب: هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو، و اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهنّ الناس، و يكفّ بعضهم عن بعض، و على أنّه من قدم مكة من أصحاب محمّد حاجاً أو معتمراً أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله،

و من قدم المدينه من قريش مجتازا الى مصر أو الشام فهو آمن على دمه و ماله، فإن بيننا عيبه مكفوفه، و أنه لا- إسلال و لا إغلال، و أنه من أحب أن يدخل في عقد محمّد و عهده دخل فيه، و من أحب أن يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل فيه»  
(١) و

في روايه أخرى: و كتبه عليّ بن أبي طالب و شهد على الكتاب المهاجرون و الأنصار ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله: يا عليّ إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوه، فو الذي بعثني بالحق نبيا لتجيبن أبناءهم الى مثلها و أنت مضيض مضطهد (أى أنك سوف تتعرض لمثل هذه الضغوط، و سوف تتنازل عن حقوقك و واجباتك الظاهرية، و لكن لله) فلما كان يوم صفين، و رضوا بالحكمين، كتب: هذا ما اصطاح عليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام و معاويه ابن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو عملنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك، و لكن أكتب: هذا ما اصطاح عليه عليّ ابن أبي طالب و معاويه ابن أبي سفيان، فقال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): صدق الله و صدق رسوله. أخبرني رسول الله صلى الله عليه و آله بذلك ثم كتب الكتاب (٢) و عن محمّد بن كعب قال: ثم رجع رسول الله صلى الله عليه و آله الى المدينه فجاءه أبو بصير (رجل من قريش و هو مسلم) و هذا يبين أنّ الصلح صار سببا لانتشار الإسلام بين الناس، و هنا فكره نستفيدها من عموم حديث الحديبيه و هي: إنّ الثوره الحقيقيه تستفيد من كلّ الظروف في سبيل تقدّمها، لأنها تعتمد على جوهر التقدّم، و هو إرادته الإنسان و تصميمه على الحركة، فمن ظروف السلم تستفيد خطّه لبناء كوادرها و ترتيب أوراقها، و من ظروف الحرب تستفيد خطّه لنشر أفكارها

ص: ٣٠٣

١-١) بح، ج ٣١ ص ٣٣٤

٢-٢) نور الثقلين / ج ٥- ص ٥٣

و الاعلام الجماهيرى المركز، فإذا ما استشهد أحد أبنائها فى الحرب رفعتة علما فى كلِّ أفق، و إذا بقى حيًّا استفادت من كلِّ أبعاد وجوده.

و حيث وقع رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله مع قريش بنود الصلح التزم بها لكى يستفيد من فتره السلم بينه و بينهم فى بناء حركته و إعدادها إعدادا قويًّا لمواجهة المتغيرات و الظروف المختلفه، لهذا كان يرفض أى عمل أو قرار ينتهى الى إشعال الحرب، لأنه يخسره مكتسبات ظروف السلم، و حيث

سمعت قريش عن رجل يسمّى أبو بصير لحق بالنبي صلى الله عليه و آله أرسلت فى طلبه رجلين، فقالوا للرسول صلى الله عليه و آله :

العهد الذى جعلت لنا؟ فدفعه الى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفه فتزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين، إنى لأرى سيفك هذا جيّدا، فاستلّه و قال: أجل إنّه لجيّد و جرّبت به ثم جرّبت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه؟ فأمكنه منه فضربه به حتى برد، و فرّ الآخر حتى بلغ المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرا» فلما انتهى النبي صلى الله عليه و آله قال: قتل و الله صاحبى و إنى لمقتول، قال: فجاء أبو بصير فقال:

يا نبى الله! لقد أوفى الله ذمتك، و رددتني إليهم، ثم أنجانى الله منهم، فقال النبي صلى الله عليه و آله: «ويل أمّه مسعر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنّه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، و انفلت منهم ابو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلاّ لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت عليه عصابه، قال: فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت الى الشام إلاّ اعترضوا لها فقتلوه، و أخذوا أموالهم، فأرسلت قريش الى النبي صلى الله عليه و آله تناشده الله و الرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل صلى الله عليه و آله إليهم فأتوه (1)

ص: ٣٠٤

فى تفسير القمى: و قال رسول الله صلى الله عليه و آله لأصحابه (بعد كتابه الصلح):

انحروا بدنكم، و احلقوا رؤوسكم، فامتنعوا و قالوا: كيف ننحر و نحلق و لم نطف بالبيت، و لم نسع بين الصفا و المروه؟ فاعتم لذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و شكا ذلك الى أم سلمه، فقالت: يا رسول الله انحروا أنت و احلق، فنحر رسول الله صلى الله عليه و آله فحلق، فنحر القوم على حيث يقين و شك و ارتياب (و هنا تتبين فكره مهمه و هى: إن القيادة حينما تقول و تعمل بما تقول يكون قرارها أمضى أثرا فيمن حولها).

و حيث رجع المسلمون الى المدينة قالوا: هذا ليس بفتح، لأنهم حسبوا الفتح هو النصر الذى يأتى بالقتال، و يكون فيه الأسر و أخذ الغنائم، و لم يكونوا يعرفون أبعاد الفتح الحقيقى، أما الرسول صلى الله عليه و آله فهو يعرف كل ذلك، و بمجرد أن سمع هذا الكلام جمع أصحابه و أكد لهم بأن ما حدث هو أعظم الفتح،

فقال: «لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم» و هذه مرحله من مراحل الفتح، أن العدو يعترف بالمسلمين،

«و يسألوكم القضية، و يرغبون إليكم فى الإياب» أى أنهم اعترفوا بكم كند لهم

«و قد كرهوا منكم ما كرهوا، و قد أظفركم الله عليهم، فردكم سالمين غانمين ماجورين، فهذا أعظم الفتح» ثم ذكرهم بالماضى و قال:

«أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و أنا أدعوكم فى أخراكم؟! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم و من أسفل منكم، و إذ زاغت الأبصار، و بلغت القلوب الحناجر، و تظنون بالله الظنونا؟! قالوا: صدق الله و رسوله، و هو أعظم الفتوح، و الله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، و لأنت أعلم بالله و بالأمور منا، فأنزل الله سورة الفتح» (1) و

جاء فى عيون الأخبار بإسناده الى على بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الامام الرضا، فقال المأمون: يا ابن رسول الله! أليس من قولك

ص: ٣٠٥

أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» قَالَ الرضا(عليه السلام): لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ عِنْدَ مُشْرِكِي مَكَّةَ أَعْظَمَ ذَنْبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ثَلَاثِمِائَةَ وَسِتِّينَ صِنْمًا فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالِدَعْوَةِ إِلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ كَبُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَعَظُمَ وَقَالُوا: أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَإِحْدَادًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ \* وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَيَّ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ \* مَا سِجْمَنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكَّةَ، قَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» عِنْدَ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ بَدْعَائِكَ تَوْحِيدَ اللَّهِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، لِأَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ أَسْلَمَ بَعْضُهُمْ، وَخَرَجَ بَعْضُهُمْ عَنِ مَكَّةَ، وَمِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِنْكَارِ التَّوْحِيدِ إِذَا دَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ، فَصَارَ ذَنْبُهُ عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَغْفُورًا بظهوره عليهم فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن (١)

ص: ٣٠٦

إشاره

إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ تَعَزَّوهُ وَ تَقْوُّوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ  
يَلْبِغُونَكَ إِتْمَانًا يَلْبِغُونَ اللَّهَ بِدِينِهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا  
عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ  
يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ  
الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا  
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)

الغنه

(٩) تَعَزَّوهُ: تقووه بالنصره و ذلك بتقويه دينه و نصره أحكامه.

(١٠) نَكَثَ: نقض البيعه.



(١٢) بُوراً: جمع بائره أى هالكين.

ص: ٣٠٨

هدى من الآيات:

بعد تناول القرآن موضوع الفتح المبين و ما تابع ذلك من حقائق اجتماعيه أظهرها الوضع الجديد يحدثنا ربنا عن موقع الرسول صلى الله عليه و آله بين المسلمين، كأهم عبره تستفيدها الأمة من هذه الظاهره التي لم يعرف الناس أبعادها لو لا أن الرسول بحكمته و حزمه تعامل معها، و اكتسب لهم ثمرات الفتح المبين. فهو صلى الله عليه و آله لا يمثل شخصه، و إنما يمثل رسالته و ربه، و من ثم فإن بيعته و الخضوع لأوامره ليس إلا لله عز و جل، و بهذه المناسبه يكشف السياق عن واقع المنافقين بأنهم انتهازيون، و يبحثون عن مصالحهم فقط، فتراهم يتبعون القائد ما دام ذلك لا يتعارض مع مصالحهم، و إلا تمرّدوا عليه بمختلف الأعدار، و لقد أمرهم النبي صلى الله عليه و آله بالتوجه الى مكه فنكصوا على أعقابهم خوفا من عواقب ما اعتبروه مغامره غير محسوبه، و عند ما عاد المسلمون الى المدينه فاتحين رجعوا الى صفوف الأمة على جسر من الأعدار، و لم يكن ذلك إلا لأنّ خط الرساله فرض نفسه على الواقع.

و لكنّ ربنا لا يدع الأمر هكذا دون قيد يفرضه عليهم، و بصيره يهدى بها الرسول القائد و المؤمنين من حوله فى التعامل مع هذا الطراز من الناس، و إنّما يشترط لقبول توبتهم أن تكون توبه نصحاً تحكيها أعمالهم و ممارساتهم، و تتجلى فى مواجهاتهم اللاحقه مع الكفار، التى ينبغى أن يثبتوا فيها جدارتهم للانتماء الى خطّ الرساله و تجمّع المؤمنين، أمّا مجرد الكلام و إلقاء الأعدار فلا يمكنه إعادتهم الى الصف الإسلامى أبداً.

### بينات من الآيات:

[٨] إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً و الشاهد: الحاضر، فكيف ينسحب هذا المعنى على القائد؟ إنّ الشاهد هو الحاضر الذى يكون سلوكه مقياساً للحق، و شهادته الرسول على الأمت حجتته، و كونه المقياس العملى للخير و الفضيله، و الميزان الواقعى للضلاله و الهدى، و ليس المراد من شهادته صلى الله عليه و آله حضوره الجسدى بين المسلمين، و إلاّ لما كان ذلك يحتاج الى الإرسال من قبل الله باعتباره تحصيل حاصل، ثمّ أنّ هذه الشهاده لا تنحصر زمئياً بوجوده المادى، و إنّما تشمل البشرى التى أرسل إليها جيلاً بعد جيل، و زمناً بعد زمن.

و لكى يتضح معنى الشهاده بالنسبه للرسول القائد صلى الله عليه و آله لا بد من الحديث عن صفتين تجسّدانها من صفاته، هما: دعوته الناس الى الرساله عن طريق كلامه و بيانه، و الأخرى دعوته لهم من خلال سلوكه و عمله، و ذلك بصنعه واقعا يتأثر به المجتمع من حوله، و مثال ذلك أنّه صلى الله عليه و آله حينما يوقّع على صلح الحديبيه، و يقبل بمحو اسم (رسول الله) من الوثيقه تكتيكياً، فلكى يستمر الصلح بفوائده استراتيجياً، و حينما يوقد جيشاً لجبا الى المعركه، و حينما يصلّى خاشعاً لربّه، و حينما يعفو و يسامح، و.. و.. كلّ هذه السلوكيات تؤثّر واقعياً على المجتمع،

و تدفعه دفعا قويًا و من الأعماق للتأسي بصاحبها و اتباعه، إذن فالقياده قبل أن تكون منصبًا سياسيًا و اجتماعيًا، و قبل أن تكون قرارًا من أعلى، هي -في الواقع- مبادره و واقع عملي، و الأئمه عليه السلام أكثر ما أمروا أصحابهم و اتباعهم بالعمل لا بالكلام، و

الامام الصادق عليه السلام يقول: «كونوا دعاه لنا بغير ألسنتكم» يعنى بسلو ككم و عملكم، لأن ذلك أمضى أثرا في واقع الناس و نفوسهم، و أكبر دلالة على خط الإنسان و فكره، و لقد قرأنا في الدرس السابق كيف أن الرسول حينما أمر المسلمين بحلق رؤوسهم و نحر بدنهم رفض أكثرهم فبادر شخصيًا الى ذلك فتهافتوا للحلق و النحر.

هذا من جهه، و من جهه أخرى إن ألفاظ الرساله تتعرض للتلاعب من قبل المنافقين، كما أنها تحتمل التأويل و التفسير، بينما الشهاده العمليه تبقى حجه جليته بالغه، لا تحتمل أكثر من تفسيرها الواقعي، فلو أمر الرسول صلى الله عليه و آله الناس بالصدق و بالأمانه بمجرد الكلام، دون أن يجسد لهم هذين المعنيين، لكان الكثير من المسلمين يكذب أو يخون، و يفسر ذلك بأنه الصدق و الأمانه اللذان أمر بهما الرسول، و لكن الرسول قال و عمل فكان عمله أكبر مفسر لقوله.

إن الرسول يصبح شاهدا و قائدا للمسلمين، و تصبح سيرته منهجا للأجيال بعد الأجيال، حينما يجمع أصحابه و يذهب الى مكه فيتهرّب جمع منهم، و ينسلّون من جيشه لو اذا خشيه الابهاده، فإنه يصنع واقعا حيا، أو حين ينصرف من الخندق مع المسلمين، و يضع عنه اللامه، و يغتسل، و يستحم، فينزل عليه جبرئيل و يقول له:

«عذيرك من محارب. ألا- أراك قد وضعت عنك اللامه، و ما وضعناها بعد» فإذا به يثب صلى الله عليه و آله للجهاد، و يتبعه المسلمون، و يحارب بنى قريظه.

هذه المواقف الواقعيه هي التي تترك أثرها البالغ في نفوس الناس و الأجيال،

فهذه سيره رسول الله صلى الله عليه وآله تلهم المسلمين جيلاً بعد جيل العزم والاستقامة، لأنه لم يكن شاهداً بكلامه وحسب، وإنما بعمله وسلوكه لقد كان شاهداً في كلِّ حقل، مبادراً في كلِّ مكرمه، صانعاً للأحداث، مقتحماً غمار الصعاب، وحتى في الحروب كان القائد الشاهد، والى الحدِّ الذى

قال عنه بطل الإسلام على ابن أبي طالب عليه السلام: «و كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِّنَّا أَقْرَبَ مِنَ الْعَدُوِّ مِنْهُ» (١) والرسالى الصادق هو الذى يشهد على عصره، وتفسر مواقفه العمليه كلماته المضيئه.

[١٠-٩] ويجرى السياق فى بيان أهداف البعثه.

□  
لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِى طَاعَتُهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ أَمْتَدَادٌ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

وَ تَعَزُّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تَسْبِيحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً وَ هُنَا اخْتَلَفَ الْمَفْسُرُونَ فِي تَحْدِيدِ الَّذِى تَعُودُ عَلَيْهِ ضِمَائِرُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ جَمَاعُهُ بِأَنَّهَا تَعُودُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى، وَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعُودَ عَلَى الرَّسُولِ، وَ قَدْ عَطَفَ عَلَيْهِمَا التَّسْبِيحُ الَّذِى هُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ عَزَّ وَ جَلَّ، وَ قَالَ آخَرُونَ بِأَنَّ الضَّمِيرِينَ فِي تَعَزُّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ يَعُودَانِ عَلَى الرَّسُولِ، وَ الْمَعْنَى تَنْصَرُونَهُ وَ تَعْظُمُونَهُ.

و ما يبدو لى هو أن نصر الله و تعظيمه يتحققان بنصر رسوله و رفع شأنه لأنهما جهه واحده، و ليس الرسول سوى وسيله الى الله، كما أن القبله بذاتها ليست هدفاً،

ص: ٣١٢

و إنما هي وسيله للعباده، و نجد هذا المعنى جلياً في كثير من الآيات القرآنيه، و من جملتها قوله تعالى: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً» (١) و حبل الله هو الرسول و الأئمه (عليهم السلام)، و لاختصاص العبوديه بالله نستطيع القول بأنّ الضمير في كلمتي «تعزروه و توقروه» يعود على الرسول، بينما يعود في كلمه «تسبحوه» على الله مباشرة، و في الآيه اللاحقه بيان و تأكيد لهذه الفكره، يقول تعالى:

□  
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ فَاَلْمُبَايَعَةَ لِلَّهِ، و لكنّها تمرّ عبر الرسول صلى الله عليه و آله، و غايتها إظهار الولاء التام للقياده، و التعهد بالاستمرار في خطّها، و لعلّ الكلمه مأخوذه من البيع فيكون معنى البيعه أن يبيع أفراد المجتمع المسلم أو التجمع الرسالي ما لديهم من طاقات و إمكانيات ماديّه و معنويّه لقيادتهم بإزاء رضوان الله، و ليس بالضرورة أن تتمّ البيعه بسلام الرجال على الرسول مصافحه، و وضع النساء أيديهنّ في الماء، كما تمّ عند البيعه للرسول أو للإمام على في الغدير، بل يمكن أن تتمّ عن طريق القسم الحركي، أو بالوكاله بأن يبايع الأفراد نائب القائد، أو حتى بالكتابه، لأنّ المهم إظهار الاستعداد للطاعه بحركه واضحه.

قال جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): بايعنا رسول الله تحت الشجره على الموت، و على أن لا نفر. (٢)

و كان الرسول صلى الله عليه و آله الذي يمثّل الله يضع يده على أيدي المؤمنين في البيعه، و قد أكد ربنا لنبيّه أنّه سيكون بالمرصاد لكلّ من تسوّّل له نفسه الخيانه.

□  
يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

ص: ٣١٣

١-١ (١) آل عمران ١٠٣ /

٢-٢ (٢) الزمخشري ج ٤ ص ٣٣٥

أى قوته وقدرته أعلى من كل أحد.

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ لَأَنَّهُ سَوْفَ يُضَعُ نَفْسَهُ فِي مَوْضِعِ الْمَحَارِبِ لِلَّهِ ذِي الْقُوَّةِ وَالطُّولِ، وَ لَنْ تَقْتَصِرَ خَسَارَتَهُ عَلَى الْآخِرَةِ وَ حَسَبٌ، بَلْ سَوْفَ يَخْسِرُ فِي الدَّارَيْنِ، وَ عَلَى عَكْسِهِ الَّذِي يَلْتَزِمُ بِالْعَهْدِ وَ يَتِمُّ الْبَيْعَةَ فَإِنَّهُ يَجْنِي السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [١١] مِنْ مَعْطِيَاتِ السَّيْرِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَ مِنْ تَجَلِّيَاتِ الْفَتْحِ الْمُبِينِ، كَشَفِ الْعُنَاصِرِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي الْأُمَّةِ، وَ حَيْثُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَ وَقَعَ هَؤُلَاءِ النَّاكِثِينَ، وَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَظْهَرُونَ لِلنَّبِيِّ مِنَ الْأَعْذَارِ وَ التَّبَرِيرَاتِ غَيْرِ الَّذِي يُضْمَرُونَ، بَيْنَ ذَلِكَ لِرَسُولِهِ، وَ لَكِي يَتَّخِذَ مِنْهُمْ مَوْقِفًا حَاسِمًا.

سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَعْفِرْنَا وَ هَلْ ذَلِكَ عَذْرٌ مَقْبُولَةٌ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْفِتْرِهِ الْحَاسِمَةِ مِنْ حَيَاةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟ بَلَى. إِنَّ هَؤُلَاءِ يَقْتَرِفُونَ الْأَخْطَاءَ ثُمَّ يَحَاوِلُونَ خِدَاعَ الْقِيَادَةِ وَ اسْتِرْضَاءَهَا بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَعْذَارِ الْوَاهِيَةِ لِتَسْتَرِ خَلْفِيَّاتِهِمْ، وَ هُمْ بِذَلِكَ يَرْتَكِبُونَ خَطَأً آخَرَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَكْثِهِمْ وَ هُوَ نِفَاقُهُمْ عِبْرَ تَبَرِيرَاتِهِمْ الْكَاذِبَةَ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْضَحُهُمْ، وَ يَبَيِّنُ لِرَسُولِهِ وَاقِعَهُمْ، وَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا صَادِقِينَ فِي تَوْبَتِهِمْ، بَلْ وَ لَا فِي أَعْذَارِهِمْ.

يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نِفَاقٍ وَ خِيَانَةٍ، وَ لَعَلَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَنْطَبِقُ أَكْثَرَ شَيْءٍ عَلَى تَظَاهَرِهِمْ بِالْإِنْدَمِ مِنْ

تخلفهم و رجائهم الرسول بأن يستغفر لهم.

بلى. إن التبريرات قد تدفع عن الإنسان جزاء آتيا من أمثاله من البشر، أما جزاء الله فلا، لأنه يغيب عنه شيء أو يمنع إرادته أحد.

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا يَلِكُ مَا كَانَ اللَّهُ بِهِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا هَكَذَا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَفْضَحَ الْمَنَافِقِينَ، وَيُعلن واقِعهم.

[١٢] يَلِكُ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَسْنَا نَمْلِكُ الرُّسُولَ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَيَّدًا مِمَّا أَثَارَ فِيهِمُ الظُّنُونُ وَ التَّصَوُّرَاتُ، الَّتِي انعَكَسَتْ عَلَى تَفْكِيرِهِمْ، وَ لَمْ يَكُنْ مَصْدَرُ ظَنِّهِمْ هَذَا الْعِلْمُ الْحَاصِلُ مِنْ تَقْيِيمِ الْحَوَادِثِ، إِنَّمَا كَانَ سَبَبَهُ الْخَوْفُ وَ الْجَبْنَ، فِي صُورِهِ ثِقَافِهِ سَلْبِيَّةً تَرْتَكِزُ عَلَى التَّبَرِيرِ.

وَ زُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ زَيْنٍ لَهُمُ التَّقَاعَسُ؟ إِبْلِيسُ وَ جُنُودُهُ مِنَ الَّذِينَ تَجَسَّدَتْ فِيهِمْ ثِقَافَتُهُ.

وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ رُبَّمَا يَعْنِي ذَلِكَ الْحَالَةَ السَّلْبِيَّةَ الَّتِي تَوَثَّرَ فِي التَّفْكِيرِ، وَ يَزِيغُ بِصَاحِبِهِ نَحْوَ الْأَفْكَارِ الْمُتَشَابِهَةِ.

وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا وَ هَكَذَا تَدْرَجُ أَوْلَئِكَ الْخَاسِرُونَ فِي دَرَكَاتِ السَّقُوطِ دَرَجَةً دَرَجَةً، فَزَيَّنَ



-أولاً- الشيطان أعمالهم السابقة في قلوبهم حتى رأوها حسنة، ثم دفعهم ظنّ السوء الى التقييم السلبي، و أخيراً هلكوا، و من هنا نعرف أنّ بدايات الانحراف قد لا تستثير الإنسان، و لكنّها خطيرة لأنّها تهوى بالبشر الى الهلاك المطلق.

[١٣] و قد اعتبر الله هذه الخطوه دليلاً على عدم الإيمان لدى هؤلاء، و توعدّهم بعذاب جهنّم جزاء لهذا الكفر فقال:

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا إِذْ نُرِيهِمُ الْنَّارَ وَأَعْدَاهَا، و يا ترى كم ستكون مؤذيه هذه النار التي سجّرها الله لغضبه بالنسبة للبشر الضعيف؟! دعنا نقرأ هنا روايه عن الرسول صلى الله عليه و آله لعلنا نخشى الله، و نجتنب المعصيه:

«إنّ جبرئيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه و آله عند الزوال في ساعه لم يأتها فيها و هو متغير اللون، و كان النبي صلى الله عليه و آله يسمع حسّه و جرسه فلم يسمعه يومئذ، فقال له النبي صلى الله عليه و آله: يا جبرئيل مالك جئتني في ساعه لم تكن تجتني فيها، و ارى لونك متغيراً، و كنت أسمع حسّك و جرسك فلم أسمعه؟! فقال: إنّني جئت حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار، فقال النبي صلى الله عليه و آله: أخبرني عن النار يا جبرئيل حين خلقها الله تعالى؟ فقال: إنّ سبحانه أوقد عليها ألف عام فاحمّرت، ثم أوقد عليها ألف عام فابيضّت، ثم أوقت عليها ألف عام فاسودّت، فهي سوداء مظلمه، لا يضىء جمرها، و لا ينطفئ لهبها، و الذي بعثك بالحقّ نبياً لو أنّ مثل خرق إبره خرج منها على أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم، و لو أنّ رجلاً دخل جهنّم ثم أخرج منها لهلك أهل الأرض جميعاً حين ينظرون إليه، لما يرون به، و لو أنّ ذراعاً من السلسله التي ذكره الله تعالى في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن آخرها، و لو أنّ بعض خزّان جهنّم التسعه عشر نظر إليه أهل الأرض

لماتوا حين ينظرون إليه، ولو أن ثوبا من ثياب أهل جهنم أخرج إلى الأرض لمات أهل الأرض من تنن ريحه، فأكبّ النبي صلى الله عليه وآله وأطرق يبكي وكذلك جبرئيل، فلم يزالا يبكيان حتى ناداهما ملك من السماء: يا جبرئيل ويا محمد إن الله قد آمنكما من أن تعصياه فيعذبكما» (١) [١٤] أو لكي لا يستبد بنا اليأس عند الحديث عن النار و عذابها، يؤكد لنا الله رحمته الواسعة و غفرانه للذنوب.

وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً وَ قَدْ حَكَى أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ لَمَّا سَمِعَ كَلِمَةَ أَفْلَاطُونِ: (إِذَا كَانَتِ السَّمَاءُ قَوْسًا، وَ الْبَلَاءُ سَهْمًا، وَ الرَّامِي هُوَ اللَّهُ فَأَيْنَ الْمَفْرُ؟) نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ:

«فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ» (٢) بلى. إِنَّ الْفِرَارَ مُمْكِنٌ، وَ لَكِن كَيْفَ نَفَرْنَا؟ نَفَرْنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ إِلَى رِضَاةِ، وَ مِنْ سَخَطِهِ إِلَى عَفْوِهِ، وَ رَبَّنَا بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ يَقْبَلُ فِرَارَ الْعَبْدِ إِلَيْهِ، وَ لَكِن بِشَرَطِ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ وَ يَتُوبَ إِلَيْهِ صَادِقًا.

وَ هُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَعَلَ اللَّهُ نَهَائِتَهَا «غَفُوراً رَحِيماً» مَعَ أَنَّهُ قَالَ: «يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» وَ ذَلِكَ تَأْكِيداً لِرَحْمَتِهِ وَ رَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَ طَرْدًا لِلْيَأْسِ مِنْ نَفْسِنَا.

ص: ٣١٧

١-١) بح/ج ٨ ص ٣٠٥

٢-٢) الذاريات ٥٠/

إشارة

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَيُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسِينًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَىٰ الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَىٰ الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَىٰ الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَآخَرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)

اللغة

(١٥) ذَرُونَا: دعونا.



هدى من الآيات:

لقد وفرّ الفتح المبين (صلح الحديبيه) للمسلمين حاله من السلام، التي تساعدهم على الانتشار و إعداد أنفسهم للمواجهه الحاسمه مع أعدائهم على الصعيد الخارجى، كما أنه على صعيد الجبهه الداخليه كشف عن حقيقه المنتمين إليهم مما ساهم فى تصفيه العناصر الضعيفه و تمتين الجبهه الداخليه.

بلى. إذا كان هؤلاء يريدون العوده الى صفّ المؤمنين و القيادة الرساليه لا بد أن يتوبوا توبه صادقه، و هنالك تسعهم رحمه الله، و تستوعبهم صفوف المؤمنين، و تقبلهم القيادة، و لكن بشرط أن يبرهنوا عملياً على صدقهم عبر الوقوف مع المؤمنين فى الشدائد الحاسمه.

و نستفيد من هذا الحكم الالهى حكمه بالغه فى معامله هذه النوعيه من الأفراد، و هى أن لا تقبلهم القيادة الرساليه بعد ما تخلفوا عن تجمّعها و أوامرها فى الشده، إلّا

إذا أظهروا توبتهم، ووطنوا أنفسهم على خوض الجهاد تحت رايتها، لأن قبول هذه النوعية من دون امتحان عسير يثبت صدقها قد يكلف الحركة الرسالية الكثير، لو أنهم عادوا لطبيعتهم الانهزامية وانشقوا وشقوا عصا الطاعة في موقف خطير أو مهمته حاسمه يكلف التمرد فيهما أضعاف ما يكلفه التمرد في الظروف العادية.

### بينات من الآيات:

[١٥] سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا □ وقد تمردوا من قبل على أمر القيادة، و تخلفوا عن المسير معكم، لا لأنهم اكتشفوا خطأ في خط رساله، بل لأنهم التحقوا به التحاقا مصلحتيا، و حيث ظنوا -مجرد ظن- بأن المسير الى مكه يعنى الابداه، فهو خال من المصالح، نكصوا على أعقابهم، أما الآن و المسلمون يسرون الى فتح مؤكّد في نظرهم -و هو غزوه حنين حسب بعض التفاسير- فإنهم يحاولون بكلّ طريق العوده الى صفوف الجيش الاسلامي، و لكن ليس من باب التوبه و إنما المصلحه.

دَرُونَا نَتَّبِعُكُمْ □ و قد حذرهم الله من عواقب التخلف عن نصره رسوله صلى الله عليه و آله، و أنه سوف يعذبهم، و يمحو أسماءهم من قائمه المقاتلين المؤمنين، لأن المقاتل المؤمن هو الذى يتبع أوامر قيادته فى كل مكان و أى زمان، و حيث نكصوا جزاهم الله بذلك، و هم الآن يسعون لتبديل ما حكم الله به.

يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ □ □ لكن هذا الحكم الشرعى ثابت لا يتغير، و هو أن من يتمرد على القيادة الرسالية فى الظروف الصعبة ينبغى أن يطرد من صفوف المقاتلين.

قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ أَنْ لَا نَقْبَلَكُمْ مِنْ دُونِ شَرْطٍ وَ قِيدٍ .

كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ وَ هَذَا جَزَاؤُكُمْ الطَّبِيعِي .

و لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مَجْبُولُونَ عَلَى التَّبْرِيرِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَعْتَرِفُوا بِوَأَقْعِهِمْ، وَ إِنَّمَا سَيَحَاوِلُونَ التَّسْتَرَّ بِأَعْذَارٍ لَا تَنْفَعُ، شَبِيهَهُ بِتَلْكَ الَّتِي بَرَّروا بِهَا تَخْلَفُهُمْ عَنِ الْمَسِيرِ وَ الْقِتَالِ مِنْ قَبْلِ .

فَسَيَقُولُونَ وَ هُمْ يَتَهَمُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْقِيَادَةَ الرَّسَالِيَةَ الَّتِي تَجَسَّدَتْ يَوْمَئِذٍ فِي الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ .

بَلْ تَحْسُدُونَنَا وَ بِالتَّالِيِ فَإِنَّكُمْ تَرِيدُونَ مِنْ رَفْضِ انْتِمَائِنَا إِلَيْكُمْ التَّفَرُّدَ بِالمَكَّاسِبِ، وَ فِي مَقَابِلِ هَذِهِ التَّهْمَةِ يَأْتِي الرَّدُّ الِالَهِيَّ الحَاسِمَ بِأَنَّهُمْ غَارِقُونَ فِي الجَهْلِ .

بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَانِ:

الأمر الأول: وَ قد عَالَجَتْهُ الآيَةُ فِي مَطْلَعِهَا، وَ هُوَ جَهْلٌ هَؤُلَاءِ بِأَنَّ الْإِنْتِهَازِيَّ الَّذِي يَتْرَكَ جَمَاعَتَهُ فِي سَاعَةِ الْحَرْجِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَسِبَ مِنْهُمْ فِي الرِّخَاءِ كَأَمْرٍ وَاقْعِي، وَ بِالذَّاتِ فِي المَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَعَدُّ ذَلِكَ مِنْ صَمِيمِ عَادَاتِهِ وَ تَقَالِيدِهِ

فمن كان يتخلى عن عشيرته عند الشده كانوا ينبذونه نبذا تامياً، و يحزّمون عليه حتى الزواج منهم! إذن فمن السداجه القول بأنّ (الصلاه خلف علىّ أتم، و الأكل مع معاويه أدم، و الوقوف على التلّ أسلم)، و لا يمكن أن يسمّى من هذا شعاره موحّداً أو منتميا الى الإسلام انتماء صحيحاً، إنّما هو لقيط، و ينبغى للمؤمنين رفض انتمائه إليهم.

و قد يشير الى هذا الأمر خاتمه الآيه التى نحن بصدد تفسيرها، حيث تؤكّد بأنّ المخلفين ساذجون لا يستطيعون سييلا الى فهم الحقائق.

الأمر الثانى: الذى يدلّ على جهلهم أنّهم ينسبون الحسد الى شخص الرسول صلى الله عليه و آله مع اعتقادهم بأنّه مرسل من الله عزّ و جل، و هل الرسول يذنب أو يتمحور حول نفسه حتى يسعى وراء المغانم؟! و إذا افترضنا أنّهم لا يؤمنون به رسولا من الله، و لا- قائداً حقيقياً، فلما ذا يتبعونه، و يريدون القتال تحت لوائه؟! و لعلّ تفسير خاتمه الآيه أنّ هؤلاء لا- حظّ لهم من الوعى إلاّ القليل، لأنّهم أضلّوا الطريق العام فلا- تنفعهم معرفتهم ببعض الطرق الفرعيه، ذلك لأنّ محور حقائق العلم هو معرفه الله، و سننه الحق، و بصائر رسالاته، فإذا أخطئوا المحور فلا جرم أنّهم يتيهون فى الضلالات.

و ماذا ينفع العلم بكافه الحقول العلميه إذا كان الخط العام لحياه الإنسان خاطئاً؟ أ رأيت كيف يوجّه المستكبرون كلّ علمائهم فيما يبعدهم عن الله، و يسبّب هلاكهم و هلاك العالم؟



فمجمال أفكارهم خاطئه، وبتعبير آخر أنّ القله هنا نوعيه لا كمّيه.

[١٦] و مع أنّ الله يفشل كلّ محاولاتهم لتبرير تخلفهم أولاً ثم عودتهم الى صفوف المسلمين فإنّه يفتح أمامهم طريقاً للتوبه، و الطريق الواسع الى رحاب التوبه بالانتماء الحقيقى، إذ ليس صعباً أن ينتمى الشخص الى صفّ الرساليين ظاهراً، و إنّما الصعب أن يكون انتماءؤه انتماء حقيقياً تكشف عنه استقامته فى الظروف الصعبه.

و حيث مرّ هؤلاء بتجربه عمليه كشفت للقياده الرساليه و المؤمنين ضعف انتمائهم، فهم بحاجة إذن الى تجربه أخرى تثبت صدق توبتهم، و لا- شك أنّ الذى يتوب عن صدق سوف يقبل بما يشترط عليه ليكون دليلاً لتوبته، يحدوه الى ذلك خوفه من الله، و إحساسه بضروره التكفير عن ذنبه، و لذلك أمر الله رسوله أن يلزم التائبين من المخلفين بشرط الثبات فى المواقف المستقبلية، و لعلّه عبر فى مطلع الآيه بكلمه «قل» لبيان أنّ الشرط إنّما هو من عند الله عزّ و جل، و ليس من لدن الرسول صلى الله عليه و آله حتى يمنع بذلك أى محاوله أخرى للاعتراض أو التبرير.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَيَّ قَوْمٌ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ و الاحتمال الأقوى أنّهم يختارون الحرب و لو فى بادئ الأمر، على الأقل تقه بالنصر على المسلمين و اعتماداً على قوتهم الظاهريه، إذن فالابتلاء عظيم، و الامتحان عسير، يحتاج فيه هؤلاء عزم راسخ و إراده قويه لكى يثبتوا صدق توبتهم، و بالتالى تقبلهم القياده الرساليه فى تجمّعها، و لا يخوض غمار هذا الابتلاء إلا الصادقون، أمّا الانتهازيون و المصلحيون فإنّهم لن يجازفوا بأنفسهم.

و بالرغم من أن القرآن يشجّع المؤمنين فى الأغلب على الحرب يبعث الأمل بالنصر فى أنفسهم، إلا أنه هذه المره يصف العدو بالشده لأنه يتناسب مع هدف هذه الآيه و القضيّه التى جاءت بصددّها و هو امتحان المخلفين ليثبتوا جدارتهم للانتماء الى صفّ المؤمنين، بعد أن فقدوها بالانهزام السابق.

و قد اختلف المفسرون فى تحديد المعركه التى تشير إليها هذه الآيه الكريمة، فقال بعضهم: إنها حرب المسلمين مع الروم، و قال جماعه: إنها حرب المسلمين مع المرتدين بعد الرسول صلى الله عليه و آله، و قال آخرون: إنها الحرب التى دارت رحاها على الفرس، و قيل أنها الحرب مع هوازن و ثقيف بعد فتح مكه، و لعلّ هذا المحمل هو الأقرب الى جوّ الآيات و إيحاءاتها التى تفيد الحديث عن عصر الرسول لا بعده، حيث أن غزوه حنين كانت أعظم الغزوات بعد صلح الحديبيه ثم فتح مكه.

و رغبهم فى قبول هذا الشرط بالترغيب فى ثواب الله و عطائه، و ما يترتب على ذلك من قبول لتوبتهم، ثم حذّروهم من عواقب الرفض لأمر الله الذى يستتبع العذاب و الخساره.

فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مَن قَبْلُ لَمَّا دَعَاكُمُ الرَّسُولَ إِلَى الْمَسِيرِ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ صَلْحِ الْحَدِيثِ، فَجَبْتُمْ بِسَبَبِ سَوْءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَقَدَّمْتُمُ الْمَعَاذِيرَ الْوَاهِيَةَ.

يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [١٧] و بمناسبة الحديث عن الأعذار التى كان يسوقها المتخلفون يبيّن السياق الأعذار المشروعه التى تسقط القتال عن المؤمن، لكى تتوضّح و لا يتشبّث المتقاعسون بكلّ عذر تافه للتخلّص عن مسئوليّه القتال.

لَيْسَ عَلَى الْمَأْغَمِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَ هَذِهِ مِنْ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَ نَظَرَتِهِ الْمَتَوَازِنَةَ لِلْأُمُورِ أَنَّهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَشَدُّ عَلَى مَوْضِعِ الْقِتَالِ لَا- يَغْفَلُ عَنْ بَيَانِ الْأَعْذَارِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي يَعْذُرُ فِي إِطَارِهَا الْمُتَخَلِّفُونَ، ثُمَّ يَجْعَلُ الْحَدَّ الْفَاصِلَ فِي إِفْرَارِ هَذِهِ الْأَعْذَارِ أَوْ رَفْضِهَا رَأْيَ الْقَائِدِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَحَدِّدُ مَتَى تَكُونُ هَذِهِ الْأَعْذَارُ الْآنْفَهُ الذِّكْرُ مَقْبُولُهُ كَمَا نَعَى عَنِ الْقِتَالِ، فَمَنْ يَحَدِّدُ -مِثْلًا- أَنَّ الْأَعْمَشَ يَلْحَقُ بِالْأَعْمَى، وَ مَا دَرَجَةُ ضَعْفِ الْعَيْنِ الَّذِي يَسْقُطُ بِمَوْجِبِهِ الْجِهَادُ عَنْ صَاحِبِهِ، وَ مَا دَرَجَةُ الْعَرَجِ، وَ هَلْ أَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي لَا- يَمْنَعُ عَنِ الْقِتَالِ -كَمَرَضِ السَّكْرَى- يَعْتَبَرُ عْذْرًا؟ ثُمَّ أَنَّ هُنَاكَ أَعْذَارًا حَقِيقِيَّةً لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا النَّصُّ، مِثْلُ شَلْلِ الْيَدَيْنِ، وَ الْبَدَنِ الْمَفْرُطِ، وَ السَّفَهِ..، وَ لَعَلَّهُ لِذَلِكَ أَكَّدَ رَبَّنَا بَعْدَ ذِكْرِ الْأَعْذَارِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْقِيَادَةِ، فَقَالَ:

وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ إِذْ يَعِدُ اللَّهُ الطَّائِعِينَ لَهُ وَ لِرَسُولِهِ بِهَذَا الْجَزَاءِ، وَ يَشِيرُ فِي عِلَاجِهِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ إِلَى مَوْضِعِ الْآخِرَةِ، فَلِأَنَّ الْعَامِلَ الْأَسَاسِيَّ الَّذِي يَدْفَعُ الْإِنْسَانَ لِلْفِرَارِ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، أَوْ لِلتَّمَرُّدِ عَلَى أَمْرٍ الْقِيَادَةِ الرَّسَالِيَّةِ بِشَكْلِ عَامٍ، هُوَ التَّشَبُّهُ بِحَطَامِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ، وَ هَكَذَا يَخْلُقُ التَّذَكُّرَ بِالْآخِرَةِ مَعَادِلَهُ فِي ضَمِيرِ الْإِنْسَانِ وَ عَقْلَهُ بَيْنَ نَتَائِجِ الْهَزِيمَةِ السَّلْبِيَّةِ، وَ مَعْطِيَّاتِ الثَّبَاتِ وَ الطَّاعَةِ الْإِيجَابِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَ تَأْتِي فِي الْبَيْنِ خَاتَمَةُ الْآيَةِ لِتَرْجِعَ فِرَارَ الطَّاعَةِ وَ الثَّبَاتِ عَلَى فِرَارِ الْهَزِيمَةِ بِإِتَارِهِ عَامِلَ الْخَوْفِ وَ الرَّهْبَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ.

وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا

والتوكل هو الفرار من الزحف و الجهاد فى سبيل الله، الأمر الذى يستوجب العذاب الأليم.

[١٨-١٩] لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَمَا هَدَفَ الْعَهْدَ مَعَ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسْتَمِطِرُ رِضَاهُ وَ ثَوَابَهُ، فَقَدْ وَسَّعَتْ مَرْضَاتُ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى الْمَوْتِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُبْرَمَ الصَّلْحُ، فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ عَزَمَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَرْبِ وَ الْإِسْتِقَامَةِ قَبْلُوا بِالصَّلْحِ.

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ يَقْبَلُ بَيْعَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ كُلَّهَا. أَلَيْسَتْ الْحَسَنَاتُ يَذْهَبُنَ السَّيِّئَاتُ؟ بَلَى. إِنَّ الْمَوْقِفَ الْبَطُولَى يَسُوى عِنْدَ اللَّهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، وَ يَرْجِحُ فِى مِيزَانِهِ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ، وَ لَعَلَّهُ لَذَلِكَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ ذَنْبِهِ.

و لقد كانت بيعه المؤمنين للرسول تحت الشجره دليلا أكيدا على عمق إيمانهم بالرساله، و لو لم يكونوا مؤمنين بمعنى الكلمه لما بايعوا الرسول صلى الله عليه و آله و هم يعلمون أنّ المواجهه بينهم و بين المشركين لو حصلت تعنى حسب المقاييس الظاهره إبادتهم من الوجود، و من هذا المنطلق كانت البيعه فارقا بين المنافقين و ضعاف الايمان و بين المؤمنين الصادقين، و هى كما كشفت فريق المخلفين ميّزت المؤمنين و أفرزتهم، و هكذا تنفع المواقف الحرجه الحركه الرساليه فى الكشف عن هويه أفرادها و نقاط القوه و الضعف فيهم.

فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَ صِدْقِ الْإِيمَانِ وَ عَمُومِ مُؤَهَّلَاتِ النَّصْرِ الْإِلَهِيِّ.

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا \* وَ مَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَقَدْ تَجَسَّدَ ذَلِكَ الْفَتْحُ فِي الْإِنْتِصَارَاتِ وَالْمَغَانِمِ الَّتِي صَارَ إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَعْرَكَةِ خَيْبَرَ وَفَتْحِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَخْسِرُونَ الْكَثِيرَ، وَتَفَوَّتَهُمْ هَذِهِ الْإِنْتِصَارَاتُ لَوْ كَانَ قَرَارُهُمُ الْإِنْهَازَ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ وَاضِحَةٌ فِي تَارِيخِ الْأُمَّمِ وَالْحَرَكَاتِ، فَهِيَ عِنْدَ مَا تَتَمَسَّكُ بِمَبَادئِهَا وَأَهْدَافِهَا، وَتَسْتَقِيمُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ رَغْمَ الْمَصَاعِبِ وَالتَّضَحِيَّاتِ، تَصِلُ إِلَى مَا تَرِيدُ بِتَضَحِيَّاتٍ أَقْلٍ، بَيْنَمَا تَقْصُرُ عَلَى غَايَاتِهَا، وَتَعِيشُ الذَّلَّ وَالْهُوَانَ، حِينَمَا تَنْقَلِبُ عَلَى أَعْقَابِهَا، وَتُدْفَعُ إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ أَضْعَافًا مَضَاعِفَهُ مِنَ الْخَسَائِرِ ضَرِيْبَهُ لِلْهَزِيمَةِ.

وَمِنْ خِلَالِ الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمَةِ يَتَضَحَّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَصَلُوا لِلْمَكَاسِبِ التَّالِيَةِ نَتِيجَةً لِثَبَاتِهِمْ عَلَى الْعَهْدِ:

١- تَثْبِيْتُ الْإِيْمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ وَزِيَادَتِهِ.

٢- الْفَتْحُ الْعَسْكَرِيُّ الْقَرِيبَ إِضَافَةً إِلَى الْفَتْحِ السِّيَاسِيِّ الْمَتَمَثِّلِ فِي صَلْحِ الْحَدِيبِيِّهِ.

٣- الْمَغَانِمُ الْكَثِيرَةُ مَعْنَوِيَّةٌ وَسِيَاسِيَّةٌ وَاِقْتِصَادِيَّةٌ.

[٢٠] وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَ بِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَكَانَ عَجَلٌ لَهُمْ أَمْرِينَ:

الأوَّلُ: الْمَغَانِمُ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ إِثْرَ الصَّلْحِ، كَدُخُولِ أَفْوَاجٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينِ، وَتَخَالَفِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ مَعَ الرَّسُولِ، وَحُصُولِ حَالِهِ مِنَ الْأَمْنِ تَمَكُّنَهُ مِنْ بِنَاءِ حَرَكَتِهِ وَإِعْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُوَاجَهَةِ الْحَاسِمَةِ، أَمَّا مَا حَصَلُوا عَلَيْهِ بَعْدَ

فتح مكة عسكريًا فهو كثير أيضًا، والذى من أعظمه و أبرزه القضاء على السلطة المنحرفة فيها، و دخول الناس أفواجا في دين الله، ممّا جاء تفصيله و بيانه في سورة النصر.

الثانى: دفع أذى المشركين و الكفار عن المؤمنين بصلح الحديبيه، إذ لو كانت المواجهه تحدث يوم ذاك بين المؤمنين بأعدادهم و عدّتهم القليله من جهه، و المشركين بأعدادهم و عددهم الكثيره من جهه أخرى، لكانوا يبادون و تنطفئ شعله الإسلام.

فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى رضى الله عنهم، و نصره لعباده الذين ينصرونه و يطيعون أولياءه، فينبغى للمؤمنين أن يدرسوا هذه الآيات، و يتدبروا في هذه الحادثه التاريخيه، ليستفيدوا عبره هامه و هى ضروره الطاعه للقياده فى السلم و فى الحرب، و عدم اتباع الآراء الشخصيه و العواطف المثاره، لأنّ الطاعه للقياده الرساليه هى الطريق الى الهدايه الحقيقه.

وَ يَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [٢١] قبل النصر تجتاح الأمه فتنه الشك فى وعد الله، أما بعده فإنهم يتعرّضون للغرور و الاعتقاد بأن قوتهم الذاتيه كانت سبب الفتح، مما يدفعهم للاستهانه بالقيم الحق التي هيأت ظروف النصر عند التمسك بها، و لعلّه لذلك أكد ربّنا هنا - و بعد بيان مكاسب صلح الحديبيه - على المكاسب التي لم يقدر على تحقيقها المؤمنون إلا بتوفيق، و من توفيقه الوحي الالهى و القياده الربانيه، و إذا اتبع المجاهدون السبل الأخرى الملتويه فسوف تؤكّد الهزيمه فى واقعهم، مهما كان ظاهر

الأمر يوحى بخلاف ذلك، و من يرد نصر الله و رحمته يجب أن يعطيه و يلتزم بأمره.

وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا فَهُوَ مُحِيطٌ عِلْمًا وَ قَدْرُهُ بِالْمَكَاسِبِ الْآخِرَى الَّتِي تَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَ الَّتِي تَغِيبُ عَنِ وَعْيِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ رُبَّمَا كَانُوا لَا يَصَدِّقُونَ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَبْلُغُونَهَا لَوْ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ، نَظَرًا لِكُونِهَا مَكَاسِبٌ كَبِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَدْرَاتِهِمْ وَ إِمكَانَاتِهِمْ، فَهَلْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَوْ يَصَدِّقُونَ بِالْمَكَاسِبِ الَّتِي حَصَلُوا عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدَ مِنْ بِلَاطِ كَسْرِي وَ قَيْصَرٍ؟ كَلَّا..

و هي كلها من معطيات صلح الحديبيه لو درسنا التاريخ دراسه واقعيه معمقه، فانتصار الرسول على يهود خيبر و فتحه لمكه المكرمه عسكريا، الأمر الذي كان يعنى سيطرته التامه على شبه الجزيره العربيه بكاملها، كل ذلك كان من مكاسب الصلح، و هذه الانتصارات بدورها وحدثت القوى آنذاك كلها تحت رايه الإسلام، فإذا بالمسلمين قوه ضاربه تنطلق شرقا لتفتح بلاد فارس، و غربا و شمالا لتنتهى الى سلطان الروم، و تبنى على انقاضها حضاره الإسلام.

و لم يكن أحد من المؤمنين -إلا- من شاء الله -يتوقع النجاه من يد مشركى مكه حينما دعاهم الرسول للبيعه، بل كان كثير منهم فريسه للشك في الدين، و التخلف عن أوامر القياده الرساليه، فكيف بهم يدركون تلك المكاسب العظيمه أو يؤمنون بها؟ إن المؤمنين كانوا يخسرون هذه المكاسب لو اتبعوا أهواءهم و آرائهم الشخصيه القاصره فتخاذلوا عن نصره الرسول و البيعه له يومئذ، لذلك ينبغى لنا في كل مكان و زمان أن نتبع الوحي الالهى، و نسعى في تطبيقه، لا أن نتبع أهواءنا و تصوراتنا البشريه المحدوده.

إشاره

وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّهَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاللَّهُدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُنْصَحَ بِيَكُمُ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلَزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلِهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَهُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَاجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَ عِدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

اللغة

(٢٥) الْهُدَى: الْإِبِلُ الَّتِي سَاقَهَا الْمُسْلِمُونَ لِعَمْرَتِهِمْ.

مَعَكُوفًا: مَنْ عَكَفَ إِذَا حَبَسَ لِأَنَّ الْإِبِلَ كَانَتْ مَحْبُوسًا عَلَى الْهُدَى لِيُنْحَرَ بَعْدَ قِضَاءِ عَمْرِهِ، فَقَدْ مَنَعَ الْمَشْرُوكُونَ أَنْ يَبْلُغَ الْهُدَى مَحَلَّهُ، أَيْ الْمَكَانَ الَّذِي يُنْحَرُ فِيهِ بِمَكَّةَ.

مَعْرَةٌ: أَيْ مَكْرُوهٌ.



لَوْ تَزَيَّلُوا: تَفَرَّقُوا وَتَمَيَّزَ الْمُسْلِمُ عَنِ الْكَافِرِ فِي مَكَّةَ.

ص: ٣٣٢

(٢٩) شَطَأُهُ: فراخه.

فَأَزَرَهُ: فقوّاه و شدّه و أعانه.

سُوقِهِ: جمع ساق و هو القصب و الأصل.

ص: ٣٣٣

**هدى من الآيات:**

لأنه قد جرى في البدء جدل بين المسلمين حول صلح الحديبيه، نجد السياق القرآنى هنا يؤكد على المكاسب الكبيره التى جناها المسلمون من وراء هذا الصلح المبارك، ليؤكد على سلامه النهج الرسالى، و ضروره الطاعه أبدا للقياده الربانيه، كما تذكر الآيات بهذه المناسبه بطائفه من الحقائق التى غابت عن الأذهان، و التى تتصل بهذا الأمر اتصالا مباشرا.

الأولى: إن الحرب ليست هدفا بذاتها، وإنما هى وسيله الى هدف لو حققناه من دونها يكون الأمر أفضل، بل لا يصح آتئذ إثارته أبدا.

الثانيه: إن وصول المسلمين الى أهدافهم من دون الحرب ليس إلا دليلا على تأييد الله لهم، لأنه يصعب الوصول الى مثل هذه الأهداف من دون التضحيات الباهظه.

الثالثة: لو أنّ المشركين أشعلوا فتيل الحرب مع المسلمين بطن مكة لانتصر المسلمون عليهم بإذن الله، وهذه سنّه إلهيه سابقه و دائمه لا يمكن أن تبدّل، ولكنّ عدم حدوث الحرب ليس في صالح المشركين و حسب، باعتبارهم كانوا يهزمون لو بدأوها، و إنّما هي في صالح المسلمين أيضا.

الرابعة: لو أنّ الحرب وقعت بين المشركين و المسلمين يومذاك ربما لم يكونوا يستطيعون النفاذ الى قلوب المشركين و بذلك القدر من الأثر العميق، بل ربما ازداد المشركون تعنّتا و رفضا، و بالذات كانت لدى قريش و من لفّ لفّها مشكله نفسيه، تتمثّل في الحميّه الجاهليه التي أوغرت قلوبهم ضد المسلمين، فلو كان المسلمون يدخلون في نفق العصبية، فبدل أن يقيموا الأحداث و الواقع تقييما موضوعيّا يأخذ بعين الاعتبار المصلحه الرساليه، يتبعون ردّات الفعل و العواطف المستثاره، و يصرّون على عدم الرجوع بدون الطواف حول الكعبه و النحر و تقديم الهدى ..

و.. كما أراد ذلك قسم من المسلمين، لتساووا في العصبية مع كفّار قريش و مشركيها.

و من هذه الفكره نستفيد عبره هامه، و هي ضروره أن يدرس المؤمنون القضايا و المواقف المختلفه دراسه رساليه، نابعه من نهج موضوعي، هدفه مصالح الإسلام، و ليس إرضاء نزواتهم و عواطفهم.

ثم إنّ القرآن يسوق الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و الذين حوله من المؤمنين، و كيف أنّ شخصيتهم الايمانيه ذات بعدين، فظاھرھا العذاب و الحدّه على أعداء الله، و باطنها الرحمه و اللّطف برفاق المسيره الواحده، و في الضمن يتبھنا إلى فكره هامه، و هي أنّ أصحاب الرسول ليسوا مبرّأون من الأخطاء، و ليسوا حجج الله على الناس، و إنّما الرسول وحده الحجه أو من نصّبه الله لذلك. و كيف يكون حجه

مطلقه من أمكن خطأه؟ نعم. المؤمن - كل مؤمن - حجه على الآخرين فيما يصح من أعماله و صفاته، و لذلك فإن مغفره الله و أجره لا يشملان كل الذين صحبوا النبي صلى الله عليه و آله، و إنما يختص بهما المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا الصحبه، و استقاموا على الحق إلى الأخير.

### بينات من الآيات:

[٢٢] بالرغم من قوه قريش و حلفائها التى تفوق فى ظاهرها قوه المسلمين، و بالرغم من اعتقادهم - و ربما اعتقاد كثير من المسلمين - بأن الحرب بين الطرفين تعنى غلبتهم على حزب الله، يؤكد ربنا لرسوله و للمؤمنين أن الحرب لو دارت رحاها لانتصروا عليهم، و لهزموهم شر هزيمة.

وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ فِرَارًا مِنَ الْمَوَاجِهَةِ، دُونَ أَنْ تَجْرَأَ قَوَى الْحَلْفَاءِ كَثِيفٍ وَ هَوَازِنَ عَلَى إِسْنَادِ قَرِيشٍ، لِأَنَّهَا هِيَ الْأُخْرَى سَوْفَ يَدْخُلُهَا الرَّعْبُ مِمَّا يَسْلُبُهَا شَجَاعُهُ اتِّخَاذَ قَرَارِ الدِّعْمِ وَ النُّصْرَةِ.

ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَّلِيًّا وَلَا نَصِيرًا إِنَّ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِقِيَادِهِ قَرِيشٌ، وَ يَسْلَمُونَ لَوْلَايَتِهَا عَلَيْهِمْ، سَوْفَ تَتَبَدَّلُ قِنَاعَاتِهِمْ فِيهَا، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا صَارُوا إِلَى ذَلِكَ ثِقَةً فِي قَوَّتِهَا وَ قَدْرَتِهَا، وَ قَدْ هَزَمَتْ فِيهِ إِذْنٌ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تَتَوَلَّاهُمْ.. ثُمَّ لِنَفْتَرِضَ أَنَّهُمْ تَدَخَّلُوا لِصَالِحِهَا فِي الْحَرْبِ، فَهَلْ ذَلِكَ يَبْدُلُ هَزِيمَتَهُمْ إِلَى نَصْرٍ؟ كَلَّا.. وَ مَا هِيَ قَوَّتُهُمْ أَمَامَ إِرَادَةِ اللَّهِ؟ [٢٣] ثُمَّ لِيَعْلَمَ هَؤُلَاءِ وَ أَشْبَاهَهُمْ عِبْرَ الزَّمَنِ أَنَّ انْتِصَارَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ ثَابِتَةٌ تَحْكُمُ الْحَيَاةَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ قَدْ عَجَزَ أَسْلَافُهُمُ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْهُمْ عَنِ

تغيير هذه السنه، فكيف بهم؟ وهب أنهم أقوى من الغابرين، أو جاء في التاريخ من هو أقوى من أولئك، فهل يغلب الله على أمره؟ سُنَّهَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللّٰهِ تَبْدِيلًا أَوْ لَمْ يَنْتَصِرْ نوح على كل الكافرين في الأرض؟ أو لم ينتصر طالوت بفتته القليله من المؤمنين على الكافرين في عصره؟ أو لم يقل الله: «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِيهَا كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ مَعَ الصّٰبِرِينَ» (١)؟ [٢٤] إن الانتصار القياسى الذى بلغه المسلمون فى صلح الحديبيه لم يكن بدهاء منهم، أو بأن قريشا رحمتهم فكفت أذاها عنهم، وإنما الله هو الذى صير الأمور إلى هذه النتيجة، «وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ» (٢)، بلى. لقد بلغ المسلمون هذه المكاسب السياسيه و المعنويه من دون أدنى خساره عسكريه، و الحال أن الوصول إلى ذلك محال بالطرق الطبيعیه، و لو تحققت لاقتضى الأمر تضحيات عظيمه.

وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ فَمَنْ نَاحِيَهُ مِنَ اللّٰهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْخِلَاصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ صَلْحِ الحديبيه، و من نَاحِيَهُ أُخْرَى مِنَ اللّٰهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ حِينَ عَفَى عَنْهُمْ الرَسُولُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بَعْدَ الْفَتْحِ.

بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَ كُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا

ص: ٣٣٧

١-١ (١) البقره/ (٢٤٩).

٢-٢ (٢) الفتح/ (٢٠).

و مع ورود هذه الآيه فى سياق الحديث عن صلح الحديبيه إلا أنها تشير كما يبدو إلى فتح المسلمين عسكرياً لمكّه المكرمه.

[٢٥] و لكن لماذا كف الله أيدي المؤمنين عن المشركين، و لم يأمرهم بقتالهم؟ هل لأنهم طيبون؟ أو لأنّ لهم فضلا و سابقه حسنه معهم؟ بالطبع كلا.. و تشهد على ذلك عقائدهم المنحرفه و أعمالهم السيئه تجاه أتباع الرساله.

هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّواكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ لَقَدْ مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حِجِّ بَيْتِ اللَّهِ بِالرَّغْمِ مِنْ تَهْيِئَتِهِمْ لِلتَّامِّ لِذَلِكَ، وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أْبْشَعِ الْجَرَائِمِ فِي عَرَفِ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ، لَقَدْ فَضَحَ ذَلِكَ قَرِيْشًا الَّتِي كَانَتْ تَفْتَخِرُ عَلَى سَائِرِ الْعَرَبِ بِأَنَّهَا حَامِيَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَ حَافِظَةُ حَرَمِهِ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ.

ماذا بقيت لقريش من شرعيه سياده على العرب بعد أن منعت الحجاج و صدّتهم عن إقامة الشعائر التي كانت العرب تقدّسها؟ هكذا كشف النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) عن زيف ادعاءات قريش، و أسقطها سياسياً عن كرسى سياده العرب تمهيدا لا سقاطها عسكرياً فيما بعد.

ثم إنّ جريمه قريش كانت كبيره، إذ كيف يمنع المشرفون على البيت، و المدّعون خدمه الوافدين عليه الناس من ممارسه شعائرهم؟! أو لا يستحق هؤلاء القتل و العذاب بعد ظفر المسلمين بهم؟ نعم. و لكنّ الله حجز المؤمنين عن أذاهم لوجود المؤمنين بينهم، سواء المؤمنين بالفعل ممّن أخفى إيمانه تقيه، أو الذين هم على أعتاب الدخول فى الدّين، و يحدّثون أنفسهم بالانتماء الى الرساله.

وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ يَعْنِي لَوْ كُنْتُمْ تَقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ - دُونَ أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ - لَكُنْتُمْ تَقْتُلُونَ فَيَمُنُّونَ بِمَا تَقْتُلُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُونَ عِلْمٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ عَلَى خَوْفٍ مِنْ قَرِيشٍ، وَلِأَنَّ شُرُوطَ الصَّلْحِ كَانَتْ لَا تَسْمَحُ لَهُمْ بِاللَّجُوءِ إِلَيْكُمْ، وَ لَوْ فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ لَرَبَّمَا أَضْرَهُمْ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْقِتَالِ.

و نعرف من هذه الآيه أولا: أنّ المؤمنين استفادوا من فتره السلام التي وفرها الصلح في تقويه أنفسهم و بناء حركتهم و توسيعها، إلى الحد الذي اخترقوا فيه كيان قريش نفسها، و حيث سارت جيوش الإسلام لفتح مكّه كانت قريش منخوره الكيان من الداخل، و كان الجند - و ربما كثير من الزعماء الذين ينتظر منهم محاربه أتباع الرساله - ينتظرون الفرصه المناسبه للتلاحم مع صفّ المؤمنين ضدّ أعدائهم، و هذا بالفعل ما تؤكّده سوره النصر: «وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا»، و ربما لذلك أيضا لم تجد قريش نفسها قادره على اتخاذ قرار المواجهه العسكريه ضد الجيوش القادمه من المدينه بقيادة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، الأمر الذي جعل المسلمين يدخلون مكه فاتحين دون تضحيات.

و ثانيا: أنّ المؤمنين كانوا يجهلون هذه المكاسب العظيمه للصلح، و ذلك هو الذي جعل بعضهم يعترض على الرسول، و ربما طفق يشك في قيادته، فهم لم يكونوا يعلمون بالجبهه الايمانيه الموجوده في صفوف أهل مكّه، و قول بعضهم و قد حمل الرايه (اليوم يوم الملحمه، اليوم تسبى الحرمه) دليل واضح على هذه الحقيقه.

و من هذا المنطلق يجب أن نستفيد درسا في علاقتنا بالقياده الرساليه، و هو أنّ جهلنا بخلفيات قراراتها لا يعنى أنّها خاطئه، و يجب أن لا يدفعنا ذلك إلى التشكيك



فيها، فليس بالضرورة أن يتضح لنا كل شيء، لأن كثيرا من الأمور يكشف عنها المستقبل، و رؤيتها تحتاج إلى بصيره ثابتة و معلومات متكامله، ممّا لا تتوافر إلا عند القيادة الشرعيه الرشيد.

لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ أَي فِي الْإِيمَانِ، وَ هَلْ خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ إِلَّا لِيُرْحَمَهُمْ؟ «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ» (١)، وَ لَوْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ ذَاكَ لَقَاتَلُوا الْكَثِيرَ مِمَّنْ دَخَلُوا الدِّينَ فِيهَا بَعْدَ، وَ مَنْعُوا عَنْهُمْ رَحْمَاتَ اللَّهِ وَ بَرَكَاتِهِ، وَ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ اسْتِرَاطِيَجِيَه الدَّوْلَه الْإِسْلَامِيَه قَائِمَه عَلَى أُسَاسِ اجْتِنَابِ النَّاسِ إِلَى الدِّينِ، وَ لَوْ بِتَقْدِيمِ بَعْضِ التَّنَازُلَاتِ، وَ لَيْسَ تَحْطِيمُ الْخِصْمِ وَ قَهْرُ إِرَادَتِهِ، وَ لَوْ سَبَّبَ ذَلِكَ إِثَارَه الْبُغْضَاءِ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا يَشْكَلُ حَاجِزًا نَفْسِيًّا يَمْنَعُهُمْ مُسْتَقْبَلًا مِنَ الدَّخُولِ فِي الدِّينِ.

بلى. لو امتاز الفريقان لعذب الله المشركين و الكافرين بسيوف عباده المؤمنين.

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ فِي الرَّوَايَاتِ الْمَأْثُورَه: إِنَّ اللَّهَ لِيُدْفَعُ الْبَلَاءَ عَنِ الْقَرِيهِ بِالْمُؤْمِنِ، وَ

جاء في الحديث القدسي: «لولا شيوع رقع، و شباب خشع، و صبيان رضع، و بهائم رقع، لصببت عليكم العذاب صبًا» (٢).

[٢٦] و لكن لماذا ينذر الله الذين كفروا بالعذاب في الآيه السابقه؟ هل لأنهم من قريش أم لقيمه ماديه أخرى؟ كلاً.. إنما للحميه المرتكزه في قلوبهم.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ

ص: ٣٤٠

١-١) هود/ (١١٩).

٢-٢) كلمه الله/ للشهيد الشيرازي ص (٧٦).

فالحق ظاهر و بين لهم، و يعلمون أنهم على الباطل، و لكن العزّه بالإثم (القيم الجاهليه التي درجوا عليها) لا تدعهم يقبلون الحق، و يسلمون لقياده الرسول، فالقائد في نظرهم يجب أن يكون أكبر القوم سنًا، و أكثرهم مالا و نفرا، فكيف يقودهم رجل يتيم لا مال له؟ لهذا فإنهم و هم يحاربون أتباع الرساله لم يكونوا يدافعون عن حق يؤمنون به، و إنما يحمون أنفسهم و يدافعون عن قيمهم الجاهليه، بينما المؤمنون يقاتلون من أجل الله، و يدافعون عن القيم و القائد الحق.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَمَا خَذَل مِنْ جِهَةِ أُخْرَى فُلُوكَ الْكُفَّارِ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْصُرُونَهُ فَهَمُّ أَوْلَى بِنَصْرِهِ، بَيْنَمَا يَنْصُرُ أَوْلَيْكَ أَصْنَامَهُمْ وَ شَهْوَاتِهِمْ. وَ لَعَلَّ هَذِهِ السَّكِينَةُ كَانَتْ أَعْظَمَ وَسِيلَةً لِنَصْرِهِمْ، فَمَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى سَلَامِهِ خَطَّهُ حَارِبٌ دُونَهُ بِشَجَاعَةِ فَائِئِهِ، بَيْنَمَا الَّذِي يَحَارِبُ لِلْعَصَبِيَّاتِ الزَّائِفَةِ يَنْهَزِمُ نَفْسِيًّا قَبْلَ أَنْ يَنْهَزِمَ عَسْكَرِيًّا، وَ قَدْ قِيلَ: الْحَرْبُ صِرَاعُ إِرَادَاتٍ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ إِرَادَةَ صَاحِبِ السَّكِينَةِ أَمْضَى.

وَ أَلْزَمَهُمُ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَتْ كَلِمَةُ التَّقْوَى مُقَابِلَ الْحَمِيَّةِ الَّتِي تَعَشَّعْشَعُ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَ مِنْ شَوَاهِدِ التَّزَامِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا فِي سُلُوكِيَّاتِهِمْ مَوْقِفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ حِينَمَا أَرَادَ التَّوْقِيعَ عَلَى الصَّلْحِ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ كَلِمَةَ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وَ أَنَّ يَسْمَى رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ تَنَازَلَ عَنْ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةِ الرِّسَالَةِ مَعَ أَنَّ الْمَوْقِفَ كَانَ مُحْرَجًا وَ لَكِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ لَمْ تَأْخُذْهُ الْحَمِيَّةُ، وَ لَمْ يَسْمَحْ لِلْعَوَاطِفِ الْمَسْتَثَارَةِ أَنْ تَوْثِّرَ فِي خَطِّهِ الرَّشِيدِ.

إنَّ التَّقْوَى لَيْسَتْ مَجْرَدَ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا الْإِنْسَانُ، بَلْ هِيَ بَرْنَامَجٌ مُتَكَامِلٌ وَ التَّزَامَاتُ

يفرضها الدّين على أتباعه، و من دونها لا يكون أحد متقياً، لأنّ للمتقى صفات و علامات من أبرزها التزامه بقيمه التقوى في كلّ ظرف أو وضع نفسى يمرّ به، فإذا سخط لم يخرجه سخطه عن رضى ربّه، و إذا رضى لم يدخله رضاه في سخطه، إنّما هو ملتزم برضى الله، يسخط لسخطه و يرضى لرضاه عزّ و جلّ.

و

جاء في روايه عن أبى جعفر عليه السلام: «إنّما المؤمن الذى إذا رضى لم يدخله رضاه فى إثم و لا باطل، و إذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق، و المؤمن الذى إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدّى و إلى ما ليس له بحق» (١).

و

قال الصادق عليه السلام: «من ملك نفسه إذا رغب و إذا رهب، و إذا اشتهى، و إذا غضب و إذا رضى، حرّم الله جسده على النار» (٢).

و

عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «ما أنفق مؤمن نفقه هي أحبّ إلى الله عزّ و جلّ من قول الحقّ فى الرضا و الغضب» (٣).

و لعلّ الآيه تشير فيما تشير إليه الى أنّ المتقى الحقيقى يزيده الله تقوى و إيماناً كلّما واجه ظرفاً صعباً، لأنّه إذا عمل آنثذ بموجب تقواه تكرّست فى نفسه التقوى.. هكذا حين عمل المؤمنون حسب تقواهم، و لم تأخذهم حميه الجاهليه، و لم تؤثّر فيهم إثارات قريش، و صدّهم إياهم عن إقامه شعائرهم، بل قبلوا بقرارات قياده، حينئذ أثابهم الله على ذلك بتنميه روح التقوى فى أنفسهم.

□ □  
وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

ص: ٣٤٢

١- ١) بح/ج (٧١) /ص (٣٥٨).

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

فهو محيط بمدى ما يستقله قلب الإنسان من التقوى، ولا داعى لاثاره الجدل فى كون فلان من المؤمنين أم لا، و هل يدخل الجنه أم النار، لأن ذلك عند الله، و لا ينبغى التطفل فيما يختص به الرب سبحانه.

[٢٧] ثم يؤكد ربنا صدق وعده لرسوله صلى الله عليه و آله بدخول مكه، الأمر الذى يؤكد جدوى الصلح، و كونه الفتح المبين حقاً، و خطأ تصوّرات البعض حوله، حيث تصوّروا أنّهم إذ أبرموا الصلح مع المشركين لم يحققوا شيئاً، و أنّ الرؤيا التى أخبرهم بها الرسول لم تكن صادقه.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسَيْكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ أَيْ أَنَّ دَخُولَكُمْ هَذِهِ الْمَرَّةَ سَيَكُونُ دَخُولَ الْمُنتَصِرِينَ.. وَ حَدَثَ ذَلِكَ فَعَلَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، حَيْثُ فَتَحُوا مَكَّةَ، وَ كُلَّ هَذِهِ الْمَزَايَا وَ النَّتَائِجَ كَانَتْ مَجْهُولَةً لَدَى الْمُسْلِمِينَ.

فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا وَ هُوَ صِلْحُ الْحَدِيثِ، أَمَّا الْفَتْحُ الْبَعِيدُ فَهُوَ فَتْحُ مَكَّةَ الَّذِي جَاءَ فِي أَثَرِ الْوَلْحِ، وَ هَذَا التَّأَكِيدُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْوَلْحِ بِالْفَتْحِ إِنَّمَا كَانَ لِبَيَانِ حَقِيقَةِ هَامَّةَ، وَ هِيَ وَجُوبُ اتِّبَاعِ الْقِيَادَةِ وَ طَاعَتِهَا عِنْدَ مَا تَخْتَارُ طَرِيقًا مَعْنِيًا، بَعِيدًا عَنِ الْعَوَاطِفِ، ذَلِكَ أَنَّ مِنْ مَشَاكِلِ الْقِيَادَاتِ الثَّوْرِيَةِ الضَّغُوطُ الَّتِي تَوَاجَهَهَا مِنْ قَبْلِ الْمُتَحَمِّسِينَ وَ الْمَهْيِئِينَ نَفْسِيًّا لِلْمُوَاجَهَةِ، فَهَمَّ يَرِيدُونَهَا تَسْتَجِيبُ لِحِمَاسِهِمْ، وَ إِلَّا فَهِيَ فِي نَظَرِ الْبَعْضِ جَبَانَةٌ وَ ضَعِيفَةٌ، وَ عَلَى الْقَائِدِ أَنْ لَا يَتْرَكَ الْحَكْمَةَ لِلْحِمَاسِ وَ الْعَوَاطِفِ لِتَكُونَ قَرَارَاتُهُ حَكِيمَةً وَ حَازِمَةً.

إنَّ الرسول صلى الله عليه وآله واجه هذه المشكله، إذ كان البعض يستنكر عليه عدم محاربتة المشركين، وحينما صالح اعتبروا صلحه مذلّه وإهانته، بل و دليلاً- على ضعف سياسته، ولو كان يستجيب لحماس هؤلاء ما كان المسلمون يبلغون ما بلغوا بعد الصلح، كما واجه- أيضاً- وصيّته الامام على- عليه السلام- فى معركة صفين معارضه من قبل المتشددين الذين سمّوا بعدئذ بالخوارج.

[٢٨] و ربّنا يؤكّد حكمه نبيّه، و صحه قراراته، لأنّه يتبع هدى الله و دينه، فلا يصحّ إذن أن نخالفه أو نشكّك فى قيادته.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ الظُّهُورَ (الانتصار) مَرَّةً يَكُونُ بِالْحَرْبِ، وَ مَرَّةً عَنِ طَرِيقِ الصَّلْحِ، وَ الرَّبُّ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الرَّسُولَ بِالصَّلْحِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَ هُوَ تَكْفُلٌ بِإِظْهَارِ دِينِهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الدِّيَانَاتِ وَ الْأُمَمِ.

وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا لَقَدْ تَنَامَتْ أَمْوَاجُ الرِّسَالَةِ فِي الْعَالَمِ مِنْذُ انبِعَاثِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ) وَ إِلَى الْيَوْمِ. أَوْ لَيْسَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى تَحَقُّقِ وَعْدِ اللَّهِ فِي ظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ؟ وَ قَدْ جَاءَ فِي التَّقَارِيرِ أَنَّ نَمُوَّ عِدَدِ الْمُسْلِمِينَ أَكْبَرَ مِنْ ازْدِيَادِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى أَيِّ دِيَانَةٍ أُخْرَى؟ وَ هَكَذَا تَنْتَظِرُ الْبَشَرِيَّةُ الْيَوْمَ الْحَقَّ الَّذِي وَعَدَهَا اللَّهُ إِيَّاهُ حَيْثُ يَظْهَرُ دِينُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

[٢٩] ثم إنَّ النبي الذي اتخذ قرار الصلح ليس قائدا عادياً حتى يجوز معه النقاش. إنَّه رسول الله الذي عصمه عن الخطأ، و لم يكن الذين حوله من الرجال قد أصابهم الوهن حتى يجد نفسه مجبراً على الصلح، فهم ليوث الأرض و فيهم أسد الله

و أسد رسوله على عليه السلام الذى و تربه النبى صناديد قريش.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ فَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِالْعَوَاطِفِ فِي جَنْبِهِ،

قال الامام على عليه السلام : «فلقد كننا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله) و إنَّ القتل ليدور على الآباء و الأبناء و الاخوان و القربات، فما نزداد على كل مصيبه و شدّه إلا إيمانا» (١).

و

فى التاريخ أنه عليه السلام جلس على صدر أخيه عقيل قبل إسلامه و قد جرد سيفه ليقتله، فنظر إليه أخوه و قال: أ تقتلنى يا على، قال: «إى و الله، إلا أن تسلم».

و أراد الرسول صلى الله عليه و آله قتل رجل من المشركين فحاول الآخر استعطافه قائلا: و من للأولاد و أمهم بعدى، و لكنّه لم يعبأ بكلامه بل قتله، و قال: «لهم الله.» و فى الوقت الذى تميّز الشخصيه الايمانيه بالحدّه و الشدّه ضدّ الأعداء، فإنّها فى وجهها الآخر كلّها رحمه و لطف ياخوه المسيره الواحده.

رُحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ هَذَا عَنْ عِلَاقَتِهِمْ بِالنَّاسِ، أَمَّا عَنْ عِلَاقَتِهِمْ بِاللَّهِ، فَهِيَ عِلَاقَةُ الْعِبُودِيَّةِ وَ الْخُضُوعِ الْمَطْلُوقِ.. يمارسون العباده فى كلّ حركه من حركاتهم، و فى كلّ كلمه ينطقون بها، لأنّ كلّ ما يصدر منهم هو تجلّ للصلاه و العبادات بأهدافها و قيمها.

تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجْدًا إِنَّكَ تَقْرَأُ الصَّلَاةَ فِي سُلُوكِهِمْ، فَهَم مَتَّصِلُونَ بِاللَّهِ، مَمْتَهُونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ

ص: ٣٤٥

(١-١) نهج/خ(١٢٢).

و المنكر، صادقون مع الآخرين، ملتزمون بواجباتهم.. إلخ، لأن العباد في نظرهم ليست مجرد الركوع و السجود، و بالتالي الوقوف عند الصلاة بذاتها، و إنما التحرك في الحياه بمقتضياتها و أهدافها، و أبرز تلك الأهداف اثنان: ابتغاء فضل الله في الدنيا، و رضوانه في الآخرة.

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ لَكَثَرَهُ صَلَاتِهِمْ وَ سَجُودِهِمْ بِالذَّاتِ وَ الَّذِي يَمْتَلِئُ قَمَّةَ الْخُضُوعِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ تَلْحَظُ فِي جِبَاهِهِمْ أَثَرَ السُّجُودِ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْآثَارَ-الثَّفَنَاتِ- لَا تَظْهَرُ إِلَّا بِالْمَبَالِغَةِ فِي الْعِبَادَةِ.

سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ وَ

الامام على-عليه السلام-يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله فيقول: «لقد رأيت أصحاب محمّد (صلى الله عليه و آله) فما أرى أحدا يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعثا غربا، و قد باتوا سجّدا و قياما، يراوحون بين جباههم و خدودهم، و يقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم! كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبّل جيوبهم، و مادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفا من العقاب، و رجاء للثواب» (١).

و بيان الله لصفات أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله إنّما يأتي ليؤكد الحقيقة التالية، و هي أنّ صاحب الرسول حقّا من صحبه بقلبه و أخلاقه و قيمه، فاقتداؤهم بالرسول جعلهم في تلك الدرجة لا مجرد معيتهم له، و أنت أيضا تستطيع أن تكون من أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله إذا تخلّقت بالأخلاق التي يذكرها القرآن، و تشير إليها خطبه

ص: ٣٤٦

الامام على عليه السلام .

ثم إنّ الرسالات الالهيه بشرت بهذا النبي و بمن حوله من اعلام الرساله رهبان الليل و فرسان النهار.

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ وَ هُمْ فِي حَالِهِ تَكَامُلٌ وَرَقِي نَحْوَ الْأَكْمَلِ بِصُورِهِ مُنْتَظِمَةٌ، يَشْبَهُونَ فِي ذَلِكَ الشَّجَرَةَ الَّتِي تَبْدَأُ بِذَرِّهِ، وَ لَكِنَّهَا تَتَكَامَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا وَ تَنُمُو إِلَى أَنْ تَصِيرَ قَوِيَّةً قَائِمَةً عَلَى سَوْقِهَا.

كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ إِنَّ الْقَائِدَ الَّذِي يَرْبِي هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ فِي ظِلِّ أَفْكَارِهِ وَ قِيَادَتِهِ كَانَ يَسْرُّ إِذْ يَرَاهُمْ، أَمَّا الْأَعْدَاءُ فَإِنَّهُمْ يَتَمَيِّزُونَ غِيظًا وَ حَنَقًا كُلَّمَا رَأَوْا وَاحِدًا يَتَرَعَّرُ فِي ظِلِّ قِيَمِهِ وَ مِبَادئِهِ، مَقَاتِلًا وَ قَائِدًا رِسَالِيًّا يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

و أصحاب النبي محمّد صلى الله عليه و آله الحقيقيين هم المعتمتون بالزرع في هذه الآيه، و لكن لا تعنى صحبه الرسول صك البراءه من التكاليف الشرعيه، و التحلل من القيم الالهيه، فليس كلّ الذين عاصروا الرسول أو صحبه (حتى من دون التمسك بأهداف الرساله) تشملهم هذه الآيه، و الدليل على ذلك أنّ الله لم يترك الكلام مطلقاً، و إنّما خصّ بالغفران و الثواب الذين أحسنوا الصحبه، و أبلوا بلاء حسناً في الطاعه له و نصر رسالته منهم.

وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً

ص: ٣٤٧



لذنوبهم و أخطائهم، لأن مسيرتهم العامه فى الحياه مسيره سليمه، و الحسنات يذهب السيئات كما ذكر القرآن.

وَ أَجْرًا عَظِيمًا جزاء لأعمالهم الصالحه.

و الآيه فى هذا المقطع تدحض الفكره القائله بأن مجرد انتماء الإنسان إلى شخص أو تجميع صالح يكفيه، و يرفع عنه المسؤوليه، كلاً. فهو مطالب بتحملها و العمل وفقها حتى النفس الأخير، كما قال الله: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » (١) يعنى بذلك الموت، أمياً أن تصوّر المسؤوليه تنتهى بكون الفرد عالماً، أو خطيباً، أو منتمياً إلى حركه إسلاميه فلا، و التأكيد على هذه الفكره مهم لأن الكثير من الناس يعتقدون بأن وصولهم إلى مقام ما يرفع عنهم المسؤوليه، و يحولها إلى غيرهم.

و أخيراً: إذا كان للرسول صلى الله عليه و آله أصحاب فإنّ له إخوانا يأتون فيما بعده، و إذا لم نحظ بصحبته فلنسعى للتأخى معه، و ذلك بالالتزام بمبادئه، و السعى إلى تحقيق أهدافه فى الحياه.

فقد جاء فى الخبر عن أبى ذر(رض):

قال: قال رسول الله(صلى الله عليه و آله و سلم): أ تدرّون ما عمى؟ و فى أى شىء تفكيري؟ و فى أى شىء اشتياقي؟ فقلنا: يا رسول الله، أخبرنا عن ذلك، فقال: أخبركم إن شاء الله. ثم تنفّس الصعداء، و قال: هاه شوقا إلى إخوانى من بعدى! فقلت: يا رسول الله أو لسنا

ص: ٣٤٨

إخوانك؟ قال: لا، أنتم أصحابي، وإخواني يجيئون من بعدى، شأنهم شأن الأنبياء، قوم يفرون من الآباء والأمهات، و من الإخوه و الأخوات، و من القربات كلهم، ابتغاء مرضاه الله، يتركون المال لله، و يذلون أنفسهم بالتواضع لله، لا يرغبون فى الشهوات و فضول الدنيا، يجتمعون فى بيت من بيوت الله كأنهم غرباء، تراهم محزونين لخوف النار و حبّ الجنة، فمن يعلم قدرهم عند الله؟ ليس بينهم قرابه و لا مال يعطون بها، بعضهم لبعض أشفق من الابن على الوالد، و الوالد على الابن، و من الأخ على الأخ، هاه شوقا إليهم! و يفرغون أنفسهم من كدّ الدنيا و نعيمها، بنجاه أنفسهم من عذاب الأبد، و دخول الجنة لمرضاه الله.

اعلم يا أبا ذر أنّ للواحد منهم أجر سبعين بدرّيّا.

يا أبا ذر! إنّ الواحد منهم أكرم على الله من كلّ شىء خلق الله على وجه الأرض، قلوبهم إلى الله، و عملهم لله. لو مرض أحدهم له فضل عباده ألف سنه و صيام نهارها و قيام ليلها، و إن شئت حتى أزيدك يا أبا ذر؟ فقلت: نعم يا رسول الله زدنا، فقال: لو أنّ أحدا منهم إذا مات فكأنّما مات ما فى السماء الدنيا، من فضله على الله، و إن شئت أزيدك؟ فقلت: نعم يا رسول الله زدنى، قال: يا أبا ذر لو أنّ أحدهم يؤذيه قمله فى ثيابه، فله عند الله أجر أربعين حجّه، و أربعين عمره، و أربعين غزوه، و عتق أربعين نسمة من ولد إسماعيل، و يدخل واحد منهم اثنى عشر ألفا فى شفاعته.

فقلت: سبحان الله! فقال النبى: أ تعجبون من قولى، و إن شئت حتى أزيدكم؟ قال أبو ذر: نعم زدنا، فقال النبى:

يا أبا ذر! لو أنّ أحدا منهم انتهى شهوه من شهوات الدنيا فيصبر و لا يطلبها، كان له من الأجر بذكر أهله، ثم يغتم و يتنفس، كتب الله له بكلّ نفس ألفى

ألف حسنه، و محاه عنه ألف سئئه، و رفع له ألف درجه، و إن شئت حتى أزيدك يا أبا ذر؟ قلت: حبيبي يا رسول الله زدني: قال: لو أن أحدا منهم يصبر مع أصحابه لا يقطعهم، و يصبر في مثل جوعهم و في شدّه غمّهم، كان له من الأجر كأجر سبعين ممن غزا تبوك.

و إن شئت حتى أزيدك؟ قلت: نعم زدنا، قال: لو أن أحدا منهم يضع جبينه على الأرض، ثم يقول: آه، فتبكي ملائكة السموات السبع لرحمتهم عليه، فيقول الله: يا ملائكتي مالكم تبكون؟ فتقول: يا إلهنا لا نبكي و ولئيك على الأرض يقول في وجعه «آه»، فيقول الله: يا ملائكتي اشهدوا أنتم راض عن عبدى بالذى يصبر في شده و لا يطلب الراحة، فيقول الملائكة: يا إلهنا و سيدنا لا تضر الشده بعبدك و ولئيك، بعد أن يقول هذا القول! فيقول: يا ملائكتي إن وليي عندي كمثل نبي من أنبيائي، و لو دعاني وليي و شفّع بخلقى شفّعته في أكثر من سبعين ألفا، و لعبدى و وليي في جنتي ما يتمنى، يا ملائكتي و عزّتي و جلالى لأنا أرحم بوليي، و أنا خير له من المال للتاجر، و الكسب للكاسب، و فى الآخرة لا يعدّب وليي، و لا خوف عليه.

ثم قال رسول الله: طوبى لهم يا أبا ذر، لو أن أحدا منهم يصلّى ركعتين فى أصحابه أفضل عند الله من رجل يعبد الله فى جبل لبنان حتى عمر نوح، و إن شئت حتى أزيدك يا أبا ذر؟ لو أن أحدا منهم يسبح تسبيحه، خير له من أن يصير معه جبال الدنيا ذهبا، و نظره إلى واحد منهم أحبّ من نظره إلى بيت الله الحرام، و لو أن أحدا منهم يموت فى شدّه بين أصحابه له أجر مقتول بين الركن و المقام، و له أجر من يموت فى حرم الله و يدخله الجنة، و إن شئت أزيدك يا أبا ذر؟ قلت:

نعم، قال: يجلس إليهم قوم مقصّرون مثقلون من الذنوب فلا يقومون من عندهم حتى ينظر الله إليهم، فيرحمهم و يغفر لهم ذنوبهم لكرامتهم على الله.

قال النبي: المقصّر فيهم أفضل عند الله من ألف مجتهد من غيرهم.

يا أبا ذر! إنني إليهم لمشتاق، ثم غمّض عينيه فبكى شوقاً، قال: اللهم احفظهم و انصرهم على من خالف عليهم، ولا تخذلهم، و أقرّ عيني بهم يوم القيامة « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١).

ص: ٣٥١

---

١- ١) كلمه الرسول الأعظم/للشهيد الشيرازى ص(٣٦٩).



سوره الحجرات

اشاره

ص: ۳۵۳



بسم الله الرحمن الرحيم

## فضل السوره:

فى كتاب ثواب الأعمال قال: «من قرأ سورة الحجرات فى كل ليله أو فى كل يوم كان من زوار محمد (صلّى الله عليه و آله)».

نور الثقلين/ج ٥/ص ٧٩

ص: ٣٥٥





تفتتح السوره بوصايا قيمه فى أدب التعامل مع الرسول و القياده الالهيه، و تختتم ببيان حقيقه الايمان، و تتواصل بينهما الآيات تنظّم علاقه المسلمين ببعضهم على أساس الاخوه، و علاقه البشريه ببعضهم على قاعده المساواه.

تعالوا الآن نتدبر فى هذا السياق المعجز:

ألف) لأن علاقه الأخوه تتعرض لهزات قد تبلغ درجه الاقتتال بين المؤمنين، فلا بد من قوه داخلية تمسك الامه من أن تتشردم فتتلاشى، و ما تلك القوه إلا القياده الرساليه التى لا بد أن يسمو احترام الأمه لها الى مستوى رفيع، بالأ يتقدموا بين يدى الله و رسوله فى الرأى أو القول أو المشى أو أيه ممارسه عمليه، و لا- يرفعوا صوتهم فوق صوته، و لا- يجهروا له فى الكلام كما يتحادثون بينهم. و قد بشر الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله بأنهم قد طهر الله قلوبهم للتقوى، و أن لهم مغفره و أجرا عظيما. أما الذين لا يحترمون الرسول، و لا يراعون حرمة الحجرات التى بنيت من أجل توفير الراحة، فينادون الرسول من ورائها، فان أكثرهم لا يعقلون. فلا يعرفون

حرمه القيادة الالهيه، و لا حرمه الآداب المرعيه، و كان أولى بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم الرسول فيحدثوه عن شؤونهم (الآيه ٥).

باء) و بعد أن يرسى السياق احترام القيادة و آداب التعامل معها، و طبيعه العلاقه معها بعدئذ يأمر المؤمنين بالثبث فى أمورهم، و عدم الاسترسال مع أبناء الفاسقين، لأنهم قد يصيبون بذلك قوما بجهاله ثم يندمون على ذلك. و بهذا يقطع الطريق على مثيرى الفتن بين المسلمين و سائر التجمعات البشريه، و يضع قانونا لمثل هذه الأمور و يأمر بمراجعته القيادة و التسليم لها و عدم ممارسه الضغط عليها، أو ليس الرسول قد جاءهم من عند الله بنور الايمان؟ أو ليس -إذا- أهدى منهم سبيلا؟ أو ليس من واجب الشكر ألا يخالفوه فى قضيه هامه كاتخاذ موقف من طائفه معينه؟ و ماذا لو أطاعهم الرسول فى جهلهم أو لا- يسبب ذلك فى العنت عليهم؟ و ربما أشارت الآيه (٧) الى أن مخالفه الرسول نوع من الكفر و الفسوق أو العصيان حسب درجات المخالفه و مواردها، و إن من فضل الله عليهم أن زين فى قلوبهم الايمان و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان. فلا يعودوا إليه ليفقدوا أعظم نعمه أسبغها عليهم ربهم.

جيم) و فى سياق حديثه عن علاقه المسلمين ببعضهم يفك القرآن أولا أصعب عقده فيها متمثله فى حاله نشوب قتال أهلى بينهم و يقول: لو اقتتل طائفتان من المسلمين فلا- بد من الإصلاح بينهم، و بأيه وسيله ممكنه ثم إقامه العدل بينهم، و لكن إذا بغت إحداهما على الأخرى، و لم تسلم للإصلاح فلا- بد من تحمل جماهير الامه لمسؤولياتها الخطيره المتمثله فى محاربه الفئه الباغيه، حتى تفىء الى أمر الله و تقبل الصلح و التحاكم الى الشريعه المقدسه، فان فاءت تقوم الامه بنشر العداله فى أوساطها و القسط (٩).

و يرسى القرآن قاعده الاخوه بين المؤمنين لتكون محورا أساسيا للعلاقه بينهم، و لطائفه من التعاليم و الانظمه و الآداب أبرزها ضروره الإصلاح بين الاخوه لعل الله يرحمهم بذلك (١٠).

دال) و لكى نقتلع جذور الصراع، ثم لكى نعيش فى وء و وئام لا بد أن نظهر قلوبنا من عقد التعالى فوق بعضنا، كلا.. فنحن جميعا بشر متساوون لا يجوز أن يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم عند الله و فى عالم الواقع، فيكون استهزاءؤهم بهم محض سفه، و مجرد خساره لهم للمكاسب التى يمكنهم الحصول عليها. كما لا يجوز أن تسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن.

و حتى إذا ألقى الشيطان فى أنفسنا هذه النظره الشاذه، فلا يجوز أن نفصح عنها، و أن نعيب بعضنا أو أن نتبادل الألقاب البذيئه. أو لسنا مسلمين قد طهر الله حياتنا من كل قذاره. فلما ذا نسمى بعضنا بأسماء الفسق و قد أكرمنا الرب بأسماء إسلاميه رفيعه المستوى؟ بئس الإسمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ (١١).

و نهدم علاقانا ببعضنا إذا استرسلنا مع الأوهام و الشكوك و الظنون التى تثيرها الأحقاد أو الحالات النفسيه أو الاشاعات المغرضه و هكذا يأمر الإسلام باجتنب كثير من الظن و يؤكد أن بعض الظن إثم، و لعله الذى نتحقق منه بالتجسس، أو نجعله موقفا لحياتنا و لو ظننا سوء فلا يجذب التحقق منه، و هكذا ينهانا الدين و يقول «و لا تجسسوا» و إذا عرفنا من أحيانا عيبا مستورا فلا يجوز أن نشيعه عليه من وراء ظهره بالغيبه، لأنه بمثابة أكل لحم أحيانا ميتا. أو ليس ذلك نبلا- من كرامته؟ و كرامته أعظم أم بدنه (١٢)؟ هاء) ثم يرسى السياق قاعده التوحيد التى ترفض أى نوع من التمييز المادى بين الإنسان و الإنسان، و يؤكد ربنا أن أصل البشريه واحد، آدم و حواء، فلا

تفاخر في الأنساب، و ان الحكمه من جعلهم شعوبا و قبائل هو التعارف و ليس التداير و التسامى، فاذا عرف بعضهم بعضا ضبطت المسؤوليات و الحقوق و تهيأت فرصه العداله. بلى. إن هناك تمايزا واحدا هو التقوى. فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم. و من معانى التقوى سلامه الفكر و استقامه السلوك، و بذلك يكون التنافس على ما يقدم البشريه نحو أهدافها النبيله (١٣).

و(او) في الدرر الأخير يفسر السياق التقوى ببيان أصلها المتمثل في الايمان ربما لكي لا يدعيها الطامعون و الانتهازيون فيقول: «  
قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا».

و كانوا طائفه التجأوا الى المدينه طمعا في خيراتها بعد أن أجدبت أراضيهم، و نفى عنهم القرآن إيمانهم، و لكن لم ينف أنهم مسلمون كما لم ينف أجرهم عند الله، إن هم أطاعوه و أطاعوا الرسول. أو ليس الله غفورا رحيفا؟ و هناك مقياسان نستوحيهما من القرآن للايمان: عدم الشك خصوصا عند ما تخالف تعاليم الدين أهواءهم و مصالحهم، و الجهاد بالمال و النفس في سبيل الله، فمن فعل ذلك فقد كان صادقا في إيمانه.

و يزعم البعض ان ادعاءه الايمان يكفيه، و كأنه يعلم الله بدينه، و الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ، وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

و ترى بعضهم يمتنون على الرسول إسلامهم - كأعراب البادية الآنف ذكرهم - و الله يمن عليهم بالايمان، لأنه نعمه كبرى إن كانوا صادقين في ادعائه (١٤-١٧).

و يختم القرآن السوره بأن الله يعلم غيب السماوات و الأرض و أنه بصير بما يعمل الخلق، و لعله تحذير من ادعاء الايمان لمصالح ماديه (١٨).

## [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٥]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ أُذُنَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

## اللغه

(١) لَا تَقَدَّمُوا: لا تتقدموا.

(٣) يُعْضُونَ: يعضونها و لا يرفعونها.

## بينات من الآيات:

[١] الامه المؤمنه أمه ملتزمه تسلم لقيادتها الشرعيه بوعيمها الديني، و تستقبل أوامرها برضا و اطمئنان، و تحترم قياده لأنها من عند الله، و هي أشد حبا لله من كل شيء- و لأن أفئده أبنائها قد طهرت من الكبر و العنجهيه و امتحنت للتقوى- و هي لذلك أمه منضبطه لا تسترسل مع الأحداث بل تنتظر أوامر قياده الراشده، و لا تجرفها رياح الفتن، بل يقودها المنهج العلمى الرصين القائم على أساس الثبوت و التبين.

هكذا أدب الله المؤمنين عند ما وجه إليهم بالذات خطابه قائلا:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَقَالُوا لِيَكْ يَا رَب.

لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا دُمْتُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَحِيطُ بِكُمْ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَيرعَاكُمْ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فَلَا تُقَدِّمُوا شَيْئًا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَلَا تُتَقَدَّمُوا قَبْلَ أَنْ تَسْتَمِعُوا إِلَى أَمْرِهِ وَأَمْرَ اللَّهِ يَبِينُهُ رَسُولُهُ الْأَمِينُ، الَّذِي أَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَوْ لَيْسَ هُوَ الْإِمَامُ وَالْقَائِدُ.

وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ بَلَى. لَا بَدَّ أَنْ تَسْتَوْعِبَ التَّقْوَى كَافَهُ شُؤُونَ الْحَيَاةِ، فَمَا مِنْ شَأْنٍ إِلَّا وَ لِلَّهِ فِيهِ حَكْمٌ لَا يَجُوزُ تَجَاوُزُهُ، وَ الْمُتَّقُونَ يَبْحَثُونَ أَوْلَا عَنْ حَكْمِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَبَادِرُوا بِالْعَمَلِ فِي أَيِّ حَقْلٍ.

و مِنْ هُنَا وَجِبَ التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ وَ تَعَلَّمَ أَحْكَامَهُ تَمْهِيدًا لِلْعَمَلِ بِهَا، وَ

جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيُّ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدِي أَ كُنْتَ عَالِمًا؟ فَنَ قَالَ نَعَمْ قَالَ لَهُ: أَ فَلَا عَمَلْتَ بِمَا عَلِمْتَ، وَ إِنْ قَالَ: كُنْتُ جَاهِلًا قَالَ لَهُ: أَ فَلَا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ فَيُخَصِّمَ بِتِلْكَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ» (١).

وَ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُؤْمِنُ فِي الْفَقْهِ حَكْمَ الْحَوَادِثِ الْمُسْتَجِدَّةِ أَوْ الْمَتَطَوِّرَةِ فَانْ عَلَيْهِ أَنْ يَرِاجِعَ الْفُقَهَاءَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ ذَلِكَ الْحَكْمَ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الشَّرِيعَةِ.

ذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَادِثَةٍ إِلَّا وَ لِلدِّينِ فِيهَا حَكْمٌ، ابْتِدَاءً مِنْ بَصَائِرِ الْوَحْيِ فِي حَكْمِهِ الْحَيَاةِ، وَ مَقَائِيسِ الْمَعْرُوفِ وَ الْمُنْكَرِ حَتَّى حَكْمَهُ فِي أَرْشِ الْخُدُشِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» (٢).

ص: ٣٤٣

١-١) بحار الأنوار/ج ٢/ص ٢٩

٢-٢) الانعام/٣٧



قال رسول الله في حجه الوداع:

«أيها الناس! اتقوا الله ما من شيء يقربكم من الجنة و يباعدكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه و أمرتكم به» (١).

جاء في الحديث الشريف عن أبي أسامة قال كنت عند أبي عبد الله الامام الصادق (عليه السلام) و عنده رجل من المغيريه (أتباع المغيره بن سعيد و كان من الغلاه لعنه الله عليه و لعله كان يقول بالتفويض) فسأله عن شيء من السنن فقال:

«ما من شيء يحتاج إليه ولد آدم إلا و قد خرجت فيه السنه من الله و من رسوله، و لولا ذلك ما احتج علينا بما احتج».

فقال أبو عبد الله قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً». فلو لم يكمل سنته و فرائضه و ما يحتاج اليه الناس ما احتج به (٢).

قال عليه السلام: «ما رأيت عليا قضى قضاءه إلا وجدت له أصلا في السنه. قال و كان على يقول: لو اختصم إليّ رجلان ففضيت بينهما ثم مكثا أحوالا كثيره ثم أتياي في ذلك الأمر لفضيت بينهما قضاء واحدا لأن القضاء لا يحول و لا يزول» (٣).

و سواء كان الحكم الالهي واردا في خصوص المورد أو في الأصل العام الذي يشملها فانه بالتالي حد لا يمكننا تجاوزه و لا يجوز لنا أن نزع أن الله فوض أمره إلينا، و حتى الأئمه المعصومون كان لا بد لهم الفتيا وفق الكتاب و السنه، و قد أكدوا ذلك

ص: ٣٦٤

١-١) بحار الأنوار/ج ٢/ص ١٧١

٢-٢) المصدر/ص ١٦٩

٣-٣) المصدر/ص ١٧٢

لنفي مزاعم بعض القائلين بالتفويض.

فقد سأل رجل أبا عبد الله الامام الصادق (عليه السلام) فأجابه فيها فقال الرجل: إن كان كذا و كذا ما كان القول فيها (لعله زعم ان الافتراضات الجديدة لا حكم لها في الشريعة) فقال له: «مهما أجبتهك فيه بشيء فهو عن رسول الله لسنا نقول برأينا من شيء» (١).

و

روى سماعه عن الامام أبي الحسن عليه السلام أنه قال: قلت له كل شيء تقول به في كتاب الله و سنته أو تقولون برأيكم؟ قال: «بل كل شيء نقوله في كتاب الله و سنته» (٢).

فلكى لا- نتقدم على الرسول، ولا- يسوقنا الهوى و الجهل لا بد من التفقه في الدين و معرفه أصول الحكم فيه و الانبعاث منها لمعرفة الحياه و تفاصيل سلوكنا فيها.

[٢] ذلك كان أدب التعامل مع الرسول صلى الله عليه و آله و القيادة الرساليه، و أما أدب التحادث معه فقد بينته الآيه التي تخاطب المؤمنين للتذكيره بأن مثل هذه الآداب من علائم الايمان و من شروطه.

قد جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام أنه ما خوطب المسلمون بهذه الكلمه إلا عند إسلام الأوس و الخزرج قال الامام:

ما سلت السيوف، و لا- أقيمت الصفوف في صلاه و لا زحوف (حرب) و لا جهر بأذان، و لا أنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حتى أسلم أبناء قبيله الأوس و الخزرج (٣).

ص: ٣٦٥

١-١ (١) المصدر/ص ١٧٣

٢-٢ (٢) المصدر

٣-٣ (٣) نور الثقلين/ج ٥/ص ٨٠

و يبدو أن سبب ذلك تكوّن المجتمع الاسلامى عند إسلام هاتين الطائفتين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ تَتَّبِعُوا الْأحكامَ التَّالِيَةَ:

أولاً: إذا تحدثوا الى الرسول خفضوا أصواتهم احتراماً للرسول، و للوحي الذى يحتمله.. إن هذا السلوك المهذب يعكس مدى احترام الأمة للرسول و للقياده الوريثه، ذلك الاحترام الذى يساهم فى تنفيذ القرارات بوازع نفسى و بيسر و بلا تكلف.

ثانياً: لا يجادلون الرسول فيما يأمر به، فهو من أبرز مظاهر رفع الصوت عند الرسول، و لا يجادلوه بما يؤذيه.

ثالثاً: إذا قضى الرسول بشىء يسلموا له و لا يرفعوا صوتهم بالمعارضه.

وقد ذكر المفسرون فى أسباب نزول هذه الآيات موارد شتى تنطبق على كل هذه الأحكام، و لعلهم كانوا يقصدون تأويل الآيه، و تطبيقها على تلك الموارد.

فقد جاء فى تفسير على بن إبراهيم: أنها نزلت فى وفد بنى تميم كانوا إذا قدموا على رسول الله وقفوا على باب حجرته فنادوا يا محمد أخرج إلينا، و كانوا إذا خرج رسول الله تقدموه فى المشى، و كانوا إذا كلموه رفعوا أصواتهم فوق صوته و يقولون:

يا محمد (يا محمد) ما تقول فى كذا كما يكلمون بعضهم فأنزل الله هذه الآيات (١).

و هذا تأويل يتطابق و أول الأحكام التى استوحيناها من الآيه الكريمة، و هو ظاهر الآيه.

ص: ٣٤٤

و روى البخارى أن الآيه نزلت فى أبى بكر و عمر حين قدم على النبى ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع و أشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاّ خلافك فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله عزّ و جلّ الآيه (١).

و

روى أن النبى صلّى الله عليه و آله و سلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا- إذ مضى الى خيبر فأشار عليه عمر برجل آخر فنزلت الآيه (٢).

و هذان الحدثان يتناسبان و الحكم الثانى و الثالث، مما يشهد على أن للآيه تطبيقات عديدة يجمعها النبى عن معارضه الرسول بأى صورته ما كانت.

و لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ كَانُوا إِذَا حَضَرُوا رَسُولَ اللَّهِ خَاطَبُوهُ بِاسْمِهِ بَعِيدًا عَنِ جَلَالِ النُّبُوهِ، و كان المنافقون بالذات يرفعون أصواتهم ليسقطوا أبهه القيادة عن أعين الناس فجاء القرآن ينهاهم عن ذلك و يعلمهم أدب الحديث مع الرسول- و من خلال ذلك مع كل قياده شرعيه.

و لعل الآيه تشمل النهى عن انتقاد آراء القيادة الرساليه علنا، مما يسبب و هنا فى عزيمه الأمه و تقليلا من شأن مصدر القرار.

من هنا قال البعض: إن حرمة كلام النبى اليوم كحرمة فى مشهده، فاذا قرئ على جمع كلامه و جب عليهم أن ينصتوا اليه، لأن حديثه وحي من عند الله.

ألم يقل ربنا سبحانه: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» فذات

ص: ٣٦٧

١-١) تفسير القرطبي (باختصار) ج/١٦ ص ٣٠٣

٢-٢) المصدر/ص ٣٠١

الملاك الذى فرض به الإنصات عند تلاوه القرآن موجود فى سنه الرسول. وقد قال ربنا سبحانه: «وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا» (١).

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ لما ذا يسبب الاستخفاف بالقياده الشرعيه حبطا فى العمل؟ لعل السبب يتلخص فى أمرين:

أولاً: إن أغلب الفرائض تروّض النفس و تطهّرها من الكبر. فاذا طغت النفس و تكبرت على القياده الشرعيه فقد تبين ان هدف الفرائض لم يتحقق، فاحبطت الصلاه التى تكرس الذاتيه، بدل الخشوع، و الزكاه التى تزيد الهوه و الطبقيه فى الامه، و الحج الذى يورث صاحبه التعالى و التفاخر، و الصيام الذى لا يورث التقوى فى النفس، إنّها جميعا عرضه للاحباط لأنها لم تحقق أهدافها.

ثانياً: إن الولايه عمد الدين، فاذا سقط العمد ماذا يبقى من الدين؟ أليس الدين نظام اجتماعى متكامل يدور حول محور القياده الشرعيه؟ فاذا ذهبت أنهار كل شىء.

وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إن أعظم الأمراض خطرا ذلك المرض الذى لا- يحس به المبتلى، لأنه لا- يبادر لمعالجته و قد لا- يقتنع بالمعالجه، كذلك أخطر الذنوب الذنب الذى لا- يشعر به المتورط فيه لأنه يسير به فى طريق جهنم و هو يزعم أنه من أهل الجنه، و مخالفه القياده من هذه الذنوب قال الله سبحانه:

ص: ٣٤٨

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١).

و نتساءل: لماذا لا- يشعر الإنسان بخطوره مخالفه القيادة الشرعيه أو الاستخفاف بها؟ و يبدو ان النفس تسول لصاحبها بعض الذنوب بصوره تجعلها حسنة، فهى كمرض النوم (تسى تسى) يجعل ضحيته يخلد الى النوم حتى الموت، و كلما اقترب الى نهايته كلما أوغل فى اللاوعى.

ثم ان حبط العمل بذاته من الأمور التى يصعب التحسس بها. أ رأيت لو قيل لك أن ثواب حجتك التى أرهقت بها نفسك، و أنفقت فيها مالا كثيرا قد ذهب أدراج الرياح بمجرد رفع صوتك فى مجلس القيادة الشرعيه. لا تصدق بذلك بسهولة و لكنه هو الواقع.

و أبسط دليل على تزيين الشيطان لنا مخالفه القيادة الشرعيه ان المسلمين اليوم - كما فى التاريخ- يتولون عن قيادتهم دون أدنى إحساس بالذنب، بل ترى الكثير منهم يزعم أن لا علاقه للدين بشؤون الحياه الفعلية، فلا حاجه الى الامام و القيادة الشرعيه اليوم.

[٣] هل تريد أن تعرف مدى قبول أعمالك الصالحه، قبل يوم القيامه، أى قبل فوات الأوان؟ إذا تعال و قس نفسك بميزان القرآن كيف؟ أ ليست الفرائض ذات حكم و فوائد تتجلى فى حياه البشر؟ بلى. إذا دعنا نقيس أنفسنا بمدى تحقق تلك الحكم و الفوائد فى أنفسنا و واقعنا من خلال الفرائض.

هل قبلت صلاتك أم لا؟ أنظر الى نفسك هل انتهت عن الفحشاء و المنكر

ص: ٣٦٩

و اقتربت الى ذكر الله.فان كانت،فقد قبلت صلاتك.

و هل تقبل منك الصيام؟انظر الى مدى التقوى فى نفسك،فان زادت تقواها، فقد تقبل صيامها.

و بكلمه:إذا وجدت فى نفسك علائم الايمان فاعرف بقبول إيمانك.و من أبرز علائمها التسليم لقيادة الرسول من دون حرج،و رعايه آداب التعامل معه،فذلك دليل زكاه القلب،و طهارته بالايمان.

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَإِذَا كَانَ مَعْنَى الامتحان لغويا تطهير الذهب من الشوائب بصهره،فان امتحان القلب بمعنى تزكيته من الشك و الشرك و الكبر و الحسد حتى يتهيأ للتقوى أى اتقاء الشهوات و الذنوب ظاهرا و باطنا.

أما إذا كان الامتحان-فى اللغة-بمعنى امتداد الجلد فمعناه هنا اتساع القلب للمعارف الإلهيه مما يجعله يستوعب كلمه التقوى.

إن التقوى بذره مباركه لا تنمو إلا فى الأرض النقيه.

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ لِأَن طَاعَهُ الرَّسُولَ (و القيادة الشرعيه)و التأدب فى حضرته و احترام مقامه،إنها جميعا تشفع للذنوب فيغفرها الله،كما ان معصيه الرسول و الاستخفاف بمقامه و مجافاته تحبط الأعمال الصالحه.

[٤] أما الذين لم تصقل آداب رساله نفوسهم، و لم تصلح سلوكهم فتراهم يغلظون القول مع الرسول، و يرفعون أصواتهم فوق صوته، و لا يراعون حرمة البيوت التي لا بد أن تحجرهم عن الإيذاء.. فإنهم لا يعقلون، و أى عقل لمن لا يحترم مقام رساله، و لا يكرم العلم و لا يعترف بدور القائد القائم بتنظيم الحياه.

إِنَّ الَّذِينَ يَتَّذُرُونَكَ مِنْ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ و لماذا أنشأت الحجرات؟ أليس لتكون سورا تحجر الأذى عن يسكنها؟ فمن معالم المدنيه احترام البيوت، و عدم انتهاك حرمتها، سواء بدخولها عنوه أو بإلقاء حجاره أو أذى عليها أو بتسبب أذى لأهلها، مثل رفع الصوت المزعج أو إثارة الغبار المؤذى أو تلوين البيئه المضر بأهل البيت، كل ذلك يعتبر انتهاكا لحرمة البيت، و مخالفه لحكمه وضع البيوت، و تعديا على مكان أمن الناس، و لعله لذلك سميت هذه السوره بالحجرات، لأن الحجره تشكل ظاهره حضاريه، خصوصا إذا كان فى الحجره شخص رسول الله صلى الله عليه و آله.

جاء فى الأثر عن سبب نزول هذه الآيه عن زيد بن أرقم أتى أناس النبى صلى الله عليه و آله فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا الى هذا الرجل فان يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه و إن يكن ملكا نعش فى جنابه، فأتوا النبى -صلى الله عليه و آله- فجعلوا ينادونه و هو فى حجرته: يا محمد يا محمد! فأنزل الله تعالى هذه الآيه (١).

[٥] إن للقائد ظروفه الخاصه، و مهامه التي تكون -غالبا- ذات صبغه عامه، و لا بد للناس من رعايتها حتى يسهل عليه أداؤها بأفضل وجه.. أما إذا زاحموه خصوصا فى الشؤون الخاصه، و خلطوا عليه الأوراق ثم انصرف عن مهامه العامه

ص: ٣٧١



فان الضرر يكون عليهم جميعا.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مَا دَامَ الْقَائِدُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْقَرَارُ وَ عَلَيْهِ مَسْئُولِيهِ التَّنْفِيزُ فَلَا بَدَّ مِنْ إِعْطَاءِ صِلَاحِيهِ ذَلِكَ لَهُ وَ مَنَحِهِ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ، وَ عَدَمِ التَّدْخُلِ فِي جَزَائِيهِ عَمَلِهِ.

ثم إن الرسول حين يكمل أعماله في البيت ثم يخرج إليهم يكون أكثر استعدادا لاستقبالهم و بالتالي يكون خيرا لهم.  
وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَلَوْ لَمْ يَرَاعَ أَحَدُ هَذِهِ الْأَدَابِ مَعَ الرَّسُولِ وَ ارْتَكَبَ بِذَلِكَ خَطِيئَةً فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

جاء في الأثر: إن ثابت بن قيس بن شماس كان رفيع الصوت فافتقده النبي صلى الله عليه و آله فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسا في بيته، منكسا رأسه، فقال له: ما شأنك فقال: شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي فقط حبط عمله و هو من أهل النار فأتى الرجل النبي صلى الله عليه و آله فأخبره انه قال كذا و كذا، فقال النبي: «اذهب اليه فقل له: إنك لست من أهل النار و لكنك من أهل الجنة» (١).

ص: ٣٧٢

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن لَّجَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَإِغْلُمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمَانٌ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

اللغه

(٧) لَعَنِتُّمْ: لوقعتم في العنت، والعنت هو المشقه.

هدى من الآيات:

لكى نحصن التجمع الاسلامى من التهافت و التآكل لا بد أن ننمى فيه احترام القيادة الشرعيه، و نحصنه من إشاعات الفاسقين الذين دأبهم تخريب العلاقات، و نجعل قرار الرسول (أو من يخلفه) هو الحكم الفصل فى العلاقات، و نشكر الله (بذلك) على إسباغ نعمه الايمان علينا حين حبه الى نفوسنا، و كره إلينا الكفر و الفسوق. أو ليس ذلك فضل عظيم و نعمه من الله (اجتنبى لهما الصالحين من عباده) بعلم و حكمه؟ و الملاحظ ان السياق كرس القيادة الاسلاميه و احترامها قبل كل شىء، لأنها الضمانه لسائر التعاليم كما أكد على مسئوليها الامه تجاه الصلح بين طوائفها ضمانه أخرى لذات التعاليم.

[٦] فى كتاب ربنا الكريم شفاء لأمراض المجتمع المستعصيه لو استشفيناها، و نفذنا تعاليمه..و الصراع أعظم تلك الأمراض الذى يقتلع نهج القرآن جذوره البعيده. ألا ترى كيف يحصن التجمع الايمانى من رياح الفتنه بتذكير المسلمين عن دور الأنبياء الكاذبه التى يبثها الفسقه فيفرقون بين الناس..و نهيبهم عن الاسترسال معها، لأنها تؤدى الى معارضه قوم أبرياء مما يجر إليهم ندامه و جسره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ذَلِكَ ان دوافع الفاسق و منطلقاته شيطانيه فقد يكذب أو يمشى بنميم أو ينقل جانباً من الحقيقه و يسكت عن سائر الجوانب..فاذا قبلناه على علاته فسوف نقع فى أخطاء جسيمه، أبرزها إثارة الفتن فى المجتمع.

الفاسق الذى تجاوز الحدود الالهيه لا يمكنه أن يكون موجها للامه، و مجرد الاستماع الى نبأه دون تحقيق و تثبيت يجعله فى مقام التوجيه.

أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ أَى لكى لا يورطكم الفاسق فى معارضه فئه مؤمنه من دون تحقيق منكم، ثم تندموا بعد فوات الأوان..

و نستوحى من الآيه عده بصائر:

أولاً: إن أكثر الصراعات الاجتماعيه التى تعصف بالمؤمنين منشأها الفاسقون الذين لا تروق لهم وحده المؤمنين فيثرون الفتنه بينهم. و حين نتفكر فى واقع المسلمين اليوم نجد ان الذين يذكون نار الصراع بينهم هم فى الأغلب أبعد الناس

عن القيم، وقد تكون سوابقهم السيئه و أحقادهم ضد الإسلام، و خشيتهم من الفضيحة هو السبب في تطرفهم ضد هذه الطائفة أو تلك.

و إذا استطاع المؤمنون إبعاد أثر الفسقه عن تجمعاتهم قدروا على سد أكبر ثغره تهدد كيانهم! ثانياً: و اليوم حيث يتعرض المسلمون لغزو ثقافى و هجمه إعلاميه عبر ألوف المؤسسات الدعائيه المتنوعه ترانا أحوج مما مضى الى تنفيذ هذه الوصيه الالهيه أن نتبين عما يقولون لأنهم فسقه لا- يتقون الله فيما يقولون، هذه الوكالات الخبريه التى تمولها و تقودها الرساميل و الأنظمه هل تلتزم بالصدق؟ هذه الصحف الصفراء التى تنطق باسم المترفين و الطغاه هل ترعى جانب الحق؟ هذه الاذاعات التى تصب فى آذاننا و أذهاننا كل يوم شلالا من المعلومات المختلطه هل نضمن صدقها؟ كلا..

إذا لا بد من التثبت، و لكن كيف؟ لأن حجم الأفكار و الأخبار التى تبث عبر أجهزه الدعايه كبير، فأن قدره الأفراد على التثبت منها محدود، فلا بد إذا من وجود مؤسسات موثوق بها تقوم بدور المصفاه و تنتقى السمين و تقدمه للمؤمنين.

هذه المؤسسات قد تكون معاهد و مراكز للدراسات و البحوث، و قد تكون تنظيمات دينيه، و قد تكون خبراء أكفاء يرجع إليهم المؤمنون فى توثيق المعلومات، و قد تكون مؤسسات إعلاميه بديله، إذاعه صادق، صحيفه ملتزمه أو وكاله للأنباء موثوق بها.

ثالثاً: و أنى كانت هذه المؤسسات فانها أعمال اجتماعيه لا ينتظم أمرها إلا تحت إشراف القياده الشرعيه للامه، فمن دون القياده تذهب جهود الأفراد سدى، لأن مثل هذه الأعمال الكبيره لا ينهض بعثها آحاد الناس، كما انه لو لم تكن القياده شرعيه فانها بذاتها تصبح مبعث الخطر، و لمثل هذا يذكر السياق القرآنى بنعمه

رابعاً: إن خبر العادل حجه. قالوا بالرغم من ان الآيه لا تدل على حجه خبر العادل صراحه و بصوره مباشره، بل بما يسمى لديهم بمفهوم الوصف الذى لا- حجه فيه عندهم، إلا- ان فائده بيان الوصف هنا ليست إلا أن الحكم يدور مداره مثل أن نقول: إذا تعاملت مع أهل الباطل فاشهد عليهم، و إذا ذهبت الى زياره المريض فتجنّب مواكلته، و إذا زرت بلاد الكفر فتزوّد بالبوصله لصلاتك.. و ما أشبه.

و أقول: كما أن النفي يتركز فى سور الكلمه أو شرطه أو صفته، كذلك الشرط، فاذا قلنا: لا أعطيك كل نقودى، و لا تشرب اللبن إذا أكلت السمك، و لا تمش فى الأرض مرحاً، فان معناه نفي كليه النقود فلو أعطى بعضها لم يخالف وعيده، أو النهى عن شرب اللبن مقارنة مع أكل السمك، (أو كل النهى عن الجمع بينهما) و كذلك النهى عن مشيه المرح لا كل شىء.

كذلك الشرط فلو قال: إذا جئتنى صباحاً أكرمتك أو إذا رأيتك شامتا قليتك و ما أشبه. فان الشرط يلحق أضيق حلقات الكلام، أى وقت الصباح أكرمك و عند الشماته أقليك و كذلك الشرط هنا: إذا جاءكم فاسق بنية.. فان الشرط مقصود و غرضه تحديد النتيجة بأضيق الحدود، و هو كون المخبر فاسقاً، و لهذا قال الأولون:

إن هذا من مفهوم الشرط و ليس من مفهوم الوصف و الله العالم.

خامساً: ماذا يعنى التبين؟ يبدو أنه يشمل كل أسلوب يؤدى الى حاله الوضوح عند الإنسان، و لأن الله قد خاطب عامه المؤمنين بهذه الكلمه، فان مفهوم التبين يكون عرفياً أيضاً، بمعنى أن كلما تطمئن إليه نفس الإنسان العادى، حتى لا يبقى فيه شك معقول أو ارتياب يعتنى به العقلاء كاف حجه عند الله فى الموضوعات.

فسواء أكانت البينه (شهاده عدلين) أو الشيع المفيد للطمأنينه، أو شهاده الخبراء من خلال مجموعه متراكمه من الشواهد و الآثار أو خبر العاقل العادل فانه من التبين عند العقلاء..على أن العقلاء لا يعتمدون على بعض هذه الأدله إذا كانت الظروف المحيطه باعته للشك الحقيقى مثلا: الشيع الذى يعتقد أن منشأه شائعه مغرضه لا يورث طمأنينه فى النفس فهو إذا ليس بحجه.

كما ان خبر العادل فيما لا يخفى عند غيره يرتاب فيه العقلاء إذا انفرده به كما لو أنبأنا بأن الاذاعه الفلانيه نشرت هذا الخبر، علما بأنها لو نشرته لسمع أكثر الناس و تناقلوه..أو أخبر برؤيه الهلال فى ليله صافيه مما نعلم أنه لو رآه هذا العادل لرآه غيره أيضا، و إذ لم يشهد برؤيته غيره فان العقلاء يشكون فى كلامه. كذلك الحوادث الخطيره لا يعتمد العقلاء عاده على الخبر الواحد فيها مثل الحروب..

عموما: حاله التبين تختلف عند العقلاء حسب الموضوعات فلا بد من الالتفات الى ذلك، و لعل الحكمة التى سيقى فى خاتمه الآيه هى محور الحكم فعلينا أن ندور مداره، و نتفكر كيف نتجنب الوقوع فى الجهاله و الندم.

[٧] كيف تتموج الفتنة فى المجتمع المسلم؟ إنها تشرع بشائعه تتلقفها الألسن ثم لا تلبث أن تتحول الى تيار يجرف معه البسطاء، و الانتهازيين، و الفوضويين آتئذ تطفق الفتنة و أصحابها بالضغط على القيادة الشرعيه التى عليها أن تختار بين الاستسلام لعاصفه الفتنة، أو خسران شريحه اجتماعيه، فما هو الحل؟ الحل ينحصر فى تجلى المجتمع بروح الانضباط و أن يعى الجميع أبعاد نعمه القيادة فيشكروها شكرا عمليا. حقا إن المجتمع الذى يعى أهميه القيادة الشرعيه يتحصن ضد عواصف الفتنة الداخليه بذات الصلابه التى يقاوم بها قواصف التحديات الخارجيه. لذلك يأمر القرآن بأن نعلم دور الرسول فينا(ثم من يخلفه

و يرث مقامه بدرجة ما).

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ إِذَا مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُحْمَلُ رِسَالَهُ الْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْبَصِيرَةِ، وَمَا دَامَ كَذَلِكَ فَلَا بَدَّ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ عِنْدَ الْفِتَنِ وَالشَّبْهَاتِ، وَلَا يَجُوزُ الضَّغْطُ عَلَيْهِ بِقَبُولِ آرَاءِ كَمٍ وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِكُمْ.

لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَتَبْتُمْ وَكَيْفَ لَا تُصَيِّبُهُمُ الْمَشَقَّةُ وَالْعَنْتُ وَقَدْ خَالَفُوا الْعِلْمَ إِلَى الْجَهْلِ، وَالْحِكْمَةَ إِلَى الْجِهَالَةِ.

جاء في الأثر: في سبب نزول الآية أو تأويلها على عهد الرسول ما يلي:

أولاً: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ لِيَجْمَعَ الصَّدَقَاتِ مِنْ بَنِي الْمَصْطَلِقِ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ أَقْبَلُوا نَحْوَهُ لِلتَّرْحَابِ بِهِ، وَكَانَ خَشِيهِمْ وَهَابَهُمْ وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عِدَاوَةٌ فَخَافَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ أَوْ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ ضَغِينَةٌ تَجَاهَهُمْ، فَأَرَادَ أَنْ يَمْكُرَ بِهِمْ (أَوْ تَظَاهَرَ بِذَلِكَ) فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ ارْتَدَوْا عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَبَعَثَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَثَبَّتَ وَلَا يَعْجَلَ، فَانْطَلَقَ خَالِدٌ حَتَّى أَتَاهُمْ لَيْلًا، فَبَعَثَ عِيُونَهُ فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مَتَمْسِكُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَسَمِعُوا أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَتَاهُمْ خَالِدٌ وَرَأَى صَحَّةَ مَا ذَكَرُوا فَعَادَ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمُ فَأَخْبَرَهُ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَكَانَ يَقُولُ نَبِيَّ اللَّهِ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان».

(١)

ص: ٣٧٩

١-١) بتصرف عن القرطبي/ج ١٦-ص ٣١١



و يبدو من بعض الأخبار ان طائفه من المسلمين كانوا يصرون على النبي بالخروج إليهم و قتالهم قبل الثبت من أمرهم، و لعل مؤامره حاكها الحزب الأموى و المنافقون المؤيدون لهم ضد المسلمين، و منها نفذ الوليد طرفا منها، بينما أراد الآخرون تنفيذ سائر جوانبها.

ثانيا:

جاء فى الأثر ان الآيه نزلت فى قصه الافك على بعض الروايات. فقد ذكر على بن إبراهيم فى تفسيره انها نزلت فى ماريه القبطيه أم إبراهيم (عليه السلام)، و كان سبب ذلك أن عائشه قالت لرسول الله-صلى الله عليه و آله-: إن إبراهيم ليس هو منك و إنما هو من جريح القبطى، فانه يدخل إليها فى كل يوم، فغضب رسول الله-صلى الله عليه و آله- و قال لأمير المؤمنين (عليه السلام): خذ السيف و أتنى برأس جريح، فأخذ أمير المؤمنين (عليه السلام) السيف ثم قال: بأبى أنت و أمى يا رسول الله إنك إذا بعثنى فى أمر كأكون فيه كالسفود (١) المحمى فى الوبر فكيف تأمرنى أثبت فيه أو أمضى على ذلك؟ فقال له رسول الله-صلى الله عليه و آله-: بل ثبت، فجاء أمير المؤمنين الى مشربه أم إبراهيم فتسلق عليها فلما نظر اليه جريح هرب منه و صعد النخله، فدنا منه أمير المؤمنين (عليه السلام) و قال له: انزل فقال له يا على اتق الله ما هاهنا أناس انى محبوب (٢) ثم كشف عن عورته فاذا هو محبوب، فأتى به رسول الله-صلى الله عليه و آله- فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول الله ان القبط يحبون حشمهم و من يدخل الى أهلهم، و القبطيون لا- يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثنى أبوها لأدخل إليها و أخدمها و أونسها، فأنزل الله عز و جل **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيَّاتٍ** الآية. (٣)

ص: ٣٨٠

١-١) السفود: حديده يشوى عليها اللحم

٢-٢) المحبوب: الخصى

٣-٣) نور الثقلين/ ج ٥- ص ٨١

و هذه الآيه و نصوص دينيه اخرى تستهدف فصل الفسقه عن المجتمع الاسلامى نفسيا، و تقليل دورهم فى اداره القضايا الاجتماعيه، فاذا امتنع المسلمون عن العمل باخبار الفاسقين، فقد أبعدهم عن القضاء و الاعلام، و الشهاده فى المحاكم و عن أعمال أخرى.

من هنا نجد المفسر المعروف القرطبي ينقل هنا نصا عن ابن العربى يحسن بنا الاستماع اليه يقول:

و من العجب أن يجوز الشافعى و نظراؤه إمامه الفاسق و من لا- يؤتمن على حبه مال كيف يصبح أن يؤتمن على قنطار دين، و هذا إنما كان أصله أن الولاه الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم و لم يمكن ترك الصلاه وراءهم، و لا استطعت إزالتهم صلى معهم و وراءهم (و أضاف) ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقيه أعادوا الصلاه لله، و منهم من كان يجعلها صلاته. و بوجوب الاعاده أقول فلا ينبغى لأحد أن يترك الصلاه مع من لا يرضى من الأئمه و لكن يعيد سرا فى نفسه و لا يؤثر ذلك عند غيره. (١)

وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ الرِّسَالَةَ نِعْمَهُ وَ فَضْلَهُ، وَ وَعَى هَذِهِ الْحَقِيقَةَ يَجْعَلُنَا نَسْتَفِيدُ مِنْهَا بِصُورِهِ أَفْضَلَ، أَوْ لَيْسَ الَّذِى يَجْهَلُ أَنَّ لَهُ رَصِيدًا كَبِيرًا فِي الْبَنْكَ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ؟ وَ الْإِيمَانَ بِالرِّسَالَةِ هُوَ الْآخِرُ تَوْفِيقٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَ نِعْمَهُ وَ فَضْلَهُ، صَحِيحٌ أَنَّ الْعَبْدَ يَخْطُو إِلَى رَبِّهِ الْخَطْوَةَ الْأُولَى، وَ يَسْلَمُ لِلْحَقِّ، وَ لَكِنْ لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ يَجْبِبُ الْإِيمَانَ فِي

ص: ٣٨١

قلوب من يصلح له ما زكى أحد من البشر أبدا. ولقد حيب الله الايمان مرتين، مره عند ما خلق البشر على فطره الايمان بالله، و مره عند ما ألقى في أفئده المسلمين لربهم الصالحين لتلقى نعمه الهدى حب الايمان. كما ان الفطره البشريه بذاتها تكره الانحراف بكل درجاته، كالكفر الذى يعنى مخالفه الدين رأسا، والفسوق الذى يعنى تجاوز حدود الشريعه و العصيان الذى هو ارتكاب بعض الخطايا، و هذه الثلاث تعاكس الايمان و من دون تطهير القلب من أدرانها لا يستقبل القلب روح الايمان.

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ قالوا: أصل الرشد الصخره، و يسمى صاحب الرأى السديد بالراشد لاستقامته عليه، و شده تصلبه فيه، فهو على يقين من أمره. و رشد المؤمن ناشئ من يقينه، و تصلبه فى الحق إذ أنه عرف دربه الواضح فسوف لا يغيره.

و قد التفت السياق من الخطاب الى الغيبه، ربما لأن مقام الراشدين رفيع لا بد أن يشار اليه بمثل كلمه (أولئك) و هو بالتالى لا يناله إلا من هو ذو حظ عظيم، فليس كل تال للقرآن مخاطب بهذه الصفه العظيمه. و الآيه تدل على أن أساس الدين الحب، و لذلك يسعى المؤمنون لترسيخ و تنميه هذا الحب فى أفئدتهم و يقولون:

«و اجعل لسانى بذكرك لهجا، و قلبى بحبك متيما». (١)

و جاء فى صفه حزب الله المفلحين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» (٢).

ص: ٣٨٢

---

١- ١) من دعاء لأمير المؤمنين عليه السلام المعروف بدعاء كميل/مفاتيح الجنان/ص ٦٧

٢- ٢) المائده ٥٤/

حين سأل زياد الحذاء الامام الباقر (عليه السلام) عن علاقه الدين و الحب، أجابه الامام قائلاً:

يا زياد ويحك! هل الدين إلا الحب؟ ألا ترى الى قول الله: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» أولا  
ترون قول الله لمحمد «حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ» قال: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ».

وقال مضيفاً: «الدين هو الحب و الحب هو الدين» (١) [٨] وإذا كان الايمان هديه الله الى القلوب الطاهره، فانه فضل من الله  
لطائفه خاصه من البشر، و ليس كسائر نعم الله شامله للجميع.

فَصَلًّا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يعلم أين ينبغي أن يجعل فضله و نعمته بحكمته البالغه.

ص: ٣٨٣

اشاره

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسُطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصِلِحُوا بَيْنَ أَخْوَابِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

هدى من الآيات:

إذا كانت الحرب الخارجيه ذات فوائد للامه، إذ تمحص إرادتها و تطهر صفوفها، و تهديها الى مراكز ضعفها و تحسسها بمسؤولياتها، و تكرر القيم الحضاريه فيها، فان الحرب الأهليه لا- تخلف وراءها إلا- الخيبه و الدمار، و قد تجرّها الى نهايتها المريعه.

و لقد عالجت الآيه الاولى فى هذا الدرس قضيه القتال بين المؤمنين بصوره واضحه، مما حدى بالمفسرين أن يفصلوا الحديث حول الموضوع و يشبعه بحثا، و أنى فصلنا فان القضيه أبعد غورا و أوسع مدى من التحدث عنها ضمن التفسير فقط، و إنما هى بحاجه الى دراسات مفصله.

أما الآيه الثانيه فهى الأخرى تعالج موضوع الصلح و لكن بصوره أشمل و تؤكد على عمق العلاقه بين المؤمنين التى تصل الى الأخوه الكامله.

[٩] تعالج آيات القرآن عادة أسوء الحالات قبل الحديث عن الحالات العاديه، فمثلا حين تبين سوره النساء العلاقات الاجتماعيه تستهلها بمعالجه حاله الطلاق التى هى عقده العلاقه الاسريه، وكذلك سوره النور التى ترسم حدود الاسره الفاضله بتبدئ ببيان حد الزنا، وسوره المائده التى تبني كيان الحضاره الاسلاميه نراها تحدثنا فى فاتحتها عن حرمة الاعتداء على أموال اليتامى الذين هم أضعف الحلقات الاجتماعيه، و هنا أيضا تعالج الآيات أعقد حالات الخلاف و هى حاله الاقتتال أولا ثم تتدرج فى الحديث عن سائر الحالات الأقل تعقيدا. لماذا كل ذلك؟ يبدو أن وراء كل ذلك حكمتين:

الأولى: لبيان الغايه التى سوف تنتهى إليها تسلسل الحالات، لكى لا يستهان بمبدئها فالخلافات الجزئيه التى نستخف عادة بها و الشائعات التى نبثها هنا و هناك ضد بعضنا بلا وازع قد تنمو حتى تصبح صراعا دمويا بين طائفتين من البشر. فلكى نرى الحقائق لا بد أن نضرب لها مثلا واضحا ثم نقيس عليه سائر الامثله.

الثانيه: إن عظمه الشريعة تتمثل فى معالجه الحالات الشاذه البالغه حدها فى التعقيد، أما الأوضاع العاديه فان التعامل معها سهل ميسور.

فمعالجه حاله الطلاق أو الخيانه الزوجيه (الزنا) هى المقياس لقدرة الشريعة على وضع نظام صائب لشؤون الاسره، كما ان الحفاظ على أموال اليتيم دليل على مدى صلاحيه النظام الاقتصادى فى المحافظه على حقوق الناس.

كذلك معالجه مشكله الحرب الأهليه تشهد على مدى صلاحيه النظام الاجتماعى فى مواجهه التحديات.

من هنا بدأ السياق بهذه المعالجه و قال:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلُوا بَيْنَهُمَا الْمُسْؤُولِيَةَ الْأُولَى إِذَا هِيَ وَقَفَ الْقِتَالُ وَ إِقَامَهُ السَّلَامَ بِأَيِّهِ وَسِيلَهُ مُمْكِنُهُ، وَ هِيَ مَسْؤُولِيَةُ الْجَمَاهِيرِ، لِأَنَّهُمُ الْقُوَّةُ الْبَاقِيَةُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ. أَمَا لَوْ كَلَفْنَا طَائِفَهُ ثَالِثَةً فَقَدْ تَدَخَّلَ طَرَفًا فِي الْقِتَالِ وَ قَدْ لَا تَكُونُ أَقْوَى مِنْ إِحْدَاهُمَا.

و الملاحظ أولاً: ان التعبير جاء بصيغه التثنيه ثم الجمع ثم التثنيه، ذلك ان سبب الاقتتال يكون عادة الاختلاف بين فريقين لكل منهما خصائصه و ميزاته، و الصلح يكون بين قيادتى الفريقين، بينما ذات الاقتتال يكون بين أتباعهما، فقد يكون المقاتلون ضحية مؤامره قيادتهم، و زجهم فى معركة لا مصلحه لهم فيها، بينما القيادة عند الفريقين مسئوله عن الحرب كما هى مطالبه بالصلح.

ثانياً: القرآن لم يحدثنا عن قوانين الصلح أو عن الصلح الذى يقوم على العداله، لأن تحقيقه فى حاله الاقتتال يكاد يكون مستحيلاً، إنما طلب من الجميع العمل من أجل الصلح.

ثالثاً: سُمى القرآن الفريقين المتقاتلين بالمؤمنين بالرغم من ان الاقتتال ضلاله بعيده، مما يدل على إمكانية تورط أبناء الامه الواحده فى الحرب الأهليه بسبب الفتن و الأهواء، فلا يجوز اتهام الناس بالكفر بمجرد دخولهم الصراع مع بعضهم حتى بلغ حد الحرب، كما لا يجوز لأحد الطرفين اتهام الطرف الآخر بالخروج عن إطار الايمان بمجرد إعلانه الحرب عليه.



فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَلَمْ تَقْبَلْ بِالصَّلَاحِ أَوْ قَبِلَتْ وَغَدَرَتْ.

فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبَغُّوا حَتَّىٰ تَقْتُلُوا إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقِيمَ السَّلَامَ بِالشَّعَارَاتِ وَالمَوَاعِظِ وَالمَعَاهِدَاتِ وَمَجَالِسِ الأَمْنِ؟ قَدْ يَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ نَافِعًا، وَلكِنَّهُ لَيْسَ بِمَسْتَوَىٰ وَقْفِ الحَرْبِ الَّتِي لَا يَخُوضُهَا النَّاسُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَبْأَسُوا مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ بِأَيْهِ وَسِيْلِهِ أُخْرَى، فَيُرَكَّبُونَ مَرَكِبَهَا الصَّعْبَ وَ يَتَحْمَلُونَ مَا سِيَّهَا وَ وَيَلَاتُهَا. فَكَيْفَ يَتَوَقَّفُونَ عَنْهَا بِنصِيحِهِ أَوْ قَرَارًا؟ لَا بَدَّ إِذَا أَنْ يَتَحْمَلُ النَّاسُ كُلَّ النَّاسِ مَسْئُولِيهِ الحِفَاظِ عَلَى السَّلَامِ وَ وَقْفِ نَزِيفِ الدَّمِ، وَ ذَلِكَ بِخَوْضِ غَمَارِ الحَرْبِ بِلَا تَرَدُّدٍ، وَ إِلَّا فَأَنْ بَغَاةَ الفِتْنَةِ سَوْفَ يَحُولُونَ الأَرْضَ جَحِيمًا.

وَ لَسْتُ أَعْرِفُ مَبْدَأَ فَرَضٍ عَلَى تَابِعِيهِ هَذَا المَسْتَوَى مِنْ المَسْئُولِيَةِ الاجْتِمَاعِيَةِ، فَالمَبَادِئُ الغَرِيبَةُ تَرَى انْتِخَابَ النِّظَامِ حَقًّا، بَيْنَمَا الإِسْلَامُ يَرَاهُ وَاجِبًا، وَ يَفْرُضُ عَلَى المُؤْمِنِ الكُفْرَ بِمَنْ يَطْغَى وَ يَرِيدُ فَرَضَ نَفْسِهِ عَلَى المَجْتَمَعِ حَاكِمًا مِنْ دُونِ رِضَاهُمْ، كَمَا يَفْرُضُ القِتَالَ ضِدَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ.

وَ يَحْدُدُ القُرْآنُ القِتَالَ بِعُودِهِ الفِتْنَةَ البَاغِيَةَ إِلَى أَمْرِ اللّٰهِ وَ قَبُولِهَا بِتَطْبِيقِ حُكْمِ الإِسْلَامِ فِي قِضَايَا الخِلَافِ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ الفِتْنَةِ الأُخْرَى، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وَاجِبِ التَّقِيدِ التَّامِ بِحُدُودِ العَدَالَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ البَغَاةِ بالرَّغْمِ مِنْ بَغِيهِمْ وَ اعْتِدَائِهِمْ عَلَى السَّلَامِ وَ الأَمْنِ.

وَ إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ يَشْبَهُونَ المَعَارِضَةَ المَسْلُحَةَ فِي عَرَفِ اليَوْمِ، نَعْرِفُ كَيْفَ يَنْبَغِي التَّعَامُلُ مَعَ المَعَارِضَةِ فِي النِّظَامِ الإِسْلَامِيِّ بِأَنْ نَعِيدَهُمْ إِلَى الحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ

و الممارسه القانونيه لحقهم،دون مصادرهم حقوقهم و انتهاك حرمتهم و الاشهار بهم و إغراقهم بالتهمة الرخيصة،فكيف باعتقالهم و تهجيرهم و تعذيبهم و قتلهم؟ كلا.

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَحْدُدُ قِتَالَ الْبَغَاةِ بِعُودَتِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِذَا عَادُوا كَانَ حَالُهُمْ حَالُ سَائِرِ أَوْلَادِ الْأُمَّةِ سِوَاهُ سِوَاهُ.

فَإِنْ فَاءَتْ فَأَضِلُّوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ و لا يجوز التمييز بينهما و بين الفئه الاخرى،بمجرد أنها بغت عليها.إذ ان فرض عقوبات على هذه الفئه أو حرمانهم من حقوقهم يمهد لحرب جديده،إنما العدل و إقامة حدود الله على الجميع بلا تمييز يقضى على أسباب الصراعات الاجتماعيه لأن وقود هذه الصراعات هم فى الأغلب الفئات المحرومه التى يستغلها هذا أو ذاك.

وَ أَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ لعل القسط هو التطبيق الدقيق و الحازم لموجبات العدالة،فهو الدرجه الأسمى للعدل.فكيف نحقق القسط فى الفئتين المحاربتين؟ قد تكون الفئه الباغية(المعارضه المسلحه)فئه محرومه تاريخيا،كالسود فى أمريكا،فتساويهما فى الحقوق مع مواطنيهم البيض لا- يكتفيهم،ولا- يقضى على عوامل البغى المجرد،إنما ينبغى توفير قدر أكبر من الفرص لهؤلاء لرفع حرمانهم مثل تخصيص ميزانيات أكبر لمناطق تواجدهم،و قبولهم فى الجامعات بشروط أخف و إعطائهم ديونا بلا فوائد و.و.و.الله العالم.

و قد جاء فى سبب نزول الآيه أقوال شتى مما يدل على ان ذلك كان مجرد تطبيق الآيه على بعض الحوادث التى وقعت بين المسلمين و أكثرها كانت بين

الأنصار و بالذات بين الأوس و الخزرج الذين بقيت على عهد النبي آثار حربهما الضروس التي طالت عقودا متطاولة حتى أحمدها الله بالإسلام.

و أكثر تلك المشاحنات التي يذكرها المفسرون في سبب نزول الآيه كانت بالأيدى و النعال و جريد النخل و لا أظن أنها تسمى قتالا.

و ليس غريبا أن يبين القرآن حكم موضوعه تتحقق عادة في الأمم حتى و لو لم تحدث عند نزول الكتاب، و قد شهد المسلمون صراعا دمويا بينهم في القرن الأول من الهجرة، مما يصلح تأويلا للآيه من هنا تحدث بعض المفسرين بتفصيل عن تلك الحرب، و نحن بدورنا نجد فائده كبيره بذكر جانب مما تحدثوا عنه مبتدئين ذلك بنقل ما نقله القرطبي عن القاضي أبي بكر بن العربي حيث قال:

هذه الآيه أصل في قتال المسلمين، و العمده في حرب المتأولين، و عليها عوّل الصحابه و إليها لجأ الأعيان من أهل المله، و إياها عنى

النبي -صلى الله عليه و آله و سلم- بقوله: «تقتل عمارا الفئه الباغيه» و

قوله عليه السلام في شأن الخوارج:

«يخرجون على خير فرقه أو على حين فرقه» و الروايه الأولى أصح،

لقوله عليه السلام: «تقتلهم أولى الطائفتين الى الحق» و كان الذى قتلهم على بن أبى طالب و من كان معه، فتقرر عند علماء المسلمين و ثبت بدليل الدين ان عليا رضى الله عنه كان إماما، و إنّ كل من خرج عليه باغ، و ان قتاله واجب حتى يفىء الى الحق و ينقاد الى الصلح، لأن عثمان رضى الله عنه قتل و الصحابه براء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه و قال: لا أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه و سلم في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، و استسلم للمحنه و فدى بنفسه الامه، ثم لم يمكن ترك الناس سدى، فعرضت على باقى الصحابه الذين ذكرهم (عمر) في الشورى، و تدافعوها، و كان على كرم الله وجهه أحق بها و أهلها، فقبلها حوطه

على الامه أن تسفك دماؤها بالتهارج و الباطل، أو يتخرق أمرها الى ما لا يتحصل، فربما تغير الدين و انقض عمود الإسلام. فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعه التمكّن من قتله عثمان و أخذ القود منهم.

فقال لهم على رضى الله عنه:

ادخلوا في البيعه و اطلبوا الحق تصلوا اليه، فقالوا: لا- تستحق بيعه و قتله عثمان معك تراهم صباحا و مساء. فكان على في ذلك أسد رأيا و أصوب قيلا، لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل و صارت حربا ثالته، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر و تنعقد البيعه، و يقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجرى القضاء بالحق.

و لا- خلاف بين الامه أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك الى اثاره الفتنة أو تشتيت الكلمه، و كذلك جرى لطلحه و الزبير، فإنهما ما خلعا عليا من ولايه و لا اعتراضا عليه في ديانته، و إنما رأيا أن البداءه بقتل أصحاب عثمان أولى. (١)

ثم يسترسل القرطبي في تفسير حرب الجمل فيقول: و قال جله من أهل العلم ان الوقعه بالبصره بينهم (بين المسلمين) كانت على غير عزمه منهم على الحرب بل فجأه، و على سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به. (٢)

و لم أهدت الى الفارق بين واقعتى البصره و صفين أو بينها و بين النهروان. أو لم يخرج الجميع على إمام قائم بالأمر بايعته أكثرية المسلمين فكيف نبّر خروج أهل البصره، و ندين أهل الشام أو الخوارج؟ هب أن القتال كان فجأه، و لكن ماذا يبرر إخراج حرم رسول الله من المدينه الى البصره و تجنيد الجيوش و إظهار المخالفه بهذه الطريقه؟

ص: ٣٩١

١-١ (١) القرطبي/ج ١٦/ص ٣١٨

٢-٢ (٢) المصدر

و أظن أن تاريخنا قد حفل بالتبرير، وربما التناقض لسبب نفسى مغلف بشبهه دينيه! أما السبب النفسى فهو الخلط بين قيم الدين و حوادث التراث، و محاوله اصفاء حاله من القداسه على التراث، دون عرضه على قيم الوحي أو نقده حسب موازين الشرع، فكل ما يسمى بالإسلام أو بالمسلمين أو بالتاريخ الاسلامى ذات حرمه بل قداسه عند البعض، بينما نجد فى تاريخنا ما يندى له جبين الانسانيه، مثل واقعه عاشوراء حيث ذبح سيد الشهداء سبط رسول الله عطشانا على جنب الفرات و أسرت بنات رسول الله و طوف بهن البلاد.. كلا- لا ينبغي أن نكون مثل الذين اتبعوا آباءهم و قدسوا تراثهم حتى قال لهم الله: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (١)** و قال سبحانه: **«وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ لَا يَهْتَدُونَ» (٢)**

المقياس الوحيد للحق هو وحي الله المتمثل فى كتاب الله، و تفسيره الصحيح الذى بينه رسول الله و أهل بيته المعصومون عليهم السلام، أو ما يكشفه العقل و العلم بوضوح كاف.. أما سيره السلاطين، أو سلوك الأولين فانه يخضع بدوره للوحي، فما وافق كتاب الله و سنه رسوله أكرمناه، و ما خالفهما تركناه.. و لا يجوز تعطيل العقل فى فهم الوحي لمصلحه التراث، فإنه من الغلو فى الدين الذى نهينا عنه، كما قال الله سبحانه لبنى إسرائيل: **«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» (٣)**

ص: ٣٩٢

١-١ (١) لقمان ٢١/

٢-٢ (٢) المائدة ١٠٤/

٣-٣ (٣) المائدة ٧٧/

من هنا لا يجوز أن ننسب العصمه الى أصحاب رسول الله جميعا، بل لا بد أن نخضع تصرفاتهم لقيم الوحي و نأخذ بما ثبت عن طريقهم من أقوال رسول الله و لا يلزمنا اجتهادهم فى الدين أو تفسيرهم للقرآن، و لا سلوكهم خصوصا المخالف للنص.

و لا يجوز أن يوقنا احترام الصحبه الى مخالفه نصوص الدين، بخلاف ما قال المفسر المعروف القرطبي حيث ذكر انه: لا يجوز أن ينسب الى أحد من الصحابه خطأ مقطوع به إذا كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه و أرادوا الله عز و جل و هم كلهم لنا أئمه. (١)

حقا ينبغى احترام الصحبه، و لكن ليس الى درجه الوقوع فى التناقض أو التبرير الذى لا يقبله العقل، فلا ريب ان قتال الصحابه مع بعضهم كان خطأ فادحا، لا بد أن ندينه و ندين الباغى، و كيف يجوز لنا أن نقيم حوادث اليوم حسب الدين؟ و لا يجوز أن نفعل مثل ذلك فى الماضين، أو لم يكونوا بشرا مثلنا، أو لم تكن لهم شهوه السلطه و الثروه.. دعنا نكون أكثر واقعيه، و نضع كل شىء فى موضعه المناسب و لا نكون كالحسن البصرى الذى سئل عن قتال الصحابه فقال: قتال شاهده أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و غبنا، و علموا و جهلنا، و اجتمعوا فأتبعنا، و اختلفوا فوقفنا.. (٢)

فهل يجوز أن نطلق مثل هذا الكلام بالنسبه الى كل حادثه تاريخيه؟! إذا نعطل العقل، بل نعطل موازين الشريعه، كالا.. لا بد أن ندرس التاريخ و نعتبر بما فيه و نميز الحق و الباطل فنتبع الحق و ندع الباطل و الله المستعان على ذلك.

ص: ٣٩٣

١- (١) القرطبي/ ج ١٦/ ص ٣٢١

٢- (٢) المصدر/ ص ٣٢٢

أما الشبهه الدينيه فهى اننا لو شككنا فى أمر الصحابه ضاعت علينا معالم ديننا، أو ليسوا هم الوسيط بيننا و بين معرفه الدين؟ و أضافوا أن هناك أحاديث مأثوره عن الرسول باحترام الأصحاب و أنهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا..

و نقول: إن معالم الدين واضحه بالقرآن، و علينا أن نعرض عليه حتى أحاديث الرسول و أهل بيته فكيف بأفعال بشر مثلنا؟ ثم ان كل جيل يأخذ معالم دينه من الجيل السابق عليه فهل من المعقول إضفاء هاله العصمه على كل الأجيال؟ و ما الفرق مثلا بين الصحابه و جيل التابعين فى أن من لحقهما أخذ منهما معالم الدين؟ فكما ميز علماء المسلمين بين التابعين حسب قوانين علم الرجال، فقالوا هذا ثقه أخذوا منه الدين و هذا وضاع و ذاك ضعيف و الثالث مجهول الحال فلم يأخذوا منه الحديث كذلك ينبغى أن نفعل بالجيل السابق لهم، فنفرق مثلا- بين أبى ذر الغفارى، الذى ما أظلت الخضراء و لا أقلت الغبراء على ذى لهجه أصدق منه، و بين سمره بن جندب الذى كان يكاسر معاويه فى ثمن الأحاديث الموضوعه.

و إذا جاءت روايات فى فضل الأصحاب فيجب تقييدها بالصادقين منهم الذين لم يحدثوا بعد الرسول، و ذلك لسببين:

أولا: لمعارضتها مع روايات أخرى مأثوره عن النبى، تؤكد ان بعض الصحابه يحدثون من بعده، و إنهم يذادون يوم القيامة عن الحوض كما يذاد البعير، و أنه ستكثر من بعده القاله فمن كذب عليه فليتبوأ مقعده من النار.

ثانيا: لأننا يجب أن نجعل كتاب الله مقياسا لمعرفة حدود أحاديث الرسول، و الله سبحانه و تعالى يقول: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

ص: ٣٩٤

«أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ». (١)

«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَدْرِكُونَ». (٢)

«لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». (٣)

و عند ما بين ربنا فضائل الجيل الأول من المسلمين اشترط الايمان و الإحسان فيهم، و لم يطلق الكلام عند ما وعدهم الأجر العظيم، بل قيده بذلك و أكد عليه بحرف «من» التبعيضية و قال:

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا». (٤)

### أحكام الباغين

أ/هل الآيه تشمل حاله القيام ضد الحكم الاسلامى أم تخص الاختلاف بين طائفتين من المسلمين ليس بينهما إمام؟ المعروف بين المفسرين انها تشمل حاله الأولى و لذلك فقد تحدثوا في تفسيرها عن حكم البغاه، و عما حدث في الصدر

ص: ٣٩٥

١-١ (١) السجده ١٨/

٢-٢ (٢) غافر ٥٨/

٣-٣ (٣) الحديد ١٠/

٤-٤ (٤) الفتح ٢٩/



الأول من اقتتال الأصحاب مما كان مظهرها واضحا للبغي ضد الامام الحاكم.

و يبدو أن هذا الفهم يستند الى ان الاقتتال بين المسلمين يكون عادة على السلطه، حيث لا ترى طائفه منهم السلطه شرعيه فتقوم ضدها، و سواء كانت تملك حجه في ذلك، و كما قامت طوائف من المسلمين ضد الحكام في العهدين الأموي و العباسي، أولا كالذي حدث في عهد الامام علي عليه السلام، فان الآيه تشمل ذلك كله، و يشهد على ذلك

الحديث المفصل المروي عن الامام الصادق عليه السلام و الذي جاء فيه: «بعث الله محمدا بخمسه أسياف ثلاثه منها شاهره فلا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها، و لن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها.. الى أن قال: و أما السيف المكفوف فسياف على أهل البغي و التأويل (ثم قرأ الآيه الكريمة: و إن طائفتان.. فلما نزلت هذه الآيه قال رسول الله: إن منكم من يقاتل بعدى على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فسئل النبي: من هو؟ فقال: خاصف النعل، يعنى أمير المؤمنين، فقال عمار بن ياسر: قاتلت بهذه الرايه مع رسول الله ثلاثا و هذه الرابعه، و الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا المسعفات من هجر لعلمنا انا على الحق و أنهم على الباطل». (١)

و علق الفقيه الكبير الشيخ محمد حسن النجفي على ذلك بقوله: خبر الأسياف المروي في التهذيب و الكافي و عمل به الأصحاب و تسمعه إنشاء الله صريح فيما ذكره بعض من أنه نزل فيهم قوله تعالى: و إن طائفتان الآيه. (٢)

ب/ لا- ينبغى معامله أهل البغي معامله الأعداء، بل ينبغى أن نقاتلهم لكف بأسهم و درء للفتنه فاذا فاءوا الى أمر الله عاملناهم كماخوه.. و

قد جاء فى تتمه

ص: ٣٩٦

١- ١) وسائل الشيعه/ ج ١١/ ص ١٨

٢- ٢) جواهر الكلام/ ج ٢١ ص ٣٢٣ (الطبعه الثانيه)

الحديث الآنف ذكره: «و كانت السيره فيهم (أهل البغي) من أمير المؤمنين عليه السلام ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكه يوم فتح مكه فانه لم يسب لهم ذريه، و قال: من أغلق بابه فهو آمن، و من ألقى سلاحه (أو دخل دار أبي سفيان) فهو آمن، و كذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام يوم البصره نادى: لا تسبوا لهم ذريه، و لا تجهزوا على جريح، و لا تتبعوا مدبرا، و من أغلق بابه و ألقى سلاحه فهو آمن». (١)

و

جاء في حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام: عن عبدالله بن سليمان:

قال قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: إن الناس يروون أن عليا قتل أهل البصره و ترك أموالهم (مما يثير تساؤلا عندهم كيف يبيح دماءهم و لا يبيح أموالهم؟) فقال: «إن دار الشرك يحل ما فيها و إن دار الإسلام لا يحل ما فيها». (٢)

بل نجد

في حديث آخر أعظم من ذلك فقد روى مسعده بن زياد عن جعفر عن أبيه: «إن عليا لم يكن ينسب أحدا من أهل حربه الى الشرك و لا الى النفاق و لكنه كان يقول: هم إخواننا بغوا علينا». (٣)

روى عن الامام على عليه السلام انه سئل عن الذين قاتلهم من أهل القبله أ كافرون هم؟ قال: «كفروا بالاحكام و كفروا بالنعم ليس كفر المشركين الذين دفعوا النبوه و لم يقرؤوا بالإسلام و لو كانوا كذلك ما حلت لنا مناكتهم و لا - ذبائهم و لا مواريتهم». (٤)

ص: ٣٩٧

١- ١) وسائل الشيعه/ ج ١١/ ص ١٨

٢- ٢) المصدر/ ص ٥٨

٣- ٣) المصدر/ ص ٦٢

٤- ٤) جواهر الكلام/ ج ٢١ ص ٣٣٨ نقلا عن كتاب الدعائم

ج/يبدو ان البغاه لا يضمنون ما أتلّفوه من مال أو أراقوه من دم، كما لا يضمن لهم ما تلف منهم من مال أو دم، لأن الصلح يعنى تنازل كل طرف عما يعتقد أنه حقه فى مقابل تنازل الطرف الآخر. هذا إذا تم الصلح، و فى حاله استمرار القتال حتى تفىء الفئه الباغيه فان مقتضى جعل العوده الى أمر الله نهايه للقتال أنه ليس هناك حكم آخر كالقصاص و الضمان، و إلاّ- جعلاً حدّاً للقتال، و هذا هو الظاهر من الروايات التى تبين أحكام البغاه إذ لم أجد فيها حديثاً يتعرض لأحكام القود و الضمان و الغرامه مع أنها فى مقام البيان.

كما ان هذا هو المعروف من سيره أمير المؤمنين عليه السلام، فلو أراد الاقتصاص منهم لقتل بعض أسراهم ممن كان يقود الجيش المعادى كمرّوان بن الحكم و عبدالله بن الزبير الذين لا ريب فى تعلق القصاص بهم.

جاء فى التاريخ ان الامام أمير المؤمنين عليه السلام لما هزم أهل البصره ذهب الى دار عظيمه كان فيها أسرى الحرب فاذا نساء يبكين بفناء الدار فصحن به و قلن:

هذا قاتل الأحبه، فبعث إليهن واحده و قال: «لو كنت قاتل الأحبه لقتلت من فى هذه الحجره و من فى هذه» و أوما الى ثلاث حجر فذهبت إليهن و قالت لهن فسكنن جميعاً، و كان فى واحده منها عائشه و خاصتها، و فى الثانيه مروان بن الحكم و شباب من قريش، و فى الأخرى عبدالله بن الزبير و أهله. (١)

و قال القرطبى فى تفسيره: و ما استهلكه البغاه و الخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤخذوا به، و قال أبو حنيفه: يضمنون، و للشافعى قولان، وجه قول أبى حنيفه أنه إتلاف بعدوان فيلزم الضمان، و المقول فى ذلك عندنا ان الصحابه رضى الله عنهم فى حروبهم لم يتبعوا مدبرا و لا ذفّفوا على جريح و لا قتلوا أسيرا و لا ضمنوا

ص: ٣٩٨

نفسا و لا مالا و هم القدوه. (١)

د/قال الفقهاء إن الباغي ذا الفئه يقتل أسيرا و يجهز عليه جريحا و يستحل ماله،لأنه يعود الى من يجمع له السلاح و يغدق عليه الأموال و يعاود القتال..

و

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام انه سئل عن الطائفتين من المؤمنين إحداهما باغيه و الاخرى عادله فهزمت العادله الباغيه قال:«ليس لأهل العدل أن يتبعوا مدبرا و لا يجهزوا على جريح و لا يقتلوا أسيرا و هذا إذا لم يبق من أهل البغى أحد و لم يكن فئه يرجعون إليها،فاذا كانت لهم فئه يرجعون إليها فان أسيرهم يقتل،و مدبرهم يتبع و جريحهم يجهز عليه».

(٢)

و قال المحقق فى الشرائع:من كان من أهل البغى لهم فئه يرجع إليها جاز الاجهاز على جريحهم و اتباع مدبرهم و قتل أسيرهم.فعلق عليه صاحب الجواهر بقوله بلا خلاف أجده فى شىء من ذلك. (٣)

و هذا الحكم يستفاد أيضا من الآيه الكريمة،لأن ذا الفئه من البغاه لا يزال فى حاله الحرب إذا لم ينفصل عنهم أو ليست فئته تحارب المسلمين و هو لم يتبرأ منهم..فلم يتحقق بالنسبه إليهم قوله سبحانه: «حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ».

و

جاء فى حديث مأثور أنه أتى على عليه السلام بأسير يوم صفين فبايعه فقال على عليه السلام «لا أقتلك إنى أخاف الله رب العالمين،فخلى سبيله و أعطاه سلبه الذى جاء به». (٤)

ص: ٣٩٩

١-١) القرطبي/ج ١٦/ص ٣٢٠

٢-٢) المصدر ٣٢٩

٣-٣) المصدر/ص ٣٢٨

٤-٤) وسائل الشيعة/ج ١١/ص ٥٤

و من هنا يظهر ان الأسير يستتاب فان تبرأ من قومه أطلق سراحه و الله العالم.

[١٠] كما النهير يطهر بعضه بعضا، كذلك المؤمنون لا يفتأون يصلحون ما فسد من علاقاتهم ببعضهم حتى يصبحوا إخوانا.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ و جاءت الكلمه بصيغته الحصر لتذكّرنا بأن الايمان الذى لا يرفع المنتمين اليه الى حاله الاخوه ايمان ضعيف ناقص، فها هنا تقاس التقوى، و تمحص النفوس للايمان، و يستبين الصادقون عن المنافقين.

عشرات الأنظمة الاجتماعيه، و مئات الوصايا الأخلاقيه توالى في الدين ليبلغ المسلمون حاله الاخوه الايمانيه، و متى ما خالفنا بعضها انماث الايمان في القلوب كما تنماث حبه الملح في كف المحيط.. و جاءت الروايات تترى و هى توصينا بحقوق إخواننا في الايمان، تعالوا نستمع الى بعضها لعلنا نخلق ذلك المجتمع الأمثل الذى يتحدى أعاصير الفتنه و الصراع.

روى عن الامام على عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً لا - براءه له منها إلا بالأداء أو العفو يغفر زلته، و يرحم عبرته، و يستر عورته، و يقبل عثرته، و يقبل معذرتة، و يرد غيبته، و يديم نصيحته، و يحفظ خلته، و يرعى ذمته، و يعود مرضته، و يشهد ميتة، و يجيب دعوته، و يقبل هديته، و يكافئ صلته، و يشكر نعمته، و يحسن نصرته، و يحفظ حليلته، و يقضى حاجته، و يشفع مسألته، و يسمت عطسته، و يرشد ضالته، و يرد سلامه، و يطيب كلامه، و يبز انعامه، و يصدق أقسامه، و يوالى وليه، و لا يعاديه، و ينصره ظالما و مظلوما: فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه، و أما نصرته

مظلوما فيعينه على أخذ حقه، ولا يسلمه ولا يخذله، و يجب له من الخير ما يحب لنفسه و يكره له من الشر ما يكره لنفسه. ثم قال عليه السلام: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله يقول: إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئا فيطالبه به يوم القيامة فيقضى له و عليه». (١)

روى عن الامام الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يغشه و لا يعتابه و لا يخوفه و لا يحرمه». (٢) و

عنه عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه و لا يظلمه و لا يغشه و لا يعده عدو فيخلفه». (٣) و

و

عنه عليه السلام: «تقربوا الى الله تعالى بمواساه إخوانكم». (٤) و

و

روى عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يخذله و لا يحقره. التقوى هاهنا (و أشار الى صدره ثلاث مرات) حسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه و ماله و عرضه». (٥) و

و

روى عنه أيضا: «لا تحاسدوا و لا تباغضوا و لا تجسسوا و لا تحسسوا و لا تناجشوا و كونوا عباد الله إخوانا». (٦) و

و التحسس: الاستماع الى صيت القدم، و التناجش أن تزيد في سلعه و لا رغبة لك في شرائها.

ص: ٤٠١

١-١) بحار الأنوار/ج ٧٤/ص ٢٣٦

٢-٢) نور الثقلين/ج ٥/ص ٨٧

٣-٣) المصدر/ص ٨٦

٤-٤) بحار الأنوار/ج ٧٤/ص ٣٩١

٥-٥) تفسير القرطبي/ج ١٦/ص ٣٢٣

٦-٦) المصدر

جاء عن الامام الصادق عليه السلام و هو يبين مدى عمق الصله بين المؤمنين:

«إنما المؤمنون إخوة بنو أب و أم، و إذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون». (١)

إنها علاقه روحيه تتجاوز حدود الماده، و تتصل بالغيب، و

جاء فى حديث آخر عن الامام الباقر عليه السلام: سأله جابر الجعفى و قال: تقبضت بين يدى أبى جعفر فقلت جعلت فداك: ربما حزن من غير مصيبه تصيبنى أو أمر ينزل بى حتى يعرف ذلك أهلى فى وجهى و صديقى فقال: نعم يا جابر إن الله عز و جل خلق المؤمنين من طينه الجنان و أجرى فيهم من ریح روحه فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه و أمه، فاذا أصاب روح من تلك الأرواح فى بلد من البلدان حزن حزن هذه لأنها منه. (٢)

و يبقى سؤال: لما اختار الإسلام كلمه الاخوه لبيان مدى العلاقه بين ابنائه؟ ثم لماذا نسب هذه الحاله الى الايمان؟ أولا: حينما اختار المبدأ الغربى كلمه (المواطن) لبيان العلاقه بين ابنائه انطلق من فكره تقديس الأرض و ربط الناس بها و بالمصالح المشتركه التى تشد مجموعه من البشر ببعضهم، و حينما انتخب المبدأ الشرقى كلمه (الرفيق) فقد اعتمد على دور المسيره النضاليه فى علاقته الاجتماعيه. أما الإسلام فقد اجتبى لنا كلمه الأخ لنعلم ان صلتنا ببعضنا ليست ماديه قائمه على أساس تقدير الأرض و المصالح، كما أنها لا تخص حاله النضال و رفاقه المسيره، و إنما هى مبدئيه ناشئه من صله كل واحد منا بدينه، حتى ليصبح الدين كالأب الذى هو أصل وجود

ص: ٤٠٢

١-١) المصدر/ص ٢٦٤

٢-٢) المصدر/ص ٢٦٦

الابن، و كلما قويت و اشتدت صلتنا بالأصل كلما قويت و تنامت صلتنا ببعضنا.

و من

هنا جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك فى سائر جسده، و أرواحهما من روح واحده، و إن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها». (١)

و إنما نسب الوحى الاخوه الى الايمان (و ليس الإسلام) لأن الإسلام مجرد التسليم للدين بينما الايمان و قر فى القلب يفيض على كل جوانب حياه الإنسان، و الذى يرفع الناس الى مستوى الاخوه ليس مجرد التصديق المبدئى بالدين و إنما تطبيق تلك التعاليم القيمه التى تسقط الحواجز الماديه و المصلحيه التى تفصلهم عن بعضهم.

فَأَصْلُهُمْ بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ ما دمننا إخوه، فلا- بد من ردم الفجوات التى تفصل بيننا، و هدم الحواجز و سد الثغرات. أ رأيت البنيان المرصوص، و هكذا يكون بناء التجمع الايمانى. أ رأيت لو امتلئ بالثغرات و الثقوب هل يكون البنيان مرصوصاً، و هل يصلح للبقاء طويلاً؟ إن التعامل اليومى بين المؤمنين يستدعى إشاعه حاله السلام و الصفاء و الموده بينهم، و إلا فإن التعامل ليس فقط يصبح صعباً، بل يكون متلفاً للأعصاب و يسبب تراكم السلبيات. و لو لا- عمليه الإصلاح اليوميه التى يقوم بها المؤمنون تجاه إخوتهم فيما يشجر بينهم فإن تراكم السلبيات يمهد السبيل للصراعات الكبيره التى قد تؤدى الى حاله الاقتتال، لأن كل واحد يستقطب طائفه من المؤمنين حوله

ص: ٤٠٣



و ينشب الصراع بين طائفتين بينما كان فى البدء بين فردين اثنين.

إن الإسلام قد سن تشريعات كثيره فى تنظيم العلاقه بين المؤمنين، و لكن إذا لم نعرف الهدف الأسمى لها و لم نطبقها بحيث نبلغ ذلك الهدف المتمثل فى تكريس حاله الاخوه بين المؤمنين فاننا لا- ننتفع كثيرا بها، بل علينا فوق ذلك أن نضيف الى التشريعات الدينيه ممارسات خلقيه و حتى لوائح قانونيه لتحقيق الإصلاح.. كما ان الدين مثلا سن أحكاما كثيره لرعايه الصحه الجسديه، فعلينا:

أولاً: أن نطبقها بحيث نبلغ هذا الهدف، و ثانياً: أن نشرّع قوانين جديده للوصول إلى ذلك الهدف، إذا احتاجت الصحه إليها، مثل بناء المصححات أو تطهير الشوارع أو إيجاد مراكز الحجز الصحى و ما أشبه.

إن تعاليم الدين التى تخص المقاصد العامه كالصحه و الإصلاح و العداله و العزه و الكرامه و ما أشبه ينبغى أن نطبقها و نعطيها الأولويه بالقياس الى أحكام الدين التى تهتم بسبل تحقيق هذه المقاصد، و لا يجوز أن نهمل هذه الأوامر و كأنها تعاليم أخلاقيه عامه لا تفرض حكماً.

و لعل خاتمه الآيه تشير الى مدى وجوب هذا الأمر الكلى حيث يقول ربنا:

□  
وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بلى. إن رحمه الله و صلواته و بركاته تنتزل على الذين يتواصلون و يتبارون، لأنهم يطيعون الله فى أداء حقوق إخوانهم.

فقد جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله: «من زار أخاه فى بيته قال الله عز و جل له: أنت ضيفى و زائرى على قراك و قد أوجبت لك الجنه بجنبك إياه». (١)

ص: ٤٠٤

جاء فى الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كان فى حاجه أخيه. كان الله فى حاجته و من فرج عن مسلم كربه فرج الله بها عنه كربه من كرب يوم القيامة، و من ستر مسلما يستره الله يوم القيامة». (١)

### فضيله الإصلاح بين الناس:

و لقد أمرت الآيه بالإصلاح بين الاخوه المؤمنين، وقررت النصوص للمصلحين أجرا عظيما.

ففى وصيته عند وفاته لنجليه الحسن و الحسين عليهما السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أوصيكما و جميع ولدى و أهلى و من بلغه كتابى بتقوى الله و نظم أمركم، و صلاح ذات بينكم فأنى سمعت جدكما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامه الصلاه و الصيام». (٢)

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق أنه قال: «صدقته يحبها الله إصلاح بين الناس إذا تفسدوا و تقارب بينهم إذا تباعدوا». (٣)

قال عليه السلام: «لان أصلح بين اثنين أحب الى من أن أتصدق بدينارين». (٤)

و بالرغم من إن الكذب ذنب عظيم إلا ان الدين اعتبر الكذب فى الإصلاح صدق عند الله.

ص: ٤٠٥

١-١ (١) نور الثقلين/ ج ٥/ ص ٨٨

٢-٢ (٢) بحار الأنوار/ ج ٧٥/ ص ٢٤

٣-٣ (٣) نور الثقلين/ ج ٥/ ص ٨٨

٤-٤ (٤) المصدر

جاء فى الحديث المروى عن الامام الصادق عليه السلام: «المصلح لىس بكاذب». (1)

ص: ٤٠٦

---

١ - ١) المصدر ص ٨٩

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

اللغه

(١١) وَلَا تَلْمِزُوا: من المؤمنين، لأنَّ عيب الآخرين من المؤمنين عيب على النفس، لأنَّ المؤمنين وحده واحده.

وَلَا تَنَابَزُوا: التنازب باب المفاعله من النبز بأن يجعل كل واحد منهما للآخر لقباً سيئاً، وإنَّما جاء بلفظ التنازب للدلاله على أنَّ النبز لا بد و أن ينتهى الى المنازبه.

الْإِسْمُ: أى العلامه، لأنَّه مشتق من الوسم.

### هدى من الآيات:

لكى يبنى الإسلام لنا صرحا اجتماعيا متينا يوصينا بأن نكن الاحترام الكافى لاختوتنا، فلا يحتقر قوم قوما آخرين، و لا نساء نساء أخريات، لأن المقياس الحق عند الله، و لعل أولئك الذين نسخر منهم هم خير منا عند الله و أفضل (و لكننا نجعل نقاط قوتهم، و نتعالى عليهم فلا نرى إلا نقاط ضعفهم).

و ينهانا القرآن عن أن نعيب بعضنا لمزا(بالقول و مواجهه)أو أن نتبادل الألقاب السيئه(مما يزيل حجاب الحياء و ينشر الحاله السلبيه)، فبئس الاسم الفسوق بعد أن اجتباننا الله للايمان، و اختار لنا به أحسن الأسماء.(بلى.إن صبغه المجتمع الاسلامى هى صبغه الله التى تشع حسنا، فلما ذا نصبغ مجتمعنا بأسوء الصفات عبر التنابز بالألقاب البذيئه)؟ ثم يوصينا السياق باجتنب الظنون(إلا الظن الذى يدعمه الدليل القاطع)،

لأن بعض الظن إثم (و هو الذى يحوله صاحبه الى موقف عملى)، و ينهانا عن التجسس (الذى هو التحقق من الظن السىء)، و عن الغيبه التى يعتبرها كأكل لحم الأخ ميتا، أو لسنا نكره ذلك، و يأمرنا فى الخاتمه بالتقوى (حتى لا تصبح الغيبه بتكرارها أمرا مألوفا و غير مستقبح) و يؤملنا رحمته و توبته (حتى لا نياس من تطهير أنفسنا و مجتمعنا من هذه الرذائل).

### بينات من الآيات:

[١١] بدايه فساد العلاقه بين الإنسان و نظيره تضاول قيمه الإنسان كإنسان فى عينه، و آتئذ لا يحترم الناس بعضهم، و يبحث كل عن منقصه فى صاحبه يسخره بها، و يدعى لنفسه مكرمه يفتخر بها، بينما لو أنصفنا أنفسنا لعرفنا ان سرّ احترامنا لأنفسنا هو اننا بشر نملك العقل و الاراده، و نتحسس بالألم و اللذه، و نتحلى بالحب و العواطف الخيره، أ فلا توجد كل هذه فى أبناء آدم جميعا، فلما ذا أطالب باحترام الناس لى، و لا أجد لا حد حرمه؟ تعالوا ننظر لحظه ببصائرنا، حين أسخر من إنسان نظير لى فى مجمل صفاته، أ فلا يعنى ذلك أنى أسخر من نفسى أيضا؟ بلى. الذين يكفرون بقيمه الاراده و العقل و الحب و العواطف فى أنفسهم هم الذين يكفرون بها فى غيرهم ثم يسخرون منهم. إنهم ينسلخون من إنسانيتهم ثم يسمحون لأنفسهم بانتهاك حرمت غيرهم.

من هنا يشرع السياق فى اجتثاث جذور الشقاق الاجتماعى بالنهاى عن السخريه بالآخرين قائلا:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّنْ قَوْمٍ

و يخاطب المؤمنين لأن هذه الصفه لا تتناسب و إيمانهم بالله، أو ليس الايمان بالله يعنى حذف القيم الأرضيه و تطهير النفس من احترام المال و البنين و الشهرة و الأرض و..و..مما يسبب عاده فى التفاخر. و حين ينهى ربنا عن السخرية فلأنها الخطوه الأولى فى طريق النهايه. كيف؟ إن من أعظم مفاخر البشر و مزاياه صفه الحياء، حيث يتحسس الإنسان بفطرته النقيه انّ للآخرين حرمة لا بد أن يؤديها إليهم، و من ملك الحياء لا يفكر فى تجاوز الآخرين. فكيف يفكر فى اغتصاب حقوقهم و الاعتداء عليهم؟ و هكذا يسعى الشيطان لازاله صفه الحياء، و حث الإنسان الى الاستهانه بالآخرين، و تصغير قدرهم، و التصوير بأنهم أقل منه فيحق له إذا تجاوز حقوقهم بل و الاعتداء عليهم. و هنا يقف القرآن له بالمرصاد فيأمر بالتمسك بالحياء و الإبقاء على صفه احترام الآخرين حتى يقضى على التفكير فى الجريمه.

أ رأيت كيف يسمح المستكبرون لأنفسهم بارتكاب المذابح الجماعيه بحق المستضعفين و منعهم من حقوقهم من أدنى درجات الحياه؟ هل فكرت يوما كيف انسلخ أولئك البشر عن إنسانيتهم و اندفعوا فى مثل هذه الجرائم؟ إنهم فى البدء سخروا منهم و قالوا نحن أبناء الله، نحن الشعب المختار، نحن ذوى البشره البيضاء اختارنا الله لحكم هؤلاء الذين لم يؤتوا من الذكاء و العقل نصيبا مذكورا. و هكذا كونت الثقافه العنصريه أرضيه الجريمه بحق الشعوب.

و لعل التعبير القرآنى هنا يعكس طبيعه الاستهزاء عند الرجال، حيث انهم يفتخرون عاده بتجمعهم و يسخرون من سائر الناس، فترى أهل هذا الحى يقولون من مثلنا؟ أو أهل هذا النادى أو ذلك الحزب أو هذا المصر أو ذلك الإقليم إنهم يفتخرون بما لديهم و يفرحون بما أوتوا من نصيب الدنيا فيسخرون ممن لا يملك ذلك

حتى و لو ملك ما هو أفضل منه.

أما النساء فتجربى مفاخرتهن فى أمور شخصيه كالجمال و الزينه أو النسب أو السبب، و أساس الاستهزاء بالآخرين عجب كل قوم بما يملكون من ميزات، و فرحهم بها، ثم تعاليم على من سواهم بذلك، و لعل ميزات الآخرين أعظم و أنفع للناس و أبقى عند الله، لذلك ذكرنا الرب سبحانه بالالتفات الى هذه الحقيقه، و قال:

عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَبَأٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَ

فى حديث مأثور عن رسول الله صلى الله عليه و آله نقرأ أن من علامات عقل المرء تركه التعالى على الناس، هكذا روى عن أبى جعفر (عليهما السلام): قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «لم يعبد الله عزّ و جلّ بشيء أفضل من العقل، و لا يكون المؤمن عاقلاً حتى تجتمع فيه عشر خصال.. و العاشره لا يرى أحداً إلا قال:

هو خير منى و أتقى، إنما الناس رجلان: فرجل خير منه و أتقى، و آخر هو شرّ منه و أدنى، فإذا رأى من هو خير منه و أتقى تواضع له ليلحق به، و إذا لقى الذى هو شر منه و أدنى قال: عسى خير هذا باطن، و شرّه ظاهر، و عسى أن يختم له بخير.

فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، و ساد أهل زمانه». (1)

و

فى روايه أخرى قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إن الله عز و جل كتم ثلاثه فى ثلاثه، كتم رضاه فى طاعته، و كتم سخطه فى معصيته، و كتم وليه فى خلقه، فلا- يستخفن أحدكم شيئاً من الطاعات فانه لا يدرى فى أيها رضا الله، و لا يستقلن أحدكم شيئاً من المعاصى فانه لا يدرى فى أيها سخط الله، و لا يزر أن

ص: ٤١١



أحدكم بأحد من خلق الله فانه لا يدري أيهم ولي الله» (١) وجاء في سبب نزول الآية الكريمة ان ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، و كان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي صلى الله عليه و آله فيسمع ما يقول، فدخل المسجد يوما و الناس قد فرغوا من الصلاة، و أخذوا مكانهم، فجعل يتخطى رقاب الناس، و يقول: تفسحوا، تفسحوا، حتى انتهى الى رجل فقال له:

أصبت مجلسا فاجلس، فجلس خلفه مغضبا، فلما انجلت الظلمه، قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانه! -ذكر أمّا له كان يعير بها في الجاهليه- فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية (٢).

و عن ابن عباس في قوله: «و لا نساء من نساء» نزل في نساء النبي (صلى الله عليه و آله) سخرن من أم سلمه. و عن أنس:

و ذلك أنها ربطت حقويها بسببيه - و هي ثوب أبيض - و سدلت طرفها خلفها، فكانت تجرّه، فقالت عائشه لحفصه:

أنظري ماذا تجرّ خلفها كأنه كلب، و قيل أنها-عائشه- غيرتها بالقصر، و أشارت أنها قصيره، و هذا ما روى عن الحسن بن علي عليهما السلام (٣).

و

في تفسير علي بن إبراهيم أن الآية نزلت في صفيه بنت حبي بن أخطب - و كانت زوجه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم - و ذلك أن عائشه و حفصه كانتا تؤذيانهما، و تشتمانها، و تقولان لها: يا بنت اليهوديه، فشكت ذلك الى رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: قولى: أبى هارون نبي الله، و عمى موسى كليم الله، و زوجى محمد رسول الله صلى الله عليه و آله فما تنكران منى؟! فقالت لهما، فقالتا: هذا علمك رسول الله صلى الله عليه و آله فأنزل الله الآية (٤).

ص: ٤١٢

١-١) المصدر/ ج/ ٧٥/ ص ١٤٧

٢-٢) مجمع البيان/ ج/ ٩/ ص ١٣٥

٣-٣) المصدر

٤-٤) تفسير القمي/ ج/ ٢/ ص ٣٢٢

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ اللَّمَزُ هُوَ الْعَيْبُ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: «الَلْمَزُ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ وَالْإِشَارَةِ، وَالْهَمْزُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللِّسَانِ» (١).

و حين يعيب الواحد مَنَّا أخاه ينشر النفس السلبى فى المجتمع، و يسقط حرمة، مما يسبب فى لَمَزِ نفسه أيضا، و لعله لذلك قال ربنا هنا «أنفسكم» كما قال سبحانه: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» (٢) أى لا- يقتل بعضكم بعضا أو قال «فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ» (٣) أى سلموا على بعضكم. إن الإخلال بالآداب الاجتماعيه أسرع شىء تأثيرا على صاحبه، لأن الحاله الاجتماعيه ستعمه سرىعا، ثم ان الذى تلمزه لا يترك العيب عليك، فتسقط هيبه الجميع، و يرفع حجاب الحياء و تتسع الكلمات البذيئه و ينتشر الجو السلبى. ثم ان اللمز- كما السخريه بالآخرين-خطوه فى طريق إفساد العلاقات الاجتماعيه، و جرثومه الصراعات الخطيره، لا بد أن نقف دونها بحزم حتى لا تتطور.

وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ أَنْ يَلْقَبَ بَعْضُنَا بَعْضًا بِالْأَلْقَابِ الْبَغِيضَةِ. وَفِي الرِّوَايَاتِ: أَنَّهُ يَسْتَحِبُّ أَنْ ينادى الأخ أخاه بأحب الأسماء اليه.

و إننا قد نسيء الى إخواننا من غير قصد كأن نلقبه باسم الآخرين، باسم لا يرضاه، و قد نقوله له بحسن نيته غير جد، فيأخذه الآخرين مأخذ الجد و يعيروه به حتى ينطبع عليه، و يسيء الى شخصه و شخصيته. و تختلف تلك الألقاب باختلاف

ص: ٤١٣

١- (١) القرطبي/ج ١٦/ص ٣٢٧

٢- (٢) النساء/٢٩

٣- (٣) النور/٦١

المجتمعات، و عموماً فإنّ كل لقب لا يرضى به صاحبه يجب أن نمتنع عن تلقيه به.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ﴾.

أى لا تتبادلوا بينكم الألقاب السيئه التى تؤثر على سمعه المجتمع الاسلامى، إنما ينبغي أن نختار أفضل الألقاب، و أحب الأسماء فنطلقها على إختوتنا.

إن طهاره اللسان و نظافه الأجواء الاجتماعيه تطبع حياتنا بأحسن الصور.

أ رأيت لو قدمت مدينه قدره لا- يابه أهلها بنظافه أبدانهم، أ فلا تتمنى لو تخرج منها سريعاً؟ كذلك المجتمع حين يعبق طيب الكلمات الحسنه فى أرجائه يستريح الإنسان إليه، أما إذا انتشر فيه ريحه نتنه نهرب منها.

و قد نزلت هذه الآيه- حسب المفسرين- فى أن الرجل كان يعير بأصله بعد إسلامه فيقال له: يا يهودى، يا نصرانى.. و قال البعض: إن الرجل كان له الاسمان و الثلاثه فيدعى ببعضها فعسى يكره فنزلت الآيه. (١)

بَسَّسَ الْإِسْمَ الْمُسْتَوْقَّ بَعْدَ الْإِيمَانِ فَالْأَسْمَاءُ الَّتِي كَانَتْ لِلجَاهِلِيَّةِ لَا تَصْلِحُ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ رَفَعَ اللَّهُ شَأْنَهُمْ بِالْإِيمَانِ- و لذلك

روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله: «من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه» (٢).

وَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

ص: ٤١٤

١-١) القرطبي/ج ١٦/ ص ٣٢٨

٢-٢) القرطبي/ج ١٦/ ص ٢٣٠

إن الحقوق الاجتماعيه ليست بأقل حرمه من الحقوق الماليه، و من يعتدى على عرض إخوانه كمن يعتدى على نفسه أو ماله، أو لا نقرأ

الحديث الشريف المأثور عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إن الله حرم من المسلم دمه و ماله و عرضه و ان يظن به السوء» (١).  
و هذه الآيه تنهى أيضا عن التعبير الذى هو من التنازب بالألقاب حسب ما يدل على ذلك سبب نزولها، و قد وردت نصوص عديده فى النهى عن ذلك منذره فاعل ذلك بالافتضاح.

فقد روى الامام الصادق عليه السلام عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنه قال:

«من أذاع فاحشه كان كمبتديها، و من عير مؤمنا بشيء لا يموت حتى يركبه» (٢).

و

روى عن الامام الباقر عليه السلام: «إن أقرب ما يكون العبد الى الكفر أن يؤاخى الرجل على الدين فيحصى عليه عثراته و زلاته ليعنفه بها يوما ما» (٣).

و

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «إن لله تبارك و تعالى على عبده المؤمن أربعين جنه فمن أذنب ذنبا كبيرا رفع عنه جنه، فاذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجنه عنه، و يبقى مهتك الستر فيفتضح فى السماء على ألسنه الملائكه و فى الأرض على ألسنه الناس، و لا يرتكب ذنبا إلا ذكره، و يقول الملائكه الموكلون به يا ربنا! قد بقى عبدك مهتك الستر، و قد أمرتنا بحفظه، فيقول عزّ و جلّ: ملائكتى! لو أردت بهذا العبد خيرا ما فضحته،

ص: ٤١٥

١- ١) تفسير نمونه نقلا عن المحجّه البيضاء/ ج ٥/ ص ٢٤٨

٢- ٢) بحار الأنوار/ ج ٧٥/ ص ٢١٥

٣- ٣) المصدر

فأرفعوا أجنحتكم عنه فوعزتي لا يؤول بعدها الى خير أبدا» (١).

[١٢] نهت الآيه السابقه عما يفسد العلاقه بصوره عليه، و فى حضور الطرف الآخر، و بتعبير آخر: كانت الآيه تطهر المحضر بينما تنهى هذه الآيه عما يفسد العلاقه من وراء الشخص و تطهر المغيب.. و تبدأ بسوء الظن الذى تثيره و وساوس الشيطان، و يتنامى عاده بين المؤمنين فى غيبه بعضهم عن البعض.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الظن هو التصور الذى ينقصه الدليل، و إن كثيرا من هذا الظن باطل و بعضه يصبح إثما. كيف ذلك؟ إن قلب الإنسان يتعرض لأمواج مختلفه من الهواجس و التصورات، و إن بعضها فقط هى الحق و هى التى تبعث من مصادر المعارف الخارجيه، بينما البقيه هى قياسات باطله و تمنيات و وساوس و إفرازات العقل الباطن و ترشحات الاحباطات و..و..و. إذا راجعت نفسك يوما و حاولت إحصاء و تقييم كل تصوراتك تقييما سليما، فيومئذ تصل الى هذه النتيجة ان أكثرها لا- تعتمد على أدله مقنعه، و لكن أنى للإنسان أن يقيم كل ما يتعرض له ذهنه كل يوم من أمواج التصورات المتلاحقه. فما ذا علينا أن نفعل؟ علينا ال- نأبه بأى تصور يحيكه ذهننا، بل نعلم على الحواس و المصادر الموثوقه للمعرفه.

لذلك فان علينا أن نجتنب كثيرا من الظن، أما القليل الذى نسعى وراءه فهو

ص: ٤١٦

الذى تفرزه الحواس، و يصدق العقل، و يصمد أمام النقد الدقيق. أما الظن الآثم فهو الذى تفرزه حالات الحقد و الغضب و الصراع.. و لكن المشكله ان هذه المجموعه الصغيره متناثره بين سائر الظن الكثير، مما يجعلنا لا نظمئن اليه جميعا، كما لو كان بعض الناس فى بلد حاملا- لفيروس الايدز و لكننا لا- نعرفهم بأعيانهم فعلىنا أن نجتنب كل أهل هذا البلد حتى يتميزوا عن بعضهم.

من هنا نجد

الامام على عليه السلام يكرر فى وصاياه هذه الكلمه، بعد أن يسأل عن المسافه بين الحق و الباطل يقول: «أربع أصابع» و يضع يده على أذنه و عينه فيقول: «ما رأته عيناك فهو الحق و ما سمعته أذناك فأكثره باطل» (١).

و لأن كثيرا من الظنون تطال المؤمنين بسبب أعمالهم التى قد يكون لهم عذر و جيه فى القيام بها، فقد أمرنا الدين بأن نحمل أفعال إخواننا على أفضل محمل.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك (أى تعلم يقينا غير ذلك) و لا تظن بكلمه خرجت من أخيك سوء و أنت تجد لها فى الخير محملا» (٢).

و

عن النبى صلى الله عليه و آله: «أطلب لأخيك عذرا فان لم تجد له عذرا فالتمس له عذرا» (٣).

و بعض المؤمنين يزعمون أن من علامه إيمانهم سوء الظن بالناس و ملاحظتهم بتهمه الفسق و كأن الأيمان حكر عليهم، كلاً.. إن ذلك علامه ضيق نظرهم، و شده عجبهم المفسد لقلوبهم. أما علامه الايمان الحق فهى سعه الصدر و سماحه

ص: ٤١٧

١-١) بحار الأنوار/ج ٧٥/ص ١٩٦

٢-٢) المصدر

٣-٣) المصدر/ص ١٩٧

القلب، و صفاء النفس تجاه الآخرين.

قال الامام الصادق عليه السلام: «حسن الظن أصله من حسن إيمان المرء و سلامه صدره، و علامته أن يرى كل ما نظر اليه بين الطهاره و الفضل، من حيث ما ركب فيه و قذف من الحياء و الأمانه و الصيانه و الصدق.» فهذه هي عناصر الايمان حقا، فالمؤمن حيي أمين يصون سر الناس و يتعامل معهم بالصدق، و أضاف عليه السلام قائلا:

قال النبي: «أحسنوا ظنونكم بإخوانكم تغتنموا بها صفاء القلب، و نقاء الطبع» و قال أبي بن كعب: إذا رأيتم أحد إخوانكم في خصله تستنكرونها منه فتأولوا لها سبعين تأويلا، فإذا اطمأنت قلوبكم على أمرها، و إلا فلوموا أنفسكم حيث لم تعذروه في خصله سترها عليه سبعون تأويلا و أنتم أولى بالإنكار على أنفسكم منه (١).

بلى. يصدق هذا فقط عند صلاح الزمان أو بين التجمع الصالح الذي تتسم علاقاتهم بالأخوه الايمانيه. أما إذا فسد الزمان أو أردنا الحكم على تجمع فاسد أو مجتمع منحل فلا يجوز حسن الظن، لأنه نوع من الغباء و المؤمن كيس فطن.

هكذا

قال الامام الصادق عليه السلام: «إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور فحرام أن تظن بأحد سوء حتى يعلم ذلك منه، و إذا كان زمان الجور فيه أغلب من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيرا حتى يبدو ذلك منه» (٢).

و كلمه أخيره: إن تجنب الظن السئ منهج علمي رصين، لأن وساوس

ص: ٤١٨

١-١) المصدر/ص ١٩٦

١-٢) المصدر/ص ١٩٧

الشیطان و هو اجس الأفكار تتداخل عاده مع بصائر العقل و مكاسب التجربه، فلا بد من فرزها بتجنب سوء الظن و عدم الاعتناء به. أما إذا استرسلنا مع كل هاجسه فى النفس فاننا نفقد المقياس السليم للتفكير، كما انها قد تقودنا الى الفتن العمياء،

فقد جاء فى الدعاء: «فان الشكوك و الظنون لواقح الفتن و مكدره لصفو المنائح و المنن» (١).

و من هنا أوجب الإسلام ترك الاسترسال وراء الظنون، و نهى عن التحقق منها و التجسس على الناس و تتبع عيوبهم و قال ربنا:

وَلَا تَجَسَّسُوا وَ هُوَ الْبَحْثُ عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ بِمَتَابِعَتِهِمْ وَ كَشْفِ أَسْتَارِهِمْ. و

روى عن أبى برده أن النبى صلی الله علیه و آله صلى بنا ثم انصرف مسرعا حتى وضع يده على باب المسجد ثم نادى بأعلى صوته: «يا معشر من آمن بلسانه و لم يخلص الايمان الى قلبه: لا- تتبعوا عورات المؤمنين فإنه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته، و من تتبع الله عورته فضحه، و لو فى جوف بيته» (٢).

و

روى عن الامام الصادق أنه قال: «إذا رأيت العبد متفقدا لذنوب الناس ناسيا لذنوبه، فاعلموا أنه قد مكر به» (٣).

و هكذا يريد الدين لنا حياه آمنه لا تطالها أعين الفضول، و لا تهتك حرمتها متابعات الطفيليين.. يتحسس كل فرد فيها ببرد الأمنه و سكينه الثقه.

ص: ٤١٩

---

١- (١) من مناجاه السجاد عليه السلام مناجات المطيعين له- مفاتيح الجنان ص ١٢٢

٢- (٢) بحار الأنوار/ ج ٧٥/ ص ٢١٥

٣- (٣) المصدر



و كما تحرم الآيه التجسس الفردى تحرم تجسس الدوله على رعاياها، إلا إذا اقتضت مصلحه الأمه، فلا بد أن يخضع ذلك للقضاء القائم على أساس أحكام الشريعة.

و قد فهم المسلمون السابقون هذه الشموليه من الآيه الكريمه حسب ما نجده فى القصة التاريخيه التى حدثت فى عهد الخليفه الثانى الذى خرج و عبد الرحمن يعسان إذ تبينت لهما دار فاستأذنا ففتح الباب، فاذا رجل و امرأه تغنى و على يد الرجل قدح، فقال عمر: و أنت بهذا يا فلان؟! فقال: و أنت بهذا يا أمير المؤمنين؟! فقال عمر: فمن هذه منك؟ قال: امرأتى، قال: فما هذا القدح؟ قال: ماء زلال، فقال للمرأة و ما الذى تغنين؟ فقالت:

تطاول هذا الليل و اسود جانبه و أرقنى الا خليل ألاعبه

فو الله لولا الله أنى أراقبه لزعرع من هذا السرير جوانبه

و لكن عقلى و الحياء يكفنى و أكرم بعلى أن تنال مراكبه

ثم قال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى: و لا تجسسوا، قال صدقت. (١)

□ و لا يَغْتَبُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا الْغَيْبِ: ذكر معاييب الناس عن ظهر الغيب. و قالوا تختلف الغيبه عن الافك و البهتان، إن الافك أن تقول فى الناس ما لا تعلم أنه فيهم، بينما البهتان أن تقول فيهم ما تعلم أنهم براء منه. أما الغيبه فأن تقول فيهم ما يكرهون مما تعلم أنه

ص: ٤٢٠

فيهم..و قد تعم كلمه الغيبه لتشمل الافك و البهتان.

و

في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: من قال في مؤمن ما رآته عيناه و سمعته أذناه فهو من الذين قال الله عزّ و جلّ: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

و

سأل مره عن الغيبه فقال عليه السلام:«الغيبه هو أن تقول لأخيكَ في دينه ما لم يفعل،و تبث عليه أمرا قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حد». (١)

و في هذا النص نرى كيف تعم كلمه الغيبه لتشمل البهتان و كيف أنها تخص العيوب المستوره،أما العيب المتجاهر به صاحبه فان ذكره لا يعد غيبه،و هكذا

جاء في روايه مرسله عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال:

«من ذكر رجلا- من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس لم يغبه،و من ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس اغتابه،و من ذكره بما ليس فيه فقد بهته» (٢)و هكذا لم يجعل الإسلام للفاسق المتجاهر بفسقه حرمه.

و

جاء في روايه نبويه: «إذ كروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس». (٣)

أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ هَكَذَا الْغَيْبَةُ. أَرَأَيْتَ أَنْ شَخِصِيهِ الْإِنْسَانُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ أَمْ شَخِصِهِ؟ أَلَيْسَ الْمَرْءُ يَسْعَى جِهْدَهُ مِنْ أَجْلِ الْكِرَامَةِ وَ التَّقْدِيرِ، فَاذَا اغْتَابَهُ أَحَدٌ فَقَدْ اغْتَالَ شَخِصِيَّتَهُ، وَ نَالَ

ص: ٤٢١

١-١) بحار الأنوار/ج ٧٥/ ص ٢٤٠

٢-٢) المصدر ص ٢٤٥

٣-٣) القرطبي/ج ١٦/ ص ٣٣٩

من كرامته و هي أعز من جسده، ولأنه ليس في محضره فكأنه أكل لحمه بعد موته.

بالله ما أروع هذا التشبيه؟ وما أنفذه من تحذير في وجدان الإنسان الحر.

و كيف يقرب كتاب ربنا الحقائق العظيمة الى وعينا، و بهذه البلاغه النافذه..

و كيف يبصرنا بأن البشر ليس كسائر الأحياء يعيش حياه ماديه ضمن حدود بدنه فحسب، بل إنه يمتد مع سمعته و شهرته أنى توسعت في أفق المكان و الزمان.. و قد يضحى الإنسان بجسده في سبيل كرامته، أو لا يدل ذلك على أن كرامه الإنسان أعظم عنده من شخصه؟ من هنا فان الاعتداء عليها ليس بأقل من الاعتداء على بدنه.. و الغيبه اعتداء سافر على كرامه الشخص فما أشدها حرمة؟ من هنا جاءت النصوص تترى في التحذير من الغيبه باعتبارها أكلا للحم المغتاب بعد موته.

روى أن ماعزا جاء الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله فشهد على نفسه بالزنا فرجمه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله فسمع نبي الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر:

أنظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما ثم سار ساعه حتى مر بجيفه حمار سائل برجله فقال: أين فلان و فلان؟ فقالا: نحن ذا يا رسول الله. قال: انزلا فكلا من جيفه هذا الحمار، فقالا: يا نبي الله و من يأكل من هذا؟ قال: فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه و الذي نفسى بيده انه الآن لقي أنهار الجنه ينغمس فيها (١).

و

روى عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أنه قال: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم و صدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال:

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون في أعراضهم» (٢).

ص: ٤٢٢

١- (١) القرطبي/ج ١٦/ص ٣٣٥

٢- (٢) المصدر/ص ٣٣٦

عن الامام الصادق عليه السلام أنه قيل له: بلغنا أن رسول الله كان يقول:

«إن الله يبغض البيت اللحم؟ قال: «إنما ذاك البيت الذى يؤكل فيه لحوم الناس...» (١).

روى عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال رجل لعلى بن الحسين (الامام زين العابدين عليه السلام) أن فلانا ينسبك الى أنك ضال مبتدع، فقال له على بن الحسين عليهما السلام:

ما رعيت حق مجالسه الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقى حيث أبلغتني عن أخى ما لست أعلمه، إن الموت يعمنا، و البعث محشرنا، و القيامة موعدنا، و الله يحكم بيننا، إياك و الغيبه، فانها إدام كلاب النار، و اعلم ان من أكثر من ذكر عيوب الناس شهد عليه الإكثار أنه إنما يطلبها بقدر ما فيه». (٢).

### المغتاب فى ولايه الشيطان

و الغيبه تخرج صاحبها من ولايه الله الى ولايه الشيطان، فما هى ولايه الشيطان؟ أظهر ما فيها الفرقه و التشتت و التشرذم التى هى سبب مصائب المسلمين اليوم. و إذا أمعنا النظر فيها لرأينا أكثرها نفسيه، فبسبب النظره السلبيه الى بعضنا تنامت خلافاتنا، و الغيبه هى المسئوليه عن انتشار النظره السلبيه. فلو كنا نتمسك بتعاليم الإسلام فى التعامل مع بعضنا على أساس الثقه و كنا نستتر العائبه و نشيع العارفه، و نبث الروح الايجابيه، لكننا إخوانا متعاونين، من هنا حذرت النصوص الدينيه من الغيبه و جعلتها سببا للخروج من ولايه الله حيث الوحده و الصفاء،

ص: ٤٢٣

١-١) بحار الأنوار/ ج ٧٥/ ص ٢٥٦

٢-٢) فبسبب كثره ذنوبه يذكر عيوب الناس كثيرا. المصدر/ ص ٢٤٦.

و الدخول فى ولايه الشيطان.

سأل أحدهم الامام الصادق عليه السلام: قائلًا: يا ابن رسول الله أخبرنى عمن تقبل شهادته و من لا تقبل؟ فقال:

«يا علقمه، كل من كان على فطره الإسلام جازت شهادته» قال فقلت له:

تقبل مقترف للذنوب؟ فقال:

يا علقمه، لو لم تقبل شهاده المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادات الأنبياء و الأوصياء صلوات الله عليهم، لأنهم هم المعصومون دون سائر الخلق، فمن لم تره بعينك يرتكب ذنبا أو لم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة و الستر، و شهادته مقبوله، و إن كان فى نفسه مذنبًا، و من اغتابه بما فيه فهو خارج عن ولايه الله عزّ و جلّ، داخل فى ولايه الشيطان. (١)

إن الإسلام يريد أن يقوم المجتمع على أساس الثقة، فمن زرع هذا الأساس و أشاع جوّ اللاتقة بين أعضائه فقد برئ من ولايه هذا المجتمع المسلم التى هى ولايه الله، و انتمى الى الأعداء.

و من هنا يؤكد الإسلام ان المغتاب ينفصل عمن يغتابه، لأنه تنقطع العصمه بينهما.

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال:

«من مدح أخاه المؤمن فى وجهه، و اغتابه من ورائه فقد انقطع ما بينهما من العصمه». (٢)

و

فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يطمعن المغتاب

ص: ٢٢٤

١-١) المصدر/ص ٢٤٨

٢-٢) المصدر ص ٢٤٩

فى السلافة. (١)؁ و لعل السبب فى ذلك ان من يتبع عيوب الناس يستثير عدوانهم؁ أو لأنه يخلق المجتمع المفكك الذى لا يحلم فى السلافة.

وقد جعلت بعض النصوص الدينيه الغيبه أشد من الزنا؁ ربما لأن اثار الغيبه الخطيره فى تفرقه الناس و النيل من كرامتهم؁ وإشاعه الفاحشه أشد من اثار الزنا؁ لأن الحكمة المأثوره فى حرمة الزنا هى اختلاط المياه و هدم الأسره مما يسبب فى تفكك المجتمع؁ و هذه حكمه حرمة الغيبه أيضا؁ و لكن يبدو أن الغيبه أفتك بوحده الامه من أختها الزنيه.

وقد أمر الإسلام بأن يستحل المغتاب من صاحبه حتى يغفر الله له؁ لان ذلك -فيما يبدو- يعيد العصمه المقطوعه بينهما و يسبب فى إعاده اللحمه الى المجتمع؁ بالاضافه الى أن ذلك يكون رادعا للمغتاب أن يعود الى مثل ذلك مره أخرى.

قال النبى صلّى الله عليه و آله: «الغيبه أشد من الزنا»؁ فقيل يا رسول الله و لم ذاك؟ قال «صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه؁ و صاحب الغيبه يتوب فلا يتوب عليه حتى يكون صاحبه الذى يحله». (٢)

و لأن الغيبه تفتح ثغره فى الحصن الاجتماعى فان على الناس أن يأخذوا على يد المغتاب حتى لا يهدم حصنهم؁ بأن يدافعوا عن أخيهم الغائب؁

فقد جاء فى الأثر عن ابن الدرداء عن أبيه أنه قال: نال رجل من عرض أخيه عند النبى؁ فردّ رجل من القوم عليه فقال النبى (صلّى الله عليه و آله) «من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار». (٣)

ص: ٤٢٥

١-١ المصدر

٢-٢ المصدر/ص ٢٥٢

٣-٣ المصدر

فى حءىء آءرءء عن النبى صلى الله عليه و آله: «من رء عن عرض أخيه المسلم كتب له الجنة البءه». (١)

روى عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: «من اغتیب عنءه أخوه المؤمن فنصره و أعانه نصره الله فى الدنيا و الآءرهء و من اغتیب عنءه أخوه المؤمن فلم ينصره و لم یءفع عنه و هو یقءر على نصرته و عونه خفضه الله فى الدنيا و الآءره» (٢) و لكى نحافظ على حصن ولایه الله المحیطه بناءلا- بء أن نءكر أخانا المؤمن بأحسن ما فىه حتى تزداء اللحمه الاجءماعیه تماسكاء و القلوب المؤمنه صفاء و ءحاببا.

جاء فى الحءىء المروى عن الامام الصادق علیه السلام أنه قال: «اءكروا أخاكم إذا غاب عنكم بأحسن ما ءحبون أن ءذكروا به إذا غبءم عنه». (٣)

### الغیبه: إشاعه الفاحشه

كیف ءشع الفاحشه فى الأمه مع أن المغءاب ءین یءكر صاحب الذنب یءمه بءنبه و یءعله أمءوله و عبره لا مءلا صالحا و قءوه؟ السبب ان للذنوب هیبه فى نفوس المؤمنینء و الجوء العام فى المءءمع المسلم یرفضهاء فلءلك یضطر الذى قءم علیها الى ءءكمء فاذا انءهءك عصمءه أمام الملاء لم یعد یخفیهاء كما ان الآءرین إذا عرفوا وجود من یرءكب الذنب لا یءءون ءرجا من الاقءءاء بهمء و هءكذا ءشع الفاحشه فى الأمه.

ص: ٤٢٤

١- ١) المءءر

٢- ٢) المءءر ص ٢٥٥

٣- ٣) المءءر/ص ٢٥٣

من هنا يعتبر المذنب الكاتم لذنبه أقل إجراماً ممن يتجاهر به، كما يعتبر الذى يذيع الفاحشه كمن يبتدأ بها.

جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أذاع فاحشه كان كمتديها، و من عيّر مؤمناً بشيء لا يموت حتى يركبه». (١)

و

جاء فى حديث مأثور عن الامام الكاظم عليه السلام. قال (الراوى) قلت له (الامام): جعلت فداك، من إخوانى يبلغنى الشىء الذى أكره له فأسأله عنه فينكر ذلك، و قد أخبرنى عنه قوم ثقاه؟ فقال لى: يا محمد! كذب سمعك و بصرك عن أخيك، فان شهد عندك خمسون قسامه و قال لك قولاً فصدقه و كذبهم، و لا تدين عليه شيئاً تشينه، و تهدم به مروته، فتكون من الذين قال الله عز و جل: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ». (٢)

### هؤلاء لا حرمه لهم

و قد أنهى الإسلام حرمه ثلاث طوائف:

الأولى: أئمة الجور الذين لا بد من توعيه الناس بظلمهم و سوء إدارتهم حتى يتمكن المسلمون من إزاحتهم أو لا أقل من تجنب خطرهم، الثانية: أصحاب الضلاله كالأحزاب الكافره و المنافقه و المبتدعين فى الدين، الثالثة: الفسقه المتجاهرين.

فقد روى عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: «ثلاثة ليست لهم حرمه:

ص: ٤٢٧

١-١ المصدر/ص ٢٥٥

٢-٢ المصدر



صاحب هوى مبتدع، و الامام الجائر، و الفاسق المعلن الفسق». (١)

و يبدو أن المظلوم أيضا يجوز له أن يعتاب من ظلمه لقوله سبحانه: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ».

و

يقول رسول الله صَلَّى الله عليه و آله: «من عامل الناس فلم يظلمهم، و حدثهم فلم يكذبهم و وعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروته و ظهرت عدالته، و وجبت اخوته و حرمت غيبته». (٢)

هكذا اشترط الرسول صَلَّى الله عليه و آله توافر هذه الصفات في المؤمن حتى تحرم غيبته.

### كلمه جامعه في الغيبه

و

في نهايه المطاف نقرأ معا كلمه جامعه في الغيبه منسوبه الى الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «الغيبه حرام على كل مسلم، مأثوم صاحبها في كل حال، و صفه الغيبه أن تذكر أحدا بما ليس هو عند الله عيب، و تدم ما يحمده أهل العلم فيه، و أما الخوض في ذكر غائب بما هو عند الله مذموم و صاحبه فيه ملوم، فليس بغيبه و ان كره صاحبه إذا سمع به، و كنت أنت معافى عنه خاليا منه، تكون في ذلك مبينا للحق من الباطل ببيان الله و رسوله صَلَّى الله عليه و آله، و لكن على شرط أن لا يكون للقائل بذلك مرادا غير بيان الحق و الباطل في دين الله، و أما إذا أراد به نقص المذكور به بغير ذلك المعنى، مأخوذ بفساد مراده و إن كان صوابا، فان اغتبت فأبلغ المعتاب فلم يبق إلا أن تستحل منه، و إن لم يبلغه و لم يلحقه علم

ص: ٤٢٨

١-١ المصدر/ص ٢٥٣

٢-٢ المصدر/٢٥٢

ذلك، فاستغفر الله له.

و الغيبه تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أوحى الله تعالى عزّ وجلّ الى موسى بن عمران عليه السلام المغتاب إن تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار، قال الله عزّ وجلّ: أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ (الآية)، و وجود الغيبه يقع بذكر عيب في الخلق و الخلق، و العقل و المعامله و المذهب و الجيل و أشباهه، و أصل الغيبه تتنوع بعشره أنواع:

شفاء غيظ و مساعدته قوم، و تهمه، و تصديق خبر بلا- كشفه، و سوء ظن، و حسد، و سخرية و تعجب، و تبرم، و تزين، فإن أردت السلامه فاذكر الخالق لا المخلوق، فيصير لك مكان الغيبه عبره و مكان الإثم ثواباً (١).

وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ و لعل هذه الخاتمه التي تفيض مغفره و رحمه تدل الى أن الغيبه بلاء يعم الكثير من الناس و لا بد ألا تصبح مقبوله، و يذهب قبورها، بل نتقى الله فيها، و من جهه أخرى لا يجوز أن يستبد اليأس بنا إذا وقعنا فيها بل نتوب الى الله ان الله تواب رحيم.

ص: ٤٢٩

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)  
قَالَتِ الْمَغْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

### هدى من الآيات:

بعد أن يعطينا القرآن بصيره الوحى فى العلاقات بين أبناء آدم الراضه لكل أشكال التمايز إلا بالتقوى، يذكرنا بأن الايمان درجه أعلى من الإسلام، و أن ادعاء الأعراب بلوغها خاطئ، بيد ان طاعه الله و الرسول لا تذهب سدى، (حتى و إن لم يبلغ المرء درجه الايمان).

و يبين الذكر مقياس الايمان الحق فى الطهاره من الريب و الجهاد بالمال و النفس فى سبيل الله. و يسفه أولئك الذين يدعون الايمان عن كذب أو لا يعلمون أن الله محيط علما بكل ما فى السموات و الأرض فكيف لا يعلم مدى إيمانهم؟ و تراهم يمتنون على الرسول إسلامهم (و قد يكون الإسلام من أجل متاع الدنيا).

أما الايمان فهو منه من الله عليهم و ليس العكس.. و تذكرنا خاتمه السوره بعلم الله النافذ فى كل شىء.

و لعل هذه الآيات تنتظم مع الآيات السابقة فى أن هناك فريقا من الناس يحاولون أن يستأكلوا دينهم و يتعالوا على الناس باسم الإسلام و الايمان، فيجعلوا الدين وسيله لبلوغ مآرب الدنيا، و هذا بؤره تمايز لا- يعترف به الإسلام. و لا بد من فضح هؤلاء بتعريضهم لامتحان الطاعه و الجهاد.

### بينات من الآيات:

[١٣] التوحيد صبغه المجتمع الذى يبشر به الدين، و توحيد الله سبحانه يتنافى و القيم الشركيه التى يهبط إليها البشر عند ما يبتعدون عن الوحي الالهى.. من تقديس الاباء و التراث و التقاليد و التمحور حول القبيله و العشيره.. و تقديس الأرض و القوم و الحزب، الى تأليه الثروه و القوه و اللون و العنصر.

كلا.. الإنسان فوق ذلك جميعا إذا تمسك بحبل الله، و اهتدى بنور الوحي و العقل.

و تلك القيم الزائله ليست فقط شركيه تقلل من قيمه الإنسان- بعيدا عن تلك الاعتبار- و تشوه رؤيته الى حقائق الخلق، و تحجبه عن معرفه الخالق. بل هى أيضا جاهليه متخلفه، و ما تقدمت البشريه خطوه إلا بقدر ابتعادها عن تلك القيم بمثلها.

فمن عكف على عباده صنم الأولين، و قدس تراثه و تقاليدته أنى له أن يساير تطورات الزمن، و يستوعب تجارب الآخرين، و ينمو مع الأفكار التقدميه؟ و من عبد صنم قبيلته أو عشيرته هل يمكنه أن يفتح على إيجابيات غيره أو يمد يد التعاون مع من يعتبرهم الأذلين و يسخر منهم، مهما كان عندهم من أفكار و طاقات؟ و هكذا.. كل من حدد نفسه فى إطار ضيق لا يمكنه أن ينطلق مع قطار الحضاره

أنى مشت مواكبها،و من أبرز سيئات مثل هذه التصورات هدم الجسور الطبيعیه بين أبناء آدم،و إشاعه روح التباغض و التناحر بينهم،مما يجعلهم فى مواجهه بعضهم، و قد يدفعهم نحو الحروب الطاحنه التى لم يتخلص منها البشريه طوال تاريخها المعروف بسبب تمسكهم بهذه القيم الجاهليه.

من أجل ذلك دعت رسالات الله الى رفض هذه القيم التى ما أورثت الانسانيه إلا خبالا..و الاستعاضه عنها بقيمه التقوى..و قالت الآيه الكريمة:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ وَالْخَطَابُ لَمْ يَخْصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنْ سِيَاقُ السُّورَةِ يَقْتَضِي ذَلِكَ،لأنه كان ينظم العلاقه بينهم.ربما لأن هذه تنفع البشريه كما تنفع المؤمنين،و إذا كان الناس جميعا مدعوون إليها فالمؤمنون أولى بالتمسك بها.ثم إن علاقه المؤمنين بغيرهم ينبغى أن تقوم على أساس هذه البصيره،فلا- يجوز أن يعتبر العرب منهم أنهم الأعلى بلغتهم أو عنصرهم،فتشكل هذه العقيده الجاهليه حاجزا دون دخول سائر الشعوب فى دين الله.

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ فَالْأَصْلُ وَاحِدٌ،و إذا كنا نكرم آباءنا،فكلما تقدمنا فى الزمن فلن نتجاوز أبانا الأ-كبر،وجدتنا الكبرى،آدم و حواء. فأولى بنا أن نجعلهما محورا و نكرم كل من ينتمى إليهما من سائر البشر.

قالوا:و الآيه تدل على أن خلقه الإنسان ليست بماء الذكر فقط،و إنما يشترك فيها ماء الأنثى كما قال ربنا سبحانه: «خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ»

وَ التَّرَائِبِ « (١) أى صلب الأب و ترائب الأم.

و هذه البصيره القرآنيه تنفى الفكره الجاهليه التى كانت تزعم ان رحم الأم مجرد وعاء لنمو نطفه الأب، و صادروا بذلك حق المرأه فى انتساب الطفل إليها و قال قائلهم:

بنونا بنو آباءنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

كلا.. الأم أحد الشريكين فى الخلق، و احترامها يساوى أو يفوق احترام الأب فى الشريعه.

و هكذا تنفى الآيه العنصريه الجنسيه التى ابتلى بها الجاهلون العرب قبل الإسلام، و نادى بالمساواه بين الذكر و الأنثى فيما يرتبط بأصل الخلق.

وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ قَالُوا:الشعب مجموعه القبائل كمضر و عدنان، بينما القبيله هى تفرعات الشعب، و قال بعضهم:الشعب من ينسب الى الأرض، بينما القبيله تنسب الى أصلهم. و قال آخرون:الشعب هم قبائل غير العرب.. و أنى كان فان هذا التقسيم الذى يبتدأ بوحدته الأسره ثم يتوسع الى العشيره ثم الفخذ و البطن حتى يصل الى العماره و القبيله ثم الشعب، لم يكن عبثاً، و إنما بهدف التعارف.

لِتَعَارَفُوا فَمَنطِقُ الصِّرَاعِ الذى اختلقه داروين مرفوض فى الحياه البشريه، إنما الناس

ص: ٤٣٤

اختلفوا ليمارس كل دوره بحريه و لتنامى تجربه البشريه عبر تنوعها، و لكى يغنى كل فريق تجارب غيرهم بما اكتشفه من تجارب.. و بالتالى ليتعارفوا.

بلى إن ذات الحكمة التي شرعت الأسره من أجلها قائمه في بناء الوحدات الاجتماعيه الأخرى كالعشيره و القبيله و الشعب.

و هذه البصيره تهدينا:

أولاً: إلى مشروعيه هذه التقسيمات الطبيعيه و انها-في الأساس-نافعه، و علينا أن نعيدها إلى طهرها، بعيداً عن كل ألوان العصبية و التعالي لنجني ثمارها الطيبه.

و هذا ما يدعو إليه الإسلام كما جاء في النصوص الدينيه من ضروره صله الرحم و التواصل مع العشيره

جاء في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أَنَّهُ قَالَ:

«لا يدخل الجنة قاطع رحم» (١).

و

قال: «لما أسرى بي إلى السماء رأيت رحماً متعلقه بالعرش تشكو رحماً إلى ربها، فقلت لها: كم بينك و بينها من أب، فقال: نلتقى في أربعين أباً» (٢).

و

جاء في روايه مأثوره عن أمير المؤمنين-عليه السلام- أنه خطب في الناس فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: «لا يستغنى الرجل و إن كان ذا مال و ولد عن عشيرته، و عن مداراتهم و كرامتهم و دفاعهم عنه بأيديهم و ألسنتهم، هم أعظم الناس حياطه له من ورائه، و المهم لشعته، و أعظمهم عليه حنوا، إن أصابته مصيبه، أو نزل به يوماً بعض مكاره الأمور، و من يقبض يده عن عشيرته، فانما

ص: ٤٣٥

١-١) بحار الأنوار/ج ٧٤/ص ٩١

٢-٢) المصدر/



يقبض عنهم يدا واحده، و تقبض عنه منهم أيد كثيره، و من محض عشيرته صدق الموده، و بسط عليهم يده بالمعروف إذا وجده ابتغاء وجه الله، أخلف الله له ما أنفق في دنياه، و ضاعف له الأجر في آخرته» (١).

ثانيا: أن التعارف بين الناس واحد من أهم مقاصد الشريعة الغراء، لماذا؟ لولا معرفه الناس لما اكتملت حكمه الابتلاء في الخلق أو تدرى لماذا؟ لأن الابتلاء لا يتم إلا بالحريه و المسؤليه فلو اختلط الناس ببعضهم كيف يميز الصالح فيثاب عن المجرم فيعاقب؟ أم كيف تتراكم مكاسب المحسنين و تحصن من أن يسرفها الكسالى و المجرمون؟ كلا. لا بد أن يميز الناس عن بعضهم تميزا كافيا ليأخذ كل ذى حق حقه، فيشجعه ذلك على المزيد من العطاء، و يأخذ التنافس دوره في دفع عجله الحياه قدما الى الامام.

ثالثا: إن حكمه الاختلاف هو التكامل -بعد التنافس على الخيرات- و ليس الصراع و التطاحن، و قد قال ربنا سبحانه: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى» و من دون التعارف كيف يتم التعاون، إن على الناس أن يكتشفوا إمكانات بعضهم ليتبادلوا الخيرات، أما إذا تقوحت كل طائفه في حدودها الجغرافيه أو الاجتماعيه و لم يتعارفوا فكيف يمكن التعاون بينهم؟.

و لعل هذه البصيره تهدينا الى أهميه التعارف بين الشعوب في عصرنا الراهن، لأن إمكانات التعاون بينهم لا تزال غير مستغله حتى بنسبه (١٠٪) و لو ضاعفنا المؤسسات العالميه في كافة المجالات عشرات الأضعاف لكانت فرص التعاون لا تزال أوسع.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

ص: ٤٣٦

حينما تسقط القيم الزائفه، والعصبيات الجاهليه المتخلفه يفتح أفق التنافس الشريف على الخيرات التي يلخصها القرآن هنا بكلمه «التقوى» ويفصلها في آيه مشابهه قائلا:

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (١).

و نستلهم من لحن القول في هذه الآيه: إن التنافس على العمل الصالح و التسابق في الخيرات هو هدف اختلاف الشعوب، و إن لكل منهم شرعه و منهاجا، بل إن هذا الاختلاف و التنوع مطلوب إذا كان وسيله للتنافس البناء، و التعارف و التعاون، كما ان الاختلاف بين الناس في مجتمع واحد هدفه التسارع الى الخيرات، و التعاون فيها كذلك التفرع بين الشعوب و المجتمعات المتنوعه أليس يقول ربنا سبحانه:

«أَهُمْ يُفْسِدُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسِدْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» (٢).

و إذا كان الهدف من هذا التنوع التسارع في الخيرات، فان أكرم الخلق عند الله من استبق إليها، فالأقرب الى الصراط المستقيم، و الأسبق في الصالحات هو الأكرم، لأنه الذي يحقق الهدف دون غيره، و الى هذه تشير كلمه التقوى.. أ ليست

ص: ٤٣٧

١-١ المائدة ٤٨/

٢-٢ الزخرف ٣٢/

التقوى هي المعرفة بالله و العلم بشريعته، و الاجتهاد في تنفيذها؟ و أصل الكلمه من الوقايه، أى التحصن ضد أسباب الهلاك و لا تحصل هذه الوقايه من دون معرفه الطريق و الاستقامه عليه، بعيدا عن أمواج الفتن، و ضغوط الهوى و رياح الشهوات، لذلك كانت التقوى أرفع درجه من الايمان، كما إن الايمان أرفع درجه من الإسلام، و

قد قال الامام الرضا- عليه السلام-: «الايمان فوق الإسلام بدرجه، و التقوى فوق الايمان بدرجه، و اليقين فوق التقوى بدرجه، و ما قسم في الناس شيء أقل من اليقين» (١).

و إنما رفع الإسلام قواعد المجتمع الفاضل على أساس التقوى، لأنه من دونها تمزق العصبيات الجاهليه التجمع البشرى، و لا تدعه يتكامل، بل في كثير من الأوقات يتقابل مع بعضه، و يسير في طريق الهدم.

قال الله سبحانه: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (٢).

إن كلمه التقوى هي صبغه التجمع الايماني و محوره، و عماد تماسكه، و مبعث قوته، بينما العصبيات الجاهليه هي صبغه سائر المجتمعات غير الايمانيه.. و حين حارب الإسلام هذه العصبيات استطاع أن يصهر المجتمع الجاهلي المتشردم في بوتقه التوحيد، و يبني منه تلك الحضاره التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا.

و قد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: ان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أمر بنى

ص: ٤٣٨

١- ١) تفسير نمونه عن بحار الأنوار/ ج ٧٠/ ص ١٣٦

٢- ٢) الفتح ٢٦/

بباضه أن يزوجوا أبا هند امرأه منهم، فقالوا لرسول الله-صلى الله عليه وآله:-

نزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله عز وجل الآية. (١)

و يظهر من هذا الحديث و الذى يليه مدى الصعوبه التى عاناها رسول الله فى انتزاع روح العصبية من ذلك المجتمع الجاهلى المتخلف، و

قد روى عن ابن عباس أنه لما كان يوم فتح مكة أمر النبي-صلى الله عليه وآله-بالألا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسير بن أبي العيص: الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم، و قال الحارث بن هشام: ما وجد محمد صلى الله عليه و آله غير هذا الغراب الأسود حتى يؤذن له، و قال سهيل بن عمر: إن يرد الله شيئاً يغيره، و قال أبو سفيان: انى لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبرئيل النبي-صلى الله عليه وآله-و أخبره بما قالوا: فدعاهم و سألهم عما قالوا فأقرأوا فأنزل الله تعالى هذه الآية. (٢)

و حتى آخر أيامه

كان النبي-صلى الله عليه وآله-يكافح ضد الحمية الجاهلية، فقد ذكر الرواه أنه خطب رسول الله-صلى الله عليه وآله و سلم-بمنى فى وسط أيام التشريق (حيث تجمع الحجاج من كل البلاد) و هو على بعير فقال:

«يا أيها الناس ألا- إن ربكم واحد، و ان أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى و لا أعجمى على عربى، و لا لأسود على أحمر، و لا أحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا نعم قال ليلغ الشاهد الغائب» (٣)

و هكذا تجاوز المسلمون السابقون عقبات التخلف الجاهلى حين تجاوزوا حواجز

ص: ٤٣٩

١- (١) القرطبي/ج ١٦/ص ٣٤١

٢- (٢) المصدر

٣- (٣) المصدر/ص ٣٤٢

الدم و اللون و الإقليم و وحدوا طاقاتهم المتشتمته تحت رايه التوحيد، و جعلوا التقوى محور تنافسهم البناء.

و

قد اشتهرت عن أمير المؤمنين -عليه السلام- في ذلك مقطوعه رائعه:

الناس من جهه التمثال أكفاء\* أبوهم آدم و الأم حواء نفس كنفس و أرواح مشاكلة\* و أعظم خلفت فيهم و أعضاء فان يكن لهم من أصلهم حسب\* يفاخرون به فالطين و الماء ما الفضل إلا لأهل العلم انهم\* على الهدى لم استهدى أدلاء و قدير كل امرء ما كان يحسنه\* و للرجال على الأفعال سيماء و ضد كل امرء ما كان يجهله\* و الجاهلون لأهل العلم أعداء (1) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ و تأتي هذه الخاتمه لبث السكينه في قلوب المؤمنين ألا يقلقوا إن رأوا تكالب الناس على الدنيا و تدابروهم عن أهل التقوى، فان الله عليم بهم و خبير و بيده أزمه الأمور و هو يكرم المتقين، و كفى به شاهدا و كفى به مثيبا عادلا.

[١٤] لأن تجاوز الحميه الجاهليه صعب مستصعب خصوصا على الأعراب الذين عاشوا دهرا يسبحون بأمجادهم و مفاخرهم، فان القرآن الكريم يذكركنا بأن الايمان ليس مجرد التسليم الظاهر للدين الجديد، بل هو تغيير عميق للشخصيه يتجلى في الممارسات العمليه، و من زعم أن بإمكانه الجمع بين قيم الجاهليه و الدين فانه لم يفهم معنى الدين. أو ليس الدين شفاء من أمراض الجاهليه.. و بديلا صالحا للقيم الفاسده فكيف يجتمعان؟

ص: ٤٤٠

الدين الحق جهاد متواصل ضد سلبات البشر. ضد حواجز الدم واللون والأرض. ضد قيم الأنساب والتقاليد والأعراف البائده. ضد الهوى والشهوات والجهل والتحيز.. فمن استطاع أن يخلص طاعته لله وللرسول (دون تقاليده وتراث سلفه)، وجاهد في سبيل إصلاح مجتمعه، فهو الذي ارتقى الى مستوى الايمان.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا و الفرق بينهما ان الإسلام هو التسليم للدين تسليماً ظاهراً.. بقبول الشهادتين و الخضوع للأحكام الشرعية، بينما الايمان انقلاب حقيقى لنفس الإنسان.

وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ تَدَلَّ كَلِمَهُ «لَمَّا» عَلَى ان من أسلم يرجى له الايمان، و لعلها تشير أيضاً الى التأخير، مثل ثم فى الإيجاب، مما يوحى بان المسافه بين الإسلام و الايمان ليست بسيطة، و أن على الإنسان المسلم أن يقطع هذه المسافه بجهده المتواصل. فاذا كان الإسلام بمثابة القبول فى معهد علمى راق، فان الايمان هو التخرج منه بنجاح.

جاء فى الحديث المأثور عن رسول الله -صلى الله عليه و آله-: «الايمان إقرار باللسان و معرفه بالقلب و عمل بالأركان» (١).

و

فى حديث آخر مروى عن الامام الصادق عليه السلام: «الايمان يشارك الإسلام، و الإسلام لا يشارك الايمان» (٢).

وَ إِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

ص: ٤٤١

١- ١) بحار الأنوار/ ج ٦٧/ ص ٦٦

٢- ٢) المصدر/ ج ٧٢/ ص ٢٣

و كيف ينقص الله الغفور الرحيم شيئاً من أعمال عباده التي تحصن بالطاعة لله و للرسول؟ و نستلهم من هذه الآيه ان مقياس الايمان الحق هو الطاعة، ذلك أن الطاعة امتحان صعب، إنها خروج عن زنانه الذات الى رحاب الحق، و تجاوز لحواجز المادة، و انطلاق في ميادين الخيرات.

[١٥] و جاءت الآيات التاليه تبين شروط الايمان أو ليس الايمان هو القوه التنفيذيه لكل تعاليم الوحي، و هو روح المجتمع الدافعه من دونها تصبح أنظمتها حروفا بلا- معانى؟! إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا بِمَا يَكْلَفُ بِمَهْمِهِ صَعْبَهُ تَوَسَّوسَ لَهُ نَفْسُهُ فِي صَدَقِ إِيمَانِهِ، أما من محض الايمان فانه كالذهب الخالص كلما تعرض لنيران الصعاب كلما ازداد جلاء و نورا.

وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ الْجِهَادَ بَدَلَ مَا يَسْعَهُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، و لا يكون ذلك إلا عند ما يخلص القلب من شوائب الكفر و الشرك و النفاق.

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ إنها حقيقه الايمان التي تتجلى في الطاعة و الجهاد و من دون الوصول الى هذه الحقيقه لا يمكن تصديق إيمان الفرد، أما إسلامه فهو صادق بمجرد قبوله دين الإسلام و التزامه به.

[١٦] و الذي يكابر و يدعى أنه مؤمن برغم كل ذلك فانه قد سفه نفسه، كيف

يزعم بأنه يعلم الله دينه أو ليس الله محيطا علما بكل شيء؟ أولئك قوم من أعراب بنى أسد-حسب المفسرين-قدموا على رسول الله في سنه جدبه، وأظهروا الشهادتين (رغبه في عطاء الرسول ليس إلا)، لم يكونوا مؤمنين في السر و أفسدوا طرقات المدينة بالمخدرات، وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله-صلى الله عليه وآله- (وهم يمتنون عليه) أتيناك بالأثقال و العيال، و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقه و جعلوا يمتنون عليه فأنزل الله «الاعراب» الآية. (١)

قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ بِأَنْكُمْ مُؤْمِنُونَ حَقًّا.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [١٧] الايمان نعمه كبرى لا تساويها نعمه، وحين يزكى الإنسان نفسه و يروضها بالتقوى، و يسعى لرؤيه الحقائق، حينئذ يتجلى الله لقلبه، فيرى الله بنور الايمان و يرى بنور الله كل شيء.

يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ لَأَنَّ الْإِسْلَامَ إِذَا كَانَ لِهَدَفٍ مَادَى فَهُوَ إِذَا لِمَصْلَحَتِهِمْ وَلَا يَسْتَدْعَى الْمَنَّهُ، وَإِنْ كَانَ إِخْلَاصًا لِلَّهِ، فَانَ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْهِمْ بِهِ وَبِمَا يَلِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ.

ص: ٤٤٣



بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي ادْعَائِكُمُ الْإِيمَانَ وَيَدُو أَنْ السِّيَاقَ يَتَنَاوَلُ قِصَّةَ أَعْرَابِ بَنِي أَسَدِ الْآنْفِ  
الذِّكْرَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَعْمُ كُلَّ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ وَيَجْعَلُونَهُ وَسِيلَهُ لِلتَّعَالَى عَلَى النَّاسِ، وَاِكْتِسَابِ الشُّهُرَةِ وَالثَّرْوَةِ وَ  
السُّلْطَةِ.

[١٨] وَلِكِي يُوْجَدُ الْقُرْآنَ وَازْعَا نَفْسِيَا لِلْإِنْسَانِ أَلَا يَزْكِي نَفْسَهُ وَيَدْعِي الْإِيمَانَ كَاذِبًا، أَوْ يَحَاوِلُ ابْتِرَازَ الْآخِرِينَ بِاسْمِهِ، فَانَ اللّٰهُ  
يَحْذَرْنَا نَفْسَهُ، وَيَذْكُرْنَا بِأَنَّهُ مَحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَالْأَعْمَالُ يَزْنُهَا بِقَدْرِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا.. وَبِهَذِهِ الْآيَةِ تَخْتَمُ سُورَةُ  
الْحَجَرَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ يَوْمٍ مَضَى إِلَى أَنْ يَعُودَ وَعِيَا، وَبِالذَّاتِ الطَّلِيْعَةِ الرَّسَالِيَةِ الَّتِي قَدْ تَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ  
أَيْضًا الْحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ وَ لَوْ بِالْوَانِ جَدِيدِهِ كَالْحَزْبِ وَ التَّفَاخُرِ، نَسْأَلُ اللّٰهَ أَنْ يَقِينَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَيَصُونَ دِينَنَا مِنْ كُلِّ شَائِبَةِ شَرِكٍ  
أَوْ ظَلَمٍ أَوْ نِفَاقٍ.

سوره ق

اشاره

ص: ۴۴۵



بسم الله الرحمن الرحيم

## فضل السوره:

عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام: «من أدمن في فرائضه و نوافله قراءه سوره «ق» وسَّع الله عليه في رزقه، و أعطاه كتابه بيمينه، و حاسبه حسابا يسيرا.» نور الثقلين/ ج ٥/ ص ١٠٤

ص: ٤٤٧



حجب كثيره تمنعنا من ملامسه الحقائق الكبرى، و التي منها المسؤوليه و الجزاء، و حين يسقط الإنسان عن نفسه هذه الحجب يشاهد الحقائق بوضوح يدعه متسائلا- كيف و لماذا أنكرتها من قبل؟! و في سورة «ق» يعالج القرآن الحجب النفسيه التي تمنع البشر عن الايمان بالآخره، ثم يسرد شواهدا و مشاهدها و ما يجرى لأهلها من صعقات هائله، بيد أن السياق -كما يبدو- يركز على حجاب التعجب الذى هو تيار عند الكفار، عند ما يذكرون بالبعث و يقولون: هذا شىء عجيب؟! كيف يمكن أن نعود أحياء بعد أن نمسى ترابا؟! إنها عوده مستبعده، و تتلاحق بصائر الذكر فى تقريب هذه الحقيقه:

أولاً: يعلم الله ما تأكل الأرض من أجسامهم ذره ذره، خليه خليه، و عنده كتاب حفيظ، لا يدع شىء إلا و يحفظه.

ثانياً: إن وراء تكذيبهم بالحق حاله نفسيه (خشيه تحمل المسؤوليه، و الخلود إلى

أرض الشهوات) وهذا يجعلهم فى أمر مختلط.

ثالثا: هذه السماء بما فيها من متانه البناء أليست دليلا على قدره الرب، أو لا تكفى وسيله لتوسيع أفقنا العلمى حتى نعترف بقدره الرب على رجعتنا من جديد.

رابعا: الأرض، ألا ترى كيف مدها الله و أركزها بالراسيات و أنبت فيها من كل زوج بهيج.

بلى. إنها أدله كافيه و لكن لمن؟ لكل عبد منيب، مهياً نفسيا لمثل هذه البصائر و الآيات، و مثل ذلك الغيث الذى ينبت به الله جنات من الأشجار و مروج حب من حب الحصيد-. أ رأيت النخل باسقات لها طلع نضيد؟ إن كل ذلك أنشأه الله ليكون رزقا للعباد، و بكلمه صادعه يفجر السياق ينبوع المعرفة فى القلوب الصافيه و يقول: **وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**.. إنها تحرق حجب التعجب و الاستبعاد، أ رأيت النواه كيف تختزل حياه شجره باسقه حتى إذا أنزل الله عليها الماء و أمدها بوسائل النمو أصبحت شجره باسقه كيف لا يمكن أن يفعل مثل ذلك بالإنسان بعد موته؟ ثم يصب حمم الغضب على الكاذبين لكى يزيل عامل اللامبالاه عند الكفار بالبعث، و الذى قادهم إلى التعجب و يذكهم بمصير قوم نوح و أصحاب الرس و ثمود و عاد و فرعون و إخوان لوط و أصحاب الايكه و قوم تبع كيف نزل بهم و عيد الله حين كذبوا الرسل.

و يستشهد بالخلق أول مره الذى يهدينا متانه نظمه و تنوعه إلى اقتدار خالقه و أنه كان عليه يسيرا.. أ فلا يدل على أنه قادر على الخلق الجديد.

و فى آيات متواصلات يزرع القرآن خشيه الرب فى نفس الإنسان، لكى

يتحسس بمسئوليته تجاه ما يتحدث به، فيذكره بأنه خلقه و يعلم حتى ما توسوس به نفسه، (بالرغم من ادعاءاته الكاذبه) لأنه أقرب إليه مما به حياته ظاهرا و هو جبل الوريد.

فحين يتلقى المتلقيان- ولعلهما الملكان أو المتحدثان أنى كانا- <sup>□</sup> مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، و هو الى كل ذلك لا يملك دفاعا عن نفسه حين تهجم عليه سكره الموت بالحق فلا يدفعه بالرغم من أنه كان يحاول أبدا الحيد عنها، أما حين ينفخ فى الصور فهو يوم الجزاء الذى وعد الله يومئذ يؤتى بكل نفس يسوقها السائق و يرافقه الشاهد..- هذا ما كان يتعجب منه ظاهرا، و انما كان غافلا عنه- بينما اليوم يراه مائلا أمام عينيه (فبصره حديد) أما قرينه (و هو الملك حسب بعض المفسرين) فيقول هذا (كتابه) لى عتيد (قد حفظته منذ أيام حياته الأولى هنالك يأمر هما الله بالقائه فى جهنم مع كل كفار عتيد مناع للخير معتد مريب، و هكذا تحمل جزاء ربه النابع من تهربه عن المسئوليه، الذى جعل مع الله إلها آخر. أما قرينه- و هو هنا الشيطان الذى أغواه- فانه يتبرأ منه و يقول ربنا ليس أنا الذى جعلته يطغى، محاوله منه للهروب من مسئوليه إغوائه، إلا أن الرب يأمر بالقائه أيضا فى جهنم، و مسئوليه أحدهما لا تنفى مسئوليه صاحبه، و ما الله بظلام للعبيد، و إن جهنم تسع المزيد من المجرمين، فلا تظن أن إلقاءك مسئوليه غفلتك على الآخرين يبرى ساحتك أو أن جهنم لا تسع إلا هو أو أنت.

و فى جانب آخر نجد مشهد المتقين الذين تزدلف إليهم الجنه و يبشرون بها، أو ليسوا قد وعدوا بها لما تميزوا به من التوبه و التقوى و خشيه الرحمن بالغيب و إنابه القلب، فاليوم يقال لهم أدخلوا الجنه بسلام خالدين فيها أبدا، و لهم كل ما يشاءون من النعم فيها، و يعطيهم الله من فضله المزيد.



و يبقى الغرور حاجزا آخر أمام الايمان، و لكن ألا يقرءون التاريخ ليروا كم أهلك الله من قبلهم من قرن كانوا أشد منهم بطشا و حاولوا الهرب من مصيرهم فلم يفلحوا؟ و لكن القلوب المريضة و الأسماع الصم لا- تستوعب هذه الحقائق. و لا- يزال يقول الكافر: كيف يحيى الله الناس بعد موتهم؟ أ فلا ينظرون كيف خلق الله السماوات و الأرض في ستة أيام بلا أى تعب.

و فى خاتمه السوره يأمر الله رسوله- و من ثم المؤمنين- بالصبر على ما يقولون، لكى لا- يخرجوا به، أو يتخذوا كلامهم مأخذ الجد، و تسبيح الله صباح مساء، و فى الليل و عند الأسحار و انتظار ذلك اليوم الذى ينادى المنادى من مكان قريب، و ينفخ فى الصور، و ينادون للخروج. إنهم حين يسمعون الصيحه بالحق ذلك يوم الخروج.. هنالك حين يحيى الله الموتى ليرجعوا اليه- فى ذلك اليوم- تتفتق عنهم الأرض سراعاً، ذلك حشر يسير على الله، و دع كلامهم فالله أعلم بما يقولون، و لست مسئولا عنهم، تجبرهم. كلا.. ما أنت بجبار عليهم، إنما أنت نذير تذكركم بالوحي فذكر بالقرآن و سوف يستجيب من يخاف الوعيد.

## [سوره ق (۵۰): الآيات ۱ الى ۳۰]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (۴) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (۵) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْفَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبَصَّرَهُ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (۱۲) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (۱۳) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمِ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (۱۴) أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۵) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (۱۷) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (۱۹) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (۲۰) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (۲۱) لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲۲) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ (۲۳) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (۲۴) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (۲۵) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (۲۶) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (۲۷) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّكُمْ بِالْوَعِيدِ (۲۸) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۲۹) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۳۰)

## اللغة

(۴) مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ: ما تأكل من أجسادهم إذا ماتوا.

(۵) مَرِيجٍ: مضطرب، ومختلط، فتاره يقول أن الرسول صلى الله عليه وآله شاعر، ومره ساحر، ومره يعلمه بشر، وذلك يدل على أنهم لا يستندون إلى حجه.

(۶) فُرُوجٍ: فرجه خاليه عن النظام.

(٧) بَهِيحٌ: يتهيج به الإنسان و يفرح عند النظر إليه، لحسنه و جماله.

(٩) وَ حَبُّ الْحَصِيدِ: هو حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطه و الشعير و غيرهما.

(١٠) بَاسِقَاتٍ: طوالا.

طَلَعٌ نَضِيدٌ: منضود بعضه فوق بعض، و الطلع و عاء الثمر.

(١٢) أَصْحَابُ الرَّسِّ: الذين رسوا نبيهم فى الأرض و أقبروه حيا.

ص: ٤٥٤

(١٤) أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: وهم قوم شعيب، وقد كانت إلى جنبهم أَيْكَة و هى الشجر المزدهم و الملتف على بعضه.

قَوْمٌ تُبِّعٌ: كان تبع ملكا مؤمنا، و قومه كافرين كانوا كثيرى الأموال و القوى.

(١٥) أَفْعَيْينَا: هل عجزنا.

(١٧) حَبْلِ الْوَرِيدِ: الوريدان هما العرقان المكتنفان بصفحتى العنق فى مقدم العنق، و إضافه الجبل إليه للبيان، أى الجبل الذى هو وريد، و لعل ذكر حبل الوريد لأنه مربوط بالقلب و المخ فهو وسط بينهما و لا أقرب منه إلى الإنسان.

(١٨) عَتِيدٌ: مهيتاً حاضر لا يشتهه.

(١٩) تَحِيدٌ: تهرب و تميل.

ص: ٤٥٥



### هدى من الآيات:

فى البدایه یحدثنا الدرس الأول من السوره عن جانب من علاقته الناس بالقرآن المجید الذى یضم فى سوره آیات الوحى، بینما یذكرنا شطره الآخر بآیات الله فى الآفاق التى تهدينا هى الأخرى كما الوحى إلى المزيد من المعرفه بالحق، و ترفعنا إلى درجات الايمان. و فى الخاتمه نجد حديثا عن مستقبل الإنسان فى الدنيا حيث تنتهى حياته بالرغم منه. و كيف انها سلسله من المسؤوليات التى یحاسب عليها، و یتكون جزاءه بحسب التزامه بها.

### بینات من الآيات:

[١] ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (ق) من الكلمات الرمزيه و قال البعض إن معناها:المجد أى الشأن العظيم، و كتاب الله بما یشتمل علیه من الآيات و المناهج، كفيل بأن يعطى لمن یتبعه العزه

و الكرامه، و يرفعهم إلى قمم التقدم و الكرامه، لأنه منطلق ذلك كله. و لكن الكفار و المشركين أغفلوا هذه الحقيقه و تركوا ذلك المجد بسبب نفسياتهم و ثقافتهم السلبيه، و ساروا في نفق من التساؤلات و المواقف القشريه السخيفه التي أفقدتهم ذلك المجد.

و الأمه الاسلاميه إنما قصرت عن بلوغ الحضاره، و توقفت عن التقدم الذى بدأتها فى نهضتها الاولى، بل و تراجعت أمام الأمم الاخرى بالرغم من امتلاكها لهذا الكتاب العظيم بسبب تعاملها الخاطى معه، فاذا به عند بعض المسلمين كتاب تفؤل و تبرك، بينما انصرف البعض الآخر عن قيمه و مناهجه الحضاريه إلى حروفه و ما تشابه منه، و هكذا هجروا كتاب الله، فلم يبلغوا شيئاً من المجد، ليس لأن القرآن استنفذ أغراضه فلم يعد كتاب المجد، و إنما لأنه لا يعطى ذلك إلا لمن اتبعه بحق.

[٢] إن الكفار رفضوا مجد القرآن، و أصروا على مسيرتهم المنحرفه، لأن القرآن شىء جديد، و لأن القائد الذى أمروا باتباعه بشر مثلهم و من وسطهم. و هذا يدل على انهم لا يتبعون الحق و هدى العقل فى حياتهم، و إنما يتبعون الأهواء و المصالح.

و حيث إن قيم القرآن و قياده الرسول يتعارضان مع تلك الأهواء فهى عجيبيه و مرفوضه عندهم.

بَيْلٌ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَى لَمْ تَكُنْ لَهُ نِظَائِرٌ سَابِقَةٌ لِيَكُونَ مَأْلُوفًا عِنْدَهُمْ، فَهُوَ شَيْءٌ عَجِيبٌ، وَ الْحَالُ إِنْ بَلَّوْغَ الْمَجْدِ لَا يَمُرُّ عِبْرَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ يَتَطَلَّبُ مَخَالَفَتَهَا وَ التَّنَازُلَ عَنْهَا.

[٣] لقد أشار تعجب الكفار إنذار القرآن بيوم القيامة.. قالوا كيف يجمع الله أعضاء الإنسان بعد الموت و تحولها إلى ذرات في التراب؟ و أغرب من ذلك كيف تصير إنسانا سويا؟ أ إذا متنا و كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ يَا لَهُ قَادِرٌ يَدْبِرُ شُؤُونَ الْخَلْقِ، فعارضهم القرآن، و لا يؤمنون بالمسؤولية في الحياه، فجاءهم بخلاف هذه العقيدة، فرفضوه لعدم ألفتهم به، و ما ذلك سوى منهج الجاهلين الذين يعادون ما لا يعلمون و لا يصدقون إلا بما يألفون من حقائق، بينما العلماء و أولو العقل يبحثون عن الحقائق و يقولون: نحن لا نحيط علما بكل شىء، إذا دعنا نبحت بايجابيه. فربما كان هذا واقعا و نحن لم نعرفه، أو لم تكن هذه إلا حقائق كنا نجهلها ثم عرفناها و لم نكن نألفها ثم ألفتها، فلما ذا ننكر رأسا كل ما يقال لنا أليس ذلك من الغباء؟ و عموما التعجب من الجهل و قلة الوعي، و متابعتة من الجهالة و الحمق.

[٤] و لكن القرآن يعالج هذا التعجب، و يبين قدره الله على جمع أجزاء الإنسان و بعثه مره اخرى بلى. قد يتحلل كيمياويا فى التراب، و تتبعثر عناصره ال(١٣٠) هنا و هناك فى صوره ذرات تنقلها الأيدي، أو تذروها الرياح، و لكنها تبقى معلومه عند الله عزّ و جلّ، و محفوظة فى كتاب لا يضل ربي و لا ينسى.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ إِذْ تَحُلَّلَ أَوْصَالُهُمْ فِي تَرَابِهَا.

وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ



يسجل فيه كل شيء بدقه متناهيه، أو ليس الله هو الذى خلق الإنسان من بعد العدم؟ فكيف يعجز عن جمع أوصاله و بعثه بعد الموت؟ إنه يعلم كم أكل التراب من جسم هذا الإنسان؟ وما هى الذره من التراب التى كانت سابقا جزءا من بدنه؟ وكيف تحللت منه؟ و حين مات كم كان يحتوى عليه جسمه من الحديد، و الأملاح، و الماء و سائر العناصر بنسبها و وزنها و مساحتها التى تشغلها، و كم فى كل عضو منها و..و.. إلخ؟! إن الإنسان ليتعجب لو نظر إلى صندوق يحوى ملايين القطع التى يتكون منها محرك الطائرات العسكريه، أو جهاز معقد آخر، و ربما لا- يصدق ان أحدا قادر على جمعها و تركيبها لتصير إلى ذلك مره أخرى، أما الخبير الذى اخترعها و صنعها فليس كذلك، إنه ينظر للأمر على انه ممكن، بل هو أمر يسير، فكيف بالله الذى خلق الأشياء، و الذى كان أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؟ [٥] إن مشكله الكفار انهم لا- يتبعون الحق، بل لا يريدون اتباعه، لهذا تراهم لا يفقهون هذه الحقائق، و لا يشبتون على رأى واحد فى الحياه لاتباعهم أهواءهم، إذ الحق واحد و ثابت فى كل زمان و مكان بينما الهوى متغير.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ و الذى يؤكد هذه الفكره موقفهم من الرسول صلى الله عليه و آله، فهم يسمونه ساحرا تاره و مجنونا أخرى، و شاعرا ثالثه، و أمينا و صادقا و..و.. إلخ، و لو أنهم اتبعوا الوحي لكان يعطيهم بصيره و جوابا لكل سؤال، حتى سؤالهم هذا عن البعث، و لكنهم تركوه للهوى و المصالح فصاروا إلى الهرج و المرج، و لعل هذا يفسر بروز النظريات المختلفه و المتناقضه فى مختلف الحقول الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه.

[٦-٧] و لو أن الكفار الذين يشكون في البعث نظروا إلى الخلق و تفكروا فيما عليه من النظم و التدبير لما تعجبوا من فكره البعث، لأن عقده هؤلاء الأساسيه هي شكهم في قدره الله على ذلك. و شكهم هذا تعبير عن جهلهم، فاذا تفكروا في خلق الله و ازدادوا معرفه به و بآياته المتجليه في الكائنات، لهداهم ذلك إلى الايمان بقدره الله. أ ترى السماء على سعتها و متانه خلقها و ما فيها من الإبداع، و الأرض التي ذلها الله، و ألقى على ظهرها الجبال العظيمه تحفظ توازنها، و أوجد فيها كل ما يحتاج اليه ليصلح عيشنا فيها. كل ذلك أ فلا يهدينا إلى قدره الله على إحيائنا بعد الموت؟! أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا بِالْكَوَاكِبِ الَّتِي تَتَنَاثَرُ عَلَى بَسَاطِهَا الْبَدِيعِ لَيْلًا، وَ اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ الْهَادِيءِ بِالنَّهَارِ.

وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ فِيهَا مُحْكَمَةٌ فِي بِنَائِهَا، لَا تَغْرَهُ وَ لَا كَسْرَهُ.

وَ الْأَرْضَ لِنَنْظُرَ إِلَيْهَا هِيَ الْأُخْرَى، وَ نَتَفَكَّرَ فِي خَلْقِهَا.

مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ لَمْ يَقُلْ جَبَالًا، لِأَنَّ كَلِمَةَ الْجِبَالِ لَا تَعْبُرُ عَنِ دَوْرِ الْجِبَالِ فِي حِفْظِ تَوَازُنِ الْأَرْضِ كَالْمَرْسَاهِ الَّتِي تَثْبِتُ السَّفِينَةَ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ وَ فِي أَطْرَافِ الْمَوَانِيءِ.

و مع ذلك ما كانت الأرض تصلح لعيش الإنسان عليها لو لم يتوفر فيها ما

يحتاجه البشر من ضروريات و كماليات. لهذا كان من الحكمة الالهيه أن يوجد الرب أنواع الخلق على ظهرها.

وَ أَتَّبَعْنَا فِيهَا مِمَّنْ كُلُّ زَوْجٍ بَهِيجٍ مِنَ الْحيوانات، و النباتات و الناس و كل شىء. و كلمه زوج تنطوى على معان كثيره من أبرزها التكامل، و الذى يدل-بدوره-على دقه النظم و حسن التدبير.

أ ترى كيف جعل الله النبات و الأحياء و البشر أزواجا، الذكر و الأنثى، ثم الشعوب و القبائل، ثم جعل الناس يتفاضلون ليحتاجوا إلى بعضهم، ثم جعل كل شىء فى الحياه بحاجة إلى غيره لتتكامل دوره الحياه بما يدع أدق العقول حائره فى هذه الدورات التكاملية التى توازنت و تعادلت و شهدت على حكمه بارئها سبحانه.

ثم جعل الزوج بهيجا يجتذب بجماله الطرف الآخر حتى يسهل التفاعل و يكون أكرم من مجرد حاجه متبادله.

[٨] و هذه كلها آيات بينات على حكمه الله التى تقتضى البعث للجزاء و على قدرته التى تجعل الأمر ممكنا بل محتملا. و هى لا تغيب عن بصر أحد من الناس فالكل يراها بعينه، و لكنها تغيب عن بصائر الكفار و مرضى القلوب. تغيبها عنهم حجب الذنوب و الجهل و الغفله، و تعيها أذن و اعيه و قلوب طاهره من المؤمنين.

تَبْصِرَةً تَزِيدُهُمْ عِلْمًا وَ فَهْمًا وَ وَعْيًا وَ رُؤْيَاهُ.

وَ ذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّتَّبِعٍ تَزِيدُهُمْ إِيمَانًا وَ مَوْعِظَةً وَ عِبْرَةً وَ تَقْوَى، وَ نَهْتَدَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى فِكْرِهِ أُسَاسِيَهُ،

و هي ان الايمان بالله مركز العلم الحق، و منطلق الايمان بسائر الحقائق، فالمؤمن يهتدى من خلال نظره إلى الأشياء، إلى المعارف و العلوم المختلفه، فاذا به ذو بصيره نافذه فى الحياه، كما يزداد يقينا بالحق، لأنه ينظر إلى الحياه بنور الايمان بالله عزّ و جلّ، و هو رأس المعرفه و عماد الايمان، بينما ينظر الكافر إلى ذات الأشياء، فلا يزداد إلا جهلا و كفرا، و تبقى الآيات الواضحه ألبازا فى قلبه لأنه لا نور له فى الحياه «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (١). لهذا

جاء فى الحديث المأثور عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «أول الدين معرفته، و كمال معرفته التصديق به». (٢)

إن المنهج السليم هو الذى يجعل الايمان بالله و معرفته منطلقا لسائر المعارف، و ليس الذى يجعل المعارف و الحقائق الأخرى دليلا إلى الله، لأن الله أجلى و أظهر من كل شىء.

قال الامام الحسين عليه السلام: «إلهى ما أقربك منى و أبعدنى منك، و ما أرأفك بى، فما الذى يحجبنى عنك؟! إلهى علمت باختلاف الآثار، و تنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء، حتى لا أجهلك فى شىء..»

-إلى أن يقول- إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعنى عليك بخدمه توصلنى إليك، كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟! أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! و متى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟! «ثم إن الامام يخاطب ربه بطريقه توحى الاعتذار منه تعالى جعله المخلوقات دليلا- على الله، مبينا انه لم يكن يعمد إلى ذلك لولا أمره عزّ و جلّ بالنظر إليها، و هو مع ذلك يطلب منه أن يرفعه إلى الدرجه الأصح و الأفضل من المعرفه، فيقول:

«إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليك بكسوه الأنوار، و هدايه الاستبصار، حتى أرجع

ص: ٤٤٣

(١- ١) النور / ٤٠

(٢- ٢) نهج / خطبه (١)

إليك منها مصون السر عن النظر إليها، مرفوع الهمه عن الاعتماد عليها» (١) ولا يرتقى إلى هذه المعرفه إلا من عبد الله حق عبادته و تاب اليه كلما أخطأ.

[١١-٩] ثم لينظر الإنسان إلى قطر السماء حينما ينزله الله فيحيى به الأرض، إن ذلك مثل قريب على البعث يوم القيامة.

وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا يَنْطَوِي عَلَى الْخَيْرِ وَ الْفَضْلِ، وَ الْبِرْكَه فِي اللُّغَه تَعْنِي النَّمَاء وَ التَّكَامِل، وَ هُوَ بِالْفِعْل فور ما ينزل الغيث يفجر خيرات الأرض، فاذا بها بعد أن كانت صحراء قاحله تنفرش بحله خضراء.

فَأَثْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ وَ الْجَنَاتِ هِيَ الْأَشْجَارُ الْكَبِيرَه الَّتِي تَدُوم كَالرَّمَانِ وَ الْعَنْبِ، بَيْنَمَا حَبُّ الْحَصِيدِ إِشَارَه إِلَى الزَّرْعِ الَّتِي يَحْصِدُهَا الْإِنْسَانُ كُلَّ عَامٍ لِيَزْرَعَ غَيْرَهَا فِي الْأَعْوَامِ الْلاحقه كَالْحِنْطَه وَ الشَّعِيرِ وَ الذَّرَه.

وَ النَّخْلَ بِالسِّقَاتِ أَي طَوِيلَه مَرْتَفَعَه بِسُوقِهَا.

لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ وَ الطَّلَعُ هُوَ عُرُوقُ النَّخْلِ أَوَّلُ طُلُوعِهَا بَيْنَ اللَّيْفِ وَ السَّعْفِ. أَمَّا النَّضِيدُ فَهُوَ الْمُنْظَمُ وَ هُوَ حَالُ الطَّلَعِ مِمَّا يَجْعَلُهُ أَفْضَلَ فِي نَمَائِهِ.

ص: ٤٦٤

(١-١) مفاتيح الجنان/دعاء عرفه/ص ٢٧٢ (طبعه دار إحياء التراث العربى).

و نستفيد من الآيتين ان مجرد نزول المطر لا- يكفى لخروج الجنان و الحب و النخيل من الأرض، بل لا بد من عناية إلهيه فى الأمر. فلو كانت الأرض التى يهطل عليها الماء غير صالحه، أو كانت صالحه و لكن أهلها مشغولون عن زراعتها، فهل كان ذلك يحولها إلى جنات و زروع؟ كلا.. فهى محتاجه إلى إنبات الله عزّ و جلّ لها برحمته، ليجد العباد رزقهم فيها، و لتكون صالحه للسكن فيعمروها.

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا إِنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً لَا حَرَكَ فِيهَا وَقَدْ هَجَّرْنَا النَّاسَ، فإذا بها بعد نزول الماء تحكى الحياه فى كل جوانبها، و بكل أشكالها. فبعد أن يؤمن الناس رزقهم ينشطون لبناء مدينتهم و توفير سائر مظاهر الحضاره فيها.

و لعل هذا شاهد على أن الزراعه أصل كل حضاره، و هذه إحدى النظريات الحضاريه حيث قالوا: إنها ناشئه من تراكم المحصولات الزراعيه التى تتراكم الثروه بعد بيعها و تبدأ بها دوره الحضاره.. و لا ريب ان حضارات عديده فى التاريخ نشأت بهذه الطريقه.

أ ترى إن الذى أحيا البلاد بعد موتها يعجز عن أحيائنا بعد الموت؟! كَذَلِكَ الْخُرُوجُ و فى الروايات إشارات إلى إن الإنسان يتلاشى فى التراب، و يبقى منه مقدار ذره واحده (خليه) حيه تتعلق بها الروح فى عالم البرزخ، فإذا أراد الله بعثه أمطر السماء أربعين صباحا، و جعل الأرض كرحم الأم، فتنمو فيه تلك الذره، و لكن بصوره سريعه، فإذا بالأرض تنشق عن بشر سوى. و ليس من عجب أن يحدث ذلك، فهذا هو الإنسان يبدأ حياته من نطفه صغيره جدا تنطلق من صلب الأب إلى

رحم الأم، وهكذا تبدأ حياة كل شيء على وجه الأرض. فلتنظر إلى كل حبه تحسبها ميتة، ولكن حين تدفنها في التراب تنشق عن زرع أو شجره عظيمه. و إلى هذا التشابه تشير الآية الكريمة: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِبَأْتًا» (١)، ونحن مع ذلك نؤمن بقدره الله على الخلق و البعث بعد الموت بطرق لا تحصى عددا.

و

في الخبر قال الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله عزّ وجلّ أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحا، فاجتمعت الأوصال و نبتت اللحوم». (٢).

و

قال عليه السلام لما سئل عن الميت يبلى جسده؟: «نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها، فانها لا تبلى، تبقى في القبر مستديره حتى يخلق منها كما خلق أول مره» (٣).

[١٢-١٤] إن الآيات التي مضت كلها علاج لاستبعاد فكره البعث من قبل الكفار، حيث قالوا: «أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»، و الآن يبين القرآن بأن هذا الضلال لم يكن جديدا في تاريخ البشرية، لأن الماضي ينطوي على أمثال كثيره من تكذيب الأقوام السالفه.

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرَّسِّ وَ هُم أَصْحَابُ الْبُتْرِ الَّتِي رَسَوْا فِيهَا بَعْدَ أَنْ قَتَلُوهُ (عن عكرمه)، و قيل الرس بئر قتل فيها صاحب ياسين (عن الضحاك)، و قيل هم قوم كانوا باليمامة على آبار لهم (عن قتاده)، و قيل هم أصحاب الأخدود، و قيل

كان سحق النساء في أصحاب الرس (عن أبي عبدالله عليه السلام) و الذي يبدو لى انهم كانوا في اليمامة

ص: ٤٦٦

١-١) نوح ١٧/

٢-٢) بح/ج ٧-ص ٣٣

٣-٣) المصدر/ص ٤٣

و الرس اسم البئر التى دفنوا فيها نبيهم بعد أن قتلوه.

وَ تَمُودٌ وَ هُم قَوْم صَالِح عَلَيْهِ السَّلَام .

وَ عَادٌ أَى قَوْم هود عليه السلام .

وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ وَ سَمَى أَخَاهُمْ لِأَنَّهُ اتَّسَبَ إِلَيْهِمْ بِالزَّوْجِ وَ اللّهُ الْعَالِمُ.

وَ أَصْحَابُ الْمَأْيَكَةِ يعنى قوم شعيب الذين اشتهرت حضارتهم بالزراعة و البساتين، و الأيكه فى العريه الأشجار المزدهمه التى تلتقى أغصانها، و فيها تبنى الحمام أعشاشها غالبا.

وَ قَوْمُ بَيْعٍ وَ هُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ مَلِكُ الْيَمَنِ، إِلَّا أَن قَوْمَهُ كَانُوا فَاسِدِينَ.

كُلُّ كَذَّبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدٌ لقد بادت حضاراتهم نتيجة تكذيبهم الحق، أو لا يهدينا ذلك إلى تحقق الجزاء فى الآخره كما تحقق فى الدنيا، و حق الشىء أى ثبت و منه الاستحقاق. و هؤلاء ثبت عذابهم، و تحول من القدر إلى القضاء، و من الوعيد إلى الفعل.

[١٥] و يستنكر الله على هؤلاء تكذيبهم بالبعث، و شكهم فى قدرته تعالى



فيقول:

أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ أَى هَلْ أَعْجَزْنَا الْخَلْقَ الْأَوَّلَ مِنَ الْعَدَمِ عَنْ أَنْ نَبْعَثَ الْإِنْسَانَ مَرَّةً أُخْرَى؟ كلا. وفي الآية بيان إلى حقيقة تحل شبهه هؤلاء حول البعث، وهي ان القادر على الخلق من العدم أولى بالقدره على جمع أشلاء البشر و نفخ الروح فيه مره ثانيه. وهذا دليل عقلى بصير على الرجعه للحساب، وإن كان كلا الأمرين سواء عند الله الذى لا يمسه نصب و لا لغوب. و القرآن يعبر عن هذه الفكرة فى موضع آخر بصيغه ثانيه، يقول تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ\* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا- وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ\* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ\* الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ\* أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ\*» (١).

و

فى تفسير هذه الآية سأل جابر بن يزيد أبا جعفر عليه السلام عنها قال: «يا جابر تأويل ذلك أن الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم، و سكن أهل الجنة الجنة و أهل النار النار، جدد الله عالما غير هذا العالم، و جدد خلقا من غير فحوله و لا إناث يعبدونه و يوحدونه، و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم، و سماء غير هذه السماء تظلمهم، لعلك ترى ان الله إنما خلق هذا العالم الواحد؟ أو ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم؟ بلى، و الله لقد خلق ألف ألف عالم، و ألف ألف آدم، أنت آخر تلك العوالم و أولئك الأدميين». (٢).

ص: ٤٤٨

١-١ (١) يس ٧٧-٨١

٢-٢ (٢) نور الثقلين/ ج ٥-ص ١٠٨

إن هذه الحقائق لا تخفى على عقل الإنسان، و لكن الجهل البشرى و ضلال الأفكار و هوى النفس كل ذلك يحجبه عنها، فإذا به يشك في قدره الله على الخلق ثانية بعد الموت.

بَيْلٌ هَيْمٌ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أَى إن الأمر ملتبس عليهم فهم في حيره و ريبه، و سبب ذلك هو جهلهم بكيفية حدوث البعث، بيد إن ذلك لا يعنى استحالته، أ ترى لو كان يقال لشخص قبل ألف عام عن حديد يطير فى الهواء (تعنى بذلك الطائرات و الصواريخ) هل كان يصدق؟ طبعا لا، و لكن لو قيل له تفصيل ذلك لعله كان يدعن أليس كذلك؟ و هذه من طبيعه الإنسان انه ينكر الأشياء التى يقصر عن الاحاطه بتفصيلاتها. أما العقل المحض و البعيد عن المؤثرات، فهو لا- ينكر الأشياء لمجرد انتفاء إحاطته بالتفاصيل، بل ينكرها ما دامت لا تصدق لانتفاء الأدله عليها. و الحال إن الأدله قائمه على الرجوع للحساب.

[١٦] و من ذلك ترى الكفار مرتكزين فى أوحال الشك و الريب من هذا الحق، فهم بين التصديق و التكذيب تتردد نفوسهم فى الوسواس المنبعث من طبيعه البشر، كما من وسواس الشيطان الذى يسعى لاضلاله.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فَلَمْ نَرْكُه سدى، لأنه مسئول و محاسب فى الدنيا و الآخرة، بل بقى تحت الرقابه الإلهيه التى لا تقتصر على ظاهره من الكلام و الفعل، و إنما تنفذ إلى أخفى و أبعده شىء عنده و هو حديثه مع نفسه.

وَ نَعْلَمُ مَا تُؤسوسُ بِهِ نَفْسُهُ

ص: ٤٦٩

فخطرات القلب و هواجس النفس و أفكارها كلها مسجله عند الله عزّ و جلّ، فربما قام يوماً للصلاه فتردد هل يؤديها الآن أم بعد قليل فهذا مسجل لك أو عليك، يسجله الله الذى هو أقرب للإنسان حتى من نفسه.

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَ هِيَ الْأَوْدَاجُ الَّتِي تَرْتَبُطُ الرَّأْسُ بِالْجَسَدِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَنْدَفِعُ إِلَى تَصْرِفٍ أَوْ فِكْرِهِ مَا بَعْوَامِلٍ لَا يَدْرِكُهَا، وَ قَدْ يَقُومُ بِشَيْءٍ ثُمَّ يَنْسَاهُ، وَ لَكِنَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُ كُلَّ صَغِيرِهِ وَ كَبِيرِهِ وَ كُلَّ ظَاهِرٍ وَ بَاطِنٍ «فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسِي» (١)، وَ الْمُتَّقُونَ يَعُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بَعْمَقٍ

«إِذَا زَكَى أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَ رَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي». (٢)

وَ نَجِدُ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ الْأَمَنَ بِحَوْثَا عَنْ آفَاقِ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ، وَ مَوْضُوعِهِ دِرَاسَةُ الْقَرَارَاتِ وَ التَّصْرِفَاتِ الَّتِي تَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ لِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا الْخَفِيَّةِ.

[١٧] إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشُّمَالِ قَعِيدٌ وَ لِهَذِهِ الْآيَةِ تَفْسِيرَانِ:

الأول: إن المقصود «بالمُتَلَقِّيَانِ» ملك الحسنات و ملك السيئات، و

فى الخبر عن الرسول صلى الله عليه و آله انه قال: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، و كاتب السيئات على شماله، و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فاذا عمل حسنه كتبها صاحب اليمين عشرا، و إذا عمل سيئه قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» (٣) و

فى خبر آخر «إن صاحب الشمال ليرفع

ص: ٤٧٠

١-١ (١) طه ٥٢/

٢-٢ (٢) نهج/خ ١٩٣

٣-٣ (٣) نور الثقلين/ج ٥-ص ١١١

القلم ست ساعات عن العبد المخطف أو المسيء، فان ندم واستغفر منها ألقاها، وإلا كتب واحده» (١)و

في كتاب سعد السعود: «إنهما يأتيان المؤمن عند حضور صلاه الفجر، فاذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل، فاذا غربت الشمس نزل اليه الموكلان بكتابه الليل، و يصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عزّ وجلّ، فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله، فاذا حضر أجله قالوا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عتّا خيرا، فكم من عمل صالح أريتناه، وكم من قول حسن أسمعناه، و من مجلس خير أحضرتناه، فنحن اليوم على ما تحبه شفعا إلى ربك. وإن كان عاصيا قالوا له جزاك الله من صاحب عتّا شرا، فلقد كنت تؤذينا، فكم من عمل سيء أريتناه، وكم من قول سيء أسمعناه، و من مجلس سوء أحضرتناه، ونحن لك اليوم على ما تكره، وشهيدان عند ربك». (٢)

الثاني: و قد يكون المعنى بذلك النفس الأماره بالسوء و الأخرى اللوامه التي يضل الأولى منهما الشيطان، و يرشد الأخرى ملائكه الله، و لعل وسوسه النفس و حديثها من ذلك.

قال الصادق (عليه السلام): ما من قلب إلا- و له أذنان، على أحدهما ملك مرشد و على الآخر شيطان مفتن، هذا يأمره و هذا ينجره، الشيطان يأمره بالمعاصي و الملك يزجره عنها و هو قول الله عزّ وجلّ «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ» مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٣).

و

قال عليه السلام: ما من مؤمن إلا- و لقلبه أذنان في جوفه، أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، و أذن ينفث فيها الملك، فيؤيد الله المؤمن بالملك، فذلك قوله

ص: ٤٧١

١-١) المصدر

٢-٢) المصدر/ص ١٠٩

٣-٣) أصول الكافي/ج ٢-ص ٢٦٦ طبعه الآخوندي.

« وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ». (١)

و

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «إن الله تبارك و تعالی أید المؤمن بروح منه تحضره فی كل وقت یحسن فیہ و یتقی، و تغیب عنه فی كل وقت یدنب فیہ و یعتدی، فهی معه تهتز سرورا عند إحسانه، و تسبح فی الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفُسكم تزدادوا یقینا و تریحوا نفیسا و ثمینا، رحم الله امرء هم بخیر فعمله، أو هم بشر فارتدع عنه، ثم قال: نحن نؤید الروح بالطاعة لله و العمل له». (٢)

[١٨] و الإنسان یبقى یتأرجح بین الاستجابة لنداء الحق (الفطره و العقل و الوحی و إمام الحق)، و بین الانصراف عن كل ذلك إلى نداء الباطل (النفس الأماره و الشیطان، و إمام الضلال)، و هو فی ذلك غیر محاسب علی أفکاره، و لكنه إذا حسم الصراع بین هذه القوى، و التردد فی نفسه بالإرادہ سجل علیه موقفه.

□ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًا.

□  
إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ یکتب كل ما یصدر منه، و یضمه إلى کتابه الذی یتقرر مصیره علی ضوء ما فیہ، فاما تغلب الحسنات السیئات فیتسلمه بيمينه و تسوقه ملائکة الرحمه فی زمره المتقین إلى الجنة، و ربما أخذ إلى النار قليلا لیطهر، و أما تغلب الأخرى فیأخذه بشماله، و تسوقه ملائکة العذاب إلى جهنم لیلبث فیها أحقابا أو یخلد فی العذاب

ص: ٤٧٢

١-١) المصدر/ص ٢٦٧

٢-٢) المصدر/ص ٢٦٨

مهانا. حتى إن البشر ليذهلون من دقه الكتاب: «وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا\* وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَافِيَةَ غَيْرَةٍ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» (١).

[١٩] بلى. إن الإنسان يخشى من الموت، ويحاول جهده الفرار من ساحته، ولكن متى كان مصيره في يده، أو كان قادرا على رد قضاء الله؟ كلا. إن سكره الموت تأتيه فتذهله عما يحيط به، كما تذهل سكره الخمره شاربها و يومئذ يعرف أن محاولاته في الهروب من الموت و التي استغرقت أكثر مساعيه باءت جميعا بالفشل.

وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ [٢٠] و حينما يموت الإنسان تبقى بينه و بين الجزاء الحقيقي مسافه البرزخ، فاذا كان يوم القيامة، أمر الله ملكا عظيما من ملائكته يقال له إسرافيل بالنفخ في الصور فيحدث عندها صوت عظيم مهيب يقوم الناس بسببه من الأجدات بإذن الله عز و جل «و نَفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (٢) و تلك النفخة إيذانا منه تعالى ببدء أعظم و أرهب محكمه في عالم الإنسان حيث تقف الانسانيه و بكل أجيالها التي تعاقبت على هذه الأرض، تزدهم بهم آفاقها، أحسنهم حالا يومئذ من وجد لقدميه موضعا و لنفسه متسعا، يسبحون في بحر من العرق الذي تنفصد به أبدانهم. و هناك تتقطع بينهم الأسباب و الوشائج فيتبرأ الواحد من أقرب الخلق اليه، من ولده و زوجته و أمه و أبيه و أخيه.

ص: ٤٧٣

١- (١) الكهف ٤٨-٤٩

٢- (٢) يس ٥١/

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ فَمَهْمَا لَقِيَ الْكُفَّارَ وَالظَّالِمُونَ مِنْ جِزَاءٍ كَمَا هُوَ حَالُ الْأَقْوَامِ السَّالِفَةِ الَّتِي ذَكَرْتَهُمُ الْآيَاتُ (١٢) - (١٤) إِلَّا أَنْ الْجِزَاءَ الْحَقِيقِي الَّذِي يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ اللَّهُ يَلْقَوْنَهُ فِي الْآخِرَةِ، الَّتِي تَبْدَأُ بِنُفْخِهِ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصُّورِ.

## إسرافيل:

و

فى دعاء الامام زين العابدين عليه السلام فى الصلاة عن حملة العرش قال:

«وإسرافيل صاحب الصور الشاخص، الذى ينتظر منك الاذن، و حلول الأمر، فينبهه بالنفخه صرعى رهائن القبور»، (١)

و

قال رسول الله صلى الله عليه و آله : «خلق الله الصور من لؤلؤه بيضاء فى صفاء الزجاجه، ثم قال للعرش خذ الصور، فتعلق به، ثم قال: كن، فكان إسرافيل فأمره أن يأخذ الصور، فأخذه و به ثقب بعدد كل روح مخلوقه، و نفس منفوسه، لا تخرج روحان من ثقب واحد، و فى وسط الصور كوه كاستداره السماء و الأرض، و إسرافيل واضع فمه على ذلك الكوه، ثم قال له الرب تعالى: قد وكلتك بالصور، فأنت للنفخه و للصيحه، فدخل إسرافيل فى مقدم العرش، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش، و قدم اليسرى، و لم يطرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به» (٢).

[٢١] فإذا جاء أمر الله لاسرافيل و نفخ فى الصور، انبعث الناس من قبورهم و بدأ يوم القيامه، و هناك توضع الموازين الحق، و تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع

ص: ٤٧٤

١-١) بح/ج ٥٩-ص ٢١٧

٢-٢) المصدر/ص ٢٦١

إلا همسا من هول الموقف، وتأتي كل نفس بمفردها منقطعه عن كل شيء سوى ما اكتسبت وسعت، كما يصف القرآن «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» (١).. نعم.

هناك اثنان يشايعانه تنتهي مهمه الأول عند إصدار الحكم المصيري بحقه و هو الشهيد الذي يدلى بإفاداته أمام المحكمه الإلهيه بالحق ان لصالح الشخص أو عليه، سواء كان ذلك الشهيد الملك الذي كتب أعماله، أو طرف آخر من البشر و سائر الخلق، أو كان عضوا منه أو جارحه، بينما تنتهي مهمه الآخر على باب الجنه إذا كان الشخص من الصالحين أو على باب جهنم إن كان من أصحاب السعير، و هو السائق، و هذا الأخير ينتظر حكم الله في من يسوقه، فاما يزفه باللفظ و الترحاب إلى الجنه، و أما أن يسوقه بمقامع الحديد إلى النار.

وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَ شَهِيدٌ لَقَدْ بَيَّنْتَ النُّصُوصَ الدِّينِيَّةَ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ هَمِّ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يِرَافِقُونَ كُلَّ نَفْسٍ يَوْمَ الْحِسَابِ؟ وَ نَحْنُ نَذَكُرُ طَائِفَهُ مِنْهُمْ:

١- القيادة الرساليه شاهد على الإنسان. قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا» (٢). و قال: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا» (٣) و قال يحكى عن شهاده عيسى عليه السلام:

ص: ٤٧٥

١-١) مريم ١٩٥

٢-٢) الأحزاب ٤٥

٣-٣) المزمّل ١٥



«يَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا\* وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا»  
(١)، وقال: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا». (٢)

٢- جوارح الإنسان و أعضاؤه تشهد، قال تعالى: «وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ\* حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ\* وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ\* وَمَا كُنْتُمْ تَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ» (٣) وقال في موضع آخر: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٤).

٣- الكتاب هو الآخر شاهد علينا بما يحتويه من قيم و مفاهيم إلهية، قد تتفق معها مواقفنا و سلوكياتنا و أفكارنا و قد تخالفها. قال تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ (يعنى القرآن) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ». (٥)

٤- الملائكة يشهدون. قال تعالى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا\* لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا» (٦) كما أنهم يسجلون سعى الإنسان في كتابه. قال تعالى:

ص: ٤٧٦

١-١ (١) النساء ١٥٨-١٥٩

٢-٢ (٢) النساء ٤١/

٣-٣ (٣) فصلت ٢٠-٢٢

٤-٤ (٤) الانعام ١٣٠/

٥-٥ (٥) هود ١٧/

٦-٦ (٦) النساء ١٦٥-١٦٦

«إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» (١).

٥- تشهد على الإنسان كل لحظه من عمره، إذ ينطبع فيها أثر كل سعى و تفكير يقوم به، وربما مرّ عليه الزمان دون أن ينتفع منه، فهو يشهد عليه يوم القيامة بذلك أيضا.

قال الامام على عليه السلام: «ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم: أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد، فافعل في خيرا و اعمل في خيرا، أشهد لك به يوم القيامة، فانك لن ترانى بعد هذا أبدا» (٢).

٦- كذلك يشهد أولياء الله على غيرهم، لأنهم بأعمالهم الصالحة ميزان لأعمال الناس، و حجه يرفعها الله على الآخرين، فالمجاهدون حجه على المتقاعسين و القاعدين، و المهاجرون حجه على الذين رضوا بالذل و العيش في ظل الظلمه، و المتواضعون حجه على المتكبرين و هكذا، يقول الله: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيُعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» (٣) و قال في سورة الحج: «وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيُكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» (٤).

٧- تبقى الشهاده العظمى لربنا الجبار الذى لا تخفى عليه خافيه:

ص: ٤٧٧

١- ١) يس ١٢

٢- ٢) نور الثقلين / ج ٥- ص ١١٢ نقلا عن من لا يحضره الفقيه.

٣- ٣) آل عمران ١٤٠

٤- ٤) الحج ٧٨

«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ\* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثِهِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (١)، «قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» (٢) وَ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (٣) وَ قَالَ مُؤَكِّدًا هَذِهِ الشَّهَادَةَ يَخَاطِبُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ: «وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَغْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» (٤).

[٢٢] وَ هُوَ لَاءَ الشُّهُودِ وَ ذَلِكَ السَّاتِقُ كُلُّهُمْ حَاضِرُونَ الْيَوْمَ كحضور أى حقيقه أخرى فى الواقع، إلا أن حجب الجهل و الغفله و الشهوات، و من ثم غياب بصيره الايمان، تمنع الإنسان من الرؤيه، فاذا ما تكشفت له الحقائق و بلغ عين اليقين فى معرفتها، هنالك يأتيه الخطاب من الله:

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصُرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ إِنَّ الْحَقَائِقَ الَّتِي طَالَمَا أَنْكَرَهَا الْمُشْرِكُونَ تَبَدُّو لَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَوْضَحَ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ.

لقد صدق الامام على عليه السلام إذ قال: «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» أما المؤمنون الصادقون فقد تعرفوا على هذه الحقائق بفصل اتباع وحى الله و أوليائه، و إنهم كما

يصفهم الامام زين العابدين (عليه السلام) إذ يناجى ربه قائلاً: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك فى حدائق

ص: ٤٧٨

١-١) المجادل ٦-٧

٢-٢) الانعام ١٩/

٣-٣) الحج ١٧/

٤-٤) يونس ٦١/

صدورهم... فهم إلى أوكار الأفكار يأوون و في رياض القرب و المكاشفه يرتعون... قد كشف الغطاء عن أبصارهم، و انجلت ظلمه الريب عن عقائدهم، و انتفت مخالجه الشك عن قلوبهم و سرائرهم، و انشروحت بتحقيق المعرفه صدورهم... و اطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم، و تيقنت بالفوز و الفلاح أرواحهم» (١) و هذا اليقين ممكن لكل إنسان لو استشار عقله و اتبع هدى الرّب، إلا أن الغفله- و من ثم الاسترسال في الجهل و الشهوات- كل ذلك يحجبه عن الايمان و المعرفه.

[٢٣] و يوم القيامة يرفع الله كل الحجب فاذا بالحقائق واضحه كعين الشمس لا يعتريها شك و لا ريب، و لكن هل تنفعه المعرفه شيئاً...؟ كلا. فالكلمه حينها للشاهد الذي رافقه لحظه بلحظه، و مصيره مرهون بما أعده و سجله عليه و له، حيث يعرضه على الله.

وَ قَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَى مَعَدَّ بَدَقَه وَ حَق فَهوَ يَعْتَدُّ بِهِ فِى الْحِسَابِ.

[٢٤-٢٥] و عند ما توضع أعمال الإنسان في الميزان يصدر الله حكمه الحاسم في حقه، فان ثقلت موازينه أدخل الجنة صالح البال راضى النفس، و إن خفت أمر الله السائق و الشهيد أن يأخذانه إلى النار.

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ أَنْكَرَ فَضْلَ اللَّهِ، وَ لَمْ يُؤَدِّ شُكْرَ نِعْمَاتِهِ بِعِبَادَتِهِ وَ التَّسْلِيمِ لَهُ.

ص: ٤٧٩

عَنِيْدٍ خَالَفَ آيَاتِهِ وَ أَوَامِرِهِ وَ عَاكَسَهَا فِي حَيَاتِهِ.

و هكذا يدخل النار كل مانع للخير، و الخير كلمه واسعه تضم إليها الكثير من المفردات، فقد يكون الخير المال الذى ينعم به الله على الإنسان فلا يخرج منه الحقوق الواجبه، و لا ينفق منه على المحتاجين، و قد يكون الخير هو العلم الذى زكاته نشره بين الناس و لكن صاحبه لا يتحمل رسالته فى الحياه، و هكذا يمتد ظل هذه إلى كثير من المفردات الأخرى. و لكن أهم معانى الخير القياده الصالحه، و أى خير أعظم من قياده يهتدى بها الإنسان السبيل الحق فى مرافق الحياه المختلفه؟ و كم يكون الإنسان آثما حينما يحارب أولياء الله و يصدّ الناس عنهم؟ و فى الخبر عن على بن إبراهيم قال: «و الخير ولايه على عليه السلام و حقوق آل محمد صلى الله عليه و آله» (1) و لا شك ان محاربه العلماء و الفقهاء و القاده الرساليين جزء لا يتجزأ من محاربه الرسول و الأئمه عليهم السلام، بل هى محاربه الله، أو لم يقل عزّ و جلّ:

«من أهان لى و ليا فقد بارزنى بالمحاربه»؟ و هكذا يحاربه الذى ينال من سمعه أوليائه فيصنع حاجبا بين الناس و بينهم.

□  
مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيْبٍ وَ الْمُعْتَدَى هُوَ الَّذِى يَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ وَ الْحَقُوقَ، أَمَّا الْمُرِيْبُ فَهُوَ الَّذِى لَا قَنَاعَةَ عِنْدَهُ بِالْقِيَمِ وَ رَبَّمَا ادْعَى الْإِيْمَانَ لِأَغْرَاضٍ خَبِيْثَةٍ.

[٢٦] و كل هذه الصفات التى تستوجب جهنم (الكفران و العناد، و منع الخير و الاعتداء و الارتياب) كلها مظاهر للشرك الخفى أو الظاهر.

ص: ٤٨٠

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ المشرك ليس الذي يعتقد بإله مع الله، بل الذي يخضع لقيادته لم يأمر بها الله فالذي يرضى عمليا بالحاكم الظالم، أو يطيع أمره في معصية الله مشرك، وإن لم يعتقد بأنه ربّ وإله، كما أن من يطيع هواه فهو عابد له، وهو بذلك يستحق العذاب، وربنا يأمر الملكين بالقائه في جهنم.

فَأَلْفَيْاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَالْإِلْقَاءِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ، وإنما يفعل بأهل النار كذلك، لأن الله خلق الإنسان في مرتبه عاليه فضله بها على الكثير من خلقه، فاذا أشرك به وانحرف عن الصراط بدأ سيرته التسافليه و الإلقاء في جهنم من الأعلى إلى الأسفل هو تجل لهذه الحقيقه التي تبينها سوره التين في قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ\* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (١)» أما حينما يستمر على خط الفطره و يتمسك بحبل الله المتمثل في رسالته و أوليائه، و يستريد من عمل الصالحات فانه ينطلق في مسيره تصاعديه نحو الأعلى، يتقرب إلى الله درجه بعد أخرى «كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْمُبْرَرِ لَفِي عَلِّيْنِ\* وَمَا أَذْرَاكَ مَا عَالِيُونَ\* كِتَابٌ مَرْقُومٌ\* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢)».

[٢٧] وحيث يلقي المشرك في جهنم يظل يهوى إلى الأسفل مده من الزمن حسب انحرافه و سيئاته إلى أن يحل في مكانه المعد له بين يدي عذاب إلهي شديد، و هناك كما عند الحساب يلقي قرناه عملا فيدور بينهم خصام شديد يلقي كل طرف فيه اللوم على الطرف الآخر محاولا بذلك التهرب من المسؤولية، فاذا بالذي

ص: ٤٨١

١- (١) التين ٤-٥

٢- (٢) المطففين ١٨-٢١

جعل مع الله آلهة أخرى-وقد أمر به إلى النار-يريد التخلص من عذابها بإلقاء مسؤوليه انحرافه و ضلاله على قرينه.

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعْتَهُ إِنَّهُ كَاذِبٌ فِي ادْعَائِهِ بَانِي السَّبَبِ فِي طُغْيَانِهِ، ثُمَّ يَسْتَدِلُّ قَائِلًا:

وَ لَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ رُبَمَا يَكُونُ لِلْآخِرِينَ دُورٌ فِي انْحِرَافِ مَسِيرِهِ الْإِنْسَانِ وَ لَكِنَّهُ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ مُسَاعِدًا، أَمَا الدُّورُ الْأَكْبَرُ وَ السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ مَرْهُونٌ بِاخْتِيَارِهِ وَ إِرَادَتِهِ لِلْبَاطِلِ دُونَ الْحَقِّ، فَلِأَنَّهُ أُسَاسًا اخْتَارَ الضَّلَالَ تَجِدُ مَسَاعِيَ الْآخِرِينَ وَ الظُّرُوفَ الْمُتَجَانِسَةَ مَعَ اخْتِيَارِهِ مَوْقِعًا مُؤَثِّرًا فِي حَيَاتِهِ.

[٢٨] ثم إن التخاصم عند الله لا ينفعهم شيئا و ذلك لما يلي:

أولاً: إن المصير الذي صاروا إليه لم يكن مفاجئاً و لا غامضاً بالنسبة لهم.

و كيف يكون كذلك و قد أقام الله الحجج البالغة عليهم، و أذرهم من هذه العاقبة، عبر كتبه و رسله؟ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ وَ أُنذَرْتُمْ مِنْ أَنْ الشَّرْكَ وَ الضَّلَالِ يَسْتَوْجِبُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ، وَ ضَرَبْتَ لَكُمْ الْمَثَلَ تَلُو الْمَثَلَ مِنْ حَيَاةِ الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ (الآيات ١٢ إلى ١٤) و لكنكم كذبتهم النذر، و استهزأتم بالوعيد، و القرآن يفصل هذه الحقيقة في موضع آخر، يقول تعالى:

«تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ\* قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَ قُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ\*»

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ\* فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ» (١).

[٢٩]ثانيا:إن لله سننا وقيما في هذه الحياه،جعلها حاكمه و جعلها الميزان في كل قضيه،و على أساسها يكون حساب الناس و مصيرهم،و هي ثابتة لا تتغير.

و منها ان جزاء الكافر و المشرك النار و جزاء المؤمن الجنه،و لا يمكن أن يكون العكس و إلا فما هي حكمه الحياه الدنيا،و ما هو دور النذر إذا لم يجعل الله للثواب و العقاب نظاما محددًا؟! مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَمَدَىٰ و من القول الثابت الذي تعنيه هذه الآيه ما جاء في سوره صلى الله عليه و آله عند ما أقسم الشيطان أن يغوى العباد فردّ الله عليه: «قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ\* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (٢).

ثالثا:إن العداله الإلهيه تأبى ذلك،إذ كيف يستوى المحسن و المسيء؟!أم كيف يصير الظالم إلى جانب المظلوم في الجنه دون أن يقتص من الأول،و ربما فات الأخير الثأر في الدنيا؟!أ ترى من العداله أن يدخل الجنه المانع للخير و الممنوع عنه؟! أو المعتدى و المعتدى عليه؟!أ ترى يدخل ابن ملجم الجنه مع الامام على و قد فجع المسلمين بقتله؟!أم يدخل يزيد الجنه مع الحسين و قد ذبحه كما تذبح الشاه و هو ابن خاتم الأنبياء،و سيد الأوصياء،و سيده نساء العالمين؟!...كلا.و حاشا لله عزّ و جلّ و هو العادل أن يفعل ذلك،و هذا كتابه ينطق عنه قائلا:

وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ

ص: ٤٨٣

١-١) الملك ٨-١١

٢-٢) ص ٨٤-٨٥



يشير دعاء الامام على عليه السلام حيث يناجى ربه قائلاً: «فباليقين أقطع صادقاً لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، و قضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً و سلاماً، و ما كان لأحد فيها مقراً و لا مقاماً، لكنك تقدست أسماؤك أقسمت أن تملأها من الكافرين من الجنّة و الناس أجمعين، و أن تخلد فيها المعاندين، و أنت جلّ ثناؤك قلت مبتدئاً و تطولت بالانعام متكرماً، أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» (١).

[٣٠] رابعاً: و أخيراً يثير القرآن فى أذهاننا و بصوره غير مباشره تساؤلاً هاماً و هو لماذا خلق الله النار؟ هل خلقها عبثاً و كيف يصدر منه ذلك و هو الحكيم الخبير. و قد قال فى كتابه: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينِ \* لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ \* بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» (٢)؟! إذن ما هو هدف خلق النار؟ و الجواب واضح نجده فى كثير من آيات القرآن ألا و هو مجازاه العاصين لله، كما إن الجنة خلقت لاكرام المطيعين.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ و هذه الآيه و آيات أخرى فى القرآن تفند ما ذهب اليه البعض من انه لا يوجد عذاب عند الله و عللوا ذلك بأنه عزّ و جلّ رؤف خلق عباده ليرحمهم لا ليعذبهم، و من هذا المنطلق راحوا يؤولون الآيات التى جاءت بصدد التحذير و الوعيد بأنها لمجرد التخويف حتى يطيع الناس ربهم، و إلا فهى لا واقع لها.

ص: ٤٨٤

١-١) مفاتيح الجنان/دعاء كميل/طبعه دار إحياء التراث العربى المخطوطه/ص ٦٦.

٢-٢) الأنبياء ١٦-١٨

اشاره

وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوْابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَيَلًا مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٤٢) إِذَا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

اللغة

(٣٢) أَوْابٍ: من آب بمعنى رجع، أى كثير الرجوع إلى الله بالتوبه و التذکر.

(٣٦) فَتَقَبَّلُوا: كأن دخولهم فى البلاد تنقيب، لأنهم كانوا يفحصون عن مواضع الثروه و النزاهه، كالمنقب الذى يخرق و يثقب الأرض طلبا للمال و الكنز.

(٣٨) لُغُوبٌ: تعبٌ وإعياءٌ.

(٤٤) سِرَاعاً: أى مسرعين لما يصيبهم من الهول و الوحشه.

ص: ٤٨٦

هدى من الآيات:

لا- تزال الآيات القرآنية تعالج العجب الذى اعترى الكفار من حديث البعث، و هى فى هذا الدرس تصوّر لنا بعض مشاهد القيامة، لنكشف لنا جانبا من أسرار النشأة الأخرى التى لا وسيله للتعرف عليها إلا من خلال القرآن لكن الهدف الأهم من ذلك لهذا اللون من الحديث هو التربيّه، ذلك أنه لو ترك الإنسان الحجب الشهوانية، و الاجتماعيه، و التربويه، و الوراثيه، لرأى الحقيقه بوضوح تام، لأن هذه الحجب و الأغلال هى التى تمنع عقله من الانطلاق فى آفاق الايمان و المعرفه.

و لكن كيف يقتحم البشر هذه العقبات، و ينفذ بعقله إلى ما ورائها عن الحقائق؟ إن ذلك لا يمكن إلا بهزه عنيفه تتعرض لها نفسه، فتسقط عنها أستارها و من شأن الآيات القرآنيه بحديثها عن مشاهد القيامة السلبيه و الايجابيه، و بالاسلوب البلاغى و النفسى الرائع أن تحدث هذه الهزه.

إن مجرد سماع الإنسان حديث القيامة يكفي أن يبعثه نحو التفكير، وإذا فكر تفكيراً سليماً اهتدى إلى الحقيقة، ونضرب على هذه الفكرة مثلاً فنقول: لو كان شخص يسير باتجاه حفرة في طريقه، فإن مخاطبته بكلمة انتبه وحدها، حري بأن يرفع عنه الغفلة و يوقظ عقله و حواسه، فيكتشفها دون أن يحتاج الأمر إلى بيان مفصل. و هكذا لو كنت في سيارة تسير بسرعة و قد غفل سائقها في حين اعترضته سيارة أخرى، فإن رفع الغفلة عنه قد لا يحتاج إلا إلى كلمة واحدة ليضغط على الفرامل. و هكذا القرآن يهز ضمير الإنسان لينتبه من غفلته، و يستثير عقله في مسيره الحياه ليفكر فيهدى للحق، لأن مشكلته الأساسية أنه لا ينتفع بعقله.

ثم إن القرآن جاء ليحقق هدفين هما: تزكيه نفس الإنسان بهدأيته إلى الحق و دفعه للالتزام به في كل جوانب الحياه، كما جاء ليزيده علماً بالحقائق من حوله و في نفسه «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (١) لذلك فالآيات كلها تنتهي إلى أحد هذين الهدفين أو إليهما جميعاً في موضع واحد، و من هنا ينبغي لنا أن نقرأها مره للتعلم و مره للاتعاظ.

### بينات من الآيات:

[٣١] إن الله لم يخلق و لا شبرا واحدا من النار عبثاً، إنما ليتعذب فيه واحد من المجرمين، و لم يخلق الجنة إلا ليكرم بها فريقاً من عباده هم المتقون، و ليس يفصل بين الجنة أو النار و بين أى واحد منا إلا عمله، فان شاء نقلته سكره الموت إلى غضب الله و عذابه، و إن صلح نقلته إلى رضوان الله و ثوابه. و الإنسان حرّ في عمله فاما يختار الضلال (الكفر و الفساد و منع الخير و الاعتداء على الآخرين و الارتياب في

ص: ٤٨٨

الحق) فيكون مصيره النار، واما يختار التقوى (الأوبه إلى الله، و حفظ حدوده و أحكامه، و خشيته بالغيب، و تصفيه القلب من الأدران بالانابه و التوبه) فيكون مصيره الجنة.

وَ أُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَ نَسَاءَلُ كَيْفَ تَزَلِفُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ؟ وَ الْجَوَابُ إِنَّ لِهَذِهِ الْآيَةِ تَفْسِيرَيْنِ:

الأول: إن الجنة بما فيها من نعيم و رضوان من الله منزله رفيعه، و مهما سعى الإنسان و بالغ في عمل الصالحات فإنه لا يرتقى إليها بعمله وحده، و إنما يقرب به منها أو يقربها منه فضل الله و رحمته،

قال النبي صلى الله عليه و آله : «و الذى نفسى بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله، قالوا: و لا أنت يا رسول الله؟! قال: و لا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمه منه و فضل» (و وضع يده على فوق رأسه و طوّل بها صوته) (١).

و حين يدخل المؤمنون الجنة تتبين لهم هذه الحقيقه كما أدركوها ببصيره الوحي فى الدنيا، فهم يعتبرون نجاتهم من العذاب بفضل الله و منه لا بعملهم «قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين \* فمن الله علينا و وقانا عذاب السموم \* إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم» (٢).

الثانى: إن الجنة قمه سامقه لا يصلها الإنسان حتى يتصف بما يجعله لائقا لها، فهى بعيده كل البعد على الكافرين و العاصين، و لكنها أقرب ما تكون إلى المؤمنين و المطيعين، و أن الذى يقربها أو يبعدها إنما هو مقدار عمل الإنسان و مجمل صفاته

ص: ٤٨٩

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٧ ص ١١

٢- ٢) الطور ٢٤-٢٨

الإيمانية التي نقرأها في الآيات التالية.

و هذا التفسير لا يتعارض مع التفسير السابق بل يلتقى معه و ينتهى اليه، فرحمه الله التى هى العامل الأساسى و المباشر فى الدخول إلى الجنة، ولكنها لا تشمل أحدا بلا سبب، بل لا بد أن يكون هو فى مستوى استيعاب الرحمة.

و لان من عقد البشر النفسية استعجال النتائج فتراه يكفر بالآخره و لا يسعى للجنة سعيها لأنها فى نظره جزاء بعيد، فقد أكد القرآن على الجنة:

غَيْرَ بَعِيدٍ [٣٢] و لكن ما هى الأعمال و الصفات التى تقربنا إلى الجنة؟ إن جميع الاعتبارات الشئيه تسقط يوم القيامة، و تبقى القيم و الأعمال الصالحة هى الميزان. فلا يقرب أحد من ربه لسانه العربى، و لا لونه الأبيض و لا نسبه الشريف، و إنما تنفعه الحقائق التالية:

آ- الإياب إلى الله و الإياب يعنى لغه الرجعه، قال تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا\* لِلطَّاغِينَ مَابًا» (١) و قال حاكيا عن سليمان عليه السلام: «و الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهْ أَوَابٌ» (٢) و تسمى التوبه أوبه لأنها عوده إلى الفطره السليمه بعد الانحراف عنها قال تعالى: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غُفُورًا» (٣).

إن الناس كلهم خطأون ينحرفون عن الحق إلى الباطل فى حياتهم عنادا، أو

ص: ٤٩٠

١- (١) النبأ ٢١-٢٢

٢- (٢) ص ١٩

٣- (٣) الإسراء ٢٥

بسبب الضغوط أو حتى من دون شعور و لكن المؤمن يتميز عن الآخرين بأنه أولاً لا يمارس الانحراف عن جحود و عناد، و ثانياً بأنه لا يستمر على الخطأ بل يسعى لتصحيحه و علاجه في أقرب فرصه ممكنه، فإذا به يستغفر بعد الذنب، و ينتبه بعد الغفله، و يستقيم بعد الانحراف، و يتذكر بعد الجهل، فكلما أبعدته ذنوبه عن الله تقرب اليه بالتوبه، و كلما استغفلته طبيعته المركوزه في الجهل تعينها ضغوط الحياه تذكر بآيات الله و استعان بإرادته الايمان على الإقلاع من الانحراف، فهو يبالح في التوبه إلى ربّه و يكرّرها حتى بالنسبه إلى الذنب الواحد، الذي يتوب عنه ثم يعود إليه ثانيه و ثالثه، دون أن يدع اليأس يسيطر عليه، لإيمانه برحمه الله الواسعه و غفرانه و لماذا يقنط، اليأس من صفات الكافرين؟ و لماذا يئأس و هو يسمع نداء ربّه في كتابه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١) أو قوله عزّ و جلّ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٢) فالؤمن يرى مجرد غفلته عن ربه ابتعاداً عنه فيثوب اليه مآباً، فهو دائم الأوب و دائم التسامى و دائم العروج إلى الله بتأنيب الذات.

ب- المحافظه على حدود الله، (مناهجه و شرائعه) في الحياه الفرديه و الاجتماعيه بجميع أبعادها، فإذا بك ترى الحق يتجلى في كل حر كاته و سكناته.

فهو كما

وصفه الامام على عليه السلام إذ قال: «قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه، و تصيير كل فرع إلى أصله... قد أخلص لله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، و أوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه، يصف الحق و يعمل به، لا يدع للخير غايه إلا أمها، و لا مظنه إلا قصدها، قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده و إمامه، يحل

ص: ٤٩١

١- ١) الزمر ٥٣/

٢- ٢) الحجر ٥٦/



حيث حلّ ثقله، و ينزل حيث كان منزله» (١) فلا يضيع لديه حكم سنّه الله، ولا حق لأحد، فعهد الله له بالاستقامه على الحق محفوظ، يصدق مع الناس ولا يغش، ويرعى الامانه و..... «وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (٢).

إن المتقين يعتبرون أنفسهم شهداء في تطبيق النظام الاسلامى، و حدود الشريعة المقدسه. لذلك فهم لا يعطون لأنفسهم الحق فى تغيير الحدود الدينيه بتبرير أنهم ثوار و مجاهدون، بل إنك تراهم يلتزمون قبل غيرهم بتفاصيل المناهج التى بينها لهم ربهم سبحانه، و لذلك فان الله يعدهم برحمه منه واسعه، و يبدو ان القرآن يشير إلى هذين الأساسين للتقوى بقوله سبحانه:

هَذَا مَا تُوَعِّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ [٣٣] و تسأل متى يثوب الإنسان الى الله و يحفظ حدوده؟ و الجواب حينما يخشاه بالحق، و ذلك ان الإنسان قد يظهر أمارات الخوف لأهداف و مصالح دنيويه يرومها، إلا أنها لا واقع لها، و الخائف الصادق من الله هو الذى يخشاه حينما يكون بعيدا عن الأنظار، فاذا به وقد تهيأت له أسباب المعصيه يقاوم شهوته و يتركها إيمانا منه برقابه الله التى هى فى نظره أهم من أية رقابه أخرى.

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ الْإِسْلَامَ يَسْعَى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ لَزْرَعِ الْوِازِعِ الدِّينِيِّ - الخوف من الله - فى نفوس أتباعه كضمانه للالتزام بأنظمته و أحكامه، ذلك ان أثر هذا الدافع أبلغ من سائر الروادع.

ص: ٤٩٢

١- (١) نهج/خ ٨٧ ص ١١٨

٢- (٢) التوبه ١١٢/

وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ وَ تَشِيرُ كَلِمَهُ جَاءَ إِلَى شَرْطِ الْجَنَّةِ الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى لِقَاءِ اللَّهِ (المجىء له بقلب طاهر سليم).

[٣٤] و إذا أحرز الإنسان هذه الصفات صار فى زمرة المتقين الذين يدخلون الجنة بسلام.

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ الإنسان فى الدنيا لا يصل إلى ما يريد إلا بالجهد و التضحية، ثم إن أجله محدود فيها مما يجعل لذته بنعمها قصيره على خلاف الجنة، فان ما يحصل منها لا تعب فيه و لا لغوب و لا صراع و لا منافسه و لا يورث مرضا أو غصه، بينما الدنيا بعكس ذلك تماما (لا سلام فيها) بل هى قائمه على أساس الفساد فلا ينال المرء فيها نعمه إلا يترك أخرى، و لا يتمتع بلذته إلا و تسبب له منغصه، و لا يستقبل يوما من عمره إلا بوداع يوم من أجله حتى قال الشاعر:

زيادة المرء فى دنياه نقصان و ربحه غير محض الخير خسران

[٣٥] و من الفوارق بين الدنيا و الجنة، ان الإنسان مهما بلغ من التمكن و القدره فى الدنيا لا- يصل إلى كل أهدافه و أمانيه، بل يقصر عن تحقيق الكثير منها، على عكس ما فى الجنة التى يتحقق له فيها ما يريد بمجرد أن ينوى ذلك، بل و يزيده الله من فضله ساعه بعد ساعه.

لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ

ص: ٤٩٣

قال الامام الصادق عليه السلام : إن لله كرامه فى عباده المؤمنين فى كل يوم جمعه، فاذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكا معه حلتان فينتهى إلى باب الجنة فيقول: استأذنوا إلى على فلان، فيقال له: هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه: أى شىء تريد عليّ أحسن؟ (١) فيقولن: يا سيدنا و الذى أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا، قد بعث إليك ربك فيتزر بواحد و يتعطف بالأخرى، فلا يمر بشىء إلا أضاء له حتى ينتهى إلى الموعد، فاذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك و تعالى، فاذا نظروا إليه أى إلى رحمته خروا سجدا، فيقول: عبادى! ارفعوا رؤوسكم ليس هذا يوم سجود و لا عباده، قد رفعت عنكم المؤونه، فيقولون: يا رب و أى شىء أفضل مما أعطيتنا؟ أعطيتنا الجنة، فيقول: لكم مثل ما فى أيديكم سبعين ضعفا، فيرجع المؤمن فى كل جمعه بسبعين ضعفا مثل ما فى يديه، و هو قوله: «و لدينا مزيد» (٢).

[٣٦] ثم إن القرآن و ضمن علاجه للكفر بقدره الله على البعث- يدعو الكفار إلى التفكير فى آثار قدرته و هيمنته على الحياه من خلال قراءه التاريخ البشرى الملىء بالشواهد على ذلك، ليعلموا أن الحياه ليست عبثا، بل تسير وفق حكمه مقدره، فالأقوام السابقه إنما أهلكوا لتكذيبهم بالحق.

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ هَذِهِ سَنَّهُ جَارِيه فى الحياه لا- يعطلها شىء، و لا يمنعها البشر مهما أتوا من قدره، و لفظه أهلكنا مضافه إلى كلمه «كم» التى تفيد الاستفهام عن العدد، تنطويان على تأكيد بأن ما حدث فى التاريخ ليس مفرده جرت من باب الصدفة، و إنما هى ظاهره مستمره تدل على سنه حاكمه تلتقى فيها تلك الشواهد، و يتضح

ص: ٤٩٤

١-١) يستشيرهن فى أفضل ثيابه ليتزين بها عند لقاء رسول ربه.

٢-٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ١١٥

فيها الفعل الالهي المقصود. ثم إن بعض الأقوام و صلوا من القوه أكثر مما صار اليه المجتمع العربي يوم نزول القرآن، و لكن الله أهلكتهم فهل يتصورون على أنهم قادرون على دفع الهلاك إذا حلّ بساحتهم. و امتزاج الضمائر و الإشارات في هذه الآيه بين أولئك و هؤلاء يحمل طياته إنذارا للمشركين باهلاكهم بطريقه أو بأخرى إذا ما حذوا حذو السابقين، و لن يجدوا حينئذ مخرجا و لا سيلا إلى النجاه.

فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ و المحييص من حاص يحييص، و هو المكان الذي تحفره البطه لتضع فيه بيضها، و قد سعت تلك الأقوام ليجدوا لأنفسهم مخرجا و لو بمقدار المحييص فلم يقدرُوا، و وقع بهم العذاب.

[٣٧] و ما في التاريخ من دروس و عبر آيات تستثير عقل الإنسان و تهديه إلى الحق، و لكن بشرط أن يتجاوز الأغلال و الأثقال التي تمنع النفس من التحليق في سماء الهدايه و المعرفه، و تعيق العقل من العبور عبر الشواهد و الآيات إلى الحقائق.

إِنَّ فِي ذِكْرِكَ لَعْدُكُ لَمَذْكُورِي تستنقذ البشر من الغفله و الضلال، و تعود به إلى الحق الذي فطر عليه أن آيات الله سواء التي تتضمنها رسالته، أو تلك التي تتجلى في نفس الإنسان و في الآفاق، أو التي تجلت و لا- زالت تتجلى في تاريخ البشريه، إنها كلها تشع بأمواج الهدايه و التذكيره، و لكن من الذي تنفعه هذه الآيات فتكون له ذكرى في الحياه؟ انما صاحب القلب.

لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

يعنى العقل (الذى هو جوهر النفس) وإنما سميت النفس قلباً تقلبها من حال إلى حال أو بسبب تقلب المعلومات سعيًا وراء المعارف الجديدة.

و صاحب القلب هو الذى يقلب الأمور بتفكيره على وجوهها المتعدده ليتبع أحسنها بعد نظره عميقه شامله. يقول تعالى: «الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ» (١) ولعل المقصود لأولى القلوب هم العلماء الذين يفقهون معانى الآيات باستشاره عقولهم مما نجد له إشاره فى قوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» (٢)

قال الامام الكاظم عليه السلام :

يا هشام إن الله يقول فى كتابه: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَعْنِي عَقْلًا» (٣) ولا ريب ان أهل بيت العصمه و أئمه الهدى عليهم السلام أئمه العقلاء و الراسخين فى العلم فهم أجلى مصاديق هذه الآيه الكريمة و لا غرابه أن

يقول أمير المؤمنين عليه السلام : الأ- و انى مخصوص فى القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلوا فى دينكم، أنا ذو القلب، يقول الله عز و جل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» (٤).

و إذا لم يكن الإنسان عالما يستطيع التذكر و الاهتداء الى الحق بنفسه، فإنه يجد سبيلا إلى ذلك بالاستماع إلى آيات الله و اتباع أئمه الحق و الهدى و العلماء الصالحين.

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ

ص: ٤٩٦

١-١ (١) الزمر/١٨

٢-٢ (٢) آل عمران/٧

٣-٣ (٣) نور الثقلين/ج ٥ ص ١١٦

٤-٤ (٤) المصدر

إن المشكله الحقيقيه للإنسان الذى لا يهتدى ليست عدم وجود القلب أو السمع، وإنما هى توظيفه لهما، كما جوارحه و إمكاناته الأخرى فى الأمور السافله أو التافهه. يقول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (١).

و لوجود هذه المشكله يشترط القرآن على الإنسان شرطين حتى ينتفع بسمعه من كلام الآخرين و تجاربهم من آيات الذكر، فأولا أن يوظف سمعه «يلقى السمع» ثانيا أن لا يكون السمع بذاته هدفا فيقف الواحد عند الحروف أو عند حدود العلم، بل يعتبر السمع و سيله إلى هدف هو العمل بالحق، و الحروف و العلم طريقا إلى الموعظه. و بكلمه لا بد أن يكون مسئولا (شاهدا) على ما يصله من العلم، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ\* وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ\* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » (٢).

و قال مبينا هدف السمع و بعض الجوارح «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٣).

و يضرب القرآن مثلا للمستمع الشهيد من واقع المؤمنين الذين يذكرون الله على كل حال و فى كل حين فيقول حاكيا عنهم: «رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » (٤) إن السمع الذى لا يملك صاحبه الاستعداد لتحمل

ص: ٤٩٧

١- ١) الأعراف ١٧٩/

٢- ٢) الأنفال ٢٠-٢٢/

٣- ٣) النمل ٧٨/

٤- ٤) آل عمران ١٩٣/

مسئوليته لا ينفع شيئا، وما ذا يستفيد من سماع الحق ذلك الإنسان الذى يتهرب من مسئوليته بالتكبر أو التبرير أو الاستهزاء: «وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ \* يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُثَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» (١) وتجارب التاريخ البشرى تحمّلنا مسئوليته الايمان بالله فاذا لم يتجاوز سماع هذه التجارب الى الايمان فما قيمه سماعنا لها؟ [٣٨] و كما تتجلى آيات قدره الله فى التاريخ البشرى بصورة إهلا-ك الأقوام المكذبه، فانها تتجلى فى الطبيعه بصورة أخرى تتجسد فى الخلق و الإبداع و التفكير فى تلك الآيات هذه تفكير عميقا(بالقلب السليم و السمع الشهيد) كفىل بأن يجعل فكره البعث فكره واقعيه، و يدفع الإنسان للتصديق بالرجوع بعد الموت فلا تصبح الفكره عندها أمرا شاذا(عجيبا)، و لا البعث مستحيلا(بعيدا) كما يعتقد الكافرون.

دعنا ننظر نظره عميقه إلى الطبيعه من حولنا، و لنركز الفكر فى خلق الأرض التى تقلّنا، و السماء الواسعه التى تظّلنا، و لنتساءل أيها أعظم، هل خلقهما أم خلق الإنسان هذا الذى لا يكاد يبين بالقياس إليها؟ لا ريب أنهما أعظم خلقا و أعقد «لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (٢) و مع ذلك فان خلقهما و ما بينهما تم فى ستة أيام و لم يكن مضنيا.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ لَعَلْنَا نَتَسَاءَل لِمَاذَا لَمْ يَتِمَّ اللَّهُ ذَلِكَ الْخَلْقِ فِي مَدَّةِ أَمَلٍ؟ و ربما يذهب بعضنا إلى

ص: ٤٩٨

١- (١) الجاثية ٧-٩

٢- (٢) المؤمن ٥٧/

القول بأنه كان يتعب فيستريح كلاً.

وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَدَّةِ يَدَيْهِ يَتَلَوَّىٰ فِيهَا الْحِسَابَ الزمى، وإنما جعل الخلق فى ستة أيام لحكمه يعلمها، أنه أراد بيان حقيقه مهمه لنا، وهى ان كل شىء فى الحياه لم يخلق كاملاً منذ أول لحظه، وإنما هو يسير نحو التكاملى، و حتى أنت أيها الإنسان فى مسيره البناء الذاتى أو الحضارى ينبغى لك التحرك نحو الأسمى.

و ما دام الله خلق السماوات و الأرض و ما بينهما فى هذه المده و من دون أن يمسه شىء من التعب أو التكلف، فهل يصعب عليه بعثنا يوم القيامة؟ ما نحن بالنسبه لذلك الخلق حتى يصعب على مبتدعه خلقنا مره أخرى؟! «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاوَاتُ بَنَاهَا\* رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا\* وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا\* وَ الْأَرْضَ بَعِيدَ ذُرَاهَا\* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا\* وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا\* مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ - ثم مباشره يحدثنا عن يوم القيامة فيقول: - فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿١﴾ و الصله المختصه بين الحديث عن آيات الطبيعه و عظمتها، و الحديث عن يوم القيامة لاثبات فكره البعث من خلال تلك الآيات و العظمه صله صميمه تتجلى فى كل آيات القرآن.

[٣٩-٤٠] و يكاد قلب المؤمن يتفطر من تكذيب الكفار بحقيقه البعث و الجزاء التى يتلمسها المؤمن وراء كل ظاهره و فى كل أفق و فى كل لحظه من حياته، الأمر الذى قد يستدعى منحه زخه من الصبر.

ص: ٤٩٩



فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَ نَجِدْ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ تَوْجِيهًا مَشَابِهًا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ تَعَالَى: «وَ اصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا» (١).

وَ لَا بَدَ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى يَقَاوِمَ مَخْتَلِفَ الضُّغُوطِ الْمُضَادَّةِ لِلْحَقِّ مِنَ الْإِتِّصَالِ بِاللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَ الْعِبَادَةِ، لِيَتَعَرَفَ عَلَى رَبِّهِ أَكْثَرَ فَيَنْزِهُهُ عَنِ الْإِبْطَالِ، وَ لِيَسْتَمِدَّ مِنْهُ الْعَوْنُ وَ التَّوَكُّلَ لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى هُنَا:

وَ سَيَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ هَكَذَا يَقُولُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ وَصَلَاً بِالشَّاهِدِ الْمُتَقَدِّمِ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا\* وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا\* وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» (٢).

إِنَّ هَذَا التَّأَكِيدَ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِاللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَ الْقُرْآنِ وَ بِالِدُعَاءِ فِي حَالِ تَعَرُّضِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ لِلضُّغُوطِ الْمُضَادَّةِ هُوَ تَعْبِيرٌ بِصُورِهِ أُخْرَى عَمَّا تَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ «ق».

وَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يَفْسِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَانْنَا نَجِدُ تَفْسِيرًا لِلْعَلَاقَةِ بَيْنَ الصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ دَوْرَهُمَا فِي مَقَاوِمِ الضُّغُوطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» (٣).

ص: ٥٠٠

١-١) المزمّل ١٠/

٢-٢) الإسراء ٧٨-٨٠

٣-٣) البقره ٤٥/

و فى هذه السوره يدعو الله نبيه و من خلال ذلك المؤمنين عبر الزمن و الأجيال إلى الاتصال به بالصلاه و فى مرات عديده كل يوم.

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَعْنِي بَيْنَ الطُّلُوعَيْنِ، طُلُوعُ الْفَجْرِ وَ طُلُوعُ الشَّمْسِ، وَ تَسْبِيحُ اللَّهِ يَكُونُ بِالذِّكْرِ وَ بِالصَّلَاةِ وَ بِالْقُرْآنِ، وَ هُنَا تَأْكِيدَاتٌ عَدِيدَةٌ فِي النُّصُوصِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى ضَرُورَةِ اسْتِمَارِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِالاتِّصَالِ بِاللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» وَ

قال النبي الأعظم صلى الله عليه و آله :

«ما عَجَّتْ الأَرْضُ إلى رَبِّها كعَجْها من ثلاثه (إلى أن قال) و النوم عليها (يعنى الصلاة) قبل طلوع الشمس» (١) و

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «و اطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإنه أسرع فى طلب الرزق من الضرب فى الأرض، و هى الساعه التى يقسم الله فيها الرزق بين عباده» (٢) و

سئل الصادق عليه السلام عن الآيه فقال: «تقول حين تصبح و حين تمسى عشر مرات، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، و هو على كل شىء قدير» (٣).

و هكذا ينبغى أن يفتح الإنسان المؤمن يومه الجديد بالذكر و الصلاه و القرآن، يستمد من كل ذلك زخما روحيا يزيده نشاطا فى عمله، و إرادته يتحدى بها شبّهات الكفار و أضاليلهم، و كل الضغوط التى يواجهها فى حياته اليومية، و لأن الإنسان قد يتعرض لتحدى الضغوط، و ربما ضعف أمامها أكثر من مره فى اليوم الواحد، لذلك تأتى الدعوه اليه فى طرفى النهار و طرفى الليل.

ص: ٥٠١

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ١١٨

٢- ٢) المصدر

٣- ٣) المصدر

وَقَبْلَ الْغُرُوبِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ يَعْنِي أَوَّلَهُ حَيْثُ صَلَاةُ الْمَغْرَبِ وَالْعِشَاءِ.

وَ أَذْبَارَ السُّجُودِ يَعْنِي النَّافِلَةَ الَّتِي تَعْقِبُ صَلَاةَ الْمَغْرَبِ (الرَّابِعُ أَوْ الْغَفِيلَةُ)

قَالَ الْإِمَامُ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الْمَغْرَبِ» (١) وَ

قَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«رَكَعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ هُمَا أَذْبَارُ السُّجُودِ» (٢).

[٤٢-٤١] وَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الصَّبْرِ وَ التَّسْبِيحِ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ لِكَيْ يَقَاوِمَ تَحْدِيثَاتِ الْأَعْدَاءِ أَنْ يَفْكَرَ فِي الْآخِرَةِ وَ فِي الْمَصِيرِ الَّذِي يَنْتَهَوْنَ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا حِينَمَا يَظْهَرُ الْمُؤْمِنُونَ بِدَوْلِهِ الْحَقِّ.

وَ اسْتَمِعَ يَوْمَ يَدَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ \* يَوْمَ يَسِيْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذِيكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ قَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ (رَضِيَ): «يُنَادِي الْمُنَادِي بِاسْمِ الْقَائِمِ وَ اسْمِ أَبِيهِ» وَ عَنِ الصَّيْحَةِ قَالَ: «صَيْحَةُ الْقَائِمِ مِنَ السَّمَاءِ» (٣) إِنَّ الْعَاقِبَةَ السُّوِّءَ الَّتِي تَنْتَظِرُ أَعْدَاءَ الرِّسَالَةِ تَكُونُ فِي الْآخِرَةِ مُتَجَسِّدَةً فِي أَلْوَانِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ، وَ لَكِنِهَا تَتَجَلَّى دُنْيَا فِي

ص: ٥٠٢

١-١) المصدر

٢-٢) المصدر

٣-٣) المصدر

دوله الحق التى يظهر بها قائم أهل البيت عليهم السلام.

و كما ان دوله القائم (عج) هى تجل أصغر لعذاب الآخره على الظلمه، فان دول الحق الاخرى التى تظهر على أيدي المؤمنين هى تجل محدود لهذه الدوله، و الى هذه الفكره نجد إشاره فى قوله تعالى: «فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ» \* يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ \* وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ « (١) و لعل كلمه الخروج فى الآيه التى نحن بصدد تفسيرها تعنى -بالاضافه إلى الخروج إلى البعث- خروج دوله الحق.

[٤٣] ثم يعود السياق الى تأكيد الحقيقه التى يكذب بها الكافرون فكانت سببا لانحرافات بعينه اخرى فى حياتهم، و هى البعث بعد الموت، و قد تقدمت الاشاره إليها فى قوله تعالى، حاكيا عن الكفار: «إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» (٢).

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ بلى. قد تكون هناك أسبابا طبيعیه ظاهريه للحياه و الموت، و لكن الواقع الذى يغيب عن أذهاننا إنهما و البعث بيد الله، و هذه الحقائق الثلاث (الحياه+الموت+البعث) تثبت بعضها بعضا. و لو أن الكافرين تفكروا فى وجودهم و حياتهم لاهتدوا إلى أن الله هو الذى أوجدهم و أنه الذى يميتهم و أنهم يبعثون، و ليس كما زعموا:

«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (٣).

ص: ٥٠٣

١- ١) الطور ٤٥-٤٧

٢- ٢) ق ٣

٣- ٣) الجاثية ٢٤

[٤٤] إن مشكله الإنسان العميقه التي تجعله يكفر بالبعث أو يشك في الآخره، هي شكه في قدره الله، بسبب نظرتة المحدوده إلى الحياه، فاذا به يستبعد كما في هذه السوره أن يرجع الإنسان سويا بعد تحوله إلى تراب أو رميم من العظام لذلك يؤكد الله يسر الأمر عليه فيقول:

يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرًّا عَاذًا ذَلِكُمْ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ كما تشقق عن الفطر و النبات، و لكن العمليه تتم في فتره زمنيّه و وجيزه جدا، فاذا بالناس جميعا و قوف ينظرون، و هذه من أصعب الساعات على البشر،

قال الامام على عليه السلام: «أشد ساعات ابن آدم ثلاث (منها) الساعه التي يقوم فيها من القبر» (١) و

قال: «لا تنشق الأرض عن أحد يوم القيامة إلا و ملكان آخذان بضبعه (عضده) يقولان: أجب رب العزه» (٢).

[٤٥] و يختم الله السوره بالتأكيد للنبيّ - و لكل داعيه إلى الحق - بأنه ليس مسئولا عن الناس و ليس عليه أن يجبر الناس على قبول الحق، و إنما مسئوليته تتلخص في تبليغ رسالته إليهم، أما الحساب الفصل فهو عند الله، الذي هو أحرص على رسالته، و أعلم بمواقف الناس تجاهها.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ و ما هي قيمه الايمان الذي لا يأتي عن قناعه راسخه بضرورته؟ إنه لا ينفع صاحبه، و لا يخدم رسالته، و في هذه الآيه بيان لجانب من الحريره في دين الله.

ص: ٥٠٤

١-١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١١٩

٢-٢) المصدر / ص ١٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.



مركز  
الغمامة  
اصبحان  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

